رواية

الجزيرة الخضراء

أيام من حياة مدينة مصرية

محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)
إشراف: د. سهير المصادفة

«رواية» الجزيرة الخضراء
محمد عنانى

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : **محمود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د.سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

تصـــدير

تقع أحداث هذه الرواية فى عام ١٨١٦ م (١٢٣١/ ١٢٣٢ هـ) ، فى مدينة رشيد ، عند مصب النيل فى أقصى شمال مصر ، وتلتزم وقائعها بما رواه المعاصرون وسجلوه، وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، وما كتبه اللاحقون مثل على مبارك وعبد الرحمن الرافعى ، ثم أساتذة التاريخ الحديث ، على اختلاف مناهجهم ونظراتهم ، كما تستند الرواية إلى ما رواه بعض أحفاد من عاصروا تلك الحقبة ، وقد قابلت بعضهم أو قرأت ما كتبوه ، أو اطلعت على ما كانوا يروونه عن آبائهم وأجدادهم من قصص تحفظها ذاكرة رشيد ، ويرونها صادقة كل الصدق ، وإن كانت تخلط الواقع بالخيال ، وتصب فى مجرى التراث الشعبى (الفولكلور) ، وقد روى لى والدى الذى ولد فى مطلع القرن العشرين قسطًا من هذا التراث الذى انتهى إليه من هؤلاء ، وكان ذا ذاكرة نادرة ، كما روى لى فى طفولتى بعض المُعَمَّرين الذين ولدوا فى القرن التاسع عشر أطرافًا منه

ضَنَنْتُ بها وخشيت أن تضيع ، فأدخلتها فى الرواية حتى اختلطت فى النَّسْج بِسَدَاهُ ولُحمته ، وأردت أن أحفظها لأبناء القرن الحادى والعشرين الذين قد لا يرون فيها إلاّ الخيال الصِّرف . وربما يكون فى هذه الرواية من 'التاريخ الاجتماعى' أكثر مما قصدت إليه، فهى رواية خيالية بالمعنى الفنّى الحديث ، لكنّ 'المادة' الإنسانية لا تنفصل عن الزمان ، وأرجو أن أكون وُفّقت فى الحفاظ على التوازن الدقيق بينهما .

محمد عنانى

القاهرة – ٢٠٠٣

الفصل الأول

النـــذير

لم يكن فريد يتوقع حين غادر القاهرة فى فجر ذلك اليوم قاصداً بلده رشيد أن يواجه ما يقلب حياته رأساً على عقب ، أو أن يكون وداعه لأصدقائه فى الرَّبْع لقضاء عطلة قصيرة مع أهله فاتحة فراق طويل ، ولم يكن يخشى الرحلة فى ذاتها فلقد سبق له القيام بها مرات كثيرة ، ولم يكن يساوره القلق على شىء ما تركه فى غرفته ، فلقد عهد إلى صديقه بل خله الوفى (على الشامى) أن يتردد على الغرفة من وقت لآخر حتى يطمئن على أشيائه ، خصوصاً على كتبه التى اشتراها من قنصوه النساخ ، فالشامى - مثل كل الشوام الذين عرفهم - وفىّ وفاءً منقطع النظير ، وكان زملاؤه من المجاورين فى الأزهر يحبونه ، وهم كفيلون بصد أى غريب قد يتسلل إلى الربع ، بل بصد جند الأرناؤوط أنفسهم إن اقتربوا من باب حارة الربع ، فلدى كل منهم سلاحه ، وإذا نادى المنادى هبّ الجميع ، بل وشاركهم الأطفال والشيوخ فى التصدى لجنود الباشا أو للعسكر - كما كانوا يسمونهم - فمنعوهم من دخول الربع ، وكان

رجال رواق المغاربة أسبق الجميع إلى حمل السلاح . لكنه كان يوجس خيفة لم يدر مصدرها مما يخبئه الدهر ، فالزمن متقلب ، وكل يوم يأتى بجديد ، ولا يدرى إلا الله ما يأتى به الغد . ولذلك لم يتوقف لسانه عن ترديد بعض آيات الله التى كان تشيع فى نفسه الطمأنينة ، ولم يتوقف عن القراءة حتى بعد أن ركب العربة مع طلوع الشمس ، وجعلت خيولها تنهب الأرض نهبًا فى طريق الاسكندرية .

مرت العربة بقرى كثيرة ، وتوقفت عدة مرات ، للطعام أو للصلاة أو للراحة ، وحين وصلت إلى الاسكندرية سالمة أحس بالسكينة تشيع فى قلبه، فها هو قد قطع معظم الطريق إلى رشيد ، ولابد له أن يبيت الليلة فى الاسكندرية قبل استئناف السفر فى فجر اليوم التالى . وقصد منزل أحد أقربائه وقد خيم الظلام فاستقبله بترحاب وأكرم وفادته ، فتناول العشاء مع أفراد الأسرة وتجاذب معهم أطراف الحديث ، وسأله قريبه إن كانت العربة قد صادفت أى 'الأعراب' فى طريقها فأنكر فريد ، وجعل يقص على قريبه ما مر به من مشاهد والأماكن التى نزل بها ، ويجيب أسئلته عن الأحوال فى القاهرة ، وقريبه يحكى له عن أحوال الاسكندرية ومن حل بها من الأجانب ، ولم يكن فريد يعرف من الأجانب إلا الفرنسى صديق والده المقيم فى البرج – وهى منطقة مجاورة لبوغاز رشيد – وكان الفرنسى يفضلها لقربها من مرفأ السفن الكبيرة ، وقد أنشأ فيها وكالة شحن بحرى ضخمة يعمل بها ابن عم فريد ، وكان كثيرًا ما يحكى له عن غرائب ما يفعله ذلك الفرنسى ، وأما الأجانب الكثيرون الذين امتلأت بهم الاسكندرية منذ أن جاء الباشا إلى الحكم فقد كانت غرائبهم تفوق

الحصر وهم يختلفون الاختلاف كله عن الأجانب المقيمين فى رشيد فتطبعوا بطباع أهلها وذابوا فيهم ، واستمر السمر إلى ما بعد صلاة العشاء ، ثم أوى فريد إلى فراشه واستيقظ قبل أذان الفجر ، وبعد الصلاة وقبل أن تشرق الشمس اتجه وحده إلى 'موقف' عربات طريق رشيد ، فوضع الصرّة فى المكان المخصص للمتاع ، ولم تلبث العربة أن انطلقت بعد توافر العدد المطلوب ، وكانوا جميعًا من أبناء رشيد ويعرفون فريدًا أو سمعوا عنه ، وكان الجو شديد البرودة فانكمش كل واحد منهم فى مقعده ، وخلا بأفكاره لنفسه ، ومرت العربة بالضواحى الجديدة التى أنشأها الباشا وهى المنتزه والمعمورة ، وهى حدائق مزهرة مثمرة تروى بمياه الآبار ، وقيل إن الباشا يريد أن ينشئ ترعة جديدة فيمد منها الماء إلى هذه الضواحى ، وكانت العربة تسير مسرعة تنهب الأرض نهبًا ، ثم توقفت للمرة الأولى على جانب الطريق ، ونزل السائق فاستدار قائلاً للركاب إنه سوف يريح الخيول ساعة ويطعمها ويسقيها ، فلقد قطعت العربة نحو سبعة فراسخ ، فتجاوزت بذلك منتصف الطريق إلى رشيد ، كما أن أوان صلاة الظهر ، إذ انتعل كل شىء ظله ، ولهم أن يتيمّموا لأن قربة الماء التى يحملها مخصصة للشرب، ولم يستطع أن يحمل إلا إياها من الإسكندرية، وأشار بيده إلى الرمال وقال إن المكان يصلح للصلاة ، والمنطقة آمنة إذ لا يقيم 'العرب' فى هذه النواحى ، فأهلها من الصيادين الذين ينتهون من عملهم فى الضحى فيحملون الأسماك إلى السوق فى إدكو ، وفرح فريد عندما سمع ذكر إدكو التى ينسب إليها الشيخ الإدكاوى ، الشاعر الشهير ، لأن ذلك يشير برؤية البحيرة والمساحات الضحلة التى يستخرج منها الملح وتحلو رؤية السراب فيها، فقد رآها مرة

أو مرتين فى طفولته ، ولا يزال يذكر أن السراب كان يبدو ملونًا رائع الألوان ، وهو مشهد لا يراه إلا نادرًا فى القاهرة .

وهبط الجميع فتيمّموا وانتظروا السائق حتى يقيموا الصلاة ، وشُغل فريد بتحديد اتجاه القبلة ، وعندما لحق السائق بهم تبادلوا النظرات كأنما ليتساءلوا عمن يَؤمّ المصلين ، وقال السائق دون تردد "تفضل يا شيخ فريد ، فأنت أعلمنا ، تحفظ كتاب الله وتدرس فى الأزهر" ، ولكن فريدًا تردد ، فلقد كان بطبعه يخشى 'الرياسة' وإن أحبها ، ونظر فيمن حوله لكن همهمة الجميع كانت تؤكد انتدابه للإمامة ، على صغر سنه ، فلم يتجاوز العشرين إلا بشهور ، وما زال يلبس طاقية بيضاء مثل غيره من طلاب العلم ، وإذا بالسائق يدفعه بيده دفعًا رفيقًا إلى الأمام ، ويقول له فى نبرات خفيفة "أطِلْ إن شئت ففى الوقت متسع" . وجلس الجميع على الرمال بعد انتهاء الصلاة وهم يغمغمون بالأدعية ، وفريد يطيل النظر إلى السماء بعد أن شاهد قطع السحاب تتدافع من الغرب، ودعا الله فى نفسه ألا يهطل المطر فى أثناء الرحلة حتى لا تبطئ الخيول وتطول الرحلة .

وتجاذب الرجال أطراف الحديث ، ولم يكن يشغلهم آنذاك إلا أمر الطريق الجديد الذى عبّده الباشا (أو أمر بتعبيده) فَيَسَّرَ الترحال بالعربات ، وقال محمود النجار إنه اشترى من الإسكندرية آلات إفرنكية ستساعده فى صنع عربات توفر المزيد من الراحة للمسافرين ، بدلاً من الخضخضة فى العربات القديمة ، خصوصًا للحريم ، وقال إنه اشتراها من صديق رشيدى له يقيم فى حى الجمرك ، وهو الحى الذى امتلأ بأبناء

رشيد، وهم يعطفون على إخوانهم من أبناء بلدهم ، ويلتزمون بالسعر المحدد الذى يريح المشترى من عناء المساومة ، وضحك الشيخ عبيد قائلاً "مثل الإفرنج !" وضحك الجميع لضحكه ، واستمر الحوار وفريد غارق فى صمته ، فلديه سر لا يستطيع أن يفضى به إلى أحد ، وهو بطبعه كتوم ، مثل الكثيرين من أقرانه من المجاورين فى الأزهر ، وإن كان فى أعماقه يتمنى الإفصاح ، فهو يكاد ينوء بحمل ذلك السر ، ويحس أن الافضاء به سوف يخفف من العبء الذى يثقل نفسه ، لكنه يذكر دائمًا ما قاله له أبوه من أن السر سر ما دام فى قلبك ، فإذا جاوزه إلى لسانك فهو قول ، والقول ينتشر كالريح !

كان سره يكمن فى صورة عينين خضراوين واسعتين ، رآهما فى منزل الكاشف (حاكم رشيد) حين ذهب لتوصيل رسالة من والده التاجر إليه ، ولا يزال يذكر كيف تطلع فى دهشة إلى جمالهما ثم غَضَّ الطرف مسرعًا ، كشأنه حين يخاطب أى فتاة حتى ولو كانت صبية لم تبلغ مبلغ الشباب ، وأدرك ساعتها أنه شاهد ما لم يشاهد فى حياته ، وأحس بما لم يحسه من قبل ، وأن عليه أن يتكتم ذلك الإحساس ما عاش ، فليس لمثله أن يطمح إلى أمثالها ، ويعلم الله كم جاهد نفسه حتى يطمس هذا الإحساس، وكم حاول أن ينفى طيف العينين عن خياله ، ولكنهما كانا كالقدر ، يعتادانه فى منامه ويقظته ، يزيدان إشراق الشمس بهجة ، ويضفيان على غروبها حزنًا كالفرح ، وكان كثيرًا ما يسائل نفسه كيف لا يكتب فيهما شعرًا ، ثم يستعيذ بالله من وسوسة الشيطان الذى يلهيه عن دروسه بهذه المفاتن ، ويرسل له هذا الطيف الذى يكاد يحتل فكره

احتلالاً، ثم يلوذ بالصمت ، أو يرفع صوته بترديد الدرس الذى يجتهد فى حفظه كأنما ليطرد بأصوات الكلمات صور الخيال !

لم يكن فريد يعرف شيئًا عن صاحبة العينين ، ولم يكن يجرؤ حتى على السؤال عن أى شىء يتعلق بمنزل الكاشف ، ناهيك بالسؤال عن صاحبة العينين ، غير أنه يذكر أنه شاهد الكاشف ذات يوم فى أثناء صلاة الجمعة ، ومعه ولد له ، فرأى العينين الخضراوين تبرقان فى وجه الولد ، فخفق قلبه إذ حدس أن الفتاة لابد أن تكون أختًا له، ومعنى هذا – إذا صدق – أنه لا يحق له أن يواصل التفكير فيهما ، ولكن – ها هى السنون قد كرّت ولا تزال العينان تتوهجان فى الظلمة وفى النور ، ولا يزال وقد قارب الانتهاء من المرحلة العالية من دراسته فى الأزهر يراهما فى كل مكان ، بل إنه كان يتحيّن الفرص لزيارة رشيد، بذريعة رؤية أهله ، للاقتراب من مصدر هذا الإحساس الغلاّب الذى كان لا يفارقه إلا فى صلاته .

وانتبه فريد على صوت السائق وهو ينادى الرجال ، وقد ربط الخيول من جديد فى العربة ، فنهض بصعوبة كأنما كان قد تسمر فى مقعده على الرمال ، وهبت نسمة باردة من ناحية البحر فأنعشته وأنعشت الصحب ، وسمع الشيخ عبيد يقول كلامًا لم يوجهه لأحد ، وتساءل فى آخره : "هل لا نزال فى شهر طوبى !؟ هل اسمه طوبى أم طوبة ؟" وردّ محمود النجار بسرعة : يقولون "طوبة بلّل العرقوبة" وضحك الشيخ عبيد وسأل فريدًا عن صحة الاسم فقال فريد باقتضاب "طوبة" – فعاد الشيخ يسأل: "ولماذا نسميه طوبى فى رشيد ؟ وهل له اسم آخر فى مصر

(يعنى القاهرة) أم ماذا ؟" وقال فريد إنه يقابل يناير ولكنه يتقدم عنه فنحن فى الواقع فى أمشير ، فقال محمود النجار "أمشير أبو الزعابيب كتير !" وضحك فريد لأول مرة فى أثناء الرحلة وقال "وهذا يعنى العواصف والأمطار !" وعاد الشيخ إلى التساؤل عن الشهور القبطية والإفرنكية وفريد يجيبه استنادًا إلى ما تعلمه من أستاذه إبراهيم الفلكى ، والعربة تسير مسرعة بجوار بحيرة إدكو ، وكاد فريد أن ينسى التطلع إلى السراب فى الملاّحات ، ولكن الحديث 'العلمى' خفف عنه عناء الرحلة ، بل إن الراكب الرابع شارك فى الحديث هو الآخر ، وإن كان كلامه ينحصر فى التساؤل ، فهو صياد أصل أسرته من 'شباس عمير' التى أصبحت تابعة لرشيد، ولذلك يسمونه الشباسى ، وقد كان يعمل بالصيد فى النيل فى قريته ، ثم دلّه أحدهم على أن الأسماك البحرية تتوافر فى رشيد فى الشتاء فكان يقضى نصف العام تقريبًا فيها ، ويعود إلى قريته مع بشائر الفيضان ، وبدت أسئلته ساذجة لفريد ، إذ سأله عن أسباب اقتصار ظهور جِنِّيَّة البحر (والناس يسمونها 'عروس البحر') على فصل الشتاء ، وألح فى السؤال عن أماكن اختفائها عندما 'يأتى النيل' – أى فى موسم الفيضان – ولكن فريدًا لم يشأ إحراجه برفض هذه الأقوال كلها، فهو يعرف أنها دوامة بحرية تنشأ من اندفاع مياه البحر المالح فى مصب النيل أيام التحاريق ودورتها عند انحناءة النهر أمام مسجد 'البواب' الشهير ، لكنه تمتم فى صوت خفيض "الله أعلم !" وعاد عباس الشباسى يقول بصوت حزين : "لقد اختطفت عبد السميع أبو عجلة من بين أيدينا فى العام الماضى ، ولقد زارنى فى المنام وحدثنى عن حياته معها فى الماء" – وتوجه إلى فريد بسؤال محدد هذه المرة قائلاً : "أتظن

أنه يستطيع الإفلات منها والعودة إلينا ؟" وكاد فريد أن يضحك لكنه تمالك نفسه وقال من جديد "الله أعلم !" .

ومرت العربة بجوار 'الطرح' وهى قرية يتفرع منها طريق 'الحماد' حيث وقعت المعركة الشهيرة التى هزم فيها رجال رشيد جنود الحملة الانجليزية منذ تسع سنوات ، وتوقفت العربة للمرة الثانية ، وكان السبب هذه المرة أن السائق يخاف على خيوله التى تقدمت فى السّنّ ، ويريد لها أكبر قدر من الراحة والتزود بالماء ، والواقع أنها لا تحتاج إلى ماء كثير فى الشتاء ، وكان عليه أن يملأ القربة من 'سبيل' الماء العذب ، وإن لم يكن يريد التوقف طويلاً لأن وجه السماء قد اكفهر ، وكان يخشى المطر والبلل ، فالطرق تصبح غير مأمونة ، وقد ينتهز بعض اللصوص الفرصة للهجوم على المركبة ، على الرغم من ندرة حدوث ذلك بعد أن نشر الباشا جنوده فى المنطقة ، فمنع 'العرب' من التسلل إلى القرى المتاخمة لرشيد أو القريبة منها ، وبعد أن أمسك بالعصابات التى كانت تحترف قطع الطرق وأمر بقتل رؤسائها ، ولكن ذكريات الماضى القريب كانت لا تزال تقلقه ، ومن ثم فلم تنقض ساعة أو بعض حتى استأنفت العربة المسير وقد اختفى لون الرمال وحل محله لون المزارع على الجانبين ، ولاحظ السائق أن الطريق لا يزال مبتلاً فى بعض المناطق ، وتتناثر فيه البرك الضحلة ، فحدس أن ذلك كان بسبب مطر غزير هطل فى الصباح أو فى الليلة البارحة ، وزاد تلبد الغيوم فى السماء ، فزاد من سرعة المسير ، خصوصًا بعد أن لاحت ترعة رشيد القصيرة ، المتفرعة من عند إدفينا ، والتى أمر الباشا بشقها وانتهى العمل فيها بجهود أبناء البلد وبسواعدهم

قبل شهور معدودة ، وتملك الركب فرح غامر لرؤية الترعة ، فهى بشير الوصول بالسلامة ، وكان اللون الأخضر يثير فى قلب فريد مشاعر غامضة لازمته طول حياته ، وأحيانًا ما كان يسأل نفسه هل أحب العينين بسبب خضرتهما أم أحب الخضرة بسبب العينين ؟ وأخيرًا دخلت العربة طريق رشيد ، وكان الباب الضخم فى المدخل الغربى (والوحيد) للسور مفتوحًا ، فهنأ الركب بعضهم البعض بسلامة الوصول .

٢

وصلت العربة إلى 'الموقف' القريب من شاطئ النيل، فأوقف السائق الخيول وهبط الرجال ، وحمل كل متاعه ودفع أجر الرحلة للسائق ، وتفرق الجميع ، وكان شاطئ النيل يلوح على البعد فيغرى بالمشاهدة ، ولم يستطع فريد أن يقاوم الإغراء ، فترك متاعه لدى السائق واتجه إلى نخلة من النخيل المنتشرة على الشاطئ فوقف إلى جوارها يرنو إلى الشاطئ الآخر ، الذى يسمونه 'البر التانى' ، ويتأمل القرى المنتشرة فيه ، وكانت أشعة الشمس تسطع عليها وتنحسر حين يزحف الغمام من الغرب ، ولكن الخضرة كانت دائمًا غلابة فشعر بخفق غريب فى قلبه ، فالطريق على جانب النهر يؤدى إلى منزل الكاشف بالقرب من برج رشيد ، وكانت ذكرى رؤية العينين الخضراوين لا تزال تشغله ، وبدت صفحة المياه خضراء ، خصوصًا حين يُظلّها الغمام ، وكان اخضرارها يزيد من خفق قلبه ، ترى كم بلغ عمر صاحبة العينين الآن ؟ لقد رآها منذ عدة أعوام ، عشية انتهائه من المعهد الدينى فى الاسكندرية ، وقبيل انتقاله إلى القاهرة ،

وكانت لا تزال صبية سافرة لم تحتجب بعد (أى تُمنع من مغادرة المنزل) وأذهلته خصلاتها الذهبية ، وذلك البريق العجيب الذى يشع من عينيها ، ولون بشرتها الناصع ، وكان كثيراً ما يسمع عن الروميات وجمالهن ، ويتساءل إذا ما كانت تلك الفتاة التى لم يعرف لها اسماً رومية ، وكان يتحيّن الفرص لمعرفة اسمها ، فهى لا شك ابنة الكاشف نفسه ، ولا شك أن إحدى نساء الأسرة تعرف اسمها ، وكان أحياناً يصور لنفسه مشهداً تتجاذب فيه نظيرة 'الدلاّلة' أطراف الحديث مع والدته فتذكر لها اسم ابنة الكاشف ، ثم يتحسر على أن ذلك لم يعد ممكناً بعد أن ابتعد عن رشيد طيلة هذه السنوات ، كبر فيها ، واشتد عوده ، وكبرت هى أيضاً ، وأصبح من المحال عليه أن يراها بالسهولة التى رآها بها فى مطلع صباه ، وانتقل به سيال الفكر وهو واقف يطيل التأمل فى صفحة الماء إلى أهله ، فتذكر أخته وكيف كبرت هى الأخرى ، فانتبه إلى أنه لابد أن يعود إلى المنزل فربما جاء المساء بالغمام المطير ، ومن ثم استدار وعاد إلى السائق فأخذ متاعه وعاد إلى المنزل من طريق السوق الذى يتوسط البلدة ، ملقياً بالتحية على كل من صادفه من المعارف ، حتى وصل إلى باب البيت الكبير ، وطرقه طرقاً رفيقاً ، وما لبثت أخته الصغيرة خديجة أن فتحت الباب وصاحت فرحة بعودته وصعدت الدرج قفزاً لتعلن على من فى البيت النبأ السعيد .

وعلم فريد من والدته حين ذهب لتقبيل يدها أن أباه لا يزال فى الوكالة ، فحط الرّحال فى غرفته ، وأخرج كتابه الذى حمله معه من القاهرة لاستكمال حفظه ، وقال فى نفسه إنه سيأخذه إلى خزانة الكتب

فى جامع 'سيدى على المحلّى' الذى يتوسط السوق ، فله ركن خاص فيه، وحارس الخزانة يحبه وسوف يحافظ على الكتاب ولا شك ، ووصلت إلى أذنه أصوات قعقعة كأنها هزيم رعد ناء فاتجه إلى الشباك 'البحرى' وجعل يتطلع إلى السماء التى تزداد غيومها ، وتكتسى فى الأفق الغربى لونًا أزرق ، فأدرك أن الناس بدأوا العودة إلى ديارهم تحسبًا للمطر ، وأرهف السمع كأنما يستطلع صوت الرعد ، وقد شده جمال الغيوم ، والهدوء المطلق الذى افتقده فى القاهرة ، ثم سمع أذان العصر ورأى أن الوقت لن يتسع للصلاة فى المسجد ، فتوجه إلى الزير الكبير الذى يتوسط بهو المنزل ، فملأ إناء يكفى لوضوئه ، وحمد الله على أن الماء ليس بالزمهرير الذى اعتاده فى القاهرة ، ثم بسط سجادته الصغيرة وانتوى صلاة العصر وقد شاع فى نفسه إحساس عميق بالطمأنينة .

لكنه ما أن يصل إلى الركعة الأخيرة حتى يسمع أصواتًا تشتت انتباهه ، فيسرع بالتحيات والتسليم ، ويُهرع إلى النافذة يستطلع النبأ ، فيسمع المنادى يطوف بالشوارع وهو يدق طبلة فى يده ، ويركز انتباهه حتى يلتقط الكلمات فلا يستطيع ، فيجرى إلى سطح البيت لينظر ما تقول المآذن ، فتسرع دقات قلبه حين يرى الراية الحمراء مرفوعة فوق مئذنة مسجد زغلول ، وهى نذير الخطر، وينظر إلى المآذن الأخرى - الأقصر - فإذا بها تتعاقب فى رفع الرايات الحمراء ، فيهبط مسرعًا ، ويلقى التحية على عجل على من فى المنزل ثم يخرج باحثًا عن المنادى ، ويدركه فى أول شارع السوق ، فإذا به يدعو الجميع إلى الاختباء فى البيوت ، ويعلن إغلاق باب رشيد الغربى ، وهو الباب الذى مرّ منه منذ قليل ، والذى

يتوسط السور الذى أقامه الشيخ أبو النور منذ عشرين عامًا ، وشارك فى بنائه الجميع ، وهو يعرفه خير المعرفة ، بل إنه كان شاهدًا على تحصينه قبل رحيله إلى الأزهر ، ولا يزال يذكر رحيل الحامية القديمة وكانوا يسمونها الحامية الرومية، ووصول حامية جديدة رومية أيضًا وإن لم تعد تسمى كذلك ، ولم يكن قد 'ختم' القرآن بعد ، فكان يحلو له أن يسير مع صديقه 'أحمد القَزَق' خلف جِمال السقاية حتى الباب ، مخالفًا أباه الذى نهاه عن ذلك ، حتى يشهد رفع القِرَب بالحبال إلى أعلى السور ، وإنزالها فارغة ، وكانت أماكن إقامة عسكر الحامية فى غُرفهم أعلى السور تمثل لُغزًا لم يستطع حتى الآن له تفسيرًا ، وكان يرى 'الناضورجى' فى أعلى البرج الصغير فوق السور فيعجب لحدة بصره، ويتمنى فى أعماقه أن يصعد إلى موقعه فيشاهد – كما قيل – البحر الكبير ، أى البحر المالح إلى الغرب ، بسهولة ، ويبصر ميناء رشيد نفسه عند البوغاز فى أقصى الشمال ، وهو الذى يفصله فرسخان عن البلد .

ويظل المنادى يطوف بالشوارع، وفريد ينظر إلى الناس وهم يعودون فى عجلة إلى بيوتهم ، لكنه لا يعود إلى المنزل وقد نسى أن السماء تنذر بالمطر ، بل يتجه إلى شارع السوق الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب وسط البلدة بحذاء النيل ، ويقصد بقعة معينة توقع أن يجد فيها بعض العارفين ببواطن الأمور ، وهى مكان فسيح مسقوف يقع بجوار سور كنيسة الأروام الكبيرة حيث الحديقة الغناء التى يقيم فيها 'الجناينى' الذى يلبس ملابس الرهبان ، وتصدح فيها الطيور فى الربيع والصيف ، ويطلّ على 'الوكالة' التى خلت فى هذا الوقت من كل شىء ، ولا يلبث أن

يجد الناس وهى تتجمع ، فيسرع الخطى كى يستمع إلى ما لابد أن يرويه الحاج شبابو ، وهو شيخ من كبار تجار البلد وأعيانها ، ويصح ما توقعه فريد ، فيحشر نفسه حشرًا بين الجموع حتى يصل إلى مجلس الحاج شبابو ، لكنه يجد صعوبة بالغة فى الوصول إلى ذلك المجلس فيعتلى حجرًا كبيرًا على جانب الطريق ، ويفرح حين يلمح الحاج شبابو واقفًا يتكلم ، ويرهف السمع لمتابعة ما يقول ، لكن أذنه لا تلتقط إلا كلمات متناثرة ، فيسأل الواقفين إلى جواره ، ويفهم منهم أن 'العسكر وصلوا' فحسب ، فتزداد حيرته ، فيترك موقعه ويشق طريقه عَنْوَةً إلى الحاج شبابو حتى يقترب منه ويسمع خلاصة ما يروى ، وهى أن عسكر الباشا الأرناؤوط قد وصلوا إلى تلال أبى مندور ، وأنهم قد ضربوا خيامهم هناك، ولا يدرى أحد مقصدهم ، فلقد جاءوا دون إنذار ، ولم يكن لدى أحد علم بوصولهم ، وأن مراكبهم راسية فى النيل عند منحنى أبى مندور ، ولا تزال فيها المدافع و'الميرة' ، وقد يريدون سوءًا بالبلد ، ومن ثم فلابد من مخاطبتهم ومعرفة ما يريدون . ويطلب الحاج شبابو من الكبار الاجتماع به فورًا فى مسجد 'المحلى' لمناقشة الأمر والنظر فيما يمكن أن يفعلوه .

وينصرف الناس فى وجل وهم يرددون 'لا حول ولا قوة إلا بالله' ويرفعون الدعاء لله بأن ينجيهم من المكاره ، ولكن فريدًا يتجه إلى المسجد مسرعًا ، ويتخذ مجلسه بجوار المنبر حتى لا تفوته كلمة من كلمات الحاج شبابو، ويسرع خلفه كبار رجال 'الصنايع' ، والتجار ، وعدد من الأزهريين الذين يرتدون لباسهم المميز (القفطان الجوخ والطاقية) وعندما يصل الحاج شبابو لا يصعد إلى المنبر بل يقف أمام المحراب ، ويتحدث

باقتضاب عن الأزمة الطارئة، ويقول إنه سمع من 'الطلائع' أن العسكر من الأرناؤوط ، ولكنهم قد يكونون أجانب ، وسمع أيضًا أن ابن الباشا نفسه معهم ، فلقد جاءته الأنباء بأن طوسون وإسماعيل قد رحلا على رأس عسكر إلى 'وجه بحري' ، وقد يكون أحدهما مع هذا العسكر ، فإذا صدق هذا فلن نخشى شيئًا ، ولكنه لا يزال يستريب بهذه 'الحركة' المفاجئة ، فربما تكون قوة غزو من الفرنسيس أو الانجليز ، وعلينا أن نستعد للدفاع عن رشيد ، فهي الوطن الذى ولدنا فيه ونموت فيه ، على نحو ما فعلنا عندما قهرنا الإنجليز منذ تسعة أعوام تقريبًا ، وعلينا إذن أن نستعد ، وندعو الله أن يأتى بالأمطار حتى تُربك معسكر الجند ، فتمنعهم من نقل أسلحتهم وميرتهم حتى الصباح – على الأقل – ريثما ننظم صفوفنا ويقرّ رأينا على ما نفعل .

ويجد فريد فى نفسه من الشجاعة ما يجعله يقف ليسأل : وما العمل الآن ؟ ويقول الحاج شبابو : أمامنا ساعة أو بعض ساعة حتى حلول الظلام ، فلنتطارح الرأى ، ولننظر ماذا نستطيع أن نفعل ، فهل نخاطب السيد 'أحمد أغا' – الكاشف – أم نخاطب رئيس الحامية ، رأسًا ؟ وهل نتخذ الأهبة للقتال فورًا ، فسوء الظن من حسن الفطن ، أم ننتظر حتى تنجلى الأمور فى الصباح ؟ وفجأة يقول أحد الحاضرين إنه يسمع بوقًا – ويرهف الباقون أسماعهم ، فإذا بصوت نفير يأتى متقطعًا كأنما تحمله الريح من مكان سحيق ، ويعجب الجميع لهذا النفير ، وتسرى الهمهمة فى صفوفهم ، ولكنها تتوقف عندما يعلو صوت حوافر فرس ، ويقترب الصوت ثم يتوقف ، وفى لمح البرق يدخل رجل فيلقى السلام لاهثا ويقول

للحاج شبابو إن رسولاً من العسكر وصل إلى باب رشيد الجنوبى ، وهو يطلب تنفيذ 'أمر' الكاشف (الحاكم) والحامية لا تريد أن تسمح له بالدخول ، وتتحول الهمهمة إلى لغط ، وتتداخل الأصوات فى المسجد ، والرسول واقف ينظر إلى الحاج شبابو وقد تعلقت به أنظار الكثيرين ، ولا تمضى ثوان حتى يصفّق الحاج شبابو فيصمت الجميع، فيقول فى حزم: لنمض إلى الكاشف لنستطلع هذا 'الأمر' ونرى ماذا يرى ، وليأت معى العلماء فقط (وكان يعنى بهم خريجى الأزهر) حتى يستمع الكاشف إلى قولنا ويصغى إلينا ، وقبل أن يصمت الحاج، ينهض فريد ويقول : أنا آت معك ! ما زلت أطلب العلم فى الأزهر لكنى قادر على الكلام ! ويقول الحاج باقتضاب 'فليكن' ، ويتجه الرجال ، وكانوا سبعة فقط ، نحو مربط الخيل المواجه للمسجد ، وفى دقائق تكون الخيل قد أُسرجت ، ويركب الرجال ويبدأون السير نحو شاطئ النيل ، متجهين شمالاً إلى أقصى حى 'بحرى' حيث قصر الكاشف .

كان الظلام قد بدأ يهبط، ولكن المصابيح المضاءة على الشاطئ تبدّد ظلمات الغسق، وكان فريد ثائر النفس ، يهمز جواده الذى يسير الهوينا فلا يستجيب له ، فالخيل تسير صفًا يتقدمه الحاج شبابو على فرسه 'الخاص' الأبيض ، المطهّم بأفخر وأندر ما يزين السروج ، وصفحة النيل ساجية نائمة ، والشجر على جانبها يكتسى مظهر الأشباح ، والطيور ترفرف عائدة إلى أوكارها وأصوات الكروان تخرق الصمت الذى يلف المساء ، وفريد قد نسى كل شىء إلا ما أتى به الزمان فعكر صفو عطلته، وتزاحمت فى رأسه صور 'الرَّبع' الذى يسكنه فى حى الأزهر ،

والمجاورين ، ورواق المغاربة ، وجنود الباشا ، واختلطت هذه الصور بصور مشاركته فى القتال ، وهو لم يبلغ الثانية عشرة ، ضد الانجليز الذين اندحروا فى رشيد ، وصور دروسه فى الأزهر وخلافه مع أستاذه حول فتح همزة 'إن' وجواز ذلك فى مقول القول إن كان القول يفيد الظن ، وتعنّت الأستاذ وإصراره على الالتزام بألفاظ ابن مالك ، وسخريته من ابن عقيل ، بل ومن الأشمونى ، إذ كيف نعرف إن كان القول يفيد الظن ؟ وقد تدافعت الصور كأنما لتشكل مزيجًا متنافرًا من المشاعر ، يبتعد به ، رغمًا عنه ، عما كان يشغله فى عصر اليوم نفسه ، ويتجاذبه فيهز وجدانه هزًا ، وكان وقع حوافر الخيل يصل إلى سمعه مثل نقرات الطبل الذى يسبق المعركة .

وفجأة برزت فى أعماقه صورة العينين الخضراوين ، ترى هل طلب مرافقة القوم آملاً أن يلمح صاحبتهما ؟ وأدهشه هذا الخاطر فاستبعده وعجب لنفسه كيف سمح لنفسه بأن يتصور ذلك ، فالفتاة كبرت وربما تكون قد تزوجت ، أى غادرت منزل أبيها ، وإن لم تكن فهى 'متحاشة' أى تحتجب عن عيون الناس ، ومن المحال أن يكون قد طمح إلى أن يراها ، ولجّ به الخاطر فجعل يصور لنفسه مشهدًا يلمحها فيه وحدها وينظر عينيها من جديد ، فهذا أقصى ما كان يتمناه ، واستغرق فى تفاصيل المشهد فأجرى فى خياله حوارًا معها تسأله فيه عن أحواله ببسمة صافية، ويبادلها الحديث فيقص عليها ما شهده فى القاهرة والعالم الكبير الذى دخله طلبًا للعلم ، ثم خطر له خاطر آخر يصورها مرتديه الحَبَرَةَ واليَشْمَكْ ، وقال إنها لابد تشبه فتيات القاهرة التى كان يَرَاهُنْ يَعْتَدْنَ

الأسواق ، وجعل يقارن رغمًا عنه بين العيون الخضر والعيون السود ، ثم ذكر اللون الأزرق الذى لمحه فى عينى ابنة الفرنسى الذى يعمل فى الوكالة الفرنسية بالقرب من البرج ، ودهش لتعدد هذه الألوان ، وابتسم كأنما ليعبّر عن سعادته بتفوق اللون الأخضر ، وأحس بنشوة غامرة وتسارعت دقات قلبه عندما لمح على البعد أضواء قصر الكاشف ، فكأنما كان يرى ركنًا خبيئًا فى قلبه وقد تجسد ، بأشجاره اللّفّاء المُدْلَهمّة ، وبوارق الضوء المتلألئة فيه ، وإن كانت خافتةً يكاد الشفق أن يطمسها ، وسمع هامسًا يهمس له ما أصدق الإمام الشبراوى الذى يصور الأمل فى إحدى قصائده فى صورة النور، وقال فى نفسه كأنما يرد على الهامس الهاجس : لن تطفئ الريح شعاع الأمل !

وعندما وصل الركب إلى قصر الكاشف ، ترجّل الجميع ، وأخذ السائس الخيول فربطها فى الأوتاد المعدة لذلك ، وتقدم الحاج شبابو يستند إلى عصاه الطويلة ، فقد كان شيخًا تقدم به العمر وإن لم يفقد نشاطه وحدة ذهنه ، وكانت التجارب قد صقلته وعلمته الحكمة والحيطة والتعقل ، فأرسل الرسول الذى اصطحبهم لإبلاغ الكاشف بالأمر ، ولم تمض لحظات حتى فُتح الباب وسمح لهم بالدخول إلى 'المنظرة' (وهم ينطقونها 'المنضرة' أو 'المندرة') ، وسرعان ما هبط الكاشف نفسه من القصر ودخل عليهم بقامته المهيبة فحيًا وسلّم وجلس ، ومن خلفه خادم حبشى أسود يحمل صينية عليها أكواب شراب لم يتبيّنْها فريد ، فوضعها فى ركن وخرج ، ثم دخلت جارية حبشية أيضًا بصحائف عليها حلوى فوزعتها على الحاضرين وخرجت ، وقبل أن يتكلم أحد قال الكاشف

باسمًا إنه يعرف سبب زيارتهم ، ولديه علم بوصول جنود الباشا ، وأما 'الأمر' فهو 'طلب' الماء والطعام ، قائلاً إنهم سوف يرسلون البغال لحملها بعد صلاة العشاء ، وبث الطمأنينة فى النفوس عندما قال إن الأمر ليس أمره ، فهم يأتمرون بأمر ابن الباشا نفسه ، واسمه إسماعيل ، وهم لا يريدون سوءًا بأحد ، ولكن الباشا رأى أن يوزع جنده على الأقاليم فأرسل ابنه إسماعيل إلى رشيد ، وابنه طوسون إلى الحماد ، ولكل منهما عسكره من الأرناؤوط ، وهم أصلاً من بلد الباشا نفسه ، فلا خوف على أحد ، ولا يوجد ما يدعو إلى القلق .

ودخلت الجارية من جديد بصحائف أخرى فوزعتها ووزعت المشروبات الساخنة على الرجال ، ثم خرجت ، ولم يكن أحد يحس الجوع لكنهم لم يستطيعوا رد الطعام والشراب ، فأقبلوا عليه بغير شهية ، ووضع الحاج شبابو الصحفة جانبًا ، ونظر إلى الكاشف مليًا ثم قال له إنه غير واثق فى هؤلاء الجند ، فهو لا يعرف نواياهم ، وأهل البلد فى خوف بل يعتصرهم القلق ، والأجدر بهؤلاء ألا يأتوا إلى رشيد بل أن يظلوا فى معسكرهم وإلا هب الناس للدفاع عن بلدهم ، فضحك الكاشف وقال له أنت رجل نشأت وترعرعت فى ظل الفوضى، أيام بطش الجنود وعسفهم، ولكننا الآن نتمتع بحماية الباشا ، ورجاله رجالنا ، وهؤلاء 'من لحمنا ودمنا' ، ومن ثم فلا عليكم إن استضفتوهم يومًا أو يومين ، وبعدها عاملوهم كما تعاملون الغرباء ! وضحك الكاشف فسرت همهمة خافتة بين الجمع مفادها أن حاشا لله كيف نعتبرهم غرباء ! وقال الحاج شبابو : سوف نرسل إليهم ما يطلبون ، وإن شئت أبلغت الرسول بهذا فهو واقف

لدى الباب ، وله أن يسرع بإبلاغهم بالرد حتى يطمئنّوا ونَطْمئنّ ! ونهض الحاج شبابو كأنما ليعلن 'للوفد' أن المهمة قد انقضت ، فنهض الكاشف ليحيّيه ، ونهض الجميع وخرجوا فى صف منتظم واتجهوا إلى الخيول الواقفة ، وعادوا إلى الساحة المواجهة للمسجد ، فترجلوا ولكنهم لم ينصرفوا ، فلقد شهدهم حشد المصلين الخارجين من المسجد بعد صلاة العشاء (التى فاتتهم) وتجمعوا حولهم يستطلعون النبأ ، وطفق الحاج شبابو يتكلم وينهى إليهم ما انتهوا إليه ، وهم صامتون كأن على رؤوسهم الطير .

ومضى فريد بخطى متثاقلة نحو منزله ، فلقد شهد من عبث الأرناؤوط فى القاهرة ما لم يشهده أبناء رشيد ، وهمّ بأن يحكى لهم عما رآه رأى العين ، لكنه تردد ثم عزف عن ذلك ، ودفن فى نفسه ذكريات الأمس القريب ، وهو يذكره كأنما هو حاضر ، إذ حدث فى مساء يوم من أيام شعبان المنصرم (الجمعة ٢٨ شعبان ١٢٣٠ / ٦ آب ١٨١٥) أن كان عائدًا إلى الرّبع يحمل من الزاد ما يكفى لعشائه ولإفطاره صباحًا ، وكان يسير متمهلاً فى حى الحسين ، يتأمل القناديل المضاءة على أبواب الدكاكين ، ويعجب لتعدد ألوانها ، ويتطلع إلى الجالسين على المقهى يدخنون الشُّبُكْ ، ويقارن فى نفسه بين ميل أهل القاهرة إلى السهر دائمًا بعد صلاة العشاء والسمر ، وبين إصرار أهل رشيد على النوم مبكرًا ، وكان شهر رمضان على الأبواب ، لم تبق إلا ليلتان ، وهو الشهر الذى يسعده سعادة غامرة ، فهو الشهر الذى تُحبس فيه الشياطين ، ويميل فيه الناس إلى عمل الخير ، وقد استعدّ له الناس فأخرجوا البضائع

وزيّنوها ، فجعل يقترب من الباعة ليسمع نداءاتهم ، ومن المدخنين ليسمع قرقرة الشُّبُكْ ويتملّى توهج الجمرات فوق 'المعّسل' ، وفجأة تسمر والتفت إلى حيث سمع صوت لغط قادم من جهة الغرب ، فأدرك أنها أصوات حوافر خيل ، وقال فى نفسه إنهم الجنود فى طريقهم إلى القلعة ، ولابد من إفساح الطريق لهم ، لكنه سمع مناديًا يصيح فى هلع "الأرناؤوط ! الأرناؤوط !" وسرعان ما أُهرعت النساء جاريات عائدات إلى منازلهن ، وبدأ البعض يغلقون الدكاكين، لكن الجنود لم يمهلوهم ، إذ دخلوا الحىّ بخيولهم وترجّل بعضهم فانقض على أصحاب الدكاكين يطالبهم بالمال ، فمن دفع ما تيسّر له تركوه ومن لم يدفع نهبوا دكانه ، وعلا الصراخ والصياح ، وعمد البعض إلى إطفاء المصابيح ، ولكن الجنود واصلوا السلب والنهب ، وكانوا يحملون شعلات تنير الطريق ، وفريد واقف إلى جانب مدخل إحدى الحارات يترقب ، ويدعو الله فى أعماقه أن يلطف بعباده بحق الشهر الكريم الذى بات على الأبواب ، وانقضت ساعة خالها دهرًا مديدًا قبل أن يرحل الجنود وقد شاع الهمّ والغمّ ، وقال فريد فى نفسه : لقد تملكتهم الشياطين وسلبت ألبابهم قبل أن تُحبس فى رمضان ! وعندما عاد إلى الربع قص ما حدث على زملائه فى المسكن فلم يدهشوا بل قالوا إن ذلك دأب الأرناؤوط ، فلقد اعتادوا الفوضى ، وهم يفعلون ما هو أبشع من ذلك فى أسواق القاهرة منذ الفجر ، ولعل أعطياتهم قد تأخرت فلم يصبروا ، و'الذنب ذنب الباشا الذى سلط علينا هذا الوباء !'

لم يشأ فريد أن يقص ذلك على أهل رشيد ، فهو لا يريد إقلاقهم ،

وربما إن فعل لم يصدقوه ، لكن هواجسه ازدادت وهو فى طريق عودته إلى المنزل ، إذ ماذا عساه أن يحدث لو أن الجنود انقضوا على البلد فى الصباح ؟ ولم يشأ أن يستسلم لهذه الأفكار ، فرأى أن يلجأ إلى أبيه يسأله العون ، ومن ثم عرّج على الوكالة فوجدها مغلقة ، فجعل يحث الخطى وقد بدا الليل القادم حالكًا مُدْلهمًا فى عينيه ، فالشوارع مقفرة ، وأذناه تلتقطان أصواتًا نائية تشبه نباح الكلاب ، فأرهف السمع يحاول تحديد مصدر الصوت ، فأدرك أنه يقترب منه ، وحدس أنها كلاب عم أيوب صاحب أحواض البطيخ ، فقال فى نفسه إن الكلاب تحرس الأحواض من عدو مجهول ، وليتها تعرف أن البلد قد حل بها عدو من البشر لا من الضوارى ، وعندما بلغ مدخل الحارة سمع قارئًا يقرأ القرآن فى منزل الحاج محمد القناديلى ، فتذكر أن الرجل مريض ، وقال فى نفسه إنه يستعين بقراءة القرآن على الصبر وطلب الشفاء ، وعندما دخل الحارة وجد ثلاثة رجال يشرفون على فريق يملأ القِرَبَ من خزان الماء العذب الواقع أسفل منزل عبد الكافى ، فتأكد له أن إمداد الجند بالماء والميرة قد بدأ ، وربما سهر البعض لإنجاز هذه المهمة ، فالأهالى يرونها من باب إكرام الضيف ، غير مدركين ما جُبل عليه الأرناؤوط من حب السلب والنهب ، وعاوده الشعور بالرهبة من الغد ، فتوجه إلى الله يدعوه أن يلطف بعباده ، فلقد بَعُدَ عهد رشيد بالجنود وما زيارتهم إلا نذير شر!

٣

عندما وصل إلى المنزل وجد أباه فى انتظاره ، فتبادلا عبارات

الترحيب وتحدث فريد عن رحلته وأبوه صامت ينصت ، حتى وصل الحوار إلى خبر وصول الأرناؤوط ولمح أبوه ما يعتور اليافع من مخاوف ، فقال له 'كنت أظنك تعرف – بحكم إقامتك فى القاهرة !' – وكان فريد يعرف الكثير حقًا ، ولكنه كان يريد الاستزادة ، ويفضل الاستماع على الكلام ، فطلب الشرح فقال أبوه :

''حدثنى محدث صدق أن الباشا قد أرسل معظم الجنود الأرناؤوط فى بعثات إلى خارج القاهرة ، لا لإنجاز مهام معينة فى مواقعهم الجديدة بل لإبعادهم وحسب عن القاهرة ، بعد أن عاثوا فى الأرض فسادًا ، وربما ليريحهم أيضًا من عناء الحرب فى بلاد العرب ! وقد بلغ من حذقه أن أرسل أولاده على رؤوس هذه الفرق حتى يبث الطمأنينة فى نفوسهم ، فأرسل طوسون ابنه على رأس فرقة إلى الحماد ، وإسماعيل ابنه الآخر على رأس فرقة أخرى إلى رشيد !''

وتعجب فريد مما يسمع ، وإن أدخل بعض الطمأنينة إلى قلبه ، وبعد تردد قال لأبيه إنه يخشى أن يعتدوا على أهل رشيد ، وربما قطعوا الطريق على المسافرين أو أرهقوا أهل القرى المجاورة ، وضحك أبوه قائلاً : ' تقصد مثلما كان المماليك يفعلون ؟' وسأله فريد جادًا 'ولم لا ؟' وقص عليه ما رآه منهم فى حى الحسين ، وأبوه يصغى بانتباه ثم قال :

''اسمع يا فريد ! لقد كبرت واشتد عودك ، ولقد نذرتك للعلم فهب نفسك له ولا تلتفت إلى هذه الأمور ! وعندما تنتهى من علومك وتلبس الجبة والعمامة سوف أشركك فى مجلس المدينة ، حتى يفيد الناس من علمك ، أما الآن فلا تدع ذلك يصرفك عن عملك ! ألا ترى أننى أخّرت زواجك

حتى لا تشغلك أمور الدنيا عن طلب العلم ؟''

واضطرب فريد حين سمع كلمة 'زواجك' إذ لم يفاتحه أحد فيه من قبل (لا أبوه ولا أمه) ، وكأنما أعادت إليه الكلمة صورة العينين الخضراوين، فزادت من اضطرابه ، واستأذن أباه فى أن ينصرف متذرعًا بأنه لم يؤد الصلاة ، وضحك أبوه من جديد وهو يرى تأثير الكلمة فى ابنه، وسمح له بالانصراف وهو يدعو له ، فقام فريد وهو يكرر الشكر لأبيه ، وقبل أن ينصرف قال أبوه :

''أعلم أنك صاحبت الحاج شبابو إلى الكاشف ، ولكن المجلس لم ينتظر رأى الكاشف ولا كان محتاجًا إلى هذه الزيارة ، فلدينا من العيون من دلّنا على بواطن الأمور، ولقد أعددنا للأمر عدته ، ولعلك شاهدت فى طريق عودتك الجمال وهى تنقل الأحمال ، والرجال يعملون منذ الصباح فى الاستعداد ، وربما سهروا الليل كله ، وتفاهمنا بالأسلوب المعتاد مع رجال الحامية ، وأقمنا المتاريس، ووزعنا الأسلحة، وتفاهمنا مع الأعراب ، ولن يطلع الفجر حتى تكون البلد فى مأمن من المخاطر !''

وتظاهر فريد بأنه فهم كل ما قيل ، لكنه كان يحس الليلة بوحشة غامرة ، فلم يذهب إلى الفراش بعد الصلاة بل قصد إلى والدته علّهُ يجد فى الحديث معها ما يصرف همّه ولو بعض الشىء ، أو يشغله بشىء آخر غير الكرب الذى أتى به الأرناؤوط ، فاتجه إلى 'الحريم' (وكان يسمى الحرملك فى بيوت القاهرة) ، وهو قسم من المنزل تقيم فيه النساء ، ولم يكن فيه بعد زواج أختيه الكُبْرَيَيْن سوى أمه وأخته الصغرى ، وسعاد، أخته فى الرضاعة ، التى أصبحت تقيم مع الأسرة بصفة شبه دائمة بعد

وفاة زوجها ، وقد خصصت الأسرة لها غرفة في 'الدهليز' وهو الطابق الأول (فوق الأرضي) من المنزل الكبير ، وتقوم بمهام الخدمة المنزلية اليومية مثل إشعال الكانون (الموقد) وملء الفنطاس من الصهريج ، والفنطاس برميل ضخم رُكّب فيه صنبور فرنسي (حنفية) والصهريج هو خزان الماء الموجود تحت المنزل ، ويشغل مساحة كبيرة بطول المنزل وعرضه ، وهو يُملأ بالماء من النيل في زمن الفيضان ، وتغلق منافذه ، ويضاف إلى الماء قطع 'الشَبّة' للترويق ، ويتدلى فيه دَلْوٌ يجرى في مجرى طولي محكم الإغلاق ، وله فتحة في الدور الثاني (فوق الدهليز) يوجد فيها حبل ملفوف حول بكرة ، عُلّق الدَّلْوُ في طرفها ، وبه فتحة مغطاة بغطاء من الخشب يستقر فوقها الدلو حتى يحين استخدامه لرفع الماء من الصهريج .

وعندما لم يجد فريد أحدًا في الحريم ، قصد لتوه إلى ما يسمى البيت القديم ، وهو القسم القديم من المنزل ، أو القسم القبلي الذي توجد به غرفة 'الخبيز' ، وغرفة الفرن ، وغرفة الفراخ التي تُرَبَّى فيها الدواجن على اختلافها ، وقيل إنه تعرض للحريق فأصبح غير صالح لسكنى البشر، وكان فريد لا يجرؤ على دخوله منذ الطفولة ، خصوصًا بالليل ، بسبب ما يُشاع عن سكنى العفاريت به ، ولم يكن فريد يخاف العفاريت في ذاتها فقد أخبره أبوه أنها من الجن المؤمنة ، ولكن بعض الأصوات الغريبة كانت تصدر في الليل (وعرف فريد فيما بعد أنها أصوات أسرة داجنة من الثعابين التي تتولى تخليص المنزل من الجرذان والهوام والحشرات ، وكأن بينها وبين أهل البيت عهدًا وثيقًا بألا تمس الحيوانات

المنزلية) وكانت تبث الوحشة فى نفسه ، ولكنه آنس الليلة فى نفسه قوة لم يعهدها ، فنادى أمه وتقدم بخطى واثقة فألقى السلام ، وعندما دخل غرفة 'الخبيز' وجد الجميع – ومعهما خبازتان هما أم إبراهيم وأم سعد – منهمكات فى إعداد العجين ، فعرف أنها ليلة 'الخبيز' .

وفجأة اختفت مخاوف فريد وهواجسه ، وتلاشى الخوف من الأرناؤوط ، بل وتوارت صورة العينين الخضراوين ، وكاد أن ينسى وعثاء السفر الطويل ، ووقف يرقب النساء وهن يضعن العجين الذى يتكون من كيلتين من القمح المطحون وكيلة واحدة من الدشيش (كسر الأرز) فى آنية كبيرة ، يسمى كل منها 'ماجور' ، وظل واقفًا لا يتكلم وهن يغطين الماجور بعد الماجور ، وكان يعرف أنهن سوف يقمن قبيل الفجر 'للتقريص' و'التبطيط' (تقسيمه إلى كرات ، وبسطها فى صورة أرغفة) وسأل أمه ألا تنسى إيقاظه معهن حتى يشهد 'الخبيز' ، ولكن أمه لم ترد ، ولم يبد عليها أنها سعيدة كعادتها ليلة 'الخبيز' ، فكرر السؤال وقال كأنما يشجعها على إيقاظه إنه سوف يساعد فى تخزين الخبز الناشف فى السّحّارات (صناديق الخبز الجاف) وهنا تكلمت أمه فقالت باقتضاب إن السحارات مليئة ! ونَقَّل فريد بصره بين النساء العاملات بجِدٍ فى العجن ، ولكن وجوههن لم تكن تكتسى أى تعبير ، فعاد يسأل : إذن لماذا 'الخبيز' ؟ وتركت أمه العمل وانتصبت قامتها وواجهته قائلة : هذا الخبز للضيوف ! ولما بدا على فريد عدم الفهم أردفت : ألم يخبرك أبوك ؟ وبدت الحيرة واضحة على وجه فريد فأوضحت أمه بنبرة حزينة : عسكر الباشا ! وكأنما انخلع قلب فريد فانعقد لسانه وتسمر فى مكانه صامتًا ، ثم استجمع

رباطة جأشه فسألها "يعنى ما فيش حنّون ؟" وبدا أن أمه تنتزع البسمة انتزاعًا وهى تقول : "إن شاء الله !" وكان الحنّون رغيفًا أسمر (من الردة) تضاف إليه فى الخبز بيضة تقبع فى منتصفه ، ويؤكل ساخنًا للإفطار ، أما إذا غابت عنه البيضة فهو 'بنّون' ، وكان كلاهما شهيًا ، وقد يضاف إلى 'البنّون' العسلُ الأسود (عسل القصب) وهو ما يطلق عليه صديقه الشامى فى القاهرة اسم الدِّبْس ، والسمن الجاموسى ، ويوضع فى وعاء (طاسة) على نار الكانون حتى ينضج فيصبح هريسة ، وإن كان فريد يفضل 'هريسة' السوق ، التى يسمونها 'البسبوسة' فى القاهرة ، فالقطعة الصغيرة منها تملأ البطن وتقى غائلة الجوع طول النهار ، وأهل رشيد ماهرون فى صناعتها ، إذ سمع أنهم يضيفون إليها اللبن الزبادى ، كما يزينون وجهها بالمكسرات (البندق واللوز والجوز) المرتّبة فى أشكال هندسية بديعة ، وكان صديقه الشامى يوصيه بألاّ ينسى إحضار بعضها معه من رشيد فيضيف إليها الفستق الحلبى حتى تصبح - حسبما يقول الفرنسى صديقه - وجبة كاملة .

ولم تصمد رباطة جأش فريد ، ولم يشأ أن يحادث النساء فى شىء مما كان يخالجه، فاستدار وعاد وهو يكاد يُطأطئ رأسه إلى غرفته ، فأوقد شمعة كبيرة فى الزجاجة البلّورية التى اشتراها من الفرنسى ، وشغل نفسه بضبط الضوء حتى يسقط على ما كان يسمى كرسى المصحف ، وهو حامل خشبى يفتح فيه الكتاب حتى تسهل قراءته وهو جالس القرفصاء ، ثم أخرج من حقيبته ورقة كتب عليها أسماء الكتب التى عليه أن يقرأها قبل الصيف ، ووضع علامة على ما لم يقرأه منها

وأهمها 'إتحاف الإنس فى الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس' ، و'رفع التلبيس عما يسأل عنه ابن خميس' ، وكتاب نصحه صاحبه الشامى بقراءته وأبدى استعداده لأن يعيره إياه ، وهو ليس من الكتب المطلوبة ولكنه زاخر بالأخبار المسلية ، وقد وضعه الشيخ مصطفى الحموى بعنوان 'فوائد الارتحال ونتائج السفر ، فى أخبار أهل القرن الحادى عشر' ، ولم يجد فى نفسه ميلاً إلى الدرس هذه الليلة ، وقال فى نفسه إن الواجب أن يدعو الله مخلصًا أن يرفع عن أهل رشيد البلاء ، وتذكر أنه كتب بعض الأدعية فى أوراق متناثرة وضعها فى قاع الحقيبة ، فجعل ينبشها ، فوقعت يده على أوراق كتبها من إملاء الشيخ الباجورى ، وهو عالم شاب فاق أقرانه وأصبح له عمود فى الأزهر ، وكان يقرأ عليه شرح البُردة للإمام البوصيرى ، فأخرج تلك الأوراق ، وجعل يقرأ أبيات البردة بصوت عالٍ وقد أخذته النشوة حتى وصل إلى البيتين الثانى عشر والثالث عشر:

مَحَّضْتَنى النُّصحَ لكنْ لستُ أسْمَعُهُ

إن المُحِبَّ عن العُذّالِ فى صَمَمِ

إنى اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيبِ فى عَذَلٍ

والشَّيبُ أبْعدُ فى نُصْحٍ عن التُّهمِ

ثم قرأ ما أملاه الشيخ ونسخه الطلاب جميعًا بخط واضح ، فإذا فى آخره ما يلى :

"وفائدة هذين البيتين أنك إذا أحببت شخصًا فى الحلال وتستحى منه ومن الناس أن تكلمه فاكتبهما

فى ساعة الزُهرة ، فى صحفة من نحاس ، وامح تلك الصحفة بماء المطر ، واشربها ، فإنك تقوى على المحبوب وتجتمع به ، ولا تختشى من أحد أبدًا ، وتفشى إليه سرك ، وتبلغ منه مقصودك إن شاء الله تعالى" .

وقال فريد فى نفسه إن الشيطان ما زال يتربص به ، وها هو يأتى إليه فى ساعة المحنة بأفكار تصرفه عن الخطر المحدق بالبلد ، ويبعث إليه بصورة العينين حتى يغويه ، وإن كان يشك فى صحة ما ذهب إليه الباجورى ، فهو مولع بالتأويل والتخريج فى كل شىء ، وهو لا يحب هذا المذهب ، ومن ثم أعاد الأوراق إلى الحقيبة ، ونهض من مجلسه وذهب إلى النافذة يستطلع السماء فلم يجد سوى الظلام الحالك ، فالغمام قد طمس النجوم ، والأفق بهيم ، ولم يلبث أن سمع نقرًا خفيفًا على أسطح المنازل، فحدس أنه الرذاذ الذى يسبق المطر ، وقال فى نفسه لقد أحسن مجلس المدينة بإرسال الميرة إلى الجنود نهارًا قبل حلول الظلام وهطول الأمطار، ثم تساءل كيف يتسنى إرسال الخبز الذى تتولى أمه إعداده فى هذا المطر المنهمر ؟ وفطن فريد إلى أنه كان يتثاءب تثاؤب المرهق اللاغب لا تثاؤب طالب النوم ، فتمطى كأنما ليستعيد نشاطه ، وخرج من غرفته يطلب الصحبة لكنه وجد الأبواب مغلقة ، فانقبض قلبه ، وسمع المزاريب وهى تفرغ ماء الأمطار فى الطسوس الموضوعة فى الطابق الثالث ، وكان يسميه 'الدور الفوقانى' ، فلم يكن فوقه إلا السطح ، وهم يستخدمون هذا الماء فى سُقيا الحيوان وفى الغسيل ، فهو من السماء وهو طاهر ، وكلما

اشتد المطر زاد قلقه ، وزاد إحساسه بالوحشة ، فلقد اعتاد فى القاهرة الصحبة ، وبات يشعر أنه حبيس هذه البلدة وهذا البيت وهذا الموقف الجديد ، فالخطر لا يقف خارج أبواب رشيد بل يناوشها ، وتكاد أصداؤه ترن فى منزل أبيه نفسه ، وأدرك أن خاطرًا جديدًا يواجهه ولا يستطيع له دفعًا ، إذ تساءل وربما لأول مرة عن سبب إذعان البلدة لجنود الباشا ، ولماذا فرض عليها أن تستضيفهم ؟ وهل مُنُوا بالهزيمة فى حربهم ببلاد العرب فجاءوا يحققون نصرًا على أهل رشيد ؟ وماذا تكون العاقبة إن هم أطالوا المكث وطلبوا المزيد من الضيافة ؟ وماذا يحدث إن رفضنا الاستضافة وطالبناهم بثمن ما يحصلون عليه من زاد وماء ؟ هل يهاجموننا ويغصبون أقواتنا ؟ لقد شهد فى طفولته عسف المماليك وعدل الفرنسيين (الذين كانوا يدفعون) ولكنه لا يعرف عن الأرناؤوط إلا السلب والنهب !

ودوّى صوت الرعد بعد وميض البرق الخاطف فتذكر فريد ما كان صديقه الشامى يقوله عن غضب الملائكة التى ترسل الرعد والبرق ، وتبسم فى أعماقه فقد أحس بأنه يفتقد حديثه الطلىّ ، فهو يتمتع بخيال خصب وإن لم يؤت ملكة الشعر ، وزاد من هذا الإحساس إدراكه أنه أصبح حبيس الأزمة التى تتعرض لها البلدة بل حبيس هذا المنزل نفسه ! ترى لو لم يكن رحل إلى القاهرة ، هل كان سيحس نفس الإحساس ؟ وشعر برعشة كأنها البرد الذى ينفذ إلى العظم أو دبيب الحمى ، فجذب أطراف عباءته حول كتفيه وعاد مسرعًا إلى غرفته ، فاحتمى بالفراش وأحكم التفافه بالبطانية ذات الصوف الخشن ، وكانت الشمعة لا تزال

موقدة تلقى بضوئها الشاحب على قطع الأثاث التى بدت ظلالها له فى أشكال عجيبة ، وكانت الظلال تتراقص مع تراقص اللهب ، فأطال فريد النظر إليها حتى ثقلت أجفانه ، وتراخت أعضاؤه ، فقال فى نفسه لقد آن أوان النوم ، لكنه لم يطفئ الشمعة كما اعتاد أن يفعل فى القاهرة ، إذ رأى فيها الأنيس الأوحد ، بل استلقى على ظهره وجعل يتطلع إلى السقف ويعد الخشبات التى تدعمه ، فهو من 'البُغدادلى' ، وكان قد سمع من الفرنسى أنهم يبنون الآن منازل من البُتُن ، ويظنه نطقها 'بِتُونْ' دون إظهار النون الأنفية ، أى بنوع جديد من الصخر المطحون ودون خشب ، فتعجب من ذلك ، وظل يركز بصره على السقف طالبًا النوم حتى أتاه، وغمره إحساس عارم بالراحة والسكون .

الفصل الثانى

الخـدعـــة

١

ظلت الجمال تنقل الميرة ساعة العشاء إلى باب رشيد ، وكان الرجال ينقلونها إلى ظهور البغال التى تحملها إلى معسكر الباشا فوق التل ، فى مدَقٍّ طويل يمتد عبر الحقول حتى مطلع التل ، ولكن عددًا آخر من الجمال كان يحمل بضائع أخرى لتخزينها فى أماكن أخرى ، وهى التى تسمى 'بيوت العفاريت' أو 'بيوت الجن' ، وهى منازل مملوكية قديمة ذات سراديب عميقة تحت الأرض ، بعضها كانت صهاريج لتخزين الماء فأصبحت مخازن لكل ما يخاف عليه أهل البلد من بضائع ، لا الذهب والفضة والنفائس فقط بل ومخزون الأغذية لشهور عديدة ، مع الإبقاء على جانب معين فى الدكاكين وفى المخازن العامة (الشُّوَن) . وكان العمل فى هذا النقل قد بدأ قبل وصول فريد إلى رشيد ، أى منذ الصباح الباكر ساعة أن وصل النذير بانتواء مراكب الباشا الرسو فى رشيد ، وكانت لا تزال فى النيل تبحر بطيئة مع التيار ، فالريح غربية معاكسة ، أو

شمالية مضادة ، والتيار ضعيف بطئ ، فنحن فى أيام التحاريق ، والنيل منخفض ، ولذلك أهرع النذير من 'شباس عمير' على ظهر جواده حتى وصل سرًا إلى الشيخ الغاياتى – شيخ البلد – الذى جمع مجلس المدينة سرًا بعد صلاة الفجر فى مسجد سيدى النور ، بعيدًا عن عيون العامة ، فتبادل أعضاؤه الرأى وقر رأيهم على الاحتماء حتى قبل أن تصل الرسل إلى الكاشف ، وبطبيعة الحال قبل أن يعلم الأهالى من صغار التجار والمزارعين بما يخبئه لهم القدر ، ولم يكن رسو السفن عند رشيد مؤكدًا ، ولكن الاحتياط واجب ، فلقد تعلم أبناء رشيد الدرس ووعوه جيدًا من المماليك والفرنسيين والإنجليز ، وثبت لهم نجاح خططهم فى كل مرة، فقد يهجم المماليك ويفرضون الإتاوات أو يحملون ما تصل إليه أيديهم من بضائع حين لا يجدون المال، لكنهم فى كل مرة لا يفوزون إلا بقدر ضئيل، بل لا يكاد يذكر ، من ثروات أهل البلد ، وأما الفرنسيون فقد مكثوا زهاء ثلاث سنوات فى رشيد يعتمدون على رأى المجلس الذى أنشأوه ، ويستشيرونه فيما هو حق الحاكم من الضرائب ، فلا ينال أهل البلد من جرّائها إلا أذى طفيف ، وكان التاجر الفرنسى (مسيو لوبون)، المقيم فى عزبة البرج بالقرب من وكالته ، يعتبر نفسه من أبناء البلدة ، فلقد جاءها شابًا مع ابنه الصغير على متن إحدى السفن من برّ الشام ، وعاش بين أهل 'العزْبة' فتعلم العربية فأجادها ، وكان يُظهر الود لرجال الحملة ، ويشترك مع أهالى البلدة فى كل ما يدبرونه للحفاظ على ثرواتها ، وأما الانجليز ، فما أن جاء النذير بقرب قدومهم إلى رشيد حتى سارع الأهالى بإخفاء نفائسهم وبضائعهم فى بيوت العفاريت ، وعندما دخل الجنود

وجدوا البلدة خاوية على عروشها ، فكان ما كان من هجوم الحامية والأهالي عليهم ودحرهم دحرًا يذكره الكبير والصغير .

وعندما خرج الفرنسيون فباتت البلاد بلا 'حكومة' ، تولى المجلس إدارة شؤون البلد ، فأصبح 'الهيئة الحاكمة' ، منذ ذلك الحين ، وحتى بعد أن قدم الأتراك لتولى الحكم ، وانطلق جنودهم يعيثون فى البلد فسادًا ، كانت 'بيوت العفاريت' هى المستودع الآمن لكل ما يخشون عليه ، والواقع أن العمل بالتخزين فيها قد اتسع نطاقه كثيرًا ، فبعد أن كانت الودائع تقتصر على النفائس والأقوات الضرورية أيام المماليك ، أصبحت تشمل كل ما يراه التجار وكبار الزراع لازمًا لعملهم ، وأصبحت المخازن تتضمن سراديب جديدة ، إلى جانب الصهاريج الفارغة والمخابئ القديمة ، وهى السراديب التى حفرها العمال وبطّنوها بالرخام ، وأخفوا مداخلها بدقة وإحكام ، ولم يكن يعلم بأمر هذه السراديب إلا قلة قليلة من أعيان رشيد ، تعاهدوا فيما بينهم وحلفوا على الكتمان ، وعندما كانت السراديب تضيق بمخزونها كانوا يلجأون إلى سفن راسية فى النيل فتعبر النهر إلى الشاطئ الشرقى (البر التانى) وتظل راسية حتى يزول الخطر فتعود . وكان بعض الأعيان – ومنهم والد فريد التاجر – ذوى ذاكرة حديدية ، فهم يعرفون المكان الذى خزنوا فيه كل سلعة وصاحبها ، ومن ثم لم تكن لديهم حاجة إلى تسجيل أى شىء فى أوراق قد تقع فى أيدى الأغراب أو أحد من أبناء البلد الذين يعرفون القراءة فيفشى السر ، بل إنهم كانوا لا يشيرون إلى ذلك العمل إلا تلميحًا ، وكانوا يغضّون الطرف عن قصص العفاريت التى تتردد عن هذه البيوت ، بل يشجعون ترديدها حتى يثنوا

كل من يخطر له أن يتسلل إلى أحد هذه المنازل ، خصوصًا بالليل ، وأما بالنهار فكان يقوم على كل منزل حارس يحمل مفاتيح أقفالها وأبوابها الضخمة ، وحدد المجلس له أسلوب تنبيه المسؤولين إلى أى خطر قد تتعرض له ودائعهم إن حاول الأعداء اقتحام المنزل ، ليلاً أو نهارًا ، فهو يصيح صيحة عالية هى "حىّ !" بصوت رنان يسمعه الخفير فى الحارة المجاورة ، فيصيح صيحة مماثلة يسمعها خفير الحارة التالية ، وهكذا دواليك حتى تصل الصيحة إلى مقر 'أمانة' المجلس ، حيث يقيم 'أمين السر' بصفة دائمة وإن كان مكان اجتماع المجلس يتغير بانتظام ، ومن ثم يرسل عددًا من رجال الشرطة الأهلية ، وهم رجال أشداء مسلحون ، متطوعون لأداء هذا العمل ، ليصدوا الأعداء ويمنعوهم – سلمًا أو حربًا – من دخول المنزل .

وكان من أهم هذه المنازل منزل عبد الكافى ، ولا يذكر أحد من أبناء البلد عبد الكافى هذا ، بل لا يعلم أحد علم اليقين شيئًا عنه ، ولكن الشائعة تقول إنه رجل من أولياء الله الصالحين ، عاش فى الزمن الغابر ، واستطاع تجنيد الجن لخدمته ، فهم الذين ساعدوه فى بناء البيت ، وهم الذين ألقوا عليه 'سحرًا' ، يقولون إنه طِلَّسْمٌ لا يُفَكُّ إلا يوم القيامة ، ومن ثم فهو يضمن استمرار بقاء البيت سالمًا تحرسه قوى الجان ، وكان الفرنسيون يفسرون تلك الشائعة بأن الأهالى يرون فى البيت 'قداسة' ترجع إلى أن أحد القديسين قد دفن فيه ، وحرصوا من ثم على عدم المساس به ، وفقًا لوصية قائدهم (سارى عسكر) الذى قاد الحملة منذ أكثر من خمسة عشر عامًا وجاءت الأنباء فى العام المنصرم بهزيمته فى

أوروبا وسجنه ، ولذلك فقد كانت البيوت تتمتع في عهد الفرنسيين بالحماية، وعندما جاء العثمانيون بعدهم حاولوا دخول البيت فكانوا يُمْنَوْن بالفشل الذريع ، فكل من يتخطى عتبة الباب الكبير يسقط في هوة لا قرار لها ، ويختفي إلى الأبد ، وقيل إن الجن تتخطّفه وتخفيه ، وعندما جاء الباشا منذ أحد عشر عامًا تقريبًا ، أقر اعتبار المنازل من الأوقاف أو الحبوس ، ومنع رجاله من دخولها ، فكان بذلك يتجنب سخط الأهلين ويضمن ولاءهم ، بل إنه أمر بأن تذبح في كل عيد ذبيحة أمام كل منزل ، يُدْفع ثمنها من الخزانة العامة ، وتوزع على الفقراء ، إكرامًا للجن التي تسكن المنزل وتصونه .

وكان والد فريد مشغولاً عن الوكالة طوال اليوم بالإشراف على نقل تقاوى المحاصيل (أي البذور) إلى منزل عبد الكافي ، والتأكد من تعبئتها في حقائب جلدية تمنع إصابتها 'بالرطوبة' ، وكان منزل عبد الكافي ملاصقًا لمنزله ، فكان يتسلل إليه من سطح المنزل ثم ينزل الدرج ويفتح الباب ويغلقه من الداخل حتى يستعصي فتحه على أي أحد من الخارج ، كما نقل إليه في ذلك اليوم نفائسه ونفائس زوجته وابنته ، لكنه لم يضعها في أحد السراديب ، بل أبقاها في غرفة قريبة من السطح في خزانة خاصة ، وعندما عاد ابنه فريد من القاهرة قر رأيه على أن يجعله مشرفًا على الوكالة في الأيام التالية ، حتى يتفرغ هو لتأمين ثروات كبار التجار والمزارعين ، ولم يكن يريد له الانشغال بمشاكل البلدة ، ولذلك قال له ما قال ، وهكذا ، فعندما أوى الجميع إلى مخادعهم ، خرج وحده للاطمئنان على سير العمل ، والأمر بإراحة الجمال حتى الصباح ، وإعداد 'ركائب'

أخرى (من البغال والحمير) لحمل الميرة المطلوبة إلى عسكر الباشا فى أبى مندور .

لم تتوقف الأمطار طول الليل ، ولم يتوقف الرجال عن العمل حتى أذّن الفجر ، وعاد والد فريد مثلما عاد الجميع بعد صلاة الفجر إلى بيوتهم ، وعندما لاحت تباشير الصبح أحس الرجل بالهدوء يخيم على البلدة بأعمق ما يكون الهدوء ، والصمت لا يقطعه إلا صياح الديكة ونباح الكلاب ، فأما القطط التى تخاف البلل فقد انكمشت فى أركانها تنتظر انتهاء العاصفة ، وكانت هذه الأصوات المتناثرة تصل إلى أذنيه فتزيد من عمق الصمت ، وسواد الليل الذى بدأ ينجلى يضفى مسحة سحرية على أولى تباشير النور فى الشرق ، إذ تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وتوقف المطر، وهبت الريح الرخاء ، فابتسم وهو يفتح باب المنزل .

٢

تململ فريد فى فراشه عندما سمع أذان الفجر ، وجعل يتقلب ذات اليمين وذات الشمال فى الفراش الدافئ ، وتطلع إلى الشباك فوجد الظلام حالكًا لكن أنفه التقط رائحة وقود يحترق ، فتذكر 'الخبيز' وأحس فجأة بالجوع ، وتداعت إلى مخيلته صور اليوم السابق الذى لم يهدأ فيه من الترحال ، وقال فى نفسه إن ذلك يفسر طقطقة عظامه وتكاسله عن النهوض بهمة للوضوء ، ثم سمع صوت باب يُفتح ويُقفل ، فتعجب وقال لابد أنه والده الذى خرج إلى صلاة الفجر ، فتغلب على الكسل واستوى

جالسًا فى فراشه ، وبدأ يقرأ الآيات التى اعتاد قراءتها كل صباح ومساء ، والتى تبدأ بآية 'قل اللهم مالك الملك' ، فأحس بالراحة تشيع فى نفسه ، فنهض ، وذكر أن صوت الباب الذى فُتح وأُغلق قد يكون باب بيت جيرانهم من أسرة القزق ، سمع أنهم نزحوا من أقاصى الشرق ، أو الشمال ، فعيونهم مائلة وجفونها ثقيلة مثل عيون أهل الصين الذين كان يرى رسومهم فى أسواق القاهرة ، وبياض بشرتهم يخالطه صفار فاقع ، كثيرًا ما دهش له فريد ، خصوصًا بسبب اللون الفاحم الذى يتميز به الشعر المستقيم المنسدل على الجبهة ، وكان من عادة الأب عبد الظاهر القزق وابنه أحمد أن يؤديا صلاة الفجر فى المسجد القريب قبل التوجه إلى معمل الأخشاب المقام فى طريق البوغاز ، وكان يعمل به عدد من أهالى البلدة ، ويجرى فيه تقطيع الأشجار التى تحملها السفن من ثغور الأناضول والشام، وإعدادها بمناشير خاصة لصنّاع السفن وصناع السواقى فى 'حيّ قبلى' ، وتساءل فريد فى نفسه عما حدث لأحمد الذى كان زميلاً له فى الكتّاب ثم انقطع عن الدراسة دون أن يختم القرآن وانشغل بمصاحبة أبيه فى المعمل ، وخطر له أنه ربما يكون قد تزوج أو ترك منزل الأسرة ، وطافت بذهنه صورته منذ سنوات ، وصورة أخته الصغيرة ذات العينين السوداوين والشعر الطويل المعقود بشريط أحمر ، وفجأة لاحت له صورة العينين الخضراوين فانتفض واقفًا كأنما ليقهر ذلك الطيف الذى كان يراود خياله ويلح عليه منذ أن عاد إلى رشيد .

وبعد أن توضأ فريد وصلى الفجر ، توجّه إلى غرفة الفرن فحيّا النسوة وذكّر أمه بالحنّون ، فوعدته خيرًا ، وتطلع إلى أم سعد وأم

إبراهيم ، وتذكر الحكايات الغريبة التى كانتا تحكيانها له فى طفولته ، مثل حكاية 'أمّنا الغولة' وحكاية 'ماء الحياة' و'مطاوع أمه' و'القصر المنشى فى الهوا يمشى' و'الطيرة الدّهب' وغيرها ، وقد أدرك الآن أنها كانت مليئة بالخرافات التى قبلها عقله آنذاك دون أن تعرض له قضية الصدق أو الكذب ، وتمنى فى أعماقه لو عاد إلى طفولته فعاد يستمع بالشغف نفسه إلى تلك الحكايات ، ووجد رغيفًا أسمر سميكًا ساخنا فى 'مشنّة' فانحنى يريد أن يلتقطه فابتسمت أمه وقالت له اصبر ، 'ما تسدِّش نفْسك' ، ثم أردفت دون إبداء أى انفعال : 'روح ساعد ابوك .. شوفه عايز ايه قبل ما ينام' . وأدرك فريد أن صوت الباب الذى سمعه كان صوت منزلهم ، وأن أباه قد عاد لتوه من صلاة الفجر ، فانصرف ذاهلاً واتجه إلى غرفة أبيه فقرع الباب قرعًا خفيفًا ، فسمع صوت أبيه يناديه ففتح الباب ودخل، ولم يكن فى حاجة إلى إضاءة أى شموع فهو يعرف الغرفة خير المعرفة ، وكان ضوء الصبح قد بدأ يتسلل من النافذة الشرقية ، وأبوه قد خلع ملابس الخروج وبدأ يستعد للرقاد ، فدعاه إلى الجلوس فجلس ، وكان الإرهاق باديًا على وجه أبيه بعد سهر الليل ، لكنه لم يَبْد ذلك فى نبرات صوته ، بل رحب بابنه وأفضى إليه بما لم يكن يحلم بسماعه ، إذ قال له إنه كان يتمنى أن ينتظر حتى يحصل على إجازته العلمية من الأزهر الشريف ، لكنه مجدٌ ودؤوب ولابد أن يحصل عليها فى القريب العاجل ، وأن له وقد بلغ مبلغ الرجال وإن لم يبلغ الحادية والعشرين بعد ، أن يحيط بأسرار أبيه ، فلقد أثبت جدارته بتحمل كل ما يكلفه به والده من مهام ، مهما كان العبء ثقيلاً ، إذ أشركه وهو لم يشب عن الطوق فى محاربة الإنجليز ، وكان كثيرًا ما يرسله فى مهام سرية إلى

الكاشف وإلى قواد العسكر ، وكان يودعه ثقته فى إبرام الصفقات مع التجار الأجانب ، من الأروام والفرنسيين ، وساعده على تعلم اللغتين الرومية (التركية) والفرنسية منذ نعومة أظفاره ، وهو كتوم لا يفشى سرًا ائتمنه عليه أبوه ، وهكذا – قال والده – آن له أن يشارك فى سر البلدة الأكبر ، وأن يشارك فى التصدى للمحنة الراهنة.

وتوقف أبوه عن الحديث ونهض فأحضر مصحفًا مطبوعًا فى استامبول ، ووضعه أمام ابنه ، ودعاه إلى أن يحلف عليه ألا يذيع ما سوف يفضى به إليه ، فحلف ، وأفضى إليه والده بسر بيوت العفاريت ، وفريد يسمع فى صمت وقد تسارعت ضربات قلبه تسارعًا لا عهد له به فكأنما كبر فى هذه اللحظة سنوات كثيرة ، وأحس كأن أباه يدعوه إلى تحمّل ما لا قبل له به ، وإن ظل رابط الجأش ، لا يبدى رهبة أو قلقًا ، حتى فرغ أبوه من الحديث ونهض ، وقال له بنبرات ثقة جديدة إن عليه أن يتولى أمر الوكالة مؤقتًا ، والعمل فى هذا الموسم غير شاق ، على عكس فصول السنة الأخرى ، فالمحاصيل الشتوية محدودة ، والفواكه تكاد تقتصر على فاكهة أو اثنتين ، والخُضَرُ أمرها يسير ، وأضاف أن صبىّ الوكالة ، واسمه سميح ، يعرف أساليب العمل وسوف يدله عليها ، فلا عليه إن هو اصطحب كتابًا إلى الوكالة وواصل الدرس فى ساعات الفراغ، وانتهى أبوه بأن دعا له بالتوفيق وقال إنه يعتزم أن ينال الآن قسطًا من النوم بعد سهر الليل الطويل .

ووعد فريد أباه خيرًا وصافح اليد التى مدها إليه ، وخرج يعتزم ارتداء ملابس الخروج ، متجها إلى غرفته ، فصادف أمه قادمة من غرفة

'الخبيز' تحمل صحفة فيها 'الحنّون' الذى كاد أن ينساه ، فأخذه منها شاكراً ووضعه على اللّوان الذى يتوسط صحن الدار (واللّوان أريكة خشبية مبنية فى الحائط) وتطلع إلى السماء من 'الحدير' (وينطقونه 'الحضير' ، وهو طاقة ثُمانيّة الأضلاع فى سقف الدور الثانى يحيطها سور خشبى مضلع مثل طوابق المئذنة وتصل بين الدورين الثالث والثانى ، وأما الدور الثالث فهو يتكون من غرف تحيط بالحدير وصحنه مفتوح للسماء) . كان نور الصباح قد غمر السماء ، وبقايا السحب التى تسوقها رياح الغرب تتهادى فى غير عجلة ، وشعر بنسائم الصبح تصافح وجهه ورأسه العارية ، فاتجه إلى الزير فغسل يديه وتناول إفطاره ثم غسل يديه ثانيًا ودخل غرفته فارتدى ملابس الخروج وخرج .

عندما خرج رأى الكناسين الذين عَيّنهم المجلس يعملون جاهدين على إزاحة الماء بما فيه من طين عن نهر الطريق وتوجيهه إلى مجرى جانبى يتصل بمجرى آخر يمتد على جانب الشارع الرئيسى وينحدر شمالاً إلى البِرْكة ، وهى بحيرة من الماء العذب تمتلئ فى الشتاء بماء المطر ، وتجف مياهها فى الصيف فتصبح ملعبًا للصبية ، وسار فريد بحذر فوق الأحجار التى وضعها الكناسون فى الطريق حتى يتفادى بقايا الماء والطين ، حتى وصل إلى شارع السوق ، وكان أسرع الشوارع إلى الجفاف لأنه ذو أرضية حجرية ، ينفذ الماء من بين أحجارها إلى باطن التربة ، وشاهد أشعة الشرق تنعكس على سطح صخور البازلت المغسولة فانشرح قلبه ، ودخل الوكالة فسلّم وجلس إلى المكتب ، وحياه الصبىّ سميح قائلاً ''صباح الخير يا شيخ فريد'' ، فأحس لأول مرة بالعبء الذى

كان شيخه 'المرصفى' يسميه عبء الرياسة ، إذ أصبح رئيسًا للعمل وعليه أن يصدر الأوامر وأن يباشر 'الحكم' لأول مرة فى حياته ، وكان للوكالة مدخلان أحدهما شمالى (بحرى) يفضل الناس الجلوس عنده فى الصيف لشرب الشاى وتدخين الشُّبُك ، والثانى شرقى تدخل منه أشعة الشمس وتغمر المكان حتى ينتصف النهار .

وتوالى وصول المزارعين بأحمال الجمال من الفواكه والخضر فأفرغوها فى أكوام ، ووقف صاحب كل كومة على رأسها ، والصبى يناديهم ويسجل أنواع بضائعهم فى لوح من الإردواز بالطباشير ، ولم تمض ساعة حتى بدأ البيع - وكانوا يسمونه 'المبْيَع' ، وهو مزاد محدود، فدعا الصبى فريدًا إلى 'فتح المبْيع' ، فخفق قلب فريد ، ولم يدر ما هو صانع ، فتردد ، ثم قال بنبرات حاول أن يكسوها كل ما أوتى من ثقة - موجهًا كلامه للصبى والحاضرين - بسم الله ! بسم الله نفتتح المزاد! ثم قال للصبى أن يبدأ، فبدأ الصبى بتحديد أدنى سعر للبضاعة، وما لبث الأصوات أن تعالت ، وهو يزيد السعر ، حتى توقف عند أعلى حد وصل إليه المزاد فأعلن اسم المشترى وسجله، ثم انتقل إلى التالى وفريد يرقب ذلك بعين نهمة وأذن يقظة ، فهو لا يريد أن يخذل أباه فى أداء المهمة التى عهد إليه بها بل أن يكون عند حسن ظنه ، فلم يسمح لأى شىء أن يشغله عن العمل ، مهما يكن من جدته وغرابته ، فكأنما كان أمامه عالم جديد يفتح أبوابه ويدعوه للدخول ، وكان يعرف أنه يدخله دخول المتأنى المتمهل، ويتمنى دون أن يملك أن يسرع، فظل واقفًا يرصد كل صغيرة وكبيرة ، والساحة الشاسعة لا تزال غاصة بالبضائع ، حتى

علت الشمس ساطعة وهاجة فتجاوزت الضحى ، وهو لا يحس بأدنى تعب أو ملل ، والمشترون يحملون ما اشتروا ويخرجون من البوابة الشرقية ، حتى كاد النهار ينتصف ، وأخيراً أعلن الصبىّ انتهاء 'المبيع' بأن رسا مزاد القلقاس على الحاج غضبان ، فأعطى اللوح الكبير إلى فريد ، وطلب منه تسجيل الأرقام والأسماء فى دفتر الوارد والصادر .

وانكب فريد على العمل جالساً ، وجاءه غلام المقهى المواجه للوكالة بكوب من الشاى الساخن ، المحلى بالسكر ، فوضعه أمامه وجعل فريد يرشفه أثناء التسجيل ، ولم يكد ينتهى حتى سمع أذان الظهر فى مسجد 'الجندى' القريب من الوكالة ، فأغلق الدفتر ، وكان المشترون لا يزالون ينقلون ما اشتروه إلى بغالهم وحميرهم ، ونادى سميحاً الصبى وسأله عن مكان حفظ الدفتر فأشار سميح إلى درج له مفتاح ، فوضع فريد الدفتر فيه ، وحمل المفتاح الصغير وجعله فى جيب صداره الذى يرتديه تحت الجلباب ، ونهض خارجاً متجهاً إلى المسجد .

٣

لم يدهش فريد حين شاهد أباه فى المسجد ، إذ غالباً ما يؤدى صلواته فيه ، ربما لأنه قريب من الوكالة ، وربما لأنه حفظ القرآن فيه ويحفظ كتبه فى خزانته البحرية ، وربما لأنه كان يحبه لأنه – على حد تعبير والده – 'شرِح' أى واسع 'يشرح' الصدر ويسمح بدخول الشمس من عدة جهات، وكان فريد يحب هذا المسجد أيضاً ولكنه كان يفضل أداء صلواته فى مسجد الشيخ قنديل، لأنه قريب من المنزل، ولأن إمامه كان

كثيرًا ما يدعوه إلى إلقاء خطبة الجمعة ، فكان يحاكى فيها بعض شيوخه الأزهريين ، ويتخيل نفسه إمامًا فى جامع كبير ، مع أن المسجد فى الواقع 'زاوية' ، لا مئذنة له ، ومعظم رواده من القفّاصين (الذين يصنعون الأقفاص من جريد النخل) والنجارين فى الحى الغربى الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ، ومن العسير عليهم أن يتابعوا فصاحة فريد وبلاغته وتقعّره أحيانًا فى اللغة ، وفريد يحلو له كلّما أمّ المصلّين وخطب الجمعة أن يؤمه الناس بعد الصلاة فيسألونه فى أمور دينهم ودنياهم كأنما انتهى من دراسته ونال إجازته ، وكان يلتذّ بنظرات الاحترام والإجلال التى يحيطونه بها ، على صغر سنه ، بل ويجد لذة أكبر فى أن يظهر التواضع ويبالغ فيه ، فيشعر برضىً عميق كأنما كان يحقق روح التقوى والخضوع لله بذلك ، وأما فى مسجد الجندى ، وهو مسجد جامع ، فكان فريد واحدًا من مئات ، أحيانًا ما يتخذ مكانه فى الصفوف الخلفية ، بل وأحيانًا ما لا يكلم أحدًا أو يكلمه أحد .

لم يدهش فريد حين شاهد أباه فى المسجد ، ولكنه دهش حين رأى أحمد القزق ، فهو نادرًا ما يأتى إلى 'وسط البلد' ، وقد تكون لديه أسبابه الخاصة ، وهو جاره فى المسكن وكان زميلاً له فى الكتّاب ، لكنه لم يره منذ مدة طويلة ، ولم يَبْدُ عليه أنه تغير كثيرًا ، فاتجه فريد إليه وسلم وجلس بعد الصلاة ، وكأنما كان يتشوّق إلى معرفة ما أتى به إلى مسجد الجندى ، وكان حديثهما محصورًا فى البداية فى أخبار العسكر ومطالبهم، لكنه ما لبث أن تطرّق إلى أخبار العمل ، إذ قال أحمد فى رنة أسى إن أباه أغلق المعمل أمس ، ولم يأت العمال هذا الصباح ، فأصبح

يوم أمس عطلة إجبارية، بذريعة حماية الأخشاب من البلل ، منذ أن تلبدت السماء بالغيوم ، فسأله فريد : واليوم ؟ فقال أحمد إن خطر البلل لا يزال قائمًا ، أو هذا ما يقوله أبوه وإن كان أحمد يحس أن أباه يخاف العسكر ، وأن ذلك هو السبب الحقيقى لإغلاق المعمل ، وقال فريد فى نفسه إن أحمد لا يدرى شيئًا عن 'بيوت العفاريت' وحدس أن أبا أحمد أغلق المعمل حتى لا يُطلع أحدًا على نقل الأخشاب المُقطَّعة (الجاهزة) إلى أحد تلك البيوت ، وأن لا خوف الآن على المعمل من سطو العسكر فلابد أنه خلا من أى شىء ثمين ، وأوشك أن يُطمئن أحمد لكنه أمسك لسانه وقد أحس بفداحة العبء الذى حمّله له أبوه ، وألقى عند ذلك على المصلين الذين كانوا يتهيأون للرحيل نظرة شاملة كأنما يزهو فى أعماقه بما أصبح جديرًا به من عبء 'الرياسة' ، وتذكر تحذير أستاذه له من الزهو، فهو إثم ، فاستعاذ بالله من الشيطان ، وعاد يلاطف أحمد القزق ويسأله عن أحواله، فعلم أنه تزوج إحدى قريباته، وأنجب منها طفلين، مات الأول والثانى مريض، فطيب فريد خاطره ودعا للصغير بالشفاء، وفجأة قال أحمد : ولكن أخى محمد سوف يصل اليوم من القاهرة، وسوف أترك منزل العائلة – رغم مرض ابنى – لأن أمى تصر على إخلاء الغرفة لمحمد، وسوف أقيم أنا وأهلى فى منزلى الجديد بالقرب من المعمل فى طريق البوغاز ، وإن كنت لن أتوقف عن زيارة العائلة .

ونهض أحمد وهو يقول إن عليه أن يصحب ابنه المريض إلى الطبيب الفرنسى المقيم بالقرب من منزله الجديد ، مخالفًا بذلك نصيحة أبيه ، وذلك بعد أن ثبت أن الاعتماد على الحاجة زينب – صديقة أمه التى تزعم

التبحر في الطب – في علاج ابنه الأول لم يأت بالنتائج المرجوة ، ولم تثبت أية فائدة 'للوصفات السحرية' التي وصفتها، بل ازداد مرض الغلام حتى مات ، وحزن عليه الجميع دون أن يذرفوا دموعًا كثيرة ، فالأطفال – كما تقول أمه 'عصافير الجنة' ، وهم إذا ماتوا صغارًا قبل أن يلوثهم العالم أصبحوا أرواحًا خالدة تشفع لذويهم يوم القيامة ، وأحمد يؤمن بهذا ، لكنه يريد أن 'يأخذ بالأسباب' ، كما يقول العلماء ، لا أن يعتمد على سحر السحرة ، فالله هو الشافي ومن يدرى ، فقد يكون الطبيب الفرنسي من أسباب الشفاء ! وأمّن فريد على ما يقوله أحمد وهما يسيران نحو باب الخروج ، وقال بصوت هامس 'آمنت بالله' ، وعند الباب افترقًا فاتجه أحمد شمالاً نحو منزله ، واتجه فريد غربًا نحو الوكالة وقد اهتز كيانه هزًا لما سمع، وإن لم يكن يعرف سبب الهزة ، فجعل يحوقل، وحين وصل إلى الوكالة وجد أباه في انتظاره وأمامه صينية عليها طعام الغداء ، وإلى جانبه إبريق وطست وكوز فغسل يديه وجلس لمشاركة أبيه في الطعام .

ولم يتبادل الرجلان كلمات كثيرة أثناء الغداء ، فقد كان كل منهما مشغولاً بهمومه الخاصة ، فأما هموم الوالد فقد أصبح يعرفها حق المعرفة ، وأما همومه هو فلم تكن واضحة ، فهو يحس بثقل العبء الملقى على كاهله ، وتتنازعه صور حياته في القاهرة ودروسه ، وصور ما صار إليه حال أحمد القزق بعد الزواج ، وكانت فكرة الزواج في ذاتها تقلقه ، فلقد كبر أقرانه وتزوجوا وأنجبوا ، وهو يتوق إلى ذلك وإن لم يجرؤ على الإفصاح به ، وصورة العينين الخضراوين تُلحّ على مخيلته كأنما هي

صورة ثابتة لا تتغير بمرور الزمن ، وأبوه يقول إن عليه أن يؤجل الزواج حتى ينتهى من دراسته ، لكنه حتى إن أذن له فمن تراه يختار له من بين أقربائه أو من بين أهالى البلدة ؟ وهل تراه يستطيع أن يعترض على اختيار الوالد ؟ وذكر ما قاله له صديقه الفرنسى من أن النساء يختلطن بالرجال فى فرنسا ، وأن الشاب مسموح له باختيار زوجته ، فتمنى فى نفسه لو أن هذا ممكن ، ثم تألم حين تذكر أن صاحبة العينين الخضراوين بعيدة المنال ، فهى بالتأكيد ابنة الكاشف ، وعجب من نفسه لإصراره على تعليل نفسه بهذا الأمل الخادع - وسمع هاتفًا يصرخ فيه كأنما ينهره : ومن أدراك أنها لم تتزوج ؟

وابتسم لهذا الخاطر فقال له أبوه : خير ؟ فضحك فريد وقال : 'كل خير إن شاء الله ! أصلى شفت أحمد القزق وقال لى إن محمد أخوه راجع النهاردة من مصر !' وسأله أبوه إن كان قد عرف ما فعله محمد ، وهز فريد رأسه وهو يغسل يديه وفمه بعد الأكل فقال أبوه الذى كان يجفف يديه بفوطة صغيرة إن محمدًا التحق بخدمة المعلم جرجس الجوهرى ليتعلم لديه الحسابات وإمساك الدفاتر ، وسرعان ما أجاد الصنعة فقربه المعلم إليه وأكرمه ، بل وأصبح يتقاضى راتبًا كبيرًا وتمكن من بناء بيت له بالقرب من بركة الأزبكية مثل كبار القوم ، وربما تزوج واشترى الجوارى ، فهو طموح وهو - على حد تعبيره والده - 'يحب الدنيا حبًا شديدًا' !

واعترت فريد دهشة لم يستطع إخفاءها ، فتناول الفوطة فى صمت من يد والده وجفف يديه ولم ينطق ، وأبوه ينظر إليه ليرى تأثير ما قاله ،

لكن فريداً ظل صامتًا ، فهو لا يدرى ما يقول ، فالانتقال المفاجئ من حياة الدراسة إلى حياة العمل وعالم الكبار كان دائمًا يشل لسانه ، فما أبعد مشكلة كسر همزة 'إن' عن كسر شوكة الأعداء ، وما أبعد قضية رفع المبتدأ إن كان مفعولاً به فى حالة التنازع عن رفع الحصار عن البلدة ! والآن يطلب والده منه أن يتأمل نجاح محمد القزق فى عمله وإجادته لصنعة الحساب وإمساك الدفاتر ! ماذا عساه يقول ؟ وأتاه صوت والده كأنما يرن فى فضاء سحيق قائلاً : لم تقل لى رأيك فيما فعل محمد ! ورد فريد بصوت خافت يخرج بصعوبة من صدره : ماذا أقول ؟ وقال والده : إن المعلم الجوهرى قريب من السلطان ، والسلطان ليس له أمان ، وما يدريك أن ينقلب السلطان عليه وعلى من معه فيخسف بهم الأرض ؟ السلطان هو البعد عن السلطان يا فريد ! تذكر هذا جيداً وحذار أن يغيب عن بالك لحظة ! فأمّن فريد على قول أبيه إيماءً دون كلام ، فأردف أبوه قائلاً إن الدنيا خائنة ، والعمل لدى السلطان فيه عنصر ظلم مهما ينزعْ السلطان إلى العدل ، فالحكم لا ينجو أبداً من الأهواء ، ونحن بشر، نوايانا قد تصدق لكن أفعالنا أشد ميلاً للكذب ، فرجال المعلم الجوهرى يقدرون الضرائب على المحاصيل ، وعلى الأراضى ، وفى أيديهم سجلاتها وأورادها وحساباتها وما يسجل فيها من الأراضى البور فتعفى من الضرائب ، ومن المنزرع فيفرضون عليه القدر الذى يريدون، وسلطتهم فى ذلك مطلقة ، وكلمتهم نافذة ، وما يكتبونهم فى سجلاتهم لا معقب عليه بعدهم – فأى ضمان هذا للعدل ؟ ألا ترى أن المراجعة أقرب إلى العدل ؟

واستجمع فريد شجاعته وقال فى لهجة حاول أن تكون مهذبة إلى

أقصى درجة حتى لا يغضب أباه : "سمعت أن جرجس الجوهرى عظيم النفس كريم ، لا يوافق على إرهاق الناس بالضرائب والمظالم ، وكثيراً ما يطلب منه الباشا أن يجمع له قدراً كبيراً من المال فيقول له هذا لا يتيسر ويأبى !" وعلى عكس ما كان فريد يتوقع وجد أباه يوافقه قائلاً : "نعم ! هذا ما سمعته أنا أيضاً ، ومعناه أن الباشا سوف يتغير خاطره على 'جرجس أفندى' ، كما يسمونه فيعزله أو يقتله !" وتمنى فريد فى نفسه أن يسرع محمد القزق بالعودة حتى يقص عليه طرفاً من حياته فى العمل مع ذلك الرجل العظيم، لكنه قال لأبيه إنه يدرك ما يعنيه ، فنحن تجار نقنع بما تأتى به المقادير دون تواكل أو كلل - ونظر إلى أبيه نظرة ذات دلالة كأنما ليذكره بما فعلته البلدة اتقاء لشر الأرناؤوط ! ونظر إليه أبوه نظرة تأكد منها فريد أنه أدرك مرماه ، فتبسم ونادى صبى الوكالة وأمره أن يعيد الصينية إلى المنزل ، وأن ينصرف لتناول غدائه إن أراد ، فحمل سميح الصينية بعد أن غطاها بالفوطة وخرج ، ونهض فريد ووالده فاتجها إلى المكتب الصغير ، فجلس إليه الوالد وفريد واقف ينظر ، ثم أخرج الوالد دفتر المبيع وفتحه على صفحة اليوم ('اليومية') فألقى نظرة سريعة على الصادر قائلاً بصوت خفيض 'خطك جميل' وابتسم فريد وقال 'العفو' ، ثم قال الوالد كأنما دون اكتراث : "خذ ما تدفعه للفلاحين من الدرج السفلى كلما طلبوا المال ولا تنتظر حتى يدفع لك التجار ، وسجّل كل ما تدفعه فى هذه الصفحة (وأشار إلى صفحة خاصة فى آخر الدفتر) وأما ما يدفعه التجار فسجّله فى هذه الكراسة (وأخرج من جيبه كراسة خاصة) بعد أن تخصم منه نسبة ربح الوكالة". وسأله فريد بالنبرات نفسها ليخفى حيرته : وهل هى نسبة ثابتة ؟ فقال الوالد : "بل لا تتغير

أبداً ، والكل يعرف ذلك ، ونحن نتفوق على الوكالات الأخرى بضآلة النسبة، وبتخفيضها أحيانًا حين يكون التاجر رقيق الحال - مثل عم عبده الذى يبيع الخضر على عربة اليد ، فهو يبيع بأقل من 'التسعيرة' رغم أنه يحمل الخضر إلى أبواب الحارات ، بل وإلى أبواب البيت أحيانًا ، وفى هذا ما فيه من عَرَق ، كما إنه مُعيل ويعيش عيش الكفاف ، ويحلم بشراء عربة يجرها حمار ، والواقع إننى كثيرًا ما لا أخصم أى نسبة للوكالة فى معاملاته''.

ونهض الوالد قائلاً إن لديه أعمالاً أخرى ، وترك فريدًا وحده يتطلع فى حيرة إلى الدفتر وأسماء التجار الكثيرة ، وعندما ابتعد الوالد بدأ فريد يتساءل كيف يعرف رقيق الحال ، وكيف يميز الغنى من الفقير ، وهو الذى غاب عن البلدة سنوات طويلة ، وقال فى نفسه إنه يحتاج إلى وقت طويل حتى يعرف أسرار المهنة ، ولكن أنّى له ذلك الوقت وهو الذى يعتزم العودة إلى القاهرة لاستكمال دروس النحو ، فأما الفقه فقد أتم دروسه وتفوق فيها ، وأما التوحيد فلا أحد يجاريه فيه فى الرواق كله ، ولكن النحو لا يزال مشكلة ، وفجأة دخل الصبى وفى يده صينية صغيرة عليها 'كنكة' من القهوة وفنجان وكوب ماء ، ووضعها على المكتب قائلاً إن الحاج باشا صاحب المقهى قد أرسلها تحية لفريد ، ولم يدر فريد ما يقول لكنه قبل الهدية ، وصب الصبى القهوة فى الفنجان وخرج ، ونظر فريد إلى سطح الفنجان فوجد فقاعة ، وأمه تقول إن الفقاعة على 'وجه' القهوة تمثل صرة نقود فى طريقها إليه ، ونظيرة الدلالة تقول إنها عين حسود ! وابتسم فريد لهذا الخاطر فمن ذا الذى يحسده على ما هو فيه ؟

٤

صفت السماء عند العصر، وسطعت شمس الشتاء الباردة، وازدحم السوق بالمشترين، وعندما خرج المصلون من مسجد المحليّ بدت الطرقات غاصة بالناس وشبه جافة ، إلا الحارات الضيقة التى كان الكناسون لا يزالون يجتهدون فى إزاحة الماء منها ، وإزاحة الطين إلى الجوانب فكان يتراصُّ فى أكوام ، ومر فريد بمعمل إبراهيم الشامى المنجّد (أى صانع الأثاث) فألقى عليه السلام وهو جالس يستدفئ فى الشمس أمام الباب الكبير ، فرحب به إبراهيم ترحيبًا شديدًا ودعاه إلى شرب الشاى فاعتذر فريد ، وإن توقف برهة يتطلع إلى الكراسى التى كان العمال يطلونها بطلاء جديد يسمونه 'جَمَلَكَّه'، وآخرون ينقلون 'ضلفة' صوان ضخم فيها مرآة تعكس صورة الشارع والمارة ، وقال إبراهيم باسمًا لفريد 'ياالله شِدّ حيلك واتْأهّلْ والعَفْش عَلَيّا !' وشكره فريد ومضى يحث الخطى كأنما ليهرب من فكرة الزواج التى تطارده منذ أن عاد إلى رشيد ، لكنه توقّف قبل أن ينعطف فى الحارة المؤدية إلى شارع السوق حيث الوكالة حين مرّت بجواره فتاتان من بنات البلد ترتديان الملاءات اللّف ، وعلى الوجه برقع ذو رقبة ذهبية ، وقالت إحداهما بنبرات ودودة 'حمد الله بالسلامة يا سى فريد !' فغمغم 'الله يسلمك' وقالت الثانية ضاحكة 'البلد نوّرت !' ولمح العيون السوداء البراقة فتلعثم ولم يرد ، وعاد يسير مسرعًا لا يلتفت يمنة أو يسرة حتى وصل إلى الوكالة وهو يكاد يلهث فجلس على كرسى أمام الباب البحرى المواجه للمقهى ، يبترد بنسمات

العصر الفاترة كأنما يريد أن يطفئ ما فى داخله من لهيب ، وقد ثبتت عيناه على الأفق البعيد كأنما يقرأ المجهول .

ولا يدرى فريد كم لبث ينظر وإن كانت إلا لحظات معدودة ظنها دهرًا، إذ لاحت له صورة جواد يركض نحوه قادمًا من أقصى شمال البلد ، كأنما تمخض من العدم فتجسد، وظل يقترب حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى فركز بصره عليه وتبين أن راكبه يافع أمرد ، يرتدى رداءً عربيًا أبيض كأنه من فرسان العصور الخوالى ، وتتابع صوت حوافر الفرس حتى توقف أمام المقهى ، فترجّل الفارس وسار نحو المكتب الذى يجلس إليه الحاج باشا فى ظاهر المقهى وهمس إليه فقام الحاج ونادى بصوت عال أن اسمعوا وعوا يا أهل رشيد ! ونهض الجالسون وتجمع المارة فى حلقة حول 'الفارس' الذى بدأ يتكلم ، وهو ينظر فى ورقة فى يده ، وفريد يصغى بانتباه حتى فرغ .

كان فحوى الرسالة أن الكاشف قد جاءه أمر من الأمير إسماعيل ، ابن الباشا نفسه، بإجابة طلبات الجيش اللازمة لبناء القشْلات (جمع قشْلة وهو مكان إقامة الجيش فى الشتاء) وأما هذه الطلبات فهى أعداد محددة فُرضت على كل قرية من الطوب (اللّبِن المحروق) وأفلاق النخيل والجريد ، والحيوانات اللازمة من البغال والحمير والجمال ، إلى جانب من يريد العمل من الرجال والنساء والأطفال فى بناء تلك القشلات لجنود الباشا ، وسوف يحدد الكاشف أجور العمال وإن كانت لن تقل عن سبعة أنصاف فضة فى اليوم ، والمهلة المحددة لذلك شهر كامل ، فليتدبر كل أمره ويقدم ما يستطيع ، ولابد أن يقدمه عن طيب خاطر ، فهذه فرْصة

(وينطقونها فرْدة) يؤديها الأهالى للجنود الذين يبذلون أرواحهم فى قمع المتمردين الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين فى بلاد العرب ، وانتهت الرسالة بتذكير الأهالى بأن الباشا قد أكرمهم بإلغاء نظام الالتزام الظالم الذى كان يرهقهم بالضرائب الجائرة ، فأصبح الكاشف وهو من أبناء الناحية بديلاً عنه ، وهو أدرى الناس بمصالح الناس وما فيه خيرهم ، وأن القشلات سوف تؤول إلى أهل البلد عند رحيل العَرَضى (أى الجيش) وهكذا فهو لا يطلب شيئًا لنفسه ، بل يعمل لصالح البلد - ثم دعا الفارس لأمير المؤمنين وللباشا ونزل من المنصة التى كان يقف عليها فركب فرسه وانطلق إلى مكان آخر فى السوق .

وتفرق الناس وهم يهمهمون ويغمغمون ، لا يدرون ما يصنعون ، وأحس فريد بوحشة لا عهد له بها ، فلا أحد معه يستطيع أن يستشيره أو يشكو إليه بثّه وحزنه ، وأبوه الذى يمثل صلته الوحيدة بهذا العالم - وإن كان موطنه - غائب لا يعلم إلا الله أين ذهب ، والشمس مالت للمغيب وربما يأتى المطر ، ترى هل يستطيع أن يترك هذا كله فيعود إلى القاهرة فينسى ما يحدث فى رشيد ، وهل فى طوقه أن يقطع ما يربطه بهذه المشكلات التى ما كانت فى حسبانه يومًا ما ، فلقد أراد قضاء عطلة يستروح فيها أنسام الصبا ويهرب فيها من غربة القاهرة ، وأنباء الباشا وجنود الباشا ، وأقاصيص الحكام والكبراء ، فى الساعات التى يهرب فيها من دروس النحو ، فإذا به اليوم لا يكاد يفيق من هم إلا اعتراه هم آخر ، ووجد نفسه يدخل الوكالة مطأطئ الرأس ، وسمع صوتًا يناديه يا شيخ فريد ! يا شيخ فريد ! فانتبه فإذا بأحد التجار يحمل صُرّة دفعها

إليه ومضى دون أن يقول المزيد ، وناداه فريد فى دهشة وسأله عن اسمه فقال الرجل بدهشة أكبر بل بلهجة استنكار إنه إسماعيل الخشاب ، ثم انطلق لا يلوى على شىء ، فنادى فريد الصبى الذى كان يكنس المكان وسأله عن إسماعيل الخشاب فقال الصبى إنه تاجر الأقفاص الشهير ، وحدس فريد من لهجة الاستنكار فى كلام الصبى أن التاجر نار على علم، ولكنه أصر على أن يعرف المزيد فسأل الصبى عن سبب تقديمه صرة النقود لفريد، فقال الصبى لابد أنه يسدد بعضًا من ديونه ، ثم مضى مسرعًا فقد كان يريد الانتهاء من عمله قبل حلول الظلام ، وحار فريد فيما عساه فاعل بالنقود فعدّها ، وفتح الكراسة التى خصّصها والده لقيْد المدفوعات ، وسجل المبلغ ، ولم يكد ينتهى حتى توالى وصول التجار ، واستمر فريد فى التسجيل حتى سمع أذان المغرب ، فانكب على عمله بهمة حتى لا تفوته المغرب، لكنه قرر أن يعود بالمال إلى المنزل أولاً، ومن ثم وضع الأكياس فى حقيبة حملها فى يده وسار عائدًا إلى المنزل .

وعندما دخل الحارة رأى على البعد مصابيح مضيئة وعربة تجرها الخيول واقفة بجوار منزله ، فأخذه العجب وأسرع يستطلع الأمر فتبيّن له عندما اقترب أنها واقفة أمام بيت القَزَق ، فتمهل يتأملها فإذا هى تشبه عربات الأمراء ، مزركشة وموشاة ، وفرشها جميل نظيف ، والخيول الأربعة تشبه جياد الفرسان لا أحصنة الجرّ الهزيلة ، فحدس أن محمدًا القَزَق قد وصل ، وأن العربة من صنع النجّارين فى القاهرة ، ففرح بقرب لقائه مع هذا الذى ضحكت له الدنيا فأصبح من سُراة القوم ، وحدثته نفسه بسؤال الحوذىّ الذى كان جالسًا على كرسى القيادة لكنه تذكر

'المغرب' فأهرع إلى منزله فقرع الباب وصعد مسرعًا إلى غرفته فوضع النقود والكراسة ، وتوضأ وجرى خارجًا إلى مسجد الشيخ قنديل القريب حيث تمكن من إدراك 'الجماعة' ، وأحس أن الصلاة قد أراحته من بعض الهم فظل فى مكانه يرقب الفراشين وهم يوقدون المصابيح ويغلقون النوافذ .

بدأت ألوان الشفق تعلو الأفق الغربى ، وفريد يتطلع من النافذة إلى السماء الصافية، وتلألأت الزُّهرة ، نجمة المساء التى يحبها فريد حبًا جمًا، فتذكر قول الشيخ الباجورى عن 'فوائد' بيتى البوصيرى ، وتعلق بصره بها ، ثم قرأ الآيات التى اعتاد قراءتها كل غروب وشروق ، وهى التى تبدأ بـ "قل اللهم مالك الملك" ، وتنتهى بـ "وترزق من تشاء بغير حساب" وصدّق ، ثم خطر له أن هذه أول مرة يدرك فيها معنى تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء" ، فإرادة الله فوق إرادة كل مخلوق، والله سبحانه هو الذى أتى الباشا هذا الملك ، فسبّب له الأسباب وأعانه ، ومن يدرى، فقد يريد الله له أن يجتمع بذات العينين الخضراوين دون حاجة إلى بَيْتَىْ البوصيرى ، ولا يُعقل أن يكون فى البيتين سحر ، فالسحر منهىٌّ عنه والله لا يحب السَّحرة ، واستمر تطلع فريد إلى السماء واللون الأخضر يكتسب قتامة ويزداد لمعان الزُّهرة ، فقال فى نفسه إن ذات العينين الخضراوين أجمل ، وخطر له أنه لو كان شاعرًا مثل الإمام الشبراوى لكتب فيها شعرًا ! وابتسم لهذا الخاطر فما له والشعر ؟ وأفاق من خواطره على صوت يناديه فى شبه همس ، ولابد أنه ناداه عدة مرات قبل أن ينتبه فريد ، فالتفت فإذا هو عباس الشباسى ، الصياد الذى رافقه من الاسكندرية إلى رشيد ، فرحب به ودعاه إلى الجلوس .

كان عباس قد تخطى الأربعين، قصيرًا ربْعة القوام مفتول العضل، وخط الشيب لحيته القصيرة ، وفى يديه وقدميه خشونة من يعملون فى البحر ، وكان صوته عميقًا أجشّ مثل أصوات الأبواق الفرنسية ، فيه بحّة غريبة ، وكان يتحدث بتؤدة كمن يجد صعوبة فى العثور على الكلمات ، وما أن جلس حتى قال لفريد : "إنهم يريدون أن يأخذوا ابنى !" وأدرك فريد أن ضمير الجمع يعود على رجال الباشا فسأله "إلى أين ؟" فقال عباس "لعمل الطوب !" فقال فريد "ولكنهم سوف يدفعون له أجره ! فتلعثم عباس ثم قال : "سبعة أنصاف فضة !؟ وأنا أحتاج إليه فى العمل ، وينوب عنى حين أمرض ، فهو الوحيد الذى بقى لى ، والبنات لم تتزوج بعد !" وحار فريد ماذا يقول - هل يدافع عن الأجر الهزيل ويلتمس الأعذار لابن الباشا ، أم يواسيه معلنًا عجزه ، أم يعده وعدًا لا يستطيع أن يفى به ؟ وسادت لحظة من الصمت الموحش قبل أن يقول فريد "سمعت أن العمل لن يقتضى إلا أيامًا معدودة !" وهو يتطلع إلى وجه عباس ليرى وقع الكلمات ، لكن الملامح الجامدة لم تفصح عن شىء، وعاد الصمت الموحش، ثم قال عباس "يقولون إن أمامنا شهرًا ! لكن الجنود مروا على البيوت وأعلنوا أن العمل يبدأ غدًا !" وسمع فريد أصواتًا تنم عن حركة فتلفّت فإذا رواد المسجد الذين كانوا ينتظرون أذان العشاء قد تجمعوا حولهما ، فأحس بحرج شديد فى صدره ، وحدس أن لكل من هؤلاء شكاة يود لو بثّها ، فألقى ببصره إلى النافذة التى سادتها الظلمة كأنما يتعجل صلاة العشاء ، أو كمن يرى فيها مُنقذه من هذا 'الموقف' ، ثم استجمع شجاعته وقال : "أما سمعتم أن هذه القشلات سوف تؤول إلينا بعد رحيل الجنود ؟ والأهم من ذلك أن قمائن الطوب سوف تصبح

فى أيدينا نبنى بها بيوتًا لأولادنا ! اذكروا إذن أنكم تعملون لخيركم ، وما تفعلوا من خير يؤد إليكم وأنتم لا تُظلمون ! صدق الله العظيم" ومع تصديق الناس ارتفع الأذان .

٥

بدأ الناس العمل بهمة ونشاط منذ الصباح الباكر ، فأخرج الحاج خميس يونس – صاحب قمائن الطوب السبعة القائمة على ضفة النيل الغربية – القوالب الخشبية ، وأمر عماله أن يعيروها للعاملين فى هذه المهمة ، وأخذ إبراهيم الشينى على عاتقه مهمة جمع الأفراد اللازمين للعمل ، فجعل يمر على البيوت منذ الصباح الباكر ويسأل من يريد الالتحاق أن يأتيه بعد صلاة الظهر فى دكانه الصغير فى شارع البحر ، وهو الشارع الموازى لشاطئ النيل ، ولا تفصله عنه سوى بعض الحدائق ومساحات تغمرها المياه فى موسم الفيضان ، ويعمل لديه اثنان من الكتبة درسا الحساب فى مدرسة القبط ، وهى مدرسة على النمط الإفرنجى أنشأها الفرنسيون إبّان مقامهم فى البلدة ، واستأذن أحدهم من 'سارى عسكر الفرنسيس' أن يسمح له بالبقاء فيها فأذن له ، واستعمل فيها – بعد خروج الفرنسيين – ثلاثة من أبناء البلدة ، وكانوا قد درسوا فيها فتعلموا اللغة الفرنسية والحساب والهندسة ، وهم زكريا وجرجس وعبد الرافع ، والأولان أخوان كانا عند ذاك – أى منذ خمسة عشر عامًا – فى نحو العشرين ، والثالث يكبرهما بنحو خمس سنوات، وكان قد انتهى من دراسته بالكُتّاب ثم التحق بالمدرسة فأظهر نبوغًا مثلهما ، وكان اسم

المدرسة الرسمى هو 'الأساس المتين' ، ولكن أهالى البلد يطلقون عليها مدرسة القبط على الرغم من أن مُنْشئها فرنسى وليس قبطيًا ، لأنه كان يؤدى شعائره فى الكنيسة القبطية فى أقصى شمال البلدة لا فى كنيسة الأروام فى قلب السوق ، ولأن أبناء الأقباط كانوا يدرسون فيها ، وكان الإقبال عليها شديدًا ، بل كان من عادة الأُسر ذات اليسار إلحاق أبنائهم بها فى عطلات الكُتّاب ، وإليها يرجع الفضل فى تعلم فريد للّغة الفرنسية، وكان معظم العاملين بالحسابات وإمساك الدفاتر يقضون فيها فترات تتراوح بين عامين وخمسة أعوام ، ومنهم من ترك رشيد ووجد عملاً مربحًا فى الاسكندرية أو فى القاهرة ، وكانت الشهادات التى تمنحها مُوَقّعة من الكاشف ، وهكذا كان الكاتبان العاملان لدى إبراهيم الشينى يعتزان بشهادتيهما ويعلق كل منهما شهادته فى إطار مُذهّب فى صدر الدُّكان .

وانطلق رجال الكاشف إلى الحقول يطلبون الجريد واللّيف وأفلاق النخيل ، ويغرون المزارعين بأسعار مجزية ، ويشترطون على كل من يريد بيعها أن يتولى نقلها إلى شاطئ النيل حيث يجرى تحميلها فى السفن التى أرسلها ابن الباشا ، وهناك يحصل على الثمن الذى يحدده الكاتب الرومى ، واغتنم الكثيرون الفرصة فتخلصوا من النخيل التى قَلَّ ثمرها أو انعدم ، وأخرجوا بعض المخزون الذى كانوا يستخدمونه فى الوقود ، كما انتهز آخرون الفرصة فأرسلوا الصغار من أبنائهم وبناتهم إلى شاطئ النيل للعمل فى ملء القوالب الخشبية بالطمى ، وحملها وتفريغها فى المناشر (جمع مَنْشر) وهى أماكن التجفيف التى توضع فيها ثلاثة أيام قبل إدخالها إلى الأفران ، أى القمائن ، قائلين إن مبلغ سبعة أنصاف

فضة قد يكون زهيدًا للكبار لكنه لا بأس به للصغار ، وكان الجميع يعرفون أن 'الأسعار المجزية' التى تحدث عنها رجال الكاشف ليست 'مجزية' فى الحقيقة ، لكنهم كانوا يفضلون أن يبيعوها بأثمان بخسة على إغضاب الكاشف ، فغضبه سيجر غضب إسماعيل باشا الذى ضرب خيامه فى الحماد ، وأرسل فرقة الأرناؤوط إلى أبى مندور وغضب طوسون باشا الذى ضرب خيامه فى برنبال ، على الضفة الشرقية للنيل ، وكلاهما قادر على التنكيل برشيد وأهلها ، فالكبار لم ينسوا ضرب رشيد بقنابر الإنجليز الذين نصبوا مدافعهم على تلال أبى مندور ، بل يذكرونه ويعونه الوعى كله ، فالأرناؤوط الذين يعسكرون على التلال نفسها ينتظرون غضب الكاشف ليطلقوا مدافعهم، والكبار لم ينسوا عسف الفرنسيين من قبل الانجليز ، إذ كان الفرنسيون لا يتورعون عن إحراق قرى بأكملها إن هى رفعت السلاح فى وجوه الجنود ، وقرية شباس عمير الجديدة مبنيّة على أنقاض حريق القرية القديمة ، ومن يدرى ، ألا تبلغ الغفلة بالأرناؤوط حدّ إحراق المحاصيل نفسها ، مصدر أرزاق الفلاحين وهى التى ينهبون منها ما يريدون ؟

يذكر الكبار ذلك ويعرفونه ، ووالد فريد أعرف الناس به ، لكن أحدًا لا يُفصح عنه ، فشرعة اليوم الصمت ، بل إن والد فريد لا يشير إلى ما يعرف وما يخاف ، ولو عَرَضًا ، فى حديثه مع ابنه ، فهو حريص حكيم ، وهو دائمًا ما يقول فى نفسه لم يُسمّنى والدى 'عبد الحكيم' عبثًا ، فلقد عاش أوقاتًا عصيبة وآتاه الله الحكمة فأرادها لابنه، وكان فى التسمية تضرع إلى الله أحكم الحاكمين ألا يبخل عليه بها ، وما دمت أخاف الله

فسوف يدعم حكمتى ويزيدها ، بل ويلهمنى أن أشْرِبَ ابنى حُبَّها ، وهى لابد أن تبدأ فى زماننا بالكتمان ، فالكتمان أمانة العقل الواعى وأثمن نعم القدير على العباد . ووالد فريد لا يتوانى عن الأخذ بيد ابنه على سبيل الحكمة ، وهو يرى الآن أن ابنه قد بلغ السِّنَّ التى تؤهله لتحمل الأمانة ، ولذلك فهو يشركه فى أمره ، وكان فى أعماقه سعيدًا بأنه تطوع للذهاب إلى الكاشف وإن لم يبح به لابنه ، فلقد كان يريد له أن يحيط بالمزيد من أحوال البلد ، بعد غربته الطويلة ، ولم يكن فى أعماقه يريد له أن يتكسب مما تعلمه فى الأزهر ، فمن يجعل العلم مهنة 'يمتهنه' ، والعلم فى نظره وسيلة لا غاية ، فالعلماء كثيرون ، ومنهم من يبيع علمه بل وضميره فى سبيل الدنيا ، أما والد فريد فيؤمن بأن طريق العلم لابد أن يفضى آخر الأمر إلى العمل ، وهو يريد لابنه أن يعمل معه فيرعى الوكالة ويشرف على قطعة الأرض التى يملكها وتمكّن بالحيلة من إبقائها فى حوزته رغم استيلاء الباشا على كل الأراضى ، فهو يدفع خراجها إلى الجُباة 'ويُرضيهم' بالوسائل المعهودة حتى تظل مورد رزق لأهله ، ولَكَمْ طمع الجباة فى أكثر من الهدايا فَصَدَّهُمْ برفق ، وكان أيام الالتزام وثيق الصلة بالملتزم ، يلاطفه ويعامله بالحسنى واللّين ، بل كان دائمًا ما ينصحه بألاّ يقتصر فى التزامه على تقديم الضرائب إلى الباشا بل أن يتعدى ذلك إلى التزام بالآية الكريمة ﴿**فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ ، وها هو يتبع الأسلوب نفسه مع الكاشف ، ويرجو أن يرث ابنه أسلوبه منه .

ولم يكد النهار ينتصف إلا والعمل قائم على قدم وساق فى تسجيل

أسماء 'المتطوعين' من الكبار والصغار فى عمل اللّبِن والطوب ، وأسماء من يعرضون تقديم الجريد والليف وأفلاق النخيل ، ووالد فريد ينتقل بين هؤلاء وهؤلاء ليطمئن على تلبية رغبة ابن الباشا ، وسرعان ما جاءت الأنباء بأن كُشّاف القرى المجاورة قد تلقوا أوامر مماثلة فعكفوا على العمل بالروح نفسها ، وأهمهم الشيخ خضر كاشف 'منشية عمران' ، وهى قرية بالغة الخصب فى البر الشرقى وأقرب القرى إلى برنبال حيث معسكر الأمير طوسون ، وقيل إنه لم يصل بعد وربما كان فى الطريق ، وقيل إنه ينتظر استكمال بناء منزل فاخر فى برنبال يليق بالموسيقيين والمغنين الذين أحضرهم معه من القاهرة مثل إبراهيم الوراق ، والحبابى وقشوه وغيرهم والراقصين والراقصات ، إذ زُعم أنه يجتهد الآن فى جمع حشد منهم لإقامة مباهج تنسيه هموم الحرب فى بلاد العرب ، وقيل إنه يبكى ضياع شبابه فى حروب فرضها أبوه عليه ولم يحقق فيها النصر المرجو ، ولذلك كان الشيخ خضر يصل الليل بالنهار فى العمل ، حتى لا يغضب عليه الأمير ، وأما كُشّاف القرى فى البر الغربى حيث تقع رشيد فهم ينتوون إرسال المطلوب إلى معسكر إسماعيل فى الحماد ، وأهمهم زُرْدُقُ الرومى كاشف برج مغيزل والشيخ الساداتى كاشف أبو الريش .

وعندما اطمأن والد فريد إلى أن رشيد ، وهى الميناء الكبير ، تقوم بالعمل على خير وجه ، عاد إلى الوكالة حيث فريد ينتظره لتناول طعام الغداء ، ولم تغب عن فطنة الوالد مسحة القلق التى كانت تكسو وجه ابنه، لكنه لم يشأ أن يسأله لأنه يعرف أنه بدأ أول اختبار حقيقى للنضج ، وأن ذلك الاختبار عسير وآلامه أشد من آلام المخاض ، وإن كان واثقًا من

اجتياز ابنه له فهو شعلة من ذكاء ، حريص على سمعته ، قوى الشكيمة ، كتوم صبور ، أو هكذا كان يرى الوالد ولده ، وعندما انتهى الغداء أراد التخفيف عنه بأحاديث السمر المعهودة ، ولكنّ فريدًا كان يرد باقتضاب وأدب ، حتى انتقل الحديث إلى محمد القَزّق ، فقال له أبوه : هل قابلت صديقك القديم ؟ وضحك وهو يردف 'أرجو أن يكون قد عرفك بعد هذه الغيبة الطويلة !' فإذا بوجه فريد ينفرج وهو يقول : لقد ترك لى رسالة مع الصبى فى الفجر يقول فيها إنه يريد أن يرانى فى صلاة العشاء فى مسجد الإدفينى ! ولا أدرى سبب هذا الاختيار !

كان فريد يتصور أن ذلك مبعث تفكه مؤكد للوالد، إذ لماذا يذهب إلى مسجد الإدفينى النائى وشبه المهجور وبعد هبوط الظلام وأمامه مسجد الشيخ قنديل ؟ ولكن الغضب الذى علا قسمات وجه أبيه كان كفيلا بتكذيب ذلك التصور ، فقد اكفهرت ملامح الوجه البشوش ، وبدا القلق جليًا يكاد ينطق فى عينيه ، فخلد فريد إلى الصمت، إذ كان يعرف أن أباه سرعان ما يستعيد رباطة جأشه ، ولم يكذب ظنه هذه المرة ، فلم تمض لحظات حتى نهض والده إلى مدخل الوكالة البحرى وأطل منه على الجالسين على المقهى ، ثم عاد فاتجه إلى المدخل الآخر فنظر إلى الطريق شبه الخالى من المارة ، ثم رجع إلى مقعده أمام ابنه واقترب منه كمن يريد أن يفضى إليه بسر خاص ، فأرهف فريد سمعه ، فتنحنح والده وقال هامسًا : لابد أن تذهب ! لكنْ اذهب لتسمع لا لتتكلم ! إن شيخ ذلك المسجد من عيون الباشا ، أو قل إن هذا ما نتصوره ، فهو ليس من أبناء البلد ، وقد نال منصبه فيما نظن مكافأة على ما نقله إليه من أخبار البلد ، ونحن نريد أن

نستوثق من هذا الذى نعرفه ، أو نتصوره ، حرصًا على مستقبل الناس فى هذا البلد الأمين !

وتوقف الوالد برهة ساد فيها الصمت وانعقد لسان فريد ، فاستأنف الوالد حديثه الهامس قائلاً : وأرْهِفْ السمع أيضًا لما يقوله محمد ! لا تَغُرَّنَّكَ صداقتكما القديمة ، فهو طموح يريد رضا جرجس الجوهرى حتى يقرّبه من السلطان ، والطموح صنو الطمع، والطامع طالب للدنيا ، وطالب الدنيا لا يشبع ، مثل طالب العلم ، وكلاهما يسعى دون كلل لنوال مطلبه ، ولكن بصيرة طالب الدنيا لا تنفتح مثل بصيرة طالب العلم ، بل ربما عميت، وربما زلت قدمه ، وربما أقدم على ما لا يرضاه الضمير !" وتوقف الوالد ، ونادى الصبى فعاد بصينية القهوة إلى المقهى ، وخرج ، تاركًا فريدًا يحدق ذاهلاً فى ظلال الظهيرة التى بدأت تميل ناحية الشمال .

الفصل الثالث

الهـــارب

كان الطريق إلى مسجد الإدفينى مقفرًا ، إذ يقع المسجد فوق ربوة على مشارف الصحراء من حيث تهب الرياح فتحمل رمالها إليه فى الصيف ، ولذلك يُحكم الفراشون إغلاق نوافذه الغربية دائمًا ، وقد مر فريد أثناء صعوده الربوة بالمنطقة الرملية التى كان يرتادها فى طفولته لجمع أوراق نبات الخُبّيزى (وكان ينطقونها 'الخُبّيرة')، وهو النبات الذى ينمو وحده فى الشتاء بعد المطر فى صحراء رشيد الغربية، وكان الأهالى يسمون هذا النوع من النبات نبتًا ''شيطانيًا'' ولم يكن فريد يرتاح لهذه التسمية ، وكان دائمًا ما يسأل نفسه لماذا لا يسمونه نبتًا ''ملائكيًا'' مثلاً، دون أن يجد إجابة على سؤاله، كما مر بالمنطقة التى يقيم فيها 'العرب' ، وهم - فيما قيل - من قبيلة أولاد على ، يطلق عليهم البعض اسم 'الغَجَر' لأنهم دائمو الترحال، وكانت حياتهم محوطة بالألغاز، فكثيرًا ما كان فريد يتساءل عن نظم حياتهم وشرائعهم دون أن يجد إجابات شافية ، فهو لا يعرف أين يذهبون حين يرحلون بأغنامهم وجمالهم ،

وكيف يطيقون الأمطار فى الشتاء والحرّ فى الصيف ، ولم تكن لهم مواسم رحيل أو قدوم، كما يبدو أنهم لا يخضعون لسلطة الكاشف أو حتى لسلطة الوالى أو الخليفة ، وكثيرًا ما كان يقول فى نفسه تراهم من أعراب البادية الذين ينتجعون الكلأ فى الفيافى والقفار ؟ تراهم من بقايا العصور الخوالى وقد خرجوا على الزمن نفسه ؟

وعندما وصل إلى المسجد تزاحمت فى رأسه صور الطفولة ، وأهمها صور صلاة العيد خارج المسجد 'فى الصحراء' - كما كانوا يقولون - فهى سُنّة ، وعندما دخل المسجد وجده مضاءً بقناديل فاخرة ، عامرة بالزيت الطيّب (زيت الزيتون) ، فهو يعرف أن الشيخ الإدفينى ، صاحب الوقف الشهير ، أوصى بذلك ، وراعه جمال المسجد والزخارف التى أضيفت إليه ، فخلع خُفّيه وصلى ركعتين تحية المسجد ، ونظر حوله فوجد المصلين متفرقين هنا وهناك يتحدثون أو يقرأون ، لكنه لم يلمح من جاء من أجله، فجعل يفكر فيما قاله أبوه ، ويتعجب لصروف القدر التى ألقت على عاتقه أعباء لم يكن يحسب لها حسابًا وهو الذى كان ينتوى قضاء عطلة ينسى فيها هموم القاهرة .

وسرعان ما أُذّن لصلاة العشاء ، وكان المسجد ما زال شبه خالٍ ، فنهض واتجه إلى الصفوف الأمامية لعل محمدًا يكون هناك ، وأجهد ذهنه فى استحضار صورة ذلك الشاب الذى كثيرًا ما صاحبه فى الرحلات النيلية فى صباه ، وكان إذ ذاك أمرد ، وقال فى نفسه لابد أن له لحية كثة الآن ، فهل سأعرفه ؟ وبعد فترة أقيمت الصلاة ونشط المصلون فى الرحيل ، وكان يوشك أن يرحل بعد أن أحس بمزيج من خيبة الأمل

والراحة لزوال العبء الجديد ، حين سمع صوتًا يناديه ، والتفت فإذا شيخ المسجد نفسه يشير إليه بالاقتراب ، فذهب إليه فصافحه وجلس ، ولم يلبث محمد القزق أن جاءهما من الجانب الآخر من المنبر فسلّم وجلس .

كان محمد كعهد فريد به ، قصيرًا نحيلاً ، خفيف شعر اللحية والشارب إلى درجة ملحوظة ، ولكنه كان يرتدى عباءة من الجوخ الفاخر ، وعمامة ضخمة أضفت على وجهه مسحة جلال ، وكان كعهد فريد به خفيض الصوت مهذب النبرات ، وكانت عيناه تشعان بريقًا غريبًا يؤكد ما يعرفه فريد عنه من ذكاء لمّاح ، وما أن انتهى من التحايا والسلامات حتى بدأ يعاتب فريدًا على مقاطعته أبناء بلدته المقيمين فى القاهرة وعلى تركيزه الذى فاق الحد فى العلم ملّمحًا إلى أن علماء البلد ليسوا قلة ، وأن الدنيا قد تغيرت منذ أن أعدنا وصل ما انقطع من صلات تربطنا بالعالم من حولنا ، وأن لطلاب العلم عملاً أكبر من الوعظ أو إمامة المساجد ، وإنْ لم يقلّل من أهمية ذلك العمل، وأشار إلى إمام المسجد الجالس معهما قائلاً إنه قد بدأ يزهد هو نفسه فيه ، ويرجو محمدًا أن يجد له عملاً فى القاهرة ! ونقّل فريد بصره دهشًا بين محمد والإمام (وكان اسمه إبراهيم الحنفى) وهو يعرف أن هذه 'المقدمة' لابد أن تؤدى إلى الغرض الأساسى من المقابلة . .

ولكن انتظار فريد طال إذ شرع محمد يقول : "تعرف أن الباشا يريد إدخال نظام جديد فى الجيش ، قوامه الضبط والربط ، فالنظام هو سر النجاح فى كل أمور الحياة ، وانظر إلى مواقيت الصلاة وانضباطها، وشرائع الدين الحنيف وانضباطها ، وانظر ما يحدث حين ينحرف الناس

عن ذلك فيجنحون إلى الفوضى – مثل المماليك!" وتوقف محمد ليرى وقع كلماته ، وكان فريد يريد أن يقول ولكن المماليك ..." فهو يعرف الكثير عنهم وكثيراً ما أفضى إليه أهل القاهرة بأخبارهم ، ولكنه تمكّن من إمساك لسانه وإقصاء الكلمات عن ذهنه ، واكتفى بإيماءة خفيفة استأنف محمد الحديث بعدها قائلاً : "إنهم يتهمونه بمحاكاة الإفرنج ! لكنْ – ألم يقل لنا الله إنه يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص ؟" وقال فريد بسرعة 'صدق الله العظيم' فأسرع محمد يقول بالنبرات الخافتة الوئيدة نفسها "ولكن الجنود – حتى الأرناؤوط من بنى جلدته – لا يحبون ذلك ، ولا يعرفون عن القتال إلا الكر والفر ! بل لقد تجاسروا على التآمر عليه ومحاولة قتله – ألم تسمع بذلك ؟" فقال فريد إنه سمع الكثير ولكن التمييز بين الصدق والكذب عسير ، فقال محمد "فأنا أقول لك الحقيقة" وأخرج من كُمّه ورقة جعل ينظر فيها من حين لآخر وهو يروى ما يروى قائلاً :

"عندما حاول الباشا تعليم الأرناؤوط نظم الحرب الحديثة ، إلى جانب بعض المماليك ، كان يدرك أن ترويضهم عسير مثل ترويض الخيول الجامحة فتوعد من يخالف أوامره بالعقاب ، فاجتمعوا فى مساء الخميس ٢٧ شعبان فى بيت عابدين بك ، وبينهم كِبَارُهُمْ (حجو بك ، وعبد الله أغا صارى ، وحسن أغا الأزرجانلى) واتفقوا على الهجوم على داره بالأزبكية فى فجر الجمعة ، وقد أنسوا فى عابدين بك موافقتهم على ما اعتزموه ، إذ كان مريضاً منذ أن عاد من الحرب فى الحجاز ، وكان دائم الشكوى والتذمّر ، لكنه مخلص أمين ، وما لبث أن غافل المتآمرين أثناء انشغالهم

بالطعام والشراب فتسلل متنكرًا وأنذر الباشا ، فخرج الباشا مسرعًا فى منتصف الليل إلى القلعة ، تاركًا الحراس حول الدار لإيهام المتآمرين أنه لا يزال فيها ، وعندما هجم المتآمرون وتيقّنوا أن الباشا قد أفلت حاولوا نهب داره ، فاشتبك الحراس معهم وقتلوا منهم العديد ، فلم يسع الأرناؤوط إلاّ الانقضاض على أسواق القاهرة يسلبون وينهبون ، ولم يُعفوا إلا حى الأزهر فيما سمعت ، وإن كان البعض يقولون إنهم هجموا بعد العشاء على سوق الحسين أيضًا ".

ولما كان ذلك ما شاهده فريد بعينى رأسه فقد هز رأسه موافقًا ، وسُرّ محمد بموافقة فريد وتصديقه إياه فاستأنف حديثه قائلاً : "ولكن الباشا دفع تعويضات سخية للتجار عما لحق بهم من خسائر ، ولقد عملت بنفسى فى حساب تلك التعويضات وأشهد أنها كانت بالغة السخاء ، إذ أمرنا المعلم غالى ألا نراجع تاجرًا فيما يطالب به مطلقًا ، ولعلك شهدت ما حققه ذلك من رضى بينهم ، فكان رمضان الماضى شهر وفاء النيل ووفاء الحاكم!"

وابتسم الإمام وهو يقول لمحمد 'أحسنت' وابتسم فريد لبسمته، دون أن ينطق ، فقال محمد بسرعة : "أنت تعرف أن الباشا قد أبعد الأرناؤوط عن القاهرة حتى يرفع الأذى عن أهلها وحتى يريحهم من عناء الحرب فى بلاد العرب ، وأرسل على رأس كل فرقة ولدًا من أولاده أو بعض رؤساء جنده حتى لا يظنوا به الظنون ، ولكن الحرب فى بلاد العرب لم تَضَعْ أوزارها بعد ، وليس من المستبعد أن تُستأنف فى القريب العاجل ، وعندها يرحل هؤلاء ويرحل الكثيرون معهم ، ولعلك تذكر ما حدث منذ نحو

عامين عندما أرسل الباشا من الحجاز طلبًا للمدد فجمع كَتْخُدا بك (نائبه في مصر) سبعة آلاف رجل 'من أخلاط العالم ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحي القرى' واستكتبهم ، بعضهم كرهًا وأغلبهم طوعًا ، فكان 'كل من ضاق به الحال في معاشه يذهب ويعرض نفسه فيكتبونه ، وإن كان وجيهًا جعله الكَتْخُدا أميرًا على مائة أو مائتين' – حسبما حَدَّثني به محدِّث صدق" وكان محمد يقرأ العبارات الأخيرة من الورقة التي في يده ، ثم صمت.

وسأله الإمام "تعني أن الجنود سوف يرحلون قريبًا ؟" فابتسم محمد وعاد يقول بصوته الخفيض "نحن نحارب الخارجين على طاعة أمير المؤمنين ، ولا شك أن الله سوف ينصرنا !" ثم التفت إلى فريد وقال كأنما يوجه الكلام من طرف خفيٍّ إليه "ونحن في حاجة إلى كل من تعلّم وورث موهبة الرياسة ، فالعلم يُكتسب والرياسة طبعٌ لا يُكتسب !" فقال الإمام بسرعة "ولديكم الكثيرون!" فرد محمد في التو واللحظة "بل قليلون! ومعلوماتنا تشير إلى أن الناس تخشى العمل مع أصحاب السلطان أو تتحاشاه زُهْدًا ، بسبب ما شاع عن السلطان من بطش وظلم إبَّان حكم المماليك ، ونحن الآن نعمل جاهدين على أن نزيل هذه الخشية أو هذا التردد ، فالمعلم غالي رجل نزيه ويعمل لديه الكثيرون من الموهوبين في الرياسة وممن اكتسبوا العلم معًا !" ولما كان فريد قد سمع أنه يعمل مع جرجس الجوهري فقد عجب لتأكيده أنه يعمل مع المعلم غالي ، وخطر له أن يسأله عن أسباب تنحيّ جرجس وحلول غالي محله ، لكنه أمسك لسانه وفضّل أن يقتصر على أن يسمع دون مشاركة في الحديث .

وفجأة تطلع محمد إلى النافذة القريبة وقال "لقد أوغل الليل وتأخرتما عن موعد الرقاد !" وضحك ، فضحكا لضحكه ، وأكد له الإمام أنه لا ينام مبكرًا مثل الدّجاج ، وضحك فريد وقال بسرعة 'ولا أنا !' لكنّ محمدًا لم يضحك بل ابتسم وقال برنّة صدق لم يكن فريد يتوقعها إنه يفتقد رشيد وأهلها ، فإذا كانت عزلتها بسبب بعدها عن القاهرة تحرم أبناءها المشاركة فى قضايا أهم وأخطر من مشاغل الحياة اليومية ، فإن ميناءها يتيح لها الاتصال بالأجانب ، وفيها عدد كبير منهم ، ومن بينهم من تحولوا إلى رشيديين يتكلمون العربية ، وبعضهم قد أشهر إسلامه وتزوج من بنات الوجهاء ، وبعضهم استدعى أفراد أسرته أو عددًا منهم فاستقروا فى رشيد ، فهناك الروميون والفرنسيون والبنادقة والقبارسة والكريتلية والمالطيون ، ولو بأعداد قليلة ، وبعضهم يسافر ثم يعود ، الأمر الذى يدل على أمان البلد وخصبها وازدهارها ، ويكفى أنها بمنجى من الأوبئة التى تصيب العاصمة ، بل ومن أوبئة خلقية أخرى قال إنه يدعو الله أن تظل بعيدة عن رشيد ، ثم تنهد كمن يتحسر قائلاً : "لقد قضيت أجمل سنوات عمرى فى رشيد وكم أتمنى أن أجد إلى جوارى فى القاهرة من أثق فيه من الرشيديين المخلصين !"

ونهض محمد إيذانًا بانتهاء الحديث ، ونهض الإمام وفريد وتصافح الجميع ، وفريد يغالب التثاؤب ، ثم ساروا معًا إلى الباب حيث افترقوا ، ولفّ فريد كوفيّته الصوفيّة حول رقبته احتماءً من برد المساء ، وسار وحده تتلاطم الأفكار فى رأسه حتى هبط الربوة ولاحت أضواء قناديل الشوارع، وما أن وصل إلى منزله حتى أوى إلى فراشه دون عشاء .

٢

اتجه فريد مع أول خيوط النور بعد صلاة الفجر إلى الوكالة ، وأصداء حديث محمد ترن فى أذنيه ، فلقد التزم الحذر كما نصحه أبوه ، لكنه لم يَشْتَمَّ فى أى شىء قيل ما يستدعى الحذر ، فغلبته الحيرة ، وفجأة وجد سؤالاً يلح عليه : هل قدم محمد إلى رشيد لقضاء عطلة مع أسرته ؟ أتراه جاء ليدعوه إلى العمل لديه فى القاهرة ، كما ألمح إلى ذلك أكثر من مرة فى حديثه ، أم تراه جاء ليتزوج ؟ وإذا كان يطلب الزواج اليوم فَلَعَلَّهُ يطلب زوجة جديدة لأنه يستبعد أن يظل رجلٌ قارب الثلاثين دون زواج ! وإذا كان ذلك صحيحًا فمن عساه يختار وهو القادر على شراء الجوارى الروميات من أسواق القاهرة ومصاهرة أغنى العائلات ؟ وإذا تقدم يطلب مصاهرة الكاشف نفسه فهل يرفض الكاشف ؟ أتراه يتزوج ذات العينين الخضراوين؟

وأحس فريد برعشة تسرى فى جسده كأنها الحمّى ، فشرع يقرأ بعض آيات القرآن لكنه شعر بدوار خفيف فأسند نفسه بيده إلى كرسىّ قريب ، ثم خرج إلى المقهى فجلس على مقعد مواجه للوكالة فلمح بعض الصبية والفتيات يحملن أطباق الفول المدمس الساخن التى يتصاعد منها البخار فى برد الصباح ، وتحتها بعض الأرغفة من خبز السوق البلدى ، فذكر أيام طفولته وتَحَسرَّ ، ومرت بجواره طفلة ذات شعر ذهبى ترتدى منديل رأس 'بأُوِيَةْ' وتتدلى ضفيرتاها مثل لوليا بطلة الحكاية الشعبية ، فعادت إلى ذهنه صورة صاحبة العينين الخضراوين فصاح فجأة كأنما ليطرد الصورة 'هات لى شاى يا ابنى !' وجاءه الرد كأنه الصدى : 'هوا

يا شيخ فريد !' لكنه لم ينتظر الشاى بل نهض عائدًا إلى الوكالة يطلب عملاً يلهيه فأخرج مفتاح الدرج لكنه لم يكد يضعه فى القفل حتى رأى أمامه غلامًا فارع الطول يلهث كمن جاء جريًا من مكان بعيد عرف فيه محمودًا ابن مالك الصباغ مستأجر أرض والده ، وعجب كيف لم يَدْرِ بقدومه فكأنما انشقت الأرض عنه ، فأعاد المفتاح إلى جيبه وجعل يحدق فى وجهه الأمْرَدِ ثم سأله عما به فقال الغلام – بعد أن استرد أنفاسه – إنه يبحث عن الحاج عبد الحكيم (والد فريد) ولما لم يجده فى المنزل جاء يطلبه فى الوكالة ، فقال فريد إنه لا يعرف مكانه ويظنه قد ذهب إلى الحقل، فهذه عادته كل صباح قبل الحضور إلى الوكالة مع شروق الشمس ، فقال الغلام "كنا ننتظر والدك هذا الصباح كعادته ، ولكن الحاج لم يأت هذا الصباح ، ولا نعرف ما نفعل بالجندى الهارب !" وفوجئ فريد بما سمع لكنه تماسك فى وقفته وأخذ بيد محمود ولم يكن رآه من سنين فأجلسه ، وما كاد يفعل حتى جاء غلام المقهى بالشاى فوضعه على كرسى ، فطلب منه فريد كوبًا آخر لمحمود ، وقدم إليه كوب الماء المصاحب للشاى وهو يتأمل طوله الفارع ويعجب له فرشف محمود جرعة وقال :

"أمسكناه وهو يتلصص ليلاً حين نبحته الكلاب فحبسناه فى القاعة القديمة وجرّدناه من سلاحه ، لكنه لم يقاوم ولم تَبْدُ منه بادرة عداء ، بل بكى كالأطفال واستحلفنا ألا نبلغ أحدًا بهروبه !" وشرب محمود جرعة ماء أخرى وقال "إنه شاب هزيل نحيل ، وهو يتكلم العربية بصعوبة لكنه قرأ آيات صحيحة من القرآن الكريم !" ونظر فريد مليًا فى وجه محدثه

وسأله ألم يفصح لكم عن مقصده ؟ أعنى ألم يقل لكم لماذا هرب وماذا يريد أن يفعل ؟ فقال محمود "يقول إن اسمه مراد وإنه يريد أن يعمل فلاحًا !" ولم يصدقه والدى - بطبيعة الحال - ولكنه أكرمه فجاء إليه بالطعام والشراب وكلّفنى بحراسته حتى الصباح ثم أرسلنى إلى الحاج عبد الحكيم ! وجاء غلام المقهى بكوب الشاى الذى طلبه فريد لمحمود فوضعه بينهما وانصرف ، فقال فريد "أشرب هذا الشاى فسوف يدفئك فى هذا الصباح البارد !" وجعل فريد يقلب الأمر على وجوهه وقد بدأت أشعة الشمس تسطع وظلال الصبح تمتد ، ثم قال لمحمود "اسمع ! عُدْ الآن حالما تشرب الشاى إلى الحقل ، فاطلب من أبيك ألا يذيع نبأ الهارب، وأن يكلّف من يثق فيه بحراسته حتى يعود والدى ونرى رأيه ! قل له إن الشيخ فريد ، ابن الحاج عبد الحكيم نفسه ، هو الذى قال بذلك ، وعم مالك يعرفنى خير المعرفة".

وعندما انتهى محمود من شرب الشاى نهض فقال له فريد "خذ هذا الفرس وأسرع بالعودة وتكتم النبأ ! لقد أصبحت رجلاً فصيحًا يُعتمد عليك ، فهيّا !" وصدع محمود بالأمر وأحس فريد وهو يودعه بنظراته أنه قد مارس 'الرياسة' فعلاً هذا الصباح ، وإن أرجأ الفصل فى الأمر إلى عودة والده ، والتفت إلى الوكالة ، وكان الفلاحون ما زالوا يُفرغون أحمالهم ، والجمال تبرك وتنهض ، وسميح صبىّ الوكالة يروح ويغدو بنشاط بين أكوام الفاكهة والخُضَر ، فكاد يحسده على خلوّ البال، ثم قال فى نفسه إنه لابد أن يذهب لمشاهدة مراد والحديث معه ، إذ ما عساه أن يدفع جنديًا إلى الهروب فى غير زمن الحرب ؟ إنه لم يترك ميدان القتال

حتى يقال إنه جبان يخاف على حياته ، وكيف يقول إنه يريد العمل فلاحًا بعد أن أصبح جنديًا يزهو بقوته وسطوته ؟ وهل فلاحة الأرض عمل يطمح الإنسان إليه ؟ لا شك أنه أرنؤوطى فكيف يتحول إلى فلاح وفلاحة الأرض مقصورة على أبناء البلد ؟

وانقضت ساعات الصباح والضحى سريعًا وفريد لا يفكر إلا فى هذا الطارق الغريب ، بل توارى ما قاله محمد القزق أو تشتت كأنه سحاب صيف عابر ، فإذا كان محمد يريده أن يعمل معه فى القاهرة ، فهذا أمر لا يستدعى كل هذه السريّة والغموض، وربما يريد أن يستفيد من معرفته اللغتين الرومية (التركية) والفرنسية ، وذلك أمر هيّن حقًا ، لكنه قطعًا لا يريد أن يستخلص منه أنباء عما يحدث فى رشيد بعد أن غاب عنها كل هذه السنوات ! أم تراه كان يريد أن 'يصحح' له ما سمعه من أنباء عن الباشا بعد أن أصبح محمد من العاملين لديه ؟ وأما إمام المسجد فقد حدس فريد من لهجته أنه من أبناء الجزيرة الخضراء ، لأنه ينطق القاف قافًا ، ولا ينطقها همزة كأهل القاهرة ورشيد والشام، ولا جيمًا جافة كأهل الصعيد و'العرب' ، وهو إذن من أتباع الشيخ النقشبندى، شيخ تلك الناحية ، وقد يكون من عيونه فى رشيد ومن ثم من عيون الباشا ، وإن كان ذلك لم يتضح أثناء حديث الأمس ، بل استبعده فريد وأما حكاية هذا الهارب فهى جديرة بالاهتمام حقًا ! ولم يلبث 'المبْيع' أن انفض ، وقصرت الظلال فتأكد فريد أن أذان الظهر وشيك، فأسرع بتسجيل الأسماء والأثمان فى الدفتر قبل قدوم أبيه ، وخطر له أنه سوف يعود إلى القاهرة بحكايات يرويها لصديقه الشامى ، ووَدَّ لو أنه معه الآن يشاركه

التفكير فيما يحدث ، وأحس بشوق جارف إلى حديثه فهو من قرية تجاور البحر والنهر مثل رشيد ، وكثيرًا ما كانا يتسامران إلى ساعة متأخرة ، وكان حديثهما يبدأ عادة بمسائل النحو ثم يبتعد ويضرب فى شتى الشعاب ، وابتسم لذلك الخاطر وهو منكب على الدفتر ، حتى أتم العمل وأعاد الدفتر إلى الدرج، ولم يكد يتنفس الصعداء حتى سمع أذان الظهر.

لم يقلق فريد حين لم يجد والده فى المسجد ، ولم يقلق حين لم يأت إلى الوكالة لتناول طعام الغداء ، فهو يعرف أن هذه أيام عصيبة ، وقد يكون فى المجلس أو على شاطئ النيل يراقب سير العمل فى إعداد لوازم القشلات ، وتذكّر حديثًا عابرًا بينهما عن ضرورة انتقاء الأماكن التى تتعمق بأخذ الطمى منها حتى تصبح مراسى لسفن الصيد الكبيرة ، وتذكّر أن والده أعجبته الفكرة ، ولابد أنه ذكرها لأعضاء المجلس ، وتذكر عندئذ ما قاله له أبوه من أنه يعدّه للانضمام إلى المجلس ، وضحك فى أعماقه وهو يغسل يديه وفمه بعد الغداء ، لأن الأعضاء كلهم من الشيوخ ، وأبوه يُعتبر شابًا بينهم، فهو لم يتجاوز الستين ، وإن بدا أكبر بسبب الأعباء التى تحملها منذ الصبا ، وابتسم فريد حين وضع صبى المقهى صينية القهوة أمامه ، إذ ذكر قهوة جدته التى كانت محرّمة عليه فى طفولته ، كما داهمه إحساس دفين بأنه قد كبر ، فهو يشرب القهوة ويمارس العمل ، ويستشيره الناس فى أمور دينهم ودنياهم ، وهو لا يبخل بالرأى ، ويبدو أن كلامه مسموع بينهم ، وقارن بين موقعه هنا وموقعه فى الأزهر ، فهو يبدى رأيه هنا وهناك ، لكن رأيه هناك لا يأخذ به الأساتذة ، فمعظمهم يتعصبون لآرائهم ، وهم لن يجيزوه إلا إذا وافقهم ، وكان غالبًا

ما يضطر إلى الموافقة ، وكانت نصيحة صديقه الشامى له دائمًا هى ''مشىّ حالك !'' فالخلافات النحوية فى نظره سفاسف ، وعليه أن يصبر حتى ينال إجازته ، وفجأة خطر له خاطر غريب : أتراه عند ذاك يصر على أن يأخذ طلابه برأيه ؟ إن التدريس فى الأزهر عمل يطمح إليه كل طالب علم ، ولكن التعصب للرأى ، مهما بدا وجيهًا ، معيب وقبيح ، وحدثته نفسه بأنه سوف يسمح للطلاب بإبداء آرائهم والاختلاف معه ، ثم قال كأنما يراجع نفسه هذا ما أقوله الآن - وغدًا من يدرى !

وانتبه من حلم يقظته على صوت جواد يركض ، ونهض فنظر فإذا الظلال قد طالت، وما لبث أن توقف الجواد أمام الوكالة ، وترجّل والده وأسلم المقود إلى سميح، ودخل فسلّم وجلس ، ولمحه صبى المقهى فصاح كأنما فى رنّة ظفر ''الشاى جاى !'' والتفت فريد وأبوه إلى مصدر الصوت وابتسما ، ثم انطلق فريد يحكى لوالده عن حديث البارحة مع محمد القزق وإمام المسجد ، وأبوه يصغى باهتمام دون أن يقاطعه ولو للاستفسار عن أى شىء ، حتى انتهى فقال له والده 'أحسنت' ، ثم سأل فريد عن سير العمل فى مستلزمات القشلات على شاطئ النيل ، فقال والده إن العمل يسير حثيثًا ، والناس مقبلون بهمة ونشاط على أداء ما طلب منهم، خصوصًا بعد أن علموا أن القشلات سوف تؤول إليهم، وسواء صدق الكاشف أم كذب، فلقد أصبحت القرى تتبارى فى إنجاز العمل ، فالأطفال يتعلمون صنعة، والنقود القليلة يدّخرونها لأنفسهم ، وكان من الممكن أن يتذمّر الرجال لو أشرف على عملهم أغراب ، لكن المجلس كلّف الشيخ الغاياتى - شيخ البلد - بتعيين بعض الرشيديين لرئاسة العمال،

فهم يعرفونهم بالاسم ولا يرهقونهم ، والمتوقع أن يدخل اللّبن الأفران غداً . وتطلع الوالد إلى ابنه وقال له : لديك أنباء أخرى ، فلا تحبسها ! فحكى له فريد قصة مراد الهارب ، فضحك أبوه وقال له : لقد عُدْتُ من توّى من الحقل ! وقال لى مالك الصباغ إنه سوف يقول إن سأل أحد عن مراد إنه سمع أن جنّيّة البحر قد اختطفت أحد الجنود ، وكان قد نزل ليستحم فى البحر ! ولم يسأل فريد والده إن كان قد وافقه ، فلقد فهم ذلك من سياق الحديث ، ثم طلب من أبيه أن يسمح له بالحديث مع مراد فقال أبوه اذهب وسأتولى أنا أمر الوكالة !

٣

عندما وصل فريد إلى الحقل ربط حصانه إلى جانب الخيول و'الركائب' الأخرى ، وسار الهُوينا والشمس بدأت تميل غربًا ، حتى وصل إلى منزل عم مالك ، فتنحنح بصوت عالٍ وقال 'يا ساتر !' لإنذار الحريم أن 'غريبًا' وصل ، ولم يكن فريد غريبًا فقد تربىّ فى طفولته مع بسيمة وفرحانه ابنتى عم مالك وإن كانت تكبرانه بعدة أعوام ، وها هما قد تزوجتا وأنجبتا ، ولم تحتجبا عنه فى يوم من الأيام ، كما كانت أم محمود تُجلّه وتحاول تقبيل يده منذ أن التحق بالأزهر وهو يرفض ، وأما روضة - الفتاة الصغيرة - فلم يكن يذكرها لأنها ولدت حين كان فى الاسكندرية ، وكان 'عم مالك' مشغولاً بسد فتحة القناة المتصلة بالترعة، ومحمود واقف فى 'حوش' المنزل يَبْرِى غصن شجرة حتى يصبح عصًا نافعة ، وعندما رحب به محمود خرجت أم محمود مهلّلة وعرضت عليه الشاى فشكرها

قائلاً إنه يود الحديث مع مراد ، فسار محمود إلى عشة خشبية صغيرة خلف المنزل ، وهى التى يسمونها القاعة ، وفريد فى أثره ، وفتح الباب وسلّم ، فشاهدا مرادًا جالسًا يكتب فى ورقة ، وعندما رآهما نهض وسلّم، ثم خرج محمود وترك فريدًا مع مراد .

وانقضى الوقت سريعًا ومراد يحكى لفريد قصته ، وفريد مستغرق فيما يقول ويسأل عن أدق التفاصيل ، وقال فى نفسه إنها قصة جديرة بالتسجيل ، فشحذ حواسه وعقله وهو يتطلع إلى وجه مراد وأشعة الشمس الغاربة تسقط عليه من النافذة الغربية ، حتى سمع أذان المغرب ، وكان الصوت يأتى إليه متأرجحًا وفقًا لقوة الريح ، إذ كان قادمًا من مسجد الشيخ فحيمة المقام وسط 'غيط البيه' فى أقصى جنوب البلدة بجوار مقابر البلد (التى يسمونها الجبابين هنا – جمع جبّانة – وهو جمع غريب طالما عجب له فريد) ونهض فريد بصورة تلقائية حين انتهى الأذان قائلاً إنه سوف يعود فيما بعد لاستكمال الحديث وخرج تاركًا الباب مفتوحًا فأسرع محمود بإغلاقه ، قائلاً إن والده (مالكًا) قد عاد ، وسلّم عليه فريد وتمنى له عشاءً شهيًا إذ لمح أم محمود منكبة على تقليب الطعام فى قدر على الكانون (الموقد) ودعاه مالك إلى الطعام مؤكدًا له أنه لن يستغرق دقائق ولكن فريدًا اعتذر ، وألح مالك فوعده فريد بإجابة الدعوة فى وقت قريب ، وأهرع إلى فرسه وعاد به ركضًا إلى المدينة .

وما أن خلا فريد بنفسه فى غرفته حتى أخرج القلم والدواة ، وأحضر كراسة الدروس ففتح صفحة جديدة وكتب ما يلى : قال مراد :

"لا أذكر من طفولتى سوى مشاهد متفرقة ، أحدها فى صوبة زراعية نزرع فيها الفراولة فوق أحواض من القش ، فى مزرعة يمتلكها سيد كبير يقيم فى مدينة تيرانا ، ولا يكاد يأتى إلى المزرعة مطلقًا بل يرسل أعوانه بعربات كبيرة تجرها خيول كثيرة لحمل المحصول إلى السوق ، وكانت المزرعة من بين مزارع كثيرة على سفح جبل أو تل تغطى قمته الثلوج فى الشتاء ، وتنصهر فى الصيف فتسيل فى نهر صغير يمر أمام منزلنا ، وكنت أنا وعدد آخر من الصبية نتعهد النباتات بالرى وإحكام إغلاق الصوبة حتى لا تتسلل إليها الحشرات . وكنت حينذاك صغيرًا جدًا لكننى كنت أجيد الحديث بلغتنا ولا أزال ، وكان هذا المشهد دائمًا ما ينتهى بوصول العربة التى تحمل الصغار من البنين والبنات إلى دورهم ، وأما المشهد الثانى الذى لن ينمحى من ذاكرتى فهو وصول عربة أخرى غير تلك العربة ، ونزول رجل غريب منها وزّع علينا الحلوى ، ثم قال إن الوقت قد حان للرحيل ، ودهشنا فقد كنا ما زلنا نعمل ، وبحثنا عن المشرف فلم نجد له أثرًا ، وكان أن ركبنا العربة فانطلقت بنا ، ولكنها بدلاً من أن تسلك الطريق المعتاد انحرفت فى طريق جانبى وبدأنا نصيح بالسائق لتنبيهه إلى الخطأ دون أن يعبأ بصياحنا، وبعد مدة طويلة بدأ بعض الأطفال يبكون ، والبعض الآخر يصرخ ويولول ، وأخيرًا توقفت العربة فى مكان غريب ، وتقدم منا رجل لا نعرفه وحادثنا بلهجة غريبة وإن كانت اللغة لغتنا، وقال إننا سوف نتناول طعامًا شهيًا ، ومن يتوقف عن البكاء يكافأ بالحلوى والملابس الجديدة ، فتوقف معظمنا ، فنحن نحب الحلوى والملابس الجديدة ، ونحن فقراء ، وبعد ذلك سلّمنا إلى رجل آخر قام بفحصنا فحصًا دقيقًا ، كل واحد على حدة ، ثم فصل البنات عن البنين،

وسلم البنات لرجل ثالث ، ومضى هو معنا إلى منزل كبير ، أمامه حديقة واسعة ، وفى وسط المنزل مُدّتْ مائدة عليها طعام شهىّ دُعينا إليه وفرحنا به ، وقيل لنا إن أهالينا قد أرسلونا هنا للقيام برحلة بحرية ، وإنهم سوف يزوروننا بعد الرحلة ، ففرح معظمنا وبكى أحدنا فأمره الرجل بالكف عن البكاء وإلا منع عنه الطعام والحلوى ، ثم سمح لنا باللّعب فى الحديقة فجعلنا نلعب حتى المساء وحان موعد النوم .

"فى الصباح جاءت عربة أخرى كبيرة ، ووزع علينا الرجل ملابس جديدة حملها كل واحد فى يده ، وانطلقت العربة تسير دون توقف زمنا طويلاً ، فغلب النعاس بعضنا وظَلَلْتُ يقظًا أرقب الطريق حتى وصلنا إلى شاطئ البحر ، وهناك نزلنا وكنت مرهقًا ، فوجدنا فى استقبالنا رجلاً آخر ساقنا فى طابور طويل إلى بيت أكبر من البيت الأول ، فأدخلنا وسجل رجل آخر أسماءنا وأعطى الورقة إلى شاب يرتدى ملابس ملونة مثل ملابس الإفرنج ، وقال لنا إن أهالينا أرسلونا إلى هذا المكتب (المدرسة) لتعلم القراءة والكتابة ، والقرآن ، ومن يحفظ دروسه سوف يستمتع بالرحلة البحرية ، ومكثنا فى هذا المكتب مدة طويلة ، بعد أن وُضع لنا نظامٌ يومى للتعليم والرياضة ، ولم يعد أحد يبكى فالطعام جيد والملابس جديدة ، وإذا سأل أحد عن أهله قيل له إنهم سوف يأتون عندما نجتاز الامتحان .

"وذهب الصيف وجاء الشتاء ، ثم توالت الفصول واعتدنا حياة الدرس والرياضة، وبدأنا ندرك أننا سنصبح جنودًا ، فأُضيفتْ إلى الرياضة دروسٌ فى فنون القتال ، وركوب الخيل ، وعُقدت لنا اختبارات

متعددة ، وأصبح المجدّون من أصحابى يتلقون دروسًا خاصة مع الكبار ، فى رمى النُّشّاب واللعب بالرمح ، والنزال بالسيوف وإطلاق النار ، ولم أكن من المجدّين فكنت أحسد هؤلاء على تميزهم ، وإن كنت فى أعماقى أتمنى العودة إلى الحقول وإلى زراعة الفراولة ، حتى جاء يومٌ قيل لنا فيه – وقد بلغنا اليفوع وإن كنا لا نزال مُرْدًا – إن علينا أن نستحم كل يوم قبل طابور الصباح ، واستمر ذلك حتى فى الشتاء والماء بارد ، لكنه لم يكن فى أيدينا إلا الطاعة ، فطاعة ولى الأمر من طاعة الله ، وعندما بدأ الشعر ينمو فى وجوهنا زارنا شيخ معمم وأفهمنا معنى التكليف ، فكنا نؤدى الصلوات فى أوقاتها جماعة ، وأحسسنا عندها أننا بلغنا مبلغ الرجال .

''لا أدرى كم من السنين مضت فى هذا المكان، ولكن المشهد الثالث مؤلم ، إذ أعلن 'القائد' ، وهو رئيس المعلمين العسكريين ، أن أحدنا قد هرب ، وأنه قد عُثر عليه وجئ به لعقابه علنًا فى طابور الصباح، وفعلاً عرضوه علينا ثم أوثقوه وكبّلوه وضربوه بالسياط على ظهره ، ثم نقلوه وهو شبه مغشيٍّ عليه إلى غرفة خاصة ، وتجاذب الصحب الحديث فى مساء ذلك اليوم عن قسوة العقاب فكان البعض يرونه جزاءً وفاقًا (وهم الذين أصبحوا رؤساء فيما بعد) وكان البعض الآخر يرونه أشد مما ينبغى، وكنت من هؤلاء، فانخرطت فى نقاش مع أحد أولئك واسمه إبراهيم فقال لى بلهجة تنم عن الحب أكثر مما تنم عن العداء: ''حذار أن تفصح عن رأيك هذا لأحد ، فلقد جمعتنا الصحبة والولاء لبعضنا البعض بحق المصير المشترك ، ولكن الرؤساء قد يسيئون فهمك فيحرموك بعض حقوقك ! قل دائمًا إن ولاءك للسلطان أقوى من ولائك للخلاّن !'' وثَبَّتَتْ هذه

الكلمات المشهد فى ذاكرتى إلى الأبد ! لكننى كنت فى أعماقى أشتاق لحرية العمل فى الأرض ، وما زلت أذكر كيف كان نُضج الثمار يُشيع فى نفسى البهجة ، فألوان الفراولة وغيرها من ألوان التوت الذى ينمو فى شجيرات صغيرة ، تبعث الفرحة وتبث السرور ، اللون الأخضر الذى حُرمت منه يثير فى النفس مشاعر لن يعرفها إلا أصحاب الجنة ، لكننى وطّنت النفس منذ ذلك الحين على الانصياع للأوامر ، وعندما حان وقت 'الرحلة البحرية' الموعودة أُمرنا بتشذيب لحانا وشواربنا ، ووُزّعت علينا ملابس جديدة ، وقيل لنا إننا انضممنا إلى فرقة فى جيش السلطان تابعة لمحمد على باشا والى مصر ، وركبنا البحر فقضينا ليالى جميلة ، إذ ابتسم لنا الحظ فكانت الريح رخاء والبحر ساج كالحصير ، ولم نكد نصل حتى قيل لنا إننا مطلوبون للسفر إلى بلاد العرب ، ولن نستريح فى ميناء رشيد إلا ليلتين .

''لكننى ما أن وطئت قدماى ثغر رشيد ورأيت النخيل الباسقة على البعد ، والمراكب الصغيرة التى تلوح أشرعتها فى الأفق كالحمامات البيضاء ، حتى خفق قلبى بحبها وأقسمت عندها لو كتب الله لى أن أعود من بلاد العرب سالمًا لأعيشَنَّ بقية حياتى أفلح الأرض وأزرع الفراولة فى الصوبات فوق القش ! كنت أتأمل النيل وألوان مياهه الحمراء وهى تندفع فى البحر ، ثم أرقب الصيادين وهم يلقون شباكهم على شاطئ البحر أو شاطئ النيل فأقول فى نفسى ليتنى أشاركهم حياتهم ! ولكننا استُدْعينا إلى السفينة ، وقيل لنا إننا سنصحب رئيس الفرقة الأرنؤوطية صالح قوش ، وإن الباشا غاضب على رشيد لأن نقيب أشرافها السيد حسن

كريت قد رفض مصاحبة الحملة المسافرة إلى بلاد العرب ، مثلما رفض الشيخ على خفاجي وهو من علماء دمياط ، وكنت إذ ذاك فى نحو العشرين من عمرى ، فعجبت من ذلك ولم أفهم له سببًا ، فلقد درجنا على طاعة الرؤساء ، لكننا انطلقنا على أى حال إلى القاهرة ثم إلى السويس ، ومنها إلى ينبع ، وكان القائد يذكّرنا كل يوم بالطاعة والانصياع للأوامر ، وكانت تلك أول حرب أشترك فيها وقد ابتعدت صور الماضى وتوارت وأصبحت أعيش حياتى فى الحاضر والحاضر فقط، وأما المستقبل فكان التفكير فيه ضربًا من المحال ، إذ نُساق فى كل لحظة من مكان إلى مكان، وعندما انتصرنا عند بدر ، خطب فينا أحد الخطباء فقال إنها بشرى انتصار المؤمنين على الكفار .

"وكان لى رفيق يلازمنى ليل نهار ويتناول طعامه معى من أبناء مزرعتى ، وكان دائم القراءة فى الكتب التى كان الشيخ محمد المقدسى يحملها معه ، وكان حنبلىّ المذهب ، فكان أحيانًا ما يناقشنى سرًا فى مدى جواز هذه الحرب ، إذ لم يكن مقتنعًا بأنها مشروعة ، فنحن نقاتل المسلمين ، وهم – وإن قيل إنهم قد شقّوا عصا الطاعة – ليسوا كفارًا ، فدعوتهم إسلامية صافية تريد تنقية الدين وتخليصه من البدع التى دخلته، أى تريد الرجوع بالدين إلى فطرته وبساطته الأولى ، وقال لى سرًا إن الشيخ المقدسى يؤيد دعواهم ، وإن كان لا يظهر ذلك خوفًا من بطش السلطان ، وإنه يأخذ عليهم مغالاتهم فى تطبيق مذهبهم ، وتكفير من لم يأخذ به ويتبع تعاليمه واعتباره مشركًا بالله، ومن هنا جاءت تسميتهم للمخالفين لهم 'مشركين' ، ولكننى كنت أحجم عن الدخول فى أمثال هذه

المناقشات أولاً لجهلى بمعظم الأفكار التى يتطارحها من يعشقون القراءة والتبحر فى العلم ، وثانيًا لأننى أخاف التنكيل بى إن اكتشف أحدهم ما أحلم به من الفرار والعودة إلى العمل بالزراعة .

"وعندما بدأ هجومنا على وادى الصفراء ، فوجئنا بالرصاص ينهمر علينا من كل جانب ، وحاولنا الثبات فى مواقعنا ولكن الجيش المدافع عن الوادى كان قد نصب مدافعه فوق التلال ، وكان من المحال علينا أن نثبت وإلا فَنَيْنا عن آخرنا ، وأمرنا صالح قوش بالارتداد عن الوادى ، واختار ثلاثة لحراسته ، كنت من بينهم ، فبدأنا التراجع ، ولم يتوقف الهجوم علينا طول الطريق ، وكان القتلى يتساقطون فنحمل جثثهم وندفنهم فى قبور دون شواهد ، ونحمل البعض الجرحى ، وظللنا نسير ليلاً ونهارًا وقد بلغ بنا الإرهاق مبلغه حتى بلغنا الساحل ، وكنا فى مسيس الحاجة إلى النوم، وعندما استيقظنا قال قائدنا إن لنا أن نستريح حتى يأتى المَدَدُ ، ولكن صالحًا أسَرَّ إلينا أنه سيعود إلى مصر ، وأمر حرسه الخاص باصطحابه ، فركبنا السفينة سرًا وعدنا إلى السويس ، ومنها إلى القاهرة ، وأُلحق ثلاثتنا بفرقة أرنؤوطية أخرى ، واستدعى الباشا رؤساء الأرناؤوط من الحجاز ، فأقصاهم عن مراكزهم ونفاهم من مصر ، وكان صالح قوش منهم ، كما هو معروف ، وهكذا أصبحت جنديًا بلا عمل ! فلا أنا قادر على القتال ، على كراهيتى له ، ولا أنا قادر على ترك الجندية ! وكان إحساسى بالخيانة ما فتئ يقض مضجعى ، فكنت فى أعماقى أرفض ما فعله صالح قوش ، وأعجب لما أشيع عند ذاك عن اختلاف قواده وتقصيرهم ، وهى الذريعة التى قدمها

طوسون لأبيه تبريرًا للهزيمة ! لقد كان السبب واضحًا وهو تقصيره هو وانعدام خبرته ، فهو أصغر منى بسنوات ، وما زال حتى اليوم دون العشرين ! فما الذى جعله يأمر بالهجوم على الوادى ، والمنطق يقول إن أهل البلاد وأصحابها أدرى بشعابها ولابد أنهم سوف يتحصّنون بالتلال المطلّة عليه ؟ بل لابد أن يستبسلوا فى الدفاع عن أرضهم ، ما داموا يعتبروننا غزاة لابد من صدّهم !

"وقضيت السنوات التالية مع الفرقة الأرنؤوطية الجديدة التى ترابط فى الخانكة ، فى أقصى جنوب القاهرة ، وكان قوادها دائمى الشكوى من الباشا ، يقولون إنه من بنى جلدتهم لكنه لا ينزلهم المكانة السامية التى تليق بهم ، وكانوا دائمًا ما يتهمونه بالغدر ونكران الجميل ، إذ سمع لأقوال ابنه الصغير وانقلب على صالح قوش الذى ساعده فى مذبحة القلعة ! وكانت تلك الأحاديث تطاردنى ليلاً ونهارًا ، وأنا أصمّ أذنى عنها ولا أشارك فى الحديث لأننى 'جديد' أو غريب عن الفرقة ! وتعلمت فى هذه السنوات الكثير عن أحوال الجيش والدنيا ، وكان حلمى لا يزال كما هو ، أن أعود إلى الأرض فأعيش فى ظلال الأشجار وأفرح بثمار ما تغرسه يداى وما أرعاه بنفسى !

"وأخيرًا لاحت الفرصة حين عاد طوسون من الحجاز خائب الأمل ، أولاً بعد مؤامرة لطيف باشا الذى اتُّهم ظلمًا بالتآمر على الباشا أثناء وجوده فى الحجاز ، فقبض عليه الكَتْخُدا وقتله ، وثانيا بعد أن تمردت فرقة الأرناؤوط المرابطة فى القاهرة وحاولت اغتيال الباشا ، وهذا كله معروف ، إذ كان رد الباشا أن أمر بتشتيت الأرناؤوط ، وكانت فرقتى من

بين الفرق التى وضعت تحت إمرة إسماعيل ، أحد أبناء الباشا ، وجاءت إلى رشيد ، ومنذ أن صدر لنا الأمر وأنا أمنّى النفس بقرب تحقيق حلمى، ولقد وجدت من كرم هذه الأسرة ما جعلنى أتمنى لو كنت مثلكم من أولاد البلد .. مصريًا !"

وتوقف فريد عن الكتابة وقد أحس أنه أجاد تسجيل ما قاله مراد وظلت الكلمة الأخيرة ترن فى أذنه - مصرى ؟ ماذا يعنى مراد ؟ ، وقال فى نفسه لابد أن أعرض هذا على الشيخ الجبرتى ، فلقد سمعت أنه كاتب لا يشق غباره ، ولن أتوانى عن ذلك فور وصولى إلى القاهرة ! وماذا يميز أولاد البلد المصريين عن غيرهم ؟ ثم أعاد قراءة ما كتب فرأى بعض الثغرات فى رواية مراد ، وكان عليه أن يطلب منه ملْئها ، لكنه كان مأخوذًا بغرابة الأحداث ، ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح بالدخول فى تفاصيل ، فلقد كان يريد أن يعرف مصير الفتيات اللائى أُسرن معه ، وأن يعرف قبل ذلك حقيقة الذين اختطفوهم ، وموقف الأهالى من اختفاء أطفالهم ، أم تراهم كانوا يوافقون على تجنيد أطفالهم منذ هذه السن الصغيرة ؟ ومتى كان ذلك تحديدًا ؟ وهل كان ذلك لحساب الباشا أو بعلمه على الأقل أم أنه كان يواجه بتوافر الجند 'فيشتريهم' أو 'يكتريهم' ؟ وهل كان ذلك شائعًا فى شتى أرجاء الدولة العثمانية - أى فى سائر الولايات - أم مقصورًا على ولاية بعينها ؟ وما الفرق بين هؤلاء الجنود وغيرهم - من الدُّلاة والإنكشارية وغيرهم ؟ وما الفرق بين كل هؤلاء وبين المماليك ؟ وإذا كان هؤلاء يباعون ويشترون - كما توحى رواية مراد - أفلا يصح أن نعتبرهم مماليك ؟ وكم تراهم يتقاضون لقاء 'الخدمة' فى جيش

السلطان؟ لقد ذكر محمد القزق أن الكَتْخُدا قد استكتب أبناء البلد ، أى 'المصريين' ، للمشاركة فى القتال منذ عامين عندما طلب الباشا المدد من القاهرة - أتراهم عوملوا معاملة الجنود 'النظامية' إذن ؟ وكم كانوا يتقاضون ثمنًا للتضحية بأرواحهم ؟

٤

عندما حل الظلام حمل محمود الملابس العسكرية التى كان مراد يرتديها واتجه إلى شاطئ النيل عند منعطف الدوامة ، وهى المنطقة التى كان يؤمن الجميع أن 'عروس البحر' تسكنها ، فوضعها فى كومة بجانب تل صغير ، حيث المرسى المؤدى إلى مسجد البوّاب ، وهو المسجد الذى كان الأهالى يعتبرونه معجزة تحققت بفضل كرامة الشيخ البواب الكبير ، إذ مهما هبّت الريح العاصفة فأهالت الرمال على كل شىء فدفنته ، كانت تتحاشاه فيظل بمنجى من عوادى الطبيعة ، بل إن شجرة الجُمّيز الضخمة التى تجاوره خضراء دائمًا ، مثمرة كعهدها ، ويقال إن كرامة الشيخ هى التى ترويها ، ويقال إن لها ملائكة تصون المسجد ، ويحلف الكثيرون أنهم شاهدوا أنوار الجن المؤمنة وهى تحوّم حول المسجد فتضيّئه فى الليالى المظلمة حتى ليظهر للنوتية من مسافات بعيدة ، دون أن توقد فى داخله قناديل . وكان النوتية لا يقربون منطقة 'عروس البحر' بل يربطون سفنهم وقواربهم فى المرسى ثم يسلكون الطريق المؤدى إلى حى قبلى سيرًا على الأقدام.

وصدق ما توقع مالك الصباغ وابنه محمود ، فعندما افتقدت الفرقة

مراداً فى الصباح أرسلت الرسل للبحث عنه ، وكان النهار صحواً فانتشر الجنود فى كل مكان ، وعثروا على الملابس فى تلك البقعة المهجورة ، فأرسلوا الرجال إلى الكاشف يسألونه فذكر لهم قصة 'عروس البحر' قائلاً إنه يرجح أنه غرق ، فكثير من الصيادين يهلكون فيها وأهل البلد يتجنبونها ، وتعجب من حماقة الجندى الذى اختار أن يستحم فى النيل فى هذا الفصل البارد من فصول العام ، ولكن الشيخ الغاياتى (شيخ البلد) أكد لهم أنه إذا كان قد اختفى فى تلك البقعة فإن عروس البحر قد اختطفته ، وأن هذه ليست أول مرة ولكنه قال لهم 'اطمئنوا ! فلقد تطلق الجنية سراحه قريبًا !' وذكر لهم أحداثًا مشابهة ، فكان الرجل يختفى مدة طويلة ثم يعود سالمًا إلى أهله ! وما أن انتصف النهار حتى كان أهل البلد جميعًا قد عرفوا القصة ، وعندما تناهت الأخبار إلى فريد وهو يستعد للغداء مع أبيه ، قالا فى صوت واحد 'لا إله إلا الله !' ولم يزد أحدهما حرفًا .

وأراد محمود أن يُعير بعض ملابسه لمراد ولكنها كانت أطول مما ينبغى ، فتطوعت أمه بتقصيرها ، وطال الحديث بين محمود ومراد عما تزرعه الأسرة فى أرض الحاج عبد الحكيم ، وعما يزرعه الفلاحون فى غيط البيه المواجه لهذه الحقول ، وتعجب مراد من أنهم لا يعرفون من أنواع التوت سوى التوت 'البلدى' الذى تنتشر أشجاره فى البستان المجاور ، فانطلق يحدث محموداً عن شتى أنواع الفواكه الأوروبية التى كان يزرعها أو يرعاها فى طفولته ، واقترح عليه أن يرسل فى طلب بذور تلك النباتات من التاجر الفرنسى ، صاحب الوكالة الشهير ، وقال إنه واثق

أنه سوف يأتيه بها إما من الشام أو من فرنسا نفسها ، وقال إنه سوف يحاول - ريثما يتحقق ذلك - أن يجرب زراعة نباتات جديدة وغرس بعض أشجار الفاكهة فى مشتل صغير ، فالأرض هنا طينية خصبة، وباقى أرض الحاج عبد الحكيم رملية ، فلماذا يقتصر على زراعة المحاصيل الموسمية وبإمكانه أن يضاعف من غلة الأرض ومن ربحها بغرس أشجار الفاكهة ؟ وكان محمود يستمع إلى كل ذلك مبهورًا ، يستزيد مرادًا ويمطره بالأسئلة حتى انقضى اليوم وعاد مالك من الحقل فى المساء ، فتناول الرجال الطعام ، وعندما قص محمود على أبيه ما ذكره مراد لم يَبْدُ الارتياح على وجه مالك ، وبعد برهة قال : لم تَذْهَبْ إلى الوكالة بالخضر إذن ؟ وارتبك محمود ولم يعرف ماذا يقول ، فأردف مالك يقول موجهًا كلامه إلى مراد : نحن نستضيفك ثلاثة أيام ، وبعدها تشاركنا العمل !

وقال محمود بسرعة 'إنه يريد العمل الآن !' فقال مالك بحزم : 'بل بعد غد ! وسوف يظل معنا حتى يرحل الجنود ! وقد قالت أم محمود لى إنه لابد أن يتزوج إن كان له مقام بيننا ! أما روضة ابنتى فهى لا تزال صغيرة ، لكننى سأكلف أم محمود بالبحث عن عروس مناسبة لا تفضح السر !'

لم ينبس مراد ببنت شفة ساعة الطعام ، بل تابع الحديث فى صمت وحين ذُكر الزواج خفق قلبه فرقًا وفرحًا ، فهو خائف لأنه يواجه المجهول، وما يوطّن الجنود أنفسهم على عدم معرفته ، وهو فَرِحٌ لأن ذلك سوف يؤكد أنه لم يعد جنديًا ! لقد عاش طول عمره مع الجنود ولا يذكر أنه شاهد امرأة منذ أن غادر قريته ، وعندما عاد من الحرب فى بلاد العرب

كان يشاهد النساء فى الطرقات مرتديات الحَبَرة واليشمك ، ويحملن أطفالهن أو يمسكن أيديهم ، لكنه لم يخاطب إحداهن ولا سمع أن أحداً من زملائه الجنود قد حادث امرأة ! ولكن الفرحة بما يلوح فى الأفق من 'العودة إلى الأرض' كانت تغالب ذلك الخوف من المجهول فتغلبه ! ولم يَجُلْ بخاطره مطلقًا أن يسأل 'عم مالك' عن عروسه المقبلة ، بل كان يتطلع فى صمت إلى الطعام ويجاهد حتى لا يفصح وجهه عما يخالجه ، ويبدو أن مالكًا أدرك ذلك فربت على كتف ضيفه قائلاً ''لا تخف لا تخف ! ليس الزواج وحشًا كاسرًا !'' وأجبر مراد نفسه على الضحك وقال متردداً ''لست خائفًا'' وغمغم مالك ''إذا وَافَقَتْ أم محمود ، سأطلب منها انتقاء عروس مناسبة من بنات العائلة حتى تتحقق المصاهرة وتصبح أحد أفراد أسرتنا !'' فرد مراد بصوت خفيض ''يسعدنى ويشرفنى !''

وجاء فريد فى اليوم التالى ليطلع مراداً على نجاح خطة خداع الجنود ، وليستشيره فيما عرضه والده من ضرورة تغيير مظهره حتى لا يلفت الأنظار وحتى يستطيع أن 'ينزل' إلى 'البلد' دون إثارة التساؤلات ، وأضاف قائلاً : ''وإذا كشفوا أمرك نقول لهم إن هذا ما فعلته عروس البحر بك !'' وأراد مراد أن يضحك فلم يستطع ، وأدرك فريد أن الوقت ليس وقت هزل ، وأن مراداً لا يقبل الهزل فى هذا الأمر ، فكسا وجهه مسحة جد وقال كأنما يرجع صدى مالك ''لا تخف ! لن يُفشى أحدٌ سرِّك !'' ورد مراد بسرعة ''وأنا ممتن وشاكر !'' وأراد فريد أن يقول لمراد إنه كتب قصته وإنه يمكن أن يُطْلِع البعض عليها ، ولكنه رأى أن ذلك غير مناسب فصمت ، ثم نهض فودّع مراداً ومضى وهو يمنّى النفس بلقاءات كثيرة يسد فيها الثغرات التى وجدها فى قصته .

وبعد أن انقضت أيام الضيافة الثلاثة اصطحب مالك مرادًا إلى الحقل فعلّمه بعض الأساليب الزراعية التى يتبعها هو وغيره من مزارعى القرية ، ومراد صامت يسمع ويطيع، وتناولا معًا الغداء الخفيف الذى أتت به روضة من المنزل ، وصلّيا الظهر معًا ، واستراحا ساعة ثم استأنفا العمل حتى المساء ، وعندما عادا كان محمود قد رجع من البلدة بحماره ، وشُغل بجمع الوقود لوالدته حتى تجهّز طعام العشاء ، ورغم برودة الجو لم يكن أحد يرتدى ملابس ثقيلة ، فكأنما كان دفء الصحبة بديلاً عن دفء الملبس أو الغطاء ، وكان محمود يرقب مرادًا فى زيه 'الفلاحى' ويتمنى أن يعبر عن عجبه من التغيّر الذى أصابه ودهشته من التكيّف السريع مع جو البلد لكنه كان يخاف أباه فيمسك لسانه .

٥

مرت الأيام سريعًا وفريد منهمك فى عمله الجديد ، لا يكاد يراجع دروسه أو ينظر فى كتاب من كتبه ، وكلما وضع الكتاب على كرسىّ المصحف وبدأ القراءة وجد النوم يغالبه ، والسطور تتراقص أمام عينيه ! وكان كلما وجد أباه فى الوكالة استأذنه فى الذهاب إلى 'الأرض' للحديث مع مراد ، وكان مراد قد عمل بنصيحة والد فريد فصبغ شعره ولحيته القصيرة وشاربه بالصبغة التى أتت بها والدة محمود ، فتحول اللون الأصفر الفاقع إلى أسود قاتم ، كما أكسبه العمل فى الحقل يوميًا والتعرض للشمس سُمرةً خفيفة ، وكانت بشائر الربيع تكسو الحقول ، ولم تعد الأمطار تهطل إلاّ لمامًا ، وكانت بسيمة وفرحانة - أختا محمود -

تأتيان مع أولادهما الصغار لزيارة الأسرة أحيانًا فى رشيد ، إذا سمحت ظروفهما ، يوم الجمعة ، وكانتا تقيمان فى 'كوبرى الجِدّية' وهى منطقة تبعد نحو فرسخ كامل ، أى على مسيرة ساعة من حقل الحاج ، وكانت تلك المنطقة قد تغير اسمها إلى 'البرج الفرنساوى' لأن الفرنسيين كانوا قد أقاموا فيها برجًا لمراقبة الطريق الساحلى وطريق 'البوصيلى' ، وكان يربط بين الطريقين شريط ضيق من الأرض الوعرة أصلحه الجنود الفرنسيون وأسموه الكوبرى وهى كلمة رومية تعنى الجسر ، ومن هنا جاءت إضافة لفظ الكوبرى إلى اسم المنطقة، كما كان بعض جنود الحملة الفرنسية قد تخلفوا ولم يرحلوا ، بل استقروا واشتروا بعض الأرض من الأهالى وتزيوا بزى أهل البلد ، وتزوجوا بعد إشهار إسلامهم من بنات المنطقة ، وسرعان ما أنجبوا وكانوا يرسلون أطفالهم إلى مدرسة القبط فى رشيد ، وكان بعضهم يعمل أحيانًا فى حوانيت التجار الفرنسيين أو ببعض الحرف الجديدة التى لم يكن لأهل البلد عهد بها ، مثل الحرف الهندسية أو الآلية ، وكان البعض الآخر قد بدأ يعمل بانتظام فى البوغاز، إما بإمساك الدفاتر أو بالترجمة .

لم يكن مالك الصباغ يرتاح لما أقدمت عليه ابنتاه من السفور والاختلاط بالرجال ، لكنه لم يكن يملك تغيير أى شىء ، فقد أصبحتا فى عصمة رجلين ، وكانتا تعملان بصناعة أنسجة الطرابيش الداخلية من خوص النخيل ، بعد تبييضه فى المعمل الفرنسى القريب ، وهما ذواتا أصابع ماهرة فى النسج ، تستطيعان إنتاج أعداد كبيرة من هذا النسيج فى اليوم الواحد ، وتضطران إلى الخروج إلى سوق الجِدّية لبيعه ،

فتختلطان بالرجال وبزوجات الفرنسيين المقيمين فى المنطقة ، ولم يكنَّ قد تَخلّين عن الملابس البلدية الفضفاضة ، ولكنهن أصبحن سافرات الوجوه ، وكان مالك يُرْجع شيوع السفور فى تلك المنطقة إلى تلك النسوة، فهو لم يَعْتَدْ ذلك فى طفولته أيام المماليك ، فتَقَبَّلَ ما يأتى الزمان به على مضض، وحينما قدمت بسيمة وفرحانة فى يوم الجمعة الحالى ، انتابت مالكًا مشاعرُ متضاربة : هل يطلعهما على سر مراد الأرنؤوطى ؟ وهل يسمح بالتعارف ولما يمض عليه الوقت الكافى لديهم ؟ وحينما فاتح أم محمود فى الأمر ضحكت وقالت : 'لم يعد بيدك شىء ! ولن تستطيع إجبار أحد على فعل شىء ، فاصبر ولا تحاول تعديل شىء !' وعندما همّ بالكلام أسرعت فأضافت قائلة : 'الحبرة واليشمك لبنات الذوات ، أما نحن ففلاحات ، ولم نخجل يومًا من وجوهنا !' وتململ مالك فى جلسته - وهما جالسان على الأرض بجوار الباب يشربان الشاى - وقال بلهجة نمّت عن بعض التردد : 'الراجل برضه غريب ! أنا قصدى ...' فقاطعته قائلة: 'لا.. بل هو من العائلة ! سوف أزوجه نفيسه ابنة أختى ، ولقد حادثت أختى فى ذلك فلم تعترض !' ورفع مالك نظره إليها دهشًا وقال إنها لم تخبره من قبل ، وأليس من الأوفق أن نسأل الشيخ فريدًا عن رأيه؟ فإذا بأم محمود تقول فى نبرات قاطعة حادة : 'لا شأن للشيخ فريد بهذا الموضوع ! إن مرادًا ضيفنا ويعمل لدينا ويحبنا، ولن أجد له خيرًا من نفيسه ! صحيح أنها كبرت ، لكنه أيضًا كبير ! وسوف أرسل ابنى محمودًا ليستدعى فريدًا ليحضر قراءة الفاتحة ويشهد على الزواج !'

وفوجئ مالك وأصابه الوجوم ، فلقد عاش طول حياته فى ظل تقاليد

راسخة من الكتمان والتحايل للنجاة من عسف الحكام الظلمة ، وكان وجود مراد الأرناؤوطي يهدد بالكشف عن بعض أسراره ، فقد يتساءل الناس عن هذا القادم الجديد الذي دخل أسرتهم وصاهرهم ، والناس يحبون الكلام وتناقل الأخبار ، وهو يشعر أن سياج الكتمان الذي ضربه حول حياته قد انفتح فيه باب ، خصوصًا إذا ظل مراد يقيم بينهم حتى بعد رحيل الجنود ! وأخذ يفكر في صمت فيما عساه يفعل إذا طالبه مراد بأجر على ما يؤديه في الحقل من عمل ، أو إذا بدأ 'ينزل' إلى البلد فيحادث الناس ويحادثونه، وهل يستطيع أن يأتمنه على أسراره ؟ وحتى إذا لم يفعل ، أفليس من المحتمل أن يكتشف مراد وحده بعض تلك الأسرار ؟ لقد وثقت الأسرة به إلى حد دعوته لمصاهرتها ، ولكن تراه حقا أهلاً للثقة ؟ إنه – مهما يكن من أمر – غريب !

وقطعت أم محمود الصمت بكلمات أخرجت مالكًا من وجومه إذ قالت بنبرات رقيقة "استعذ بالله من الشيطان وقُمْ فتوضأ ! ماء الزير تسطع الشمس عليه منذ الصبح !" فرد مالك بسرعة "اللهم اخزيك يا شطان !" ونهض فشمّر أكمامه ولبس القبقاب ووضع الفوطة على كتفيه واختفى خلف المنزل . وحملت أم مراد الأكواب الفارغة ودخلت المنزل فوضعتها في 'قروانة' ضخمة ، وكنست مدخل البيت بمكنسة من ليف النخيل ، ثم تطلعت إلى الظلال تنظر كم بقي على أذان الظهر ، ومن ثَمَّ على صلاة الجمعة ، وهي تفكر فيما إذا كان من الحكمة أن يُسمح لمراد أن يهبط رشيد ليصلي الجمعة مع الناس ، ثم نظرت إلى 'القاعة' التي يقيم فيها وقالت في نفسها لابد من بناء غرفة جديدة ملحقة بالمنزل حتى تكون

نفيسة قريبة منها ، تساعدها فى عمل المنزل الذى زاد ولم تعد قادرة وحدها على تحمله ، وروضة ابنتها مصيرها إلى الزواج والرحيل ، والزمن يجرى والعمر يتقدم بها ، ومن يدرى فربما تزوج محمود أيضًا فأحَبّ الابتعاد عن المنزل ، وهكذا تستطيع أن تستعيض عن ابنتها وابنها بابنة أختها وزوجها ، ونظرت إلى الحوش المجاور 'للقاعة' حيث تُربىّ الدواجن فى قسم منه وتخصّص ركنه البعيد للجاموسة ، وقالت فى نفسها إنه واسع بل شاسع ، ويمكن اقتطاع مساحة محدودة منه 'ولو كانت أربع أذرع فى أربع !' لبناء الغرفة ، ومن ثم نادت زوجها الذى كان قد انتهى من الوضوء وأخذ فى ارتداء ملابسه فذكرت له كل ما جاء بخاطرها ، ثم أردفت قائلة : ''ليتك تستطيع شراء بعض قوالب الطوب مما يصنعه الجماعة على شط النيل ! يكفينا حِملُ جَمَلٍ أو حِملان ! أما الخشب فلدينا ما يكفى منه ، ولا يزال فى مكانه منذ هدم العشة القديمة !'' وقال مالك إنه سوف يسأل الشيخ فريدًا 'فالأرض أرضهم !' فضحكت أم محمود وقالت ''وهل آلت إليه الأرض وأبوه حى ؟ اسأل الحاج عبد الحكيم وسوف يرحّب ! متى تتعلم الأصول يا أبا محمود ؟'' ولم يجب مالك بل شُغل بارتداء ملابسه وحوّل بصره عن زوجته وبدأ يقرأ بعض الآيات فى سره .

الفصل الرابع

التنـــازع

١

لم يمض أسبوعان على ما قالته أم محمود حتى كان بناء الغرفة قد اكتمل ، وقد استمتع مراد أيما استمتاع بالمشاركة فى بنائها وضبط مقاييسها وزواياها بما أحضره له فريد من مسيو لوبون - التاجر الفرنسى - من أدوات هندسية افرنجية ، وكان محمود ساعده الأيمن فى كل ما يفعل ، يحاول أن يكتسب صنعة جديدة وقد بهرته قدرة مراد على التخطيط والتنفيذ ، وفى أثناء ذلك كانت أم محمود دائمة الترحال إلى كوبرى الجدية للاتفاق مع أختها على المهر وتفاصيل الزفاف ، ونفيسة تكاد تطير فرحًا بما سمعته عن عريسها المنتظر ، فتتردد على 'البلاّنة' بانتظام للتزيّن والاستعداد لليلة 'الجَلْوة' ، ووالدتها تجتهد فى نسج الأقاصيص عن أصول 'العريس' الرومى الذى "سمع عن عراقة الأسرة التى طبّقتْ شهرتُها الآفاق فجاء يطلب المصاهرة" ، وكانت تبالغ أحيانًا فى وضع تلك الأقاصيص حتى لقد خُيّل لبعض نساء القرية أنه من سراة

الروم حقًا ، وأنه سوف يأخذ عروسه إلى قصر مُنيف في رشيد حيث تصبح من 'الذوات' وتنعم بأطايب الحياة ، وكانت زنوبة أم نفيسة تظهر لزائرتها الحليّ الذهبية التي أهداها مراد لعروسه (وهي التي اشترتها أم محمود بالنقود التي أعطاها مراد لها عشية الاتفاق على المهر) وتضيف إليها 'البَنْدَانْتيف' (أي القلادة - وكانوا ينطقونها 'بَنْطَانْطيف') التي اشترتها من زوجة أحد الفرنسيين المقيمين بالمنطقة ، وكانت في أعماقها لا تتمنى الإسراع بالزفاف حتى تستمتع لأطول وقت ممكن بنظرات الحسد في عيون نساء القرية ، ولكن أم محمود تصر على إتمام الزفاف بسرعة ، وهكذا تحدد اليوم الموعود ، بعد أن زارت زنوبة أختها حريصة (أم محمود) واطمأنت على أن الغرفة قد اكتملت ، وكانت تطمح إلى محاكاة 'عائلات' رشيد فاتفقت مع أختها على استئجار عربة تجرها أربعة خيول لنقل موكب العروس بعد الزفاف ، إلى جانب 'جهازها' المتواضع ، وعلى إقامة ليلة الزفاف في كوبري الجدية ، واستئجار الآلاتية لعزف الموسيقى والغوازي للرقص ، ومقرئ للقرآن اشتهر بصوته الرخيم وقدرته على اجتذاب الأسماع ، واقترحت حريصة الشيخ عبد الغفار الرشيدي (وكانت تعلم أنه غير 'طماع') ، وسألتها زنوبة هل هو 'صيِّت' مشهور ، فقالت حريصة "مالوش أخ في الأذكار والتواشيح" فلم تعترض زنوبة ، ومن ثم انشغلت طيلة الأسبوع السابق للزفاف بتدبير ما يلزم من الطعام للضيوف ، جريا على العادة في رشيد ، خصوصًا العيش على اللحم وهو نوع من الفطائر المستديرة الضخمة التي تضاف إليها 'خلطة' خاصة في منتصفها (من الخارج لا في داخلها) من اللحم البقري المفروم والبصل والطحينة والمقدونس والخل والتوابل، وتخبز

الفطائر بما عليها حتى تنضج ، ثم توزع على أهل القرية ممن يزورون بيت العروس للتهنئة .

وكان فريد فى هذه الأسابيع مشغولاً بالوكالة ، لكنه كان يزور مرادًا حين تسنح الفرصة إما ليحمل إليه البذور التى طلبها للزراعة ، أو للائتناس بحديثه وصحبته فحسب، فقد كان يجد فيما يقول تسرية عما هو فيه من عمل متواصل ، وغذاءً لعقله الذى حرمه القراءة زمنًا طويلاً ، وكان مراد لا يضنُّ بالإجابة على أى أسئلة يطرحها فريد ، إذ نشأت فجأة صداقة عميقة مبعثها ثقة كل منهما فى صدق صاحبه وصراحته ، وكان فريد معجبًا أيما إعجاب بما أقدم عليه مراد من رفض حياة الجنود واختيار حياة الفلاحة ، أى الإقدام باختياره على نبذ حياة السلطة والسطوة ، فهى الحياة التى تُبلغ صاحبها ما يريد من الدنيا مهما اشتط خياله ، وتفضيل حياة هادئة فى الريف يَشُقُّ فيها كسب الرزق ، ويخضع فيها الإنسان لتقلبات أهواء الأمراء والكبراء من أصحاب السلطان، ممن لديهم الجند وبيدهم الحل والعقد ، فتكون أقداره رهنًا بمشيئتهم! فكيف أقدم مراد على ذلك ؟ ولم يكن فريد يدرى أنه بتساؤله يفصح عما فى أعماقه من طموح يرفضه عقله الواعى ، وأنه يُفضى إلى مراد بما لم يُفْضِ به حتى إلى صديقه الشامى ، وامتد الحديث بينهما يومًا وطال فتفرّع إلى مسائل لم يخطر على بال فريد أن يطرحها إذ سأله مراد فجأة : 'ماذا تريد من الدنيا ؟' ولما لم يُجِبْ فريد أعاد مراد صوغ السؤال قائلاً : 'ما الطيف الذى ما برح يراود خيالك ؟' ونهض فريد كأنما ليهرب من مواجهة السؤال ، وآية تتردد فى أعماقه (وأصبح فؤاد أم

موسى فارغًا أن كادت لتفضى به) ثم جعل يُنَقّل بصره بين مراد وبين الحقول الخضراء ، وقد لاح فى خياله طيفُ صاحبة العينين الخضراوين فاتنًا ساحرًا !

وضحك مراد لتردّد فريد وهوّن عليه حيْرته وقال له "أما أنا فأحلم بزراعة الفراولة وغيرها من أنواع التوت الأوروبية وبيعها للناس ، هنا وفى خارج البلد ، فإذا توافر لدىّ من المال ما يكفى اشتريتُ قطعة أرض صغيرة من أراضى الباشا – هذه الأراضى الرملية التى لا تزرع فيها زروع ، فأحيلها إلى جنّة تغرّد فيها الطيور صيفًا وشتاءًا !" وكأنما لم يفاجأ بتذكير فريد له بأنه سوف يتزوج غدًا أو بعد غد ، قال مراد : "وهل يمنعنى الزواج من تحقيق حُلمى ؟ لربما أنجبت ذُرّية صالحة من المصريين !" .

وصمّم فريد هذه المرة ألا يضيّع الفرصة فسأل مرادًا عما يعنيه بهذه الكلمة العسيرة، فما معنى المصرى ؟ فإذا بمراد يقول له على الفور – كأنما دون جهد – "المصرى هو أنت ومالكٌ وأم محمود ! المصرى هو كل من يعيش هنا ويتخذ هذه الأرض وطنًا له ويتكلم العربية !" وقال فريد بسرعة "حتى الشوام والمغاربة ؟" فرد مراد بثقة "ما داموا قد اتخذوا هذه الأرض وطنًا !" فسأله فريد "والأروام ؟" فقال مراد "إن كنت تعنى الأتراك، فاللغة تفصلنا – أنا وأنت – عنهم !" ونظر فريد دهشًا إليه وقال "وأنت أيضًا ؟" فقال مراد "لقد قضيت سنوات طويلة فى مصر منذ أن عادت الفرقة من الحجاز وحتى عاد طوسون فكان ما كان من تشتيت الأرناؤوط وقدومى إلى هذه الأرض ! ولقد تعلمت فى هذه السنوات ما لم

تتعلمه فى الأزهر ، بل وربما ما لن تتعلمه أبداً إذا ظل اهتمامك محصوراً فى كتب النحو والعلوم الشرعية ! ويجوز أن ما تعلّمتُه عن نفسى وعن الإنسان أكبر مما تعلّمتُه عن الحرب وفنون السلطان ! وأكاد أقطع بأنك تخفى عنى سراً لا أريد إرغامك على إفشائه ، لكننى كشفت لك عما فى قلبى وقبلت الحياة مختبئًا عن العيون ولولا صحبة هذه الأرض الطيبة لأحسست بالمهانة لهذا الإختباء ! قد تقول إن الأرض هى الأرض فى كل مكان ، فهى أرض الله وجميع من عليها خلق الله ، ولكننى أحس هنا بالأمان ، فكأنما هى رَوْحٌ وريْحانٌ وجنةُ نعيم !" وهمس فريد 'صدق الله العظيم' ولم يزد ، وإن زادت حَيْرته ، فالرجل مقبل على الزواج دون أن يشعر بأنه يدخل دنيا جديدة – كما يقول أولاد البلد – بل ما فتئ يتحدث عن الأرض بنبرات الشعراء !

وعندما نظر فريد إلى مراد يوم 'الفَرَح' ، قال فى نفسه إنه لم يبالغ فى الحكم على غرابة هذا الرجل ، فقد كان هادئًا بشوشًا يتكلم بتؤدة لا تشى بأى انفعال ! وبدأت 'إجراءات' عقد القران بعد صلاة العصر ، إذ حضر والد نفيسة (أخت حريصة – 'أم محمود') وكانوا ينادونه بلقب 'الشيخ شحاته' ، وعلم فريد أنه ليس شيخًا ولا علاقة له بالعلم أو التعليم بل يعمل فرّاشًا فى أحد مساجد كوبرى الجدّيّة ، ورحب به مراد قائلاً 'أهلاً يا والدى !' – وهو ما ضحك له فريد فى نفسه وإن لم يشأ إظهار دهشته – وكان 'العقد' ينحصر فى قراءة الفاتحة وقد وضع العريس يده فى يد وكيل العروس (الشيخ شحاته) ، ثم شهادة الشهود بطريق السؤال والجواب ، إذ أخذ فريد الذى كان يقوم بعمل الشاهد (المأذون) يسأل كل

واحد من الحاضرين : من أنت ؟ فيقول أنا فلان فيسأل ثانيًا هل تشهد على زواج فلان بفلانة بنت فلانة ؟ فيقول أشهد ، وبعدها قال فريد إذن فقد تم القران ، وعندها أعطى الشيخ شحاته إشارة إلى زوجته زنوبة فأطلقت 'زغرودة' عالية ما لبثت النساء أن ردّدنها ، ثم بدأ الشيخ عبد الغفار الرشيدى يقرأ القرآن ، ثم أخذ يرتّل الأذكار ويترنّم بالتواشيح ، حتى أن أوان 'الدورة' ، وكانوا ينطقونها 'الدُّورة' بتفخيم الدال حتى لتقترب من الضاد ، وهى جولة يقوم بها العريس فى المنطقة ، وأمامه الزمارون والطبالون ، ومن حوله شبان فى مثل سنه تقريبًا يلقون بالزهور أمامه ، وكان مراد يرتدى جلبابًا فضفاضًا أبيض ، وطاقية مزركشة ، ويلف حول عنقه 'لاسة' حريرية ، ويمسك فى يده مسبحة ، وأمام الحشد أولاد البلد 'يلعبون العصا' ، وهى الصورة البحراوية للعبة التحطيب الصعيدية ، وظل الموكب يطوف بالمنطقة حتى أذّن لصلاة العشاء، فدخل الجميع المسجد ، وخرجوا بعد الصلاة للاتجاه دون صخب إلى منزل العروس ، وكانت به مصابيح مضاءة وفرقة أخرى من الزمارين والطبالين لمصاحبة الفوازى ، فجلس المدعوون خارج المنزل على كراسىّ اصطفت فى حلقة كبيرة ، وكانت وجوه النساء تطل من الشبابيك فى بيت العروس والبيوت المجاورة انتظارًا لوصول الفوازى ، والعروس نفسها فى غرفتها مع 'البَلّانة' ووالدتها وقريباتها ، وكُنّ ما زلن يعملن على إعدادها لَلَحْظَة الزفاف ، وهى ركوب العربة مع عريسها إلى منزلها الجديد ، وكان ذلك من تقاليد 'الذوات' ، لا من تقاليد 'الفلاحين' الذين كانوا يصرون على أن يدخل العريس بعروسه فى منزل أهلها ، وأحيانًا بحضور والدتها ! ولكن زنوبة كانت تصر على التشبه بالذوات ولم يستطع أحد معارضتها !

وسرعان ما جاء الغوازى ، وكُنّ جميعًا من 'البرج' ، وكان فريد يَرَاهُنّ لأول مرة منذ سنين بعيدة ، فجلس إلى جانب مراد صامتًا ، وعندما بدأ الغناء والرقص تعالت الزغاريد من البيت ، وجاءت أصدقاؤها من البيوت المجاورة ، ولم يكن أحدها يعلو على طابقين ولكن الكثيرات صعدن إلى السطح وجعلن ينظرن ويتابعن الزفة بالتصفيق والصياح ، وكان معظم الصغار قد أووا إلى مخادعهم بعد صخب 'الدّورة' وضجيج تناول الطعام، ولم يبق سوى عدد محدود منهم يغالب النعاس بجانب الأب أو الأم ، وتجمع الكثيرون ليشهدوا الرقص وقوفًا ، فكأن كوبرى الجدية كلها كانت فى فرح ، وكان المشهد يوحى بأنه لم يكن زفافًا عاديًا ، بل حدثًا للمنطقة بأسرها !

٢

وعاد فريد إلى منزله بعد أن شهد جانبًا من الغناء والرقص ، ولم ينتظر انتقال العروس إلى عريسها فى رشيد فى العربة المُزيّنة إذ كان يشعر بإرهاق شديد ، فهو لم يهدأ طول النهار وحتى هذه الساعات الأولى من الليل ، وتذكر حين اقترب من مقعده المجاور للفراش أنه ترك كتابًا له مفتوحًا على باب 'التنازع والاشتغال' فى النحو فقال فى نفسه كم أهملت دروسى ! لكنه حاول أن يُقصى هذا الخاطر بالتفكير فى الوليمة التى أعدتها أم نفيسه ، ولابد أنها أنفقت فى سبيلها الكثير ، وتعجب من ميلها إلى التفاخر والتباهى ، على عكس أختها أم محمود ، وتساءل عن ذلك الطموح الذى يدفع الإنسان إلى أن يطلب الكثير فيكلّف نفسه فوق

طاقته ، وربما أرهق نفسه ومن حوله ، وخطر له أن طبع الإنسان يقضى بدوام الطلب ، أمـا زال هو نفسـه يطلب العلم ويحلم بذات العـينين الخضراوين ؟ هل يلوم نفسه على ما يطمح إليه ؟ وكيف ينكر أنه غير قانع بحاله وبأنه لا يستطيع الوصول إلى من يتمنى الزواج منها ؟ ما الذى يجعل رجلاً مثل 'أحمد أغا' يشغل منصب كاشف الناحية فيقيم فى قصر فيه الخدم والحشم والجوارى والعبيد، ويحرسه الحراس ليلاً ونهاراً، وغيره يعيش عيش الكفاف فيكدح لكسب الرزق ، ويكابد المخاوف كلما طرأ طارئ ؟ ومن تراه جديراً بمصاهرة 'أحمد أغا' ؟ المماليك ؟ لقد كسر الباشا شوكتهم فأصبحوا طوع يمينه وفقدوا سطوتهم ولو كانوا ما يزالون يتربصـون به ويكيـدون له ! الروم ؟ إن بنات الناس ترفض الزواج منهم – على نحو ما شهد فى القاهرة – ولا يقيم فى رشيد الكثيرون من هؤلاء أو هؤلاء ، فهل يأتى أحدهم من خارج البلدة لمصاهرة الكاشف ؟ وكيف تأتّى للكاشف – على أى حال – أن يتبوأ هذه المكانة الرفيعة ؟ لعله كان جنديًا – ولكن الجنود ، كما قال له مراد ، لا يتزوجون عادة ! أو لعله كان من أصحاب السلطان – عاملاً بالحسابات مثل محمد القزق !

وكأنما لذعه هذا الاسم أو لسعه لسعةً مفاجئة فنهض إلى النافذة يستروح أنسام الليل الباردة ، قائلاً فى نفسه إن مشاغل الوكالة وشؤون مراد قد ألهته فى الأسابيع الماضية فلم يعرف إن كان محمد قد رحل ! ولابد أن أباه يعرف فما عليه إلا أن يسأله ! ولكن أباه مشغول عند شاطئ النيل عند قمائن الطوب والسفن التى تحمل لوازم القشلات ، أو فى المجلس أو – ربما عند الشيخ الغاياتى شيخ البلد أو السيد حسن كريت

نقيب الأشراف – من يدرى ؟ لقد حل الربيع وصفا الجو ، والأمطار شآبيبُ متفرقة بل قد تمطر فى 'بحرى' ولا تمطر فى 'قبلى' ! وهو يحس بأنه يتغيّر رغم إرادته ، فأين تلك السكينة التى عمرت قلبه وهو قادم إلى البلد ؟ وهَبّتْ نسمة مفاجئة من نسمات الليل فتراقص لهب المصباح الكبير، فأغلق النافذة وقال فى نفسه فَلأعُدْ إلى دروسى ولو تَغَيّرْتُ ، فأنا أعلم أن التغير سُنّة الحياة لكننى أريد أن أفهمه !

ونظر فى الكتاب وما كتبه (من إملاء الأستاذ) فى باب 'التنازع والاشتغال' فلم يجد لديه القدرة على التركيز فقال فلأحفظ الشواهد على الأقل حتى يتسنى لى تفهم الآراء المتضاربة ، لكنه تثاءب رغمًا عنه فضحك فى نفسه وقد سمع هامسًا فى باطنه يهمس 'النوم سلطان !' ثم ما لبث الهامس أن قال 'التنازع الحق يا فريد هو ما تشهده فى الحياة لا بين الألفاظ !' وابتسم ردًا على الهامس وأوى إلى فراشه !

٣

عندما جاء أبوه إلى الوكالة فى الضحى كان مشرق الوجه على غير عادته فى الأيام الماضية وما أن جلس بجوار فريد الذى كان منكبًا على دفتر اليومية حتى قال بلهجة المنتصر الظافر : ''انتهينا من لوازم القشلات ونال الجميع أجورهم كاملة غير منقوصة !'' وفرح فريد لفرح والده ولو أنه لم يجد فى ذلك الخبر ما يجلب مثل تلك الفرحة المفاجئة، فلم يعلق وكان يحس أن هناك ما هو أكثر من ذلك ، فلم يعد إلى الدفتر بل ظل يحدق فى وجه والده كأنما ليستحثه على الإفضاء بالمزيد، وصدق حدسه

إذ قال والده : "لقد أمر الباشا ببناء معمل لضرب الأرز وتبييضه هنا – في رشيد !" وقال فريد يستزيده "ثُم ماذا ؟" فَرَدَّ أبوه ببسمة صافية :

"جاءنا في المجلس أن أحد أبناء مصر واسمه حسين شلبي عجوة قد ابتكر آلة جديدة لضرب الأرز وتبييضه ، وأنه بناها بنفسه وعرضها على الباشا فأبدى إعجابه بها وأمر ببناء معملين ، أحدهما في دمياط والثاني في رشيد ، وقد ناقشنا الأمر وعرضنا لأدق تفاصيله ، وقرّ رأينا على بنائه في أرض الكاشف ! وقال أحد رجال المجلس إن المعمل يلزمه مدير متعلّم ، وذكر اسمك ، وعندما اعترضت قائلاً إنك لا تزال تدرس في الأزهر ، هب الجميع فامتدحوا خُلقك وقالوا إنهم لا يثقون في غيرك ! لكنني أصررتُ على سؤالك أولاً فإذا وافقت فسوف أُبلغهم ! فانظر ماذا ترى".

وقال فريد بصوت خفيض "وماذا ترى أنت ؟" فقال والده : "لقد كبرتُ وأريدك أن تحصل على إجازتك وتتزوج فأفرح بك قبل أن أموت ، لكنني لا أتصور أن تعمل أستاذًا في الأزهر أو إمامًا لمسجد أو واعظًا يكرر أقواله صبح مساء ! والفرصة السانحة ربما لن تتكرر ! ومعنى أن تصبح مديرًا للمعمل أن تُحكم علم الحساب ، وهذا أمره يسير ، وأنت تعرف الرومية والفرنسية ، وهو ما سوف يساعدك في التعامل مع تجار الإفرنج ! ولا تنس أن أرض الكاشف تقع على مقربة من البوغاز ! وسوف يعمل تحت إمرتك عدد كبير من الرجال، وسوف تكتسب من ثَمّ خبرة ثمينة بالحياة وممارسة العمل! ولا تنس أيضًا أنك سوف تلتحق ، بعد ذلك بقليل، بمجلس التجار الذي يرأسه الشهبندر الحاج شبابو ، ومن يدري ، فقد تلتحق بعد ذلك بمجلس الكبار أيضًا !"

وقال فريد : "والدراسة ؟ هل أنْقَطِعُ عن دراستى ؟" وخفض بصره وهو يغمغم : "ألم تقل لى بنفسك ألا أشغل نفسى بغير الدراسة حتى أنتهى وأحصل على إجازتى ؟ الصيف على الأبواب ومعه رمضان ، ولابد أن أستعد للامتحان قبل الشهر الكريم !" فضحك والده ثم قال "وهل رأيت المعمل جاهزًا حتى تخشى العمل فيه ؟ لا يزال أمامنا شوط طويل نقطعة قبل إعداد المبانى وتجهيز الأرض اللازمة وشرائها من الكاشف ! وبعدها تأتى الآلات من القاهرة فنركبّها ، وسوف يأتى حسين أفندى معها من القاهرة ، ويحدد لنا عدد الثيران التى يحتاج إليها لإدارتها ، إذ إن كل شىء يتوقف على حجم الآلات وعدد العمال المطلوبين ، ولكننى أردت أن أعرف رأيك أولاً قبل أن أوافق على الصفقة !" .

ونظر إليه فريد دهشًا وقال "الصفقة ؟" فقال والده باسمًا : "الباشا وافق على أن يسمح لنا بامتلاك الأرض التى سيقام عليها المعمل إذا تعهدنا بتوريد الأرز المضروب (المقشور) كلّه له ، أو بيعه لحسابه ، واقتطاع تكاليف الإنشاء من المكاسب المنتظرة من المعمل ، ولذلك فلابد أن نشترى الأرض منه ، وهى التى تركها حاليا فى عهدة الكاشف ! إنها لا تزيد على عشرين قيراطًا ، ولكنه يؤجرها للصيادين حتى يستخدموها فى نشر شباكهم وتجفيفها وإصلاحها ويتقاضى منهم مبلغًا كبيرًا فى السنة ! فإذا وافقت على أن تدير المصنع فسوف تكون الأرض باسمك ، ولك أن تدفع ثمنها من مكاسب المعمل كلما تيسّر لك جانب من المال !" .

وقال فريد : "تعنى أننى أستطيع أن أعود الآن إلى القاهرة فأستعد للامتحان ثم أرجع فيما بعد ؟" وردّ أبوه بالبسمة الصافية نفسها:

''الأمر فى يدك ! ولكنّى أودّ أن أقول لك إننا حسبنا التكاليف والأرباح المنتظرة فوجدنا أننا لابد فائزون ! ولقد كتبت هذه الوكالة باسم أختك خديجة ، وكتبت الأرض الزراعية باسم والدتك ، وأهديت لأختيك المتزوجين ذهبًا وفضة ، ولم أنس أختك فى الرضاعة فأهديتها ما يقيها غوائل الزمن ، ولكنى لم أعطك شيئًا ولا أريدك أن تكافح فى سبيل الحصول على ميراث لابد أن يشاركك القضاة المرتشون فيه وقد يحظون بمعظمه !'' .

وقال فريد بسرعة ''ولكن الباشا منع الرشوة !'' فقال أبوه بحدّة : ''الناس هم الناس ! لقد اعتادوا أكل المواريث ولن أترك ميراثًا يعبث به القضاة ! ولذلك فإننى انتويت أن أشترى لك أرض الكاشف حتى تُنشئ عليها مضرب الأرز وتديره فيكون لك فى حياتك ولأبنائك من بعدك !'' .

وأطرق فريد ولم يرد ، فاستحثه أبوه ، فأومأ فريد برأسه ، فصاح أبوه قائلاً ''بارك الله فيك يا بُنىّ ! لم تخيّب ظنى فى يوم من الأيام ! والآن لابد أن أمضى فأُطلع رجال المجلس على موافقتك حتى يُطلعوا الكاشف ، ولن يدخل الصيف إلا وقد بدأنا العمل بهمة ونشاط !'' ونهض أبوه مسرعًا فامتطى حصانه وانطلق ، وترك فريدًا فى حيرة ، فجعل ينقل الأرقام فى الدفتر بصورة آلية ، وقد كاد ذهنه يغيب ، والأرقام تتراقص أمام عينيه ، بل لم يعد يدرى كيف يفكر .

وعندما أذّن الظهر اتجه إلى المسجد بخطوات بطيئة كأنما يجرّ رجليه جرًا ، وعندما انتهت الصلاة لم يَقُمْ ، بل ظل جالسًا فى مكانه يحدّق فى الحَمَام الذى يطير من منور المسجد ويدور فى أسراب حول المئذنة ، فتذكر حمام صحن الأزهر ، وأحس بحنين جارف إلى القاهرة ،

وبدا له أن ينهض من فوره فيركب حصانه فلا يعود أبدًا ! وذكر صديقه الشامي وكتبه وأشياءه التي تركها في الغرفة ، وذكر أساتذته وزملاء العمود في الجامع ، وفرّاش الجامع الذي كان دائمًا يرحب به ويحجز له مكانًا إذا تأخر عن الدرس، ثم برزت بعض صور متشابكة حار في تفسيرها فأحس بدوار خفيف خاف معه أن يُغشى عليه فتحامل على نفسه ونهض واتجه إلى الزير الكبير في الركن القريب ، فشرب جرعة ماء، ومسح بالماء البارد على وجهه ثم خرج من المسجد ولم يعد إلى الوكالة ، بل أخذ يسير مُجِدًا حتى وصل المنزل ، ودخل غرفته فأخرج كتبه ورتّبها وجعل يحدق فيها صامتًا .

٤

أعفى مالكٌ مرادًا من العمل ثلاثة أيام، وكان الربيع قد كسا المراعي بالخضرة والزهور ، وأمطار الربيع قليلة ولكن ندى الفجر عادة ما يتجمع على نصال الكلأ في حديقة المنزل الصغيرة ، ويتلألأ في شمس الصبح كأنه اللؤلؤ المنثور ، وكان مراد لا يكل عن النظر إلى هذا المشهد المشرق كل صباح فتمتلئ نفسه غبطة ، وقد أحس بعد هذه الفترة – وبعد زواجه – أنه أصبح من أفراد الأسرة ، فصارح مالكًا ذات يوم ، و'شمُّ النسيم' على الأبواب ، أن الوقت قد حان لزراعة الفراولة وأنواع التوت الافرنجي في صوبة زجاجية صغيرة ، ولكن مالكًا قال له إن هذا عمل باهظ التكاليف ، وعليه أن يخاطب فريدًا أو الحاج عبد الحكيم في أمر الإنفاق عليه . وهكذا فما أن عاد فريد لزيارة مراد في اليوم الرابع ، حتى فاتحه

مراد فيما يريده ، وكانت البذور التى طلبها قد وصلت، والتاجر الفرنسى الذى اشتراها لفريد لا يريد أن يتقاضى ثمنًا لها بل يصر على أن يتقاضى الثمن 'عينًا' (أى من الفراولة والتوت) بل وأن يصبح متعهد بيعها إلى الأجانب إن 'صحّ' المحصول (أى إذا نجح) ! واتفق فريد ومراد على أن يتكفل الأول بتكاليف بناء الصوّبة ، وأن يشارك الثانى بعلمه وجهده ، وأن يتقاسما الأرباح .

وخطر لفريد يومًا أن يسأل مرادًا إن كان يتوق إلى زيارة رشيد والاختلاط بأهلها ، أو إذا ما كان قد ضاق بالعزلة التى يعيش فيها ، وعندما قال له مراد إنه لا يريد أن يخاطر 'بالنزول' إلى رشيد لأن فى هذا خطرًا على الأسرة التى آوته ، عَلَتْ مكانةُ مراد فى عينى فريد ، وقال فى نفسه 'هكذا يكون ردّ الجميل !' لكنه ظل دهشًا من انحصار حياة مراد فى الزراعة ، كأنما لم يكن جنديًا مرهوب الجانب ، وكأنما لم يذق طعم السلطة والسطوة ! فسأله سؤالاً مباشرًا عن رأيه فيما عرضه والد فريد من تولية ابنه إدارة المضرب المزمع بناؤه ، فأطرق مراد كمن فاجأه السؤال فلم يجد إجابة حاضرة ، فسارع فريد بإيضاح مزايا هذا العمل وتبيان قدرته على النهوض به ، قائلاً إنه أعرب لأبيه عن موافقته . فضحك مراد وقال ''الواضح أنك قبلته على مضض ، وتريد منى أن أزيّنه لك حتى يطمئن قلبك ! ولكننى لن أفعل ! إن حياتنا يا فريد يا أخى تتوقف على ما نختاره طوعًا ونُقبل عليه حبًا ، لا على ما يُفرض علينا فنحاول إقناع أنفسنا بحبّه أو طلبه! ويبدو لى أنك تنفر من أعباء الإدارة ، فالعبء أمانة نحملها بفضل ما آتانا الله من علم أو مقدرة على التحمّل ،

وأحسُّ أنك يتنازعك عاملان : الطموح وحب الرياسة من جانب ، والإشفاق من تحمل أمانة هذا وذاك من جانب آخر ! وعليك أن تفصل أنت وحدك بين هذين العاملين !" .

ووجد فريد نفسه يضحك ضحكة تَنِمُّ عن القلق أكثر مما تنم عن السعادة ، فها هو مراد يتحدث بلغة النحو ، ويستعمل مصطلحات العامل والتنازع ، وقد لا يكون دارسًا للنحو أو مُلمًا بهذا الباب على الإطلاق ! وسأله مراد ما يضحكه فقال فريد : "ذكّرتنى بالنحو الذى انقطعتُ عن دراسته !" فقال مراد "وهل تريد أن تعود إليه ؟ والسؤال الأهم : هل تريد أن تعمل بتدريسه ؟ سَلْ نفسك : هل كان التحاقك بالأزهر من اختيارك ؟ لقد أصبحتُ جنديًا رغم أنفى ، وأُكْرِهْتُ على الحرب فحاربت ، وعلى الحياة عددًا من السنين فى معسكر الخانكة ، ومشاركة الجند فى كل شىء إلا الفكر ، وها أنذا أحقق حُلمى وأترك الجيش وأعود للأرض ، ولقد عوّضنى الله عن ريف 'تيرانا' ومباهجه ، ووَجَدْتُ فى هذه الأرض الجنة التى أشارك فى سقيها وغرسها ! عُدْ إلى نفسك وإلى حُلمك الذى تخفيه عنى ، ولا أطالبك بالإفصاح عنه ، حاشا لله ! فإذا وجدتَ التنازع لا يزال محتدمًا فافصلْ فيه بعد أن بلغتَ مبلغ الرجال وآن أوان الفصل !" .

وأطرق فريد كمن ينوء بعبءٍ لا يقدر على حمله ، وأحس مرادٌ بما سببه لفريد من قلق ، فنهض ودعا فريدًا إلى النهوض قائلاً "لا عليك أيها الصديق الصدوق ! قُمْ فأصحبك إلى المكان الذى اخترتُه لإنشاء الصوبة ، واشرحْ صدرك بالنظر إلى الخضرة وتلك السحابات التى تجلّل موكب

الشمس الغاربة ، ثم فكّر طويلاً فيما قلناه ، وإن شئتَ أن تعود إلى الأزهر فَعُدْ إليه ، وحاول ربط ما تقطّع من وشائج ، عُـدْ إلى من حَدَّثتنى عنهم من أصدقاء الرَّبْع ، عد إلى كُتُبك وشيوخك ، وإن يعارض والدك أو يحزن ، فإذا قرّ رأيك على الاستمرار فاستمرّ ، ولا تتعجل الحسم ، واذكرْ أنك إنما تفصل فى أمر حياتك أنت ، فلا تُعرْ أهمية لرأى الآخرين !" .

ونهض فريد وقد زادت حيْرته ، فسار الهُوَيْنا إلى جانب مراد ، حتى إذا بلغا مجمع قناتين وجد فريد بسطة عريضة من الأرض الرملية التى لا تبدو لها نهاية ، ولم يلبث مراد أن قال "هنا تقام الصوبات المتراصّة ، فلقد أهملتم زراعة هذه البقعة من أرضكم كأنما لم تروا فيها خيرًا ، لكننى أرى فيها خيرًا كثيرًا ! إن هاتين القناتين تخرجان من الترعة ، وهذا السد يمنع تسرب الماء إلى الأرض ، لكننى سأقيم مجرى حجريًا ينقل الماء من مجمع القناتين بقوة اندفاعه الذاتية إلى الصوبات ، فتروى النباتات فى المشتل قبل نقلها إلى الأرض ، وأفكر فى زراعة ساتر من أشجار الكازورينا (وأشار إلى بعضها) ليقى النباتات الريح الغربية ، وأتوسع فى غرس الجديد منها حتى أصل إلى حدود أرضكم فى أقصى الغرب ، حيث يقيم العرب !" .

وذُهل فريد للدقة التى اتسم بها حديث مراد ، فكأنما كان 'مُهَنْدِزًا' يخطط لما يشرع فيه تخطيط الدارس المتمكّن، لا تخطيط الفلاح الأجير ، وعجب لهمته العالية ونفاذ بصيرته ، فسأله "ومتى تشرع فى العمل ؟" فرد مراد بسرعة "مشروعى يبدأ غدًا !" ورنّت الكلمة فى سمع فريد رنينًا

خاصًا ، فالتفت إلى مراد وسأله : ''هل أسميته مشروعًا ؟ ''وضحك مراد قائلاً ''اغفر لى أخطائى فى العربية !'' ولكن فريدًا أكد له أن الكلمة صحيحة ولكنها أوحت إليه بما يتفق وشرع الله ، ثم أسرع يقول : ''بل إننى أستسيغها ، وسوف أطلقها أنا أيضًا على معمل ضرب الأرز !'' وضحك الاثنان ، وألقى مراد بصره إلى الأفق الغربى وقد بدت الشمس فى الغروب كأنها أتون متقد ، فثبت بصره عليها لحظات ثم قال لفريد : ''أظن أنك تريد أن ترحل فالمغرب وقتها قصير كما تقول !'' ولأول مرة أحس فريد بأنه لا يريد أن يرحل .

٥

أتى الصباح لفريد بما لم يكن يتوقعه ولا طاف بأحلامه قط ، فلقد بات يعد العدة للرحيل إلى القاهرة ، وقد صح عزمه على استئناف الدراسة والانتهاء من 'الإجازة' قبل رمضان أو فى رمضان على أكثر تقدير ، فهو لا يبعد إلا شهورًا معدودة ، فأعاد كتبه إلى حقيبته ، وجمع الملابس التى غُسلت وكويت لوضعها فى صُرَّة خاصة يسمونها 'بقجه' ، وكان ينتوى أن يخرج مبكرًا إلى موقف العربات عند شاطئ النيل حتى لا يدركه حر الضحى ، لكنه سمع بعد صلاة الفجر طرقًا خفيفًا على باب غرفته ، وكان هذا نادر الحدوث ، فصاح ''اتفضل !'' فإذا بأخته فى الرضاعة سعاد تدخل حاملة صينية عليها طعام وضعته على طبلية فى منتصف الغرفة قائلة ''الفطور'' . ونقل فريد عينيه بين الصينية المغطاة بفوطة ووجه سعاد ، وكانت أشعة النهار تنفذ من خلال الشباك البعيد ،

فتبرز قسمات وجهها الذى يشى بحزن عميق ، وانتظر فى صمت لكنها لم ترحل ، فقال لها "مالك يا سعاد ؟" ولم ترد على الفور بل ترقرقت عبرات فى عينيها ما لبثت أن انحدرت على خديها دون أن تتكلم ، فتعجب فريد ودعاها للجلوس قائلاً "مالك ؟ فيه إيه ؟ حاجة حصلت ؟" ولكنها لم ترد ، بل جلست صامتة ترنو إلى الشباك ، وأعاد فريد سؤاله دون أن يتلقى إجابة ، فنهض ورفع 'شيش' النافذة المصنوع من الخشب المعشق كالمشربيات ، فتدفق الضوء وغمر المكان ، فأدرك فريد أن أخته حزينة وتريد أن تحادثه فألح عليها أن تفضى بما لديها دون تردد ، وبعد هنيهة قالت "أنت ماشى خلاص ؟" فرد بسرعة "يا شيخة قلقتينى ! دا كلها يومين وارجع !" ثم قهقه وعاد إلى مقعده بالقرب منها وهو يقول "انتى زعلانة عشان حاسافر ؟ فيكى الخير يا سعاد ! امسحى دموعك ! أوعدك مش حاغيب فى مصر !" .

كانت سعاد تصغره بشهور معدودة ، توفيت والدتها أثناء وضعها فعهد أبوها (حارس منزل عبد الكافى الملاصق لمنزل أسرة فريد) برضاعتها إلى والدة فريد ، وكان لا يزال رضيعًا فى عامه الأول ، وظلت فى المنزل حتى تخطت مرحلة الرضاعة، وإذا بأبيها يُقتل فى اشتباك مع مماليك مراد بك عندما حاولوا دخول المنزل، وقيل إنه قتل منهم أعدادًا كبيرة قبل أن تصيبه رصاصة قيل إنها كانت طائشة فأردته قتيلاً ، وكثيرًا ما سمع فريد عن تلك الموقعة فى طفولته وكيف أبلى فيها همّام (والد سعاد) بلاءً حسنًا، وكيف انتهت باندحار المماليك وردهم عن المنزل، وأما من دخله فقد اختنق لتوه ، فيما يروى ، وقيل آنذاك إن الجنّ التى

تحرس المنزل خنقته ، ومنذ وفاة همّام وسعاد تعيش مع الأسرة حتى تزوجت ، وعندما تُوُفِّىَ زوجها فجأة عادت إلى المنزل ، فهى تعتبره منزل أهلها الذين كفلوها ، واتخذتها والدة فريد ابنة لها ، تعوضها عن رحيل ابنتيها اللتين تزوجتا ورحلتا ولم تكونا تزوران الأسرة إلا فى المواسم والأعياد ، فكانت تُسر إلى سعاد بأسرارها وتبثها أفكارها وتستعين بها فى عمل المنزل ، خصوصًا فى رعاية أخت فريد الصغيرة التى كانت لا تزال طفلة (وقد شبت الآن عن الطوق) كما أسبغ عليها والدُ فريد حنانًا وعطفًا ، وفريد يعتبرها أختا حقيقية لا فى الرضاعة فقط ، وكان من الطبيعى إذن أن يهتم لهمّها ، وأن يكترث لحزنها ، فظل قريبًا منها يحادثها ويلاطفها آملاً أن تطرح اكتئابها وتجفف دموعها ، ولكن سعاد ظلت صامتة ، ترنو إلى الشباك أو تخفض بصرها كأنما تتحاشى النظر مباشرة إليه ، وأما هو فقد ظل يتطلع إلى وجهها الذى بلّلته الدموع فبدا غريبًا كأنما هو لا ينتمى إلى هذا البيت الذى دَرَجَ أهله على التّبسّم والبشاشة ، وأخيرًا حلف عليها أن تخبره بحقيقة حزنها ، فَلَكَمْ رحل من قبلُ فلم تحزن ، وأخيرًا قالت سعاد بصوت تخنقه العبرات : "أبويا عايز يجوّزنى إبراهيم الشينى" .

وأدرك فريد أن المقصود هو والده هو ، فقد كانت تعتبره أبا حقيقيًا لها ، بل وتحاول إنكار نسبتها لغيره ، خصوصًا بعدما سمعت أن أباها همّامًا كان من رجال سويلم بن حبيب الذى قضى عليه على بك الكبير وقَتَّل رجاله ، وكان همّام قبل أن يعمل بحراسة منزل عبد الكافى من أفراد فرقة كلّفها سويلم بحراسة البر الغربى للنيل عند رشيد ، فلمّا شتّت

على بك الكبير شمل رجاله فرّ إلى البلدة فاختبأ وحماه الأهالى وزوّجوه من بناتهم وكلّفوه بالعمل الذى كان يُتْقنه وهو الحراسة ، وكانت تسمع فى طفولتها أن رجال الباشا ما زالوا يتعقبون رجال سويلم بن حبيب - حتى بعد أن تفرّقوا وذابوا فى القبائل العربية التى تتنقّل فى الصحراء الغربية - فكان من الأسلم لها أن تَقْنع بالنسب إلى بيت الحاج عبد الحكيم وأن تُخفى نسبها الحقيقى . وجعل فريد يقدح ذاكرته - إبراهيم الشينى ؟ أليس صاحب دكان الحسابات على شاطئ النيل ؟ أليس القصير النحيل ذا الشعر الأشقر الذى وخطه الشيب بل وصاحب اللحية التى كادت أن تصبح بيضاء ناصعة ؟ إنه يذكر عينيه البراقتين ويذكر نظراته التى يطيلها فى كل من حوله ! يا عجبًا ! أو ما زال هذا الرجل يطلب الزواج ؟

وبعد الصمت الذى طال، قال فريد بلهجة تخفى دهشته الشديدة : 'من قال هذا ؟' فردت سعاد بلهجة من استعادت ثباتها ''أمى !'' فقام فريد إلى المائدة فرفع الفوطة ليرى الطعام ، وتناول كوب الشاى فرشف منه رشفة ، كأنما ليساعده على التفكير ، وكان فى قلبه يدعو الله أن ينقذه من هذا المأزق الجديد ، فهو يحب أخته سعاد حبًا جارفًا منذ الطفولة ، فتقاربُ عمريهما قرّب ما بينهما ، حتى إنه كان يجعلها تساعده فى حفظ دروسه ، فتولى تعليمها القراءة والكتابة ، وتحفيظها الكثير من القرآن ، وكانت - فى رأيه - أسرع استجابة للتعليم من الكثيرين من زملاء الكُتّاب ، وكأنما استجاب الله لدعائه فسمع رنين أجراس بعيدة ، فقام إلى النافذة ففتحها ، فتأكد لديه رنينُ الأجراس القادمة من أقصى شمال البلدة مع نسائم الصباح ، فقال كأنما يريد أن يصرف تفكيره ولو

مؤقتًا عن الأزمة : "هذه أجراس الكنيسة البحرية ! ألم يحتفل النصارى بعيدهم فى الأسبوع الماضى ؟" فقالت سعاد بصوت خفيض : "كان أولئك من الأروام ، أما هؤلاء فمن الأقباط !" وسرَّ فريد لحديث سعاد فى موضوع آخر فقرر اغتنام الفرصة وقال "وكيف يختلف أولئك عن هؤلاء ؟" فقالت سعاد "أولئك من نصارى الشوام ، وهؤلاء من المصريين !" وأدركت سعاد أن فريدًا يحاول تحويل دفة الحديث فقالت "وغدًا شمّ النّسيم ! هل تذكر كيف كنّا نقضيه معًا ونحن صغار ؟ نلوّن البيض ونخرج إلى حيث 'الملانة' والخسّ والفول الأخضر فى غيطنا ؟" فلم يرد فريد فأردفت قائلة "كنت أظنك ستقضيه معنا هذا العام !" ورفعت بصرها إليه وابتسمت لأول مرة ، فبادلها الابتسام ووجد نفسه يقول إن شاء الله ! ونهضت سعاد قائلة إنها لابد أن ترعى شؤون المنزل ووقفت عند باب الغرفة وقالت "وسوف أتولى إعداد البيض وشراء 'الملانة' والخسّ والفول ! مثل كل الناس يا فريد !" وابتَسَمَتْ من جديد وخَرَجَتْ .

وتناول فريد إفطاره على مهلٍ وهو شارد الذهن ، هل سيقبل تزويج أخته من إبراهيم الشينى وهو الشيخ الفانى ؟ وبدا له السؤال غريبًا فما شأنه هو بزواج أخواته ؟ وهل يُستشار الأخ ، والوالدان فى قيد الحياة ؟ لم يسمع أحد بهذا ولا هو منصوص عليه فى أى كتاب ! فهل استشار أحدٌ سعاد كما يقضى الشرع ؟ وهل وافقت ؟ إنه لم يجرؤ على سؤالها ، وربما تكون قد صمتت والصمت دليل الرضى ! إذن لماذا كانت تبكى ؟ أحُزْنًا على فراقه وقد خشيت أن يطول وهو 'وحيد' أبويه ؟ وأحس فريد

بأنه يريد أن يُقنع نفسه بذلك حتى لا يتحمل عبئًا جديدًا ، فهو لا يريد أن يشعر أن واجبًا جديدًا قد أُلقى على كاهله الذى تحمّل فى هذه الفترة ما يكفيه ! لقد شهد زواجًا سعيدًا فى كوبرى الجديّة ، وقضى ساعات هنيئة مع مراد يبحثان 'المشروع' ، وكانت السعادة تنطق فى ملامح وجهه وحركاته ، وكذلك بدت نفيسة ليلة 'الفرح' ، ولم يكن قد استشارهما أحد قبل الزواج ! كما إن أختيه هانئتان لم يسمع أيهما تشكو من الزوج الذى اختاره الأبوان ! فلماذا يفسر دموع سعاد بأنها دموع حزن ؟ واجتهد فى استرجاع نبرات صوتها وهى تُنهى إليه الخبر ، فداهمه الظّن بأنها كانت تريد أن تبثه شكواها لا أن تبلغه خبرًا فحسب ، لكنه قال سوف أقطع الشك باليقين فأنا أحب سعاد بل هى أحب أخواتى إلى قلبى ، وما دمت قد أجّلت السفر ففى الوقت متسع !

٦

عندما ذهب فريد إلى دكان إبراهيم الشينى فوجئ بوجود والده جالسًا يتكلم معه فى شبه استغراق تام ، ولاحظ أن الرجلين فوجئا أيضًا بدخوله عليهما فى تلك الساعة المبكرة، ولكن الفرحة كانت بادية على وجهيهما وكانا يرددان عبارات الترحيب وفريد لا يدرى ما يقول ، بل لم يكن يعرف سببًا واضحًا لذهابه إلى الدكان فى هذه الساعة ، فأحس بحرج شديد فى صدره وهمّ بالذهاب لولا أن أصرّ أبوه على أن يشاركهما الحديث ، فالموضوع – كما قال – يخصّه أيضًا ، فجلس ، وأرسل إبراهيم الشينى غلامًا لإحضار الشاى ، ثم قال أبوه "السيد إبراهيم

سوف يساعدنا فى بناء المضرب ! إذ تحدث مع الحاج خميس يونس صاحب قمائن الطوب واتفق معه على توريد العدد المطلوب من الطوب بأنواعه ، وهو يعمل حاليًا على استكتاب الأنفار اللازمين للبناء ، وحساب التكاليف ، وسوف يعمل معنا المعلم زكريا وكيل المباشر والمدرس بمدرسة القبط، فهو لا يجارى فى الحسابات ، وربما استعان بأخيه جرجس ماسك الدفاتر وزميلهما عبد الرافع المراجع ، وسوف نترك لزكريا حرية اختيار العاملين الآخرين معه !".

وتطلع فريد إلى وجه إبراهيم الشينى يتملاّه فتأكد لديه إحساسه الأول بأنه تقدم فى العمر ، بل بدا له أكبر من أبيه سنًا فالغضون بادية رغم اللحية الكثّة ، وبدا له أنه يهذّبها بعناية ، وقامتُه مُنَحيةٌ بعض الشىء ، وعيناه البراقتان سوداوان ، وكان يظن أن الشعر الأشقر يلازم العيون الزرقاء أو الخضراء ! لكنه ما أن تذكر العينين الخضراوين حتى سمع والده يقول إنه سعيد بتأجيل سفره ، فربما دعت الحاجَةُ إلى إمضائه بعض الأوراق الخاصة بشراء أرض الكاشف ، وبعقد إدارة مضرب الأرز! وأسرع فريد يقول إنه قرر قضاء شم النسيم هنا ، مثلما كان يفعل فى طفولته ، فقال أبوه "وإذا انتظرت إلى يوم الخميس فسوف تشهد زفاف أختك سعاد إلى السيد إبراهيم !" وربت أبوه على ظهر إبراهيم الشينى كأنما يتفاخر بالمصاهرة وقال "سنصبح أسرة واحدة وشركاء فى العمل ! فلقد قدّم إبراهيم أفندى مهرًا كبيرًا وتعهد أن يتكفّل بأجور المحاسبين جميعًا ، وهذا كرمٌ ما بعده كرم !" .

ولاحظ فريد أن أباه قد أطلق على إبراهيم الشينى لقب 'أفندى'

كأنما يريد أن يرفع قدره فى نظر فريد أو ربما من باب المداهنة فحسب، ولاحظ أيضًا أنهما يفحصان دفاتر ضخمة ، وأمامهما دواة حبر كبيرة وعليها بطاقة ملصقة كتبت عليها حروف إفرنجية ، إلى جانب دواة حبر أحمر صغيرة ، وأقلام كثيرة مختلفة الأحجام ، فتذكر قلمه المتواضع ودواته الصغيرة ، وحدس أن إبراهيم بالغ الثراء ، وقال فى نفسه إنه يخفى ثروته ولا شك ليتّقى عيون السلطان وعيون الحاسدين ، وسرعان ما جاء الشاى فوضع الغلام الصينية على منضدة خاصة ، وتولى إبراهيم إضافة السكر وتقديم الكوب إلى فريد ، قائلاً بابتسامة عريضة "عُقبى لك يا فريد !" فضحك والد فريد وقال "لم يخاطبنى حتى الآن فى أمر زواجه! فلقد شغله العلم عن الدنيا ، لكننى أريد أن أفرح به وأرى أحفادًا يحملون اسمى قبل أن أموت !" .

وضحك إبراهيم الشينى وقال "وأنا أيضًا ! ولكن ابنى الأكبر يعمل على ظهر سفينة فرنسية ولا أكاد أراه ! ويقول لى عندما يأتى إن له فى كل ميناء زوجة !" وقال والد فريد بسرعة "هكذا الشباب هذه الأيام ! يحبون الترحال ويتنكرون لأوطانهم !".

وفهم فريد أنه المقصود بالعبارة الأخيرة فقال بسرعة "لابد أن ابنك يبالغ يا سيد إبراهيم ! وأما الترحال فهو سُنّة الحياة ، وليس معناه التنكر للوطن !" فنظر إليه أبوه وقد فهم مرماه وقال "وإذا هاجر الشبان ، فلمن تؤول البلد ؟ للنساء أم للأجانب ؟ وانظر إلى الحاج عبد الظاهر القزق ! لقد هاجر ابنه محمد إلى مصر وترك له معمل الأخشاب، وتزوجت ابنتاه وهاجرتا إلى الاسكندرية ، ولم يبق له سوى أحمد الصغير، وأحمد منكوب

فى ذريته ، إذ مات ابنه فى العام الماضى وابنه الآخر لا يبرأ من مرض حتى يصيبه مرض آخر !" .

وردد الرجلان 'ربنا يشفى !' ثم قال فريد إنه يؤمن بقول الإمام الشافعى "ما فى المُقام لذى عقل وذى أدب / من راحة فدع الأوطان واغترب !" وإنه لولا هجرة الرسول ﷺ ما انتشرت الدعوة وما ظهر الإسلام ! فقال إبراهيم إن ذلك تاريخ قديم ونحن الآن فى عصر مختلف، وقد أباح الله الهجرة إما فرارًا من اضطهاد أو طلبًا للرزق ، فإذا انتفى هذا وذاك أصبح لزامًا على المرء أن يَعْمُرَ أرضه حتى يعود بالخير على غيره وعلى نفسه ، وعندما عاد فريد إلى الحديث قائلاً "ولكن الرسول .." قاطعة إبراهيم بسرعة وببسمة هادئة قائلاً "ولكنه ﷺ عاد إلى مكة فى عام الفتح ! إنه لم ينس موطنه فعاد إليه ! والله سبحانه وتعالى أمرنا بقتال من يُخرجوننا من ديارنا ! أى إنه جعل إخراج المرء من دياره جُرمًا يستوجب الحرب ! وعقابه الموت ! وفى هذا إعلاء أى إعلاء لشأن الوطن !" .

وكان فريد يريد أن يواصل المناقشة لكنه رأى أن المقصود منها إثناؤه عن الرحيل لا وجه العلم الخالص ، فالعلم يقول ، حسبما يفهم ، أن الوطن ليس محدودًا بمكان الميلاد ، فالهجرة إلى مصر ليست هجرة إلى غير الوطن ، ولم يشأ أن يغضب الرجلين فهز رأسه كأنما يوافق على ما قيل ، فعاد إبراهيم إلى الحديث قائلاً إن رشيد تتعرض للتهديد بسبب مينائها الفريد وخصب أرضها ، وأهم ما يهددها الآن ما سمعه عن اعتزام الباشا إحياء ترعة الرحمانية التى سوف تصل بمياه النيل إلى

الاسكندرية ، فإذا حدث هذا فسوف تزدهر الإسكندرية على حساب رشيد، بعد أن طمر ترعة الفرعونية منذ ستة أعوام ، وإن كنا قد استصدرنا منه أمرًا بحفر ترعة رشيد الصغيرة فور أن سُدّتْ تلك الترعة تعويضًا عما فقدناه من ماء ! وكان ذلك بجهد رجالنا ودون طلب العون من الباشا ! واقترب إبراهيم من فريد وخفض صوته كمن يريد أن يدلى بسر خطير وقال "إننا نوحى لعيونه فى البلد ، ونحن نعرفهم ، أننا فقراء نعيش عَيْش الكفاف حتى لا يرهقنا بما قد لا نتحمله من الضرائب ! ولعلّ والدك قد حدثك عن أحدهم ! ولعلّك تعرف أننا نبيع السردين فى موسمه فى الخريف إلى التجار وهو فى عُرض البحر فلا يصل منه إلى الشاطئ إلا النزر اليسير ، ونحن نتكتم أخبارنا ونقسم على المصاحف بالكتمان ! فكيف يتسنى ذلك كله إذا هاجر رجال البلد ؟" وقال فريد فى نفسه إن هذا ثعلب ماكر لا جدوى من الحديث معه ، فتأهب للرحيل ولكن إبراهيم مدّ يده فقبض على ذراعه يستبقيه قائلاً : "ولا تنس أن زيارة محمد القزق لم تكن فى حقيقتها إلاّ محاولة من جانب المعلم غالى ، ذلك الداهية ، صفىّ الباشا وخليله ، لمعرفة قدرتنا على إنشاء مضرب الأرز ، فقصد محمدٌ سرًا إلى المعلم زكريا وأخيه جرجس وزميلهما عبد الرافع ، ووَعَدَ الجميع بالعطايا والهبات، بل وبمكافأة جزيلة من المعلم غالى نفسه، إن هم أفشوا بعض أسرار البلدة ! ولكن هؤلاء يا فريد رشيديون ! وعراقة منبتهم تشهد لهم ! فخرج محمدٌ خاوى الوفاض ، ولابد أنه حمل إلى الباشا ، من طريق المعلم غالى، أخبار فقرنا وعوزنا ! وكنا أعددنا له دفترًا خاصًا وتظاهرنا بأنه الدفتر الحقيقى لحسابات المضرب ، فاطّلع عليه ودرسه ، واستطاع

زكريا بمهارته وحذقه أن يتظاهر أنه بإطلاعه عليه يكشف له سرًا خطيرًا قال إنه يأتمنه عليه ، وما السرّ إلا ما أردنا لهم أن يعلموه !".

وعندما نهض فريد أخيرًا وبدا منه الإصرار على الرحيل ، نظر إليه أبوه وقال "نحن لا نحاول الإيحاء لك بشيء ، لكننا نحاول إشراكك معنا فى كل شىء ما دمت وافقت على إدارة المضرب !" وابتسم فريد ، فنهض إبراهيم الشينى وصاحبه حتى باب الدكان حيث الشمس الساطعة وقال له ضاحكًا : "احضر فرح أختك على الأقل !" وقال فريد بسرعة 'إن شاء الله !' ومضى .

كانت شمس الضحى دافئة ، والسماء صافية الزرقة ، فاتجه إلى شاطئ النيل من الحارة المجاورة للدكان ، وسار وحده يتأمل صفحة الماء وقال فى نفسه قد تكون سعاد غير راضية عن إبراهيم ، ولكنها – على أى حال – أرملة ، والأفضل لها أن تتزوج وتعيش حياة الموسرين من بقائها فى منزلة 'الخادم' فى بيتهم ! وجعله هذا الخاطر يتوقف فجأة عن السير ، إذ أدرك أنه يلتمس الأعذار لمكروه لا يملك له دفعًا ، وبدا له فى لحظة خاطفة ، مشهد أبيه مع إبراهيم وهما يتساران كأنما يعقدان صفقة خاصة ! وزفر زفرة عميقة ليبعد هذا المشهد عن خياله ، ثم سمع هامسًا يهمس "وهل هناك منجى من أنياب هذا الثعلب الماكر ؟" .

٧

صحت البلدة يوم شم النسيم على أصوات يرددها الرائح والغادى تقول إن 'عروس البحر' اختطفت جنديًا أرنؤوطيًا آخر ، إذا وصل

المنادى والناس على وشك الخروج إلى الحدائق يحملون الخس والملانة والبيض الملون ، فكان يقف عند ناصية كل شارع ويعلن النبأ الحزين ، والمكافأة التى رصدها قائد الفرقة لمن يستطيع تخليصه منها ! وسأله البعض كيف حدث هذا فكان يقول إنه نزل يستحم فى النيل فإذا به يغوص ويصرخ قائلاً إنه يحس بمن يجذبه ! وأسرع إليه لفيف فلم يستطيعوا إنقاذه ! وعندما سأله أحدهم 'ولماذا لم تخلّصوه ؟' قال 'لقد سَحبَتْه بعيداً عن الشاطىء فاختفى ! أقول لكم إنه اختفى أمام أعيننا !' وأخذ يمرّ بعد ذلك برجال الدين ويرجوهم أن يقرأوا ما تيسر من القرآن أو من البخارى حتى يعيده الله سالمًا ! .

وشُغل الناس بالخبر فكانوا يتناقلونه ويذكر كل منهم ما سبقه من أحداث مشابهة ، وقال الشيخ الغاياتى للمُصلّين فى مسجد الجندى بعد صلاة الظهر إنه يرجو أن تكون تلك من الجنّ المؤمنة فلا تصيبه بأى أذى، وحكى لهم حكاية الرجل الذى يُدعى 'خرافة' - وهو الذى قيل إنه عاش مع الجن عشرين عامًا ثم عاد ليقص على الناس ما حدث له - مؤكداً أن قدرة الله لا حدود لها ، والتفت الرجل الذى كان يجلس إلى يمين فريد له وسأله بصوت خفيض : "هل قرأت فى الكتب وصفًا لهذه الجنّية ؟" وابتسم فريد وقال إنه لم يهتم بالموضوع فى القاهرة لأنه لم تحدث حوادث مشابهة هناك ، فقال الرجل "سمعت أنها فاتنة الوجه ذات شعر طويل تلقيه كالشباك على من يعجبها من الرجال فلا يستطيع الإفلات" وسمعه الرجل الجالس إلى شماله فقال "بل لها ضفائر ذهبية وعيون خضراء وذيل سمكة !" ثم جعل يحثّ فريداً على الحديث فأضاف "لا

تبخل علينا بعلمك يا شيخ فريد ! فالعلم علمُ الله يؤتيه من يشاء ومنعُه حرام !" فاغتاظ فريد وأكّد لهما أنه لو كان يعرف شيئًا ما بَخَلَ به ، وربما كان الصيادون أعلمَ بها منه، فقال الأول : "لقد أكد لى الصيادون أنهم يتحاشون تلك المنطقة عندما يلمحون ضوءًا سحريًا أخضر تشعه عيناها ، وأنت تعرف أن العيون الخضراء دليلٌ على الشر !" فنظر إليه فريد فى دهشة وقال بصوت حاول أن يكون خفيضًا هادئًا "من قال هذا ؟" وردّ الرجل ساخرًا : "الجميع ! اسأل أى أحد ! بل إن الشيطان نفسه عيناه خضراوان !" فقال فريد فى شبه همس "وهل رأيته ؟" فقال الرجل بسرعة "بل رآه الكثيرون واسألهم!" وابتسم فريد وتمتم كأنما لنفسه "كنت أظنهما حمراوين !" وتدخل الرجل الثانى الذى سمع ما قاله فريد فأردف "تعنى لأنه قادم من جهنم ؟" ثم ضحك وقال: "لا ! إنهما خضراوان بالتأكيد ، فالضوء الذى يسطع تحت الماء أخضر لا أحمر ! "

ونهض فريد لأنه أحس أن هذا الحوار قد يؤدى إلى ارتفاع الأصوات فى المسجد وهو ما لا يحبه ولا يرضاه ، لكنه لم يَعُدْ إلى الوكالة ولم يذهب إلى البيت ، بل سار متمهلاً إلى الطريق الزراعى (السكة الزراعية) وكان يعرف طريقًا مختصرًا إليها لا تسير فيه العربات أو الخيول ، فهو طريق ضيق يمر من بين البيوت ولا يكاد يتسع إلا لشخص أو شخصين ، ويُفضى مباشرة إلى الخلاء ، متجاوزًا سور رشيد ، مارًا بمسجد سيدى الصمدى ومسجد سيد العرابى ، صاعدًا بين ربوة الإدفينى بحدائقها وربوة العرابى برمالها (ومن ورائها المقابر أو 'الجبابين') وهكذا وجد نفسه يسير فى الشمس التى كانت السحب قد

بدأت تتكاثر عليها فتحجبها أحيانًا ، ولكن النسائم 'البحرية' كانت تلطف حرارة الجو ، فلم يشعر بالحر ، وشاهد فى الحدائق إلى اليمين الأهالى يجلسون مع أطفالهم الذين كانوا يجرون ويلعبون فى كل مكان ، وعلى رمال الصحراء إلى اليسار بعض زوار القبور من النساء عائدات يحملن 'المشنّات' فوق رؤوسهن ، فتعجب وتساءل وهل هذا يوم عيد حتى يزور الناس موتاهم ؟ ثم قال فى نفسه لعلهم يكونون أقباطًا ! وأنىّ له أن يعرف ؟ وما أن لاح الخلاء حتى أحس بانشراح صدره وترددت فى عقله أصداء كلمات مراد عن جمال الأرض والريف ، فجعل ينقّل بصره بين الحقول المترامية الأرجاء والصحراء المديدة الشاسعة ، حتى وصل إلى مشارف أرض أبيه ، فشاهد عند الأفق قطارًا من الجمال يسير الهُوينا ، فابتسم وقال فى نفسه هنا يعود الإنسان إلى ماضى العرب ! فأين ترى 'القافلة' ذاهبة ؟

وأفاق من أفكاره على صوت يناديه فالتفت فإذا هى 'روضة' الصغيرة ، ابنة عم مالك الصباغ ، فتنبه إلى أنه قد تجاوز 'الأرض' فانحرف يمينًا وبدأ السير فى المِدقّ حتى وصل إلى مسكن مراد ومسكن مالك وأسرته ، وكانت الكلاب تنبح إنذارًا وتنبيهًا ، وجاءت إليه الكلبة العجوز 'فتنة' بلونها الأسود الفاحم وشعرها الناعم الطويل تبصبص بذنبها فرحًا كأنما أنابتها الكلاب عنها ، فانحنى عليها يخاطبها ويلاطفها ، ثم استأنف سيره فى طريقه وهى تجرى أمامه حتى وصل إلى الحظائر المجاورة للمسكنين ، فتوقف يرقب الدواجن والحيوانات، ولم تلبث أم محمود أن خرجت من المنزل مُهلّلة مُرّحبة ، فسألها عن الرجال فقالت

إن الجميع قد خرجوا لكنها يمكن أن ترسل فى طلبهم إذا أراد، فقال لها فريد لا عليك فسوف أذهب إليهم ، واتجه إلى 'الراتب' - وهو قناة مبنية من الحجر تنقل الماء من الساقية إلى الحقول - فسار بحذائه يرقب الفتحات التى يخرج منها الماء ، ويأتنس بالهامس الذى يهمس له إن التأمل عبادة ، وربما يكون خيراً من العبادة ، وقد يكون تأمل خلق الله - وهو ما يسميه مراد 'الطبيعة' - مظهراً من مظاهر الإيمان إن لم يكن دافعًا عليه ، وجعل يحدق فى الماء المترقرق فى 'الراتب' ويعجب لصفائه ولظلال النخيل الباسقة التى تتراقص فوقه ، والخضرة التى تنتشر من حوله ، وسمع هاتفًا يهتف : ما أجهل ذلك الرجل ! كيف تكون عينا الشيطان خضراوين ؟ كيف يكرّم الله الشيطان بهذا اللون الذى اختص به أهل الجنة ؟ ألم يقل فى كتابه العزيز إنهم يلبسون ثيابًا خضرًا من سندس وإستبرق؟ فها هى الأرض تلبس هذه الثياب فتبشر الناس بالجنة! وصاحبة العينين الخضراوين من حور الجنة لا من قبيل الشياطين! وهذا الجاهل يقول إن الشيطان عيناه خضراوان ! .

وتوقف فريد كأنما ليصغى إلى الهاتف ، وابتسم فى أعماقه ، وهبت نسمات لا يدرى من أين أتت ، فتطلّع إلى السماء فوجد بعض السحب المتناثرة من جهة البحر ، فقال فى نفسه ترى ماذا يفعل الجنود الأرنؤوط عند أبى منذور ؟ ألا يوجد من بينهم من كان رفيقًا لمراد أو مرّ فى حياته بما مرّ به؟ ألم يخامر أحدهم ما خامره من حب للأرض؟ ترى ماذا يفعلون حين يتقدمون فى السنّ ، إذا لم يُقتلوا فى الحروب؟ ولماذا كُتب على أبناء مصر أن يخضعوا لحكم غيرهم ؟ إن مرادًا يرى نفسه مصريًا لأنه يريد

الالتصاق بأرض مصر والتّطبّع بطبعها ، والمماليك يرون أنفسهم مصريين لأنهم قدموا إلى مصر فى طفولتهم فتعلموا فيها ما تعلمه مراد ورفاقه خارجها ، فهم الأقرب إلى الانتساب لمصر ! فما بال الأتراك إذن وغيرهم من أخلاط العالم الذين عرفهم فى القاهرة وصاحب بعضهم ؟ إذا كانت اللغة العربية هى الفيصل - كما يقول مراد - فهل يشفع لهم أن يتعلموا العربية حتى ينتسبوا إلى هذه الأرض ؟ وما بال الأولاد الذين أنجبهم الفرنسيون الذين استوطنوا 'برج مغيزل' فنشأوا يتكلمون العربية والفرنسية معًا ؟

لم يدر فريد كم لبث واقفًا يتأمل السحب والرياح التى تدفعها ، وأفاق من تأملاته على أصوات تناديه ، فالتفت فإذا بمالك وابنه محمود ومراد قادمين نحوه يحملون الفؤوس ! كانوا يمثلون صورة الفلاحين الذين عرفهم فى كل مكان فى طفولته ، يسيرون على 'الراتب' فى صف منتظم يتقدمه مالك ، ثم ابنه ومن بعده مراد ، وكانوا ينادونه حتى إذا وصلوا إلى حيث يقف تبادلوا الحديث معه ، إذا بمحمود يقول "نفيسة بنت خالتى حامل !" وضحك مالك ومحمود ، وابتسم مراد وقال لفريد "ستضع لى ابنًا مصريًا !" وأسرع محمود يقول : "إنها مريضة" ، ولكن مالكًا قال إنها أعراض الحمل فحسب ، فعاد مراد يقول "سوف أنجب غلامًا مصريًا يا شيخ فريد !" فغمغم فريد "قل إن شاء الله !" ثم همس "أو بنتًا"- وصمت لحظة وأضاف "مصرية !" .

الفصل الخامس

الخيـانة

١

انتهى شهر برمودة بل وكاد أن ينتصف بشنس ، وفريد يؤجل سفره المرة بعد المرة، فبعد أن تزوجت أخته فى الرضاعة سعاد ورحلت، مرضت والدته ، وظلت حبيسة الفراش أسبوعًا كاملاً ، ولم يَرْضَ والده أن يعودها الطبيب الفرنسى ، لكن فريدًا ألح على والده أن يزور الطبيب ويشرح له أعراض المرض ويتلقى وصفة العلاج فقبل بعد أن فشلت وصفات الحاجة زينب (الحكيمة) فى تخفيف الأعراض لو بتخفيض الحرارة ، وكانوا يسمونها الحمّى ، وكان الحاج عبد الحكيم فى غضون ذلك يقتطع لحظات من عمله الذى يستغرق جُلّ وقته للاختلاف إلى المنزل والاطمئنان على زوجته التى تماثلت للشفاء فى الأسبوع الثانى ، وبدأت تُكلّف ابنتها الصغرى «خديجة» بأعمال المنزل وترشدها ،كما كانت سعاد تمر كل يوم على «والدتها» للإشراف على علاجها والتخفيف عنها بحديثها الطلىّ ، وقراءة القرآن عند رأسها ، وكانت تؤكد لها أنها سعيدة بزواجها وتصف

لها متاع بيتها وما تُعدّه من طعام للسيد إبراهيم ، و«العمود» الذى ترسله إليه فى الدكّان للغداء ، وهو مجموعة من الأوانى النحاسية المتداخلة التى يُغطّى بعضُها بعضًا ، كما وصفت لها العبد الحبشى الذى كان السيد إبراهيم قد اشتراه من الكاشف وأعتقه وخيره بين الرحيل وبين الاستمرار فى خدمة الأسرة ففضّل الاستمرار وكان قد بلغ من العمر عتيًا ، لكنه كان قادرًا على العمل خبيرًا بشؤون الدنيا كلّها ؛ وكانت والدة فريد تستمع إلى هذه الأقاصيص فتدهش لها وتأتنس بها ، فلم يكن فى رشيد كثير من العبيد أو الإماء ، حتى عند سُراة القوم ، بخلاف ما تسمعه عن أهل مصر والقاهرة ، وعندما أحست أن شفاءها قد اكتمل عادت إلى العمل راجية سعاد ألا تنقطع عن زيارتها ، فهى تقيم فى رشيد ، ولدى السيد إبراهيم عربةٌ خاصة بحصانين ، ولديه حُوذىٌ خاص ، كما إنه وضع العربة رهن إشارتها ! وذلك بخلاف ابنتيها الكبيرتين اللتين رحلتا عن البلدة ، فذهبت الأولى 'فهيمة' إلى الاسكندرية لتقيم مع زوجها الذى يعمل فى الجمرك ولا يطيق ابتعادها عنه ولو ليوم واحد ، لا لحبه لها فقط بل لحاجة أطفالها الصغار إلى رعايتها ، وذهبت الثانية 'سكينة' إلى 'برنبال' حيث شاركت زوجها فى إقامة مصنع 'الشيلان' الحريرية ، وكانت تشرف على العمل فيه بنفسها حيث استأجرت فتيات القرية المجاورة منذ الصغر فعلّمتهن سرّ الصنعة وأشغال الإبرة ، ولم تكن تزور رشيد إلا فى الأعياد .

وأحس فريد بقرب قدوم الحر ، وذكر أن شهر بشنس هو نهاية الربيع ، فهكذا كان الناس يقولون ، وما أصبح مراد يؤكده له كل يوم ، وكان مراد سعيدًا بإزهار نباتاته فى المشتل الصغير الذى أعده بجوار

غرفته ، ودرّب نفيسة زوجته على رعايتها أثناء غيابه فى الحقل مع مالك ، كما ذكر فريد أنه يقابل فى معظمه الشهر الذى يسميه صديقه 'على الشامى' شهر أيار (ويسميه الفرنسى ماى !) ويقول إنه شهر الانقطاع عن الدراسة ! وكان كلما ذكر الدراسة أحسَّ بالدهشة لتضاؤل شوقه إليها، ولم يكن فيما مضى يطيق الابتعاد عن الكتب ودروس الجامع ! وكثيراً ما كان يعجب لهذا التغير الذى أصابه ! ماذا حدث ؟ أين الانغماس فى طلب العلم ؟ وهل تنسيه همومُ الأسرة وهمومُ العمل الذى كُلّف به (ويوشك أن يبدأ) مُتَعَ الدرس وقهر الخصوم فى المجادلات التى لا تنتهى حول مسائل النحو ومشكلاته ؟ هل أصبح له عالم جديد ، فانقطعت صلته بعالمه القديم؟

لم يكن فريد يقاوم التغير فى ذاته فهو سُنَّة الحياة ، لكنه كان يريد أن يفهمه ، فإذا كان قد تغير فهل تغير الآخرون - كلّهم أو بعضهم ؟ أنّى له أن يعرف هذا ؟ إن كل شىء (فيما يبدو) كما هو ، والناس (فيما يبدو) لم يتغيروا إلا بقدر ما اقتضت الظروف والأحوال ، وأما ما علمه من أسرار وما تعلّمه من فنون الحياة فهو لا يمثّل تغييراً فى الواقع بل إضافة إلى ما كان يحيط به من علم حتى عودته إلى رشيد ! ومع ذلك فإنه يحس تغيّراً لا يستطيع إنكاره مهما اجتهد ، إذ كشفت له الأيام عن حب دفين 'للرياسة' ، كما يسميها مراد وكما كان يأنف من تسميتها ، فهو لا يخشى الآن الانقطاع عن التعليم والاشتغال بإدارة المضرب بل كثيراً ما كان يتطلع فى أعماقه إلى اليوم الذى يستطيع فيه أن يأمر فيطاع ، ويطلب فيجاب إلى طلبه ! وعندما تذكر قول أستاذه إن طالب الدنيا يطلب

دار الفناء وطالب الآخرة يطلب دار البقاء سمع هامسًا يهمس له وهل ثم تناقض بين الطلبين ؟ ولماذا نأتى بالتناقض إن لم يكن ثَمّ تناقض ؟ أوَ لَمْ يُسخّر لنا المولى الأرض ويذلّلها لنا كى نمشى فى مناكبها ونعمرها دون أن ننساه أو نرتكب المعاصى ؟ وذكر فريد تلك الأسئلة التى خطرت له فى آخر زيارة 'للأرض' - عندما اشتط به الفكر فتساءل إن كان الله قد كتب على أبناء مصر أن يخضعوا لحكم غيرهم - ووجد نفسه تنكر هذا القول ، فمن عرفهم من أبناء مصر لا يقلّون فى شىء عن أولئك الذين يخضعونهم بقوة السلاح ! فبم يمتاز من يحملون السلاح عنه ؟ أو عن غيره ؟ عن سميح - صبى الوكالة - أو محمود النجار أو عباس الشباسى (الصياد) أو حتى عن مالك الصباغ وابنه محمود وغيرهما من 'الفلاحين' ؟

٢

كان فريد منكبًا على دفتر اليومية حين خطرت له تلك الأفكار ، وعندما مرّت بذهنه كلمة 'الفلاحين' كان قد انتهى من تسجيل مبيعات اليوم ، فألقى نظرة على التاريخ الذى يحرص على إثباته كل يوم ، وتذكر صديقه الشامى (على) وأحس بشوق جارف إلى حديثه ، فهو الوحيد الذى يستطيع أن يُفضى إليه بمكنون نفسه ، وإن كان قد استعاض عنه بمراد فى الشهور الأخيرة ، على اختلافهما الشديد - ربما فى كل شىء ! - لكنهما لا يختلفان فى الصدق الذى كان يفتقده فى الكثيرين بل فى الحياة نفسها ! وقال فى نفسه لا مناص الآن من تأجيل الامتحان إلى 'الدورة' القادمة ، فلم يبق على رمضان إلا أسابيع ، وهى لا تكفى 'لحفظ'

النحو ، وأستاذ النحو لجوجٌ مشاكس ، وعلىٌّ الشاميُّ يطيعه كى يأمن شره ، على الأقل حتى يصل إلى المرحلة النهائية التى وصل فريد إليها ، ووصل إليها معه إدريس المغربى وصالح المكاوى (فهو من مكة) ، وكان صالح يطلق لفظ 'البليلة' على 'حُمص الشام' اللاذع الحريف بدلاً من أن يوافق أهل القاهرة على إطلاق اللفظ على منقوع القمح المغلىّ الذى يضاف إليه اللبن الساخن والسكر ! وزاد شوقه إلى حياة الرَّبع واستغرق فى الصور التى أخذت فى التداعى حتى أفاقه صوت جلجلة أجراس ووقع حوافر خيل ، فالتفت فإذا بعربة قد وقفت أمام باب الوكالة البحرى، وهبط من المقعد المجاور لمقعد السائق عبد حبشى، عرف فيه فريد العبد الذى قدم لهم المشروبات فى منزل الكاشف منذ شهور ، فتقدم العبد منه وقال له كلامًا فهم منه فريد أنه مدعو لمقابلةٍ فى منزل الكاشف – الآن !

كان الطلب غريبًا ومفاجئًا ، فلم يتكلم فريد ، بل أعاد الدفتر إلى الدرج ، ووضع المفتاح فى جيبه ، وارتدى قلنسوته الصغيرة ، ثم ركب العربة التى انطلقت به فى طريق البوغاز الذى أصبح يعرفه جيدًا ، فَلَكَمْ قطعه ذهابًا وإيابًا على أقدامه فى مطلع صباه ، عادةً لتوصيل رسائل من أبيه إلى الكاشف ، وهى الرسائل التى لم يكن أبوه يأتمن أحدًا عليها سواه ، وأحيانًا للنزهة عندما كان يعود من الاسكندرية إما لحضور زفاف أو لقضاء عطلة ، كما كان للطريق جمالهُ الخاص ، فأشجاره مورقةٌ دائمًا، ونسمات 'البحر' منعشة ، وانفساح النيل والسفن تُبحر فيه رائحة غادية 'يشرح' الصدر ، وهو لا يزال يذكر آخر 'رحلة' له إلى منزل الكاشف ليلة وصوله من القاهرة ، والقلق الذى صاحبها، كما يذكر كيف جرى اللقاء مع

الكاشف بكل تفاصيله الدقيقة ، كأنما حدث يوم أمس لا منذ شهور ! ويذكر كم كان ساذجًا حين توقع أن يرى ذات العينين الخضراوين بعد تلك السنين - الطويلة - وابتسم !

وتوقفت العربة أمام القصر ، وهبط فريد منها وسار خلف العبد الذى كان يسير مسرعًا ، وأصداء نباح الكلاب تصل إلى أذنيه دون أن يراها فحدس أنها قد رُبطت أثناء النهار ، وفتحت الباب الجاريةُ الحبشية التى شاهدها من قبل ، فرّحبت به وسارت أمامه لكنها لم تتجه إلى 'المنضرة' بل أدخلته غرفة فسيحة فاخرة الرياش ذات شباك فرنسى يشبه الباب ومضت . كان الشباك من الزجاج الخالص ، ويطل على حديقة فيها أحواض زهور ذات ألوان متعددة وأشكال لم يرها من قبل ، ويمتد بينها طريق رملى يؤدى إلى تكعيبة عنب أوراقها الخضراء بدأت تظهر ، وتحتها مقعد خشبى ضخم يشبه الأريكة ، وعلى جانبيها أشجار التوت المورقة فقال فريد فى نفسه لابد أن هناك بستانيًا مختصًا برعاية هذه الحديقة ، وبينا هو مستغرق فى تملّى محاسنها إذ سمع همهمة فى الخارج لكنه ظل واقفًا حتى اقتربت الهمهمة فعادت الجارية ووقفت بالباب وصاحت صيحة من يعلن نبأ مهمًا قائلة : الست هانم !

والتفت فريد فإذا امرأة متوسطة الطول ، رشيقة القوام ، تبدو فى مقتبل العمر ، ترتدى الحبرة واليشمك الشفاف ، وتسير بخطوات نشطة كمن اعتاد الحركة ، ولاحظ أن يديها ناصعة البياض فخفض بصره ، فأشارت إليه بالجلوس قائلة 'تفضل' فجلس ، ثم جلست قبالته وقد سطع على وجهها ضوء الشباك الفرنسى ، فأبرز ملامحها ، ورأى فريد أن

عينيها زرقاوان يضرب لونهما إلى الخضرة ، فحدس أنها والدة صاحبة العينين الخضراوين أو أختها الكبرى ، فخفق قلبه وخشى أن يبدو عليه الاضطراب فحوّل بصره إلى الحديقة ، ولم يلبث العبد الحبشى أن عاد يحمل صينية عليها فنجانان من القهوة وكوبان من الماء ، فوضع الصينية على منضدة قريبة من فريد وخرج ، وقالت المرأة من جديد 'تفضل !' ، ولم ينطق فريد لأنه لا يعرف ماذا يقول فى 'حضرة' هذه 'الهانم' ، إذ لم يسبق له أن خاطب أمثالها ولا يعرف ما أدب الخطاب فى هذه الحالات ، ومد يده إلى كوب الماء فرشف منه رشفة وأعاده إلى مكانه . ثم قالت السيدة وكانت – فيما يبدو – تفحصه وتتخير كلماتها ''أنت الشيخ فريد إذن !'' ولم يعرف فريد هل يبتسم أم يقول 'نعم' لكنه أومأ برأسه فقط ، ظل خافضًا بصره ، فسمعها تقول ''اسمع !'' – كانت اللهجة حادة فأدرك أنها تريده أن يرفع بصره إليها ففعل ، ولم تلبث أن قالت باللهجة الحادة نفسها : ''أعرف أنك على علم وخُلُق ، وأعرف أنك سوف تفهمنى حق الفهم ، ولذلك أردت أن أخاطبك مباشرة لأننا أهلُ علم وخُلُق أيضًا ، درجنا على المصارحة وعدم اللّف والدوران !'' .

وتطلع فريد إلى الملامح التى بدت قاسية تحت اليشمك الأبيض الشفاف ، وقد غمرها الضوء فبالغ فى قسوتها ، فجمد فى مكانه ثم استجمع رباطة جأشه وقال ''تفضلى !'' فقالت بلهجة أقل حدة ''علمت أنك تعرض شراء أرضنا البحرية ! جاءتنى الأنباء بعد تكتم شديد ، ولكن الأنباء مهما تَخْفى لابد أن تُعْلَم ، ولما بحثت الأمر وتقصّيته – فهو يهمّنى لأن الأرض أرضى – رأيت أن أرفض البيع مهما يكن الثمن !'' وحار

فريد ماذا يقول فأطرق من جديد ، ومرت لحظة خالها عمرًا مديدًا ثم سمع نفسه يقول : "الأرض أرض الله ! وهى الآن فى يد الباشا !" وأحس أنه يريد أن ينهض لكنها أسرعت قائلة بلهجة حسبها تميل إلى الرقة كأنما تستبقيه "الأرض أرض الله وقد استخلفنا فيها ، وهى مكتوبة باسمى ، والباشا يعرف ذلك وإن كان باشا على كل أراضى مصر !" وكان لصدى كلمة 'مصر' وقع غريب فى سمع فريد ، ودون أن يعى 'الموقف' وعيًا كاملاً وجد نفسه يقرأ الآيتين اللتين يرددها كل صباح ومساء (من سورة آل عمران ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾ صدق الله العظيم ، وصدّقت السيدة ثم تطلعت ذاهلة إليه وقالت ببسمة غريبة وهى تزيح اليشمك قليلاً عن وجهها "تُراك جئت لتنزع منا الملك إذن ؟" ورد فريد بسرعة قائلاً "حاشا لله ! إنما هى آيات أستعين بها على مواجهة الشدائد !" وأشارت السيدة إلى القهوة وقالت "القهوة بردت !" .

ومد فريد يده إلى فنجان القهوة ورفعه إلى فمه وهو نصف ذاهل ، وسرعان ما سمع السيدة تقول "لا بيع ولا شراء إلا بالتراضى ، فإذا كنتُ لا أرْضىَ أن أبيع فكيف ترغمنى على البيع ؟" وازدادت حيرة فريد، وحاول إخفاء حرج صدره برشفة من القهوة، وتحويل بصره إلى الحديقة ، ولكن السيدة استحثته على الإجابة قائلة "ماذا تقول ؟" فغمغم فريد قائلاً

"ليس الأمر فى يدى ، بل إنه أمر الباشا وما يريده نريده !" فإذا بالسيدة تنفرج أساريرها ، وإذا بها ترفع اليشمك تماماً فيتجلى جمالها الفائق الذى جعل الهامس يهمس فى أعماق فريد 'سبحان الله !' وإذا بشفتيها تفتران عن بسمة خالها فريد بَلْسَمًا لجراح المكلومين ، وإذا بنواجذها تلمع فى وهج الشمس كأنها اللؤلؤ النضيد، فأحس فريد أنه يواجه غواية لم يواجهها من قبل فاستجمع شجاعته واعتدل فى جلسته ، فسمعها تقول "أستطيع أن أوقف هذه الأرض لأعمال الخير ، والأوقاف لا تباع وتُشترى !" فقال من فوره "لابد أن تكون الحبوس من الأراضى المغلّة التى ينفق خراجُها على المساكين ، ولكن هذه أرضٌ سَبِخة، اتفق المجلس على بناء المضرب فوقها ، ودَفْعِ ثمنٍ مجزٍ لأصحابها ! ولقد وافق الباشا على ذلك بل أمر به !" فقالت السيدة بنبرات تقطر عذوبة "وإذا لم أوافق ، تُراكم تصادروننى ؟" . وسمع فريد نفسه يقول "حاشا لله ! وإنما هو أمر الباشا !" وسمع السيدة وهى ترد قائلة بالنبرات العذبة نفسها "وهل ترضى أنت ، بما أوتيت من علم وخُلُق ، أن تحرم امرأة مما تدّخره لابنتها الوحيدة ؟ لقد هاجر ابنى من زمن ، وتقدم زوجى فى العمر ، وكتب هذه الأرض باسمى حتى أنفق منها على تجهيز ابنتى ! فهل ترضى أن تتركها دون متاع ؟" .

وصمت فريد لحظة وقد تراءت له صورة صاحبة العينين الخضراوين، فأحس برجفة مفاجئة وتمنى أن يقول لها 'فأنا أتزوجها وأرعاها' لكنه سمعها تردف قائلة : "ولا تنس الفارق بيننا وبينكم ! أنتم فلاحون ونحن نعطف عليكم ونشفق" فوجد فريد لسانه يقول -كأنما رغم أنفه -

"تشفقون ؟" فقالت السيدة بسرعة "وهل تشك في هذا؟ بل إننا نساعدكم ونمدّ إليكم يد العون حين تضيق الدنيا ويَعْسُرُ الرزق ! والكاشف عطوفٌ شفوق مثل كل الأسياد !" ودوّت الكلمة الأخيرة في نفس فريد كأنها هزيم الرعد ، وشعر بأن كيانه كلّه يتزلزل ، فكأنما أصابته المرأة بطعنة غائرة ، فإذا بشجاعته تتحول إلى صلابة ، وإذا به يقول "كلنا أسياد يا هانم !" ولكن السيدة لم تبتسم هذه المرة بل قالت بحدة وقد ألقت البشمك من جديد، على وجهها "بل أنتم فلاحون تعملون لحسابنا – نحن أصحاب الأرض الذين توارثوها أبًا عن جدّ ! فاذكر من أنت واذكر من أنا ! بل اذكروا من أنتم ومن نحن !" فنهض فريد وقد أحس أنه لن يحتمل المزيد ، وظلت السيدة جالسة ، ولم تلبث أن أردفت "لن أقبل أن أبيع أرضي أبدًا !" .

٣

عادت العربة بفريد إلى الوكالة ، وقد غشيه من الهمّ ما غشيه ، فبدا شارد اللب بل شبه غائب عن الوعي ، يتطلع إلى كل شيء فإذا معانيه قد تغيرت ، فلا الأشجار هي الأشجار ولا النيل هو النيل ، بل ولا ضوء النهار نور مشرق ! وما أن وصل إلى الوكالة حتى أخذ يطلب أباه ويسأل الرائح والغادي ، ثم اتجه إلى المسجد ينشد السلوى والسلوان ، وكان ما فتيء يقلب 'ما حدث' على وجوهه ، فيتساءل عن معنى 'السيادة' ، ويسترجع كلمات المرأة التي كانت تنحر في نفسه نحرًا ، وبعد أن صلى ودعا الله عاد إلى المنزل ، وكان يحس بوادر حُمّى من نوع غريب ، فطلب

من والدته شرابًا ساخنًا ، ولكن أمه أصرت على أن يتناول بعض الطعام وأصَرَّ هو على الرفض ، فأوى إلى فراشه يطلب الدفء ، وما لبث أن سمع صوت أخته الصغيرة خديجة تصيح 'أبويا جه !' فحدس أن أباه قد سمع بما حدث وصَدَقَ حَدْسُه ، إذ سرعان ما جاءه أبوه يريد أن يعرف المزيد فأفضى فريد إليه بكل شيء، وقد أغلقا الباب، حتى لا يذيع الخبر.

وظل الرجلان وحدهما يتساران حتى كاد النهار يطوى صفحته ، وعندما انتهى فريد من قصّ قصّته أحس براحة عميقة كأنما تخلص من عبء ثقيل ، ونظر إلى أبيه يطلب رأيه فقال له أبوه بلهجة حاسمة "لقد عُقدت الصفقة فعلاً يا فريد ، وأصبحت الأرض لك ، فإن حُجَّة الأرض القديمة لدى الباشا وقد أعد لنا حُجَّة جديدة أمضاها فعلاً فلا تقلق !" ودُهش فريد لكنه لم يجرؤ على مجادلة والده ، فالحُجة – أى عقد الملكية – سند شرعى ، وذكر أن الله أمر بكتابة الدَّيْن ، واستثنى التجارة الحاضرة وقال فى نفسه إن الأرض ليست تجارة حاضرة ، فلابد من 'كتابتها' ، لكنه ظل على دهشته مما قالته المرأة ومما فعلته وهى تفتقر إلى السند الشرعى ! ولم يشأ أن يسأل أباه فى هذا وتمنى أن يكون إلى جوار 'على الشامى' صديقه القاهرى حتى يفتيه فى أمر هذه السيدة ، وأخيرًا قال لوالده : "ومتى تظن أن العمل سيبدأ فى بناء المضرب ؟" وضحك أبوه وقال : "لقد جاء لنا حسين شلبى عجوة بأدوات من بلاد الإنجليز نقيس بها الأطوال ونضبط أماكن وضع الآلات ، وقد اكتملت الرسوم الهندسية ، ونرجو أن يبدأ البناء بعد العيد!" وقال فريد "بعد ثلاثة أشهر ؟" فقال أبوه "أو قل بعد أربعة ! ولك أن تسافر إن أردت، فتحصل على إجازتك ثم

تعود عندما ينتهي البناء !" ونظر الوالد طويلاً إلى وجه ابنه ليرى وقع كلماته ، ولكن فريداً كان كعهده دائماً ضنيناً بالإفصاح عن مشاعره، فحوّل بصره إلى الشباك وقال بصوت خفيض "لازم ألحق العصر !" وأدرك أبوه أنه لا يريد الإجابة فنهض وهو يقول "بارك الله فيك !" .

لم يكن فريد يريد أن يقول لأبيه إنه قد اعتزم تأجيل استئناف الدرس حتى يستوعب ما هو فيه وما يحمله المستقبل فى طياته ، بل كان يريد أن يعرف المزيد والمزيد عن أحمد أغا الكاشف وأسرته ، ولم تعد صاحبة العينين الخضراوين تهز كيانه بعد لقائه العاصف مع والدتها ، وكانت كلمة 'الأسياد' يتردد صداها فى ذهنه مثل أبواق الحامية على سور رشيد ، وكان يسمع رده الخافت عليها ويعجب كيف تمكن من ضبط لسانه والتحكّم فيه ، ثم يقول فى نفسه لا لوم عليّ فالتحكّم حكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً .

٤

كان الليل ثقيل الوطأة على فريد ، وقد بدأ يحس بهذه الوطأة منذ أن صلى العشاء وخرج إلى ظاهر الطريق وحده لا يكاد يسمع تحية الناس ، ويرد عليها برفع يده صامتًا ، حتى بلغ الحارة الضيقة التى يقع فيها المنزل ، فسار إليه بخُطىً متئدة كأنه يعود إلى سجن يومى ، وعندما اختلى بنفسه لم يشأ أن يوقد المصباح حتى لا يغريه بالقراءة بل أوقد شمعته الصغيرة فوضعها فى زجاجتها ، وكانوا يسمونها 'البَنُّورة' ، ثم اتجه إلى النافذة فأطل على المدينة التى بدأت تهجع ، وسمع الكروان وهو

يردد ما كانت أمه تقول إنه دعاءٌ لا نفهمه لكنه يقول 'المُلْكُ لكْ لَكْ لَكْ يا صاحب المُلْكْ !' وكان الصوت يحاكى هذه الحروف فعلاً ، فقال فى نفسه 'من يدرى ! لعل والدتى على حق !' واسترجع من جديد كلمات 'الهانم' وكلمات أبيه ، وخطر له أن كلا منهما واثق كل الثقة فيما يقول ، يتحدث بيقينٍ ثابت لا يتزعزع عن الملْكيّة ، وتمنى لو آتاه الله مثل هذا اليقين ، فهو بعيد عنه كل البعد ، يطلبه فيتأبّى ويستعصم ، بعد أن اعتاد لجاج مناقشات العلم فى الأزهر ! وطال به الوقوف والتطلع من النافذة حتى أحَسَّ أنسام الليل الباردة ورأى الأضواء المتناثرة على البعد تنطفىء أو يخبو نورها ، وأدرك أنه يتثاءب ، فأوى إلى فراشه وأصوات النهار مازالت أصداؤها تتردد فى جنبات نفسه ، ولابد أن السُّهد لازمه طويلاً إذا شعر عند استيقاظه على أذان الفجر بإرهاق من لم ينل قسطه الوافى من النوم، فخرج بعد الوضوء وقضى اليوم كله مهموماً لا يخفف من همه إلا استرجاع دعاء الكروان وتفسير والدته له .

وقصد بعد صلاة المغرب مباشرة إلى جامع سيدى على المحلى ، حيث توقع أن يجد الحاج محمد شبابو ما بين المغرب والعشاء ، وكان يعرف أنه يفضل هذا الجامع لقربه من وكالة الأقفاص والجريد التى يملكها على شاطىء النيل ، ولما شاهد سائسه (الذى أسرج لهم الخيل يوم وصول فريد) واقفًا بالقرب من الباب الشرقى ، حدس أن الحاج فى المسجد ، فبحث عنه حتى وجده بالقرب من خزانة الكتب الكبيرة جالسًا يتمتم ، فجلس قريبًا منه ينتظر انتهاءه ، ولما طال جلوسه وأضاء الفراشون المصابيح ، انتبه الحاج لوجوده والتفت إليه ، فقال فريد

بصوت خفيض 'حَرَمًا !' فقال الحاج "جمعًا إن شاء الله ! خير إن شاء الله !" فقال فريد إنه يريد أن يحادثه إن لم يكن لديه مانع ، وابتسم الحاج مُرَحِّبًا وهو يعتدل فى جلسته ليواجه فريدًا وقال له "لابد أن الأمر عاجل وإلا لَمَا أتَيْتَ الآن !" فأنكر فريد أى عجلة واعتذر لتطفله ثم قال إنه يريد أن يعرف ما لن يفضى به إلاّ الحاج ! وضحك الحاج وقال "لأننى أكبر الناس سنًا ؟" فارتبك فريد وغمغم "معاذ الله !" فأسرع الحاج يقول "بل أنا أكبرهم سنًا ! ولا أرى فى ذلك عيبًا فهات ما عندك!" وقال فريد بعد أن استجمع شجاعته وتحاشى النظر إلى عينى محدثه "أريد أن أعرف كل شىء عن السيد أحمد أغا الكاشف !" .

وضحك الحاج ضحكة صافية وقال "تريد أن تتزوج إذن ! لا عليك يا بنى !" فأنكر فريد بشدة كأنما اتهمه الحاج بمعصية فهدّأ الحاج من روعه وقال له "كما تشاء ! ولكننى أعلم أنك اشتريت أرضهم البحرية لإقامة المضرب عليها ! وكنت أتوقع أن يرتبط الجيران بأقوى رابطة وهى رابطة النسب !" وكرر فريد إنكاره فقال الحاج "فليكن! إذن فاعلم أن أحمد أغا سليل أسرة عريقة ، إذ جاء جده إلى مصر فى مطلع القرن الثانى عشر ، قبل أن أولد بزمن طويل" وضحك الحاج ضحكة مقتضبة ثم قال "كما علمتُ أنه كان مملوكًا من بلاد المقدونس ، لا أدرى ما يسمونها الآن !" فهمس فريد "مقدونية !" وضحك الحاج وقال : "واشتراه أحد كبار المماليك هنا طفلاً من إحدى أسواق الآستانة مع زمرة من المماليك الصغار حتى يشد أزره به ، وأسماه 'أغا' ، لما آنسه فيه من مخايل الرياسة ، فأصبح يعرف باسم أغا المقدونس ! وسرعان

ما حذق الفنون الحربية والعلوم الشرعية والحساب، وبزّ أقرانه فى هذه وتلك جميعًا فقرَّبه صاحبه منه ثم أعتقه ، ورجا الباشا – أى الوالى التركى آنذاك – أن يسمح له بتعيينه نائبًا له فى رشيد ، وكان صاحبه ذاك هو بك الإقليم – إقليم رشيد أو سنجقية رشيد كلها بما حولها من البلاد والقرى والضياع وهى من أهم أقاليم الوجه البحرى التسعة – وعندما انتقل صاحبه ، واسمه اسماعيل بن إيواظ إلى القاهرة ...'' وقاطعه فريد قائلاً ''إيواظ ؟ اسم غريب !'' فرد الحاج باسمًا ''اسمه فى الحقيقة عوض ، ولكن الأتراك والمماليك لا يعرفون نطق حرف العين أو حرف الضاد الذى تختص به العربية ، فحرفوا الاسم إلى إيواظ !'' فقال فريد ''فماذا حدث؟'' قال الحاج ''شُغل ابن إيواظ بمحاربة سويلم بن حبيب وابنه سالم، وهم من مشايخ العرب الذين كانوا يحكمون الوجه البحرى فعليًا وينازعون الولاة سلطانهم والمماليك بأسهم وسطوتهم ! بل إن الحرب كانت سجالاً بين الجانبين حتى تولى على بك الكبير حكم مصر فقضى عليهم !'' .

فقال فريد وقد أثارت القصة اهتمامه : ''فماذا حدث لأغا المقدونس ؟'' وضحك الحاج شبابو وقال «لا لا ! لقد تغير اسمه فأصبح أغا الكاشف ، بعد أن اشترى لنفسه بعض المماليك وتولى تدريبهم بنفسه فقويت شوكته وصار يفرض على رؤسائه فى القاهرة ما يراه ، ولا يقدم لهم من الضرائب إلا ضريبة الميرى المخصصة أصلاً للسلطان، بل إنه خفّضها بأن خصّص جانبًا منها للصناعات التى تدر دخلاً كبيرًا عليه وعلى العاملين بها، فأحبه الناس ، وكان أهمها صناعة النحاس وتبييضه ،

والحدادة والخراطة ، على نحو ما تشهد به أسواق النحاسين والحدادين والخراطين القائمة فى حى قبلى حتى اليوم ، كما إنه توسع فى صناعة النسيج فى رشيد ، خصوصًا صناعة المنسوجات القطنية ، وكانت مصانعه الموجودة فى حىّ بحرى تصدر منتجاتها إلى الخارج، فتُنقل إلى البوغاز رأسًا ، ولا يدفع عنها أصحابها مكوس الجمرك ، لكنه كان يتقاضى مكوس الجمرك عن كل الواردات الجاهزة القادمة إلى البوغاز من الغرب – من طرابلس وتونس والجزائر ومراكش !" .

فسأله فريد فى دهشة : "وأين كان يذهب هذا المال كله ؟" فقال الحاج قد تدهش إذا علمت أنه كان ينفق معظمه على زراعة الأرض أو استزراعها ، إذ كان فى أعماقه عاشقًا لمصر ، فترك الجندية تمامًا وتزوج شركسية كانت جارية لسيده وطلبها منه فأعتقها وتزوجها وأسماها 'رشيدة' ! كان إطلاق الاسم فى ذاته دليلاً على حبه للبلد واعتزامه البقاء فيها ، بل إنه أضاف لقب الرشيدى إلى اسمه فأصبح يشار إليه باسم أغا الكاشف الرشيدى ! ولما أحس أصحاب الأمر والنهى فى القاهرة بما يفعل ، فلهم عيونهم فى كل مكان، أوعزوا إلى كبير المباشرين القبطى أن يأمر أتباعه ـــن المباشرين –" فقال فريد "تقصد من بيدهم السجلات العقارية والمالية وكل ما يتصل بشؤون الضرائب ؟" فقال الحاج "أى وكلاء الملتزمين ! وكان أغا الكاشف هو الملتزم المعين أى 'الرسمى' لكنه لم يكن من البكوات ، مع أن كل ملتزم كان بك ! وقد يبدو هذا غريبًا ، لكن مماليك القاهرة كانوا دائمًا ما يوغرون صدر الباشا – كل باشا – على ملتزم رشيد ، فيوحون إليه بأن ذلك الملتزم يخفى الحقائق ولا يدفع

الضرائب كاملة ، وكانوا يتمنون أن يدفع رشوة كبيرة لشراء لقب 'البك' حتى تكون الرشوة دليلاً على غناه وذريعة للانقضاض عليه ، ولكن أغا كان يقظًا فرفض دفع أي شيء ، وأصر على التظاهر بالفقر !'' .

وقال فريد ''قلت إن كبير المباشرين أوعز إلى المباشرين ...'' فقال الحاج ''لا ! بل قلت إن المماليك أوعزوا إلى كبير المباشرين - واسمه المعلم رزق - أن يأمر أتباعه من المباشرين الأقباط بإفشاء أسرار الكاشف وأحوال رشيد المالية ، وكان المماليك يأملون أن يكون اتفاق الدين دافعًا للمباشرين على الإفشاء بما يعرفون ، ونسى المماليك بسذاجتهم وجهلهم أن ولاء هؤلاء المباشرين للأرض أولاً ، لرشيد وأهلها ، فلقد ولدوا فيها ونشأوا وترعرعوا ، بل إن بعضهم يقول إن له جذورًا في البلد أعمق وتاريخهم أكثر عراقة في رشيد من العرب !'' وتمتم فريد ''لقد سمعت هذا فعلاً !'' فقال الحاج ''بل إنني لا أشك فيه ! إن لهذه البلدة يا بُنيّ سحرها الخاص ، ومن يولد فيها يُخلص لها مهما تكن المغريات من حوله ! قد يهاجر لكنه لا ينساها ، وقد يدير ظهره لها ، لكنه لا يخونها أبدًا ! بل إن من يستوطنها يعتبرها أمه في الرضاعة ، فيفي بحقها أنّى كان وأنّى فعل ! وانظر إلى الأجانب الذين 'ترشدوا' في برج رشيد - قرب البوغاز - حيث يعملون بالبحر والتجارة ، أو في برج مغيزل حيث يعملون بالصناعة والتجارة ! لقد أحضر الكبار منهم أسرهم من الخارج ، وشبانهم تزوجوا من بنات الناس !'' .

وطافت بذهن فريد صورة مراد الأرنؤوطي فابتسم كأنما ليصدّق على كلام الحاج ، ثم تنبه إلى أن الحاج يقص عليه قصة من ماض

سحيق ، وأنه إنما يريد معرفة كل شيء عن 'الست هانم' وزوجها (وابنتها ؟) فقال : "وماذا حدث لأغا الكاشف بعد ذلك ؟" فقال الحاج : "الدنيا لا تدوم يا بنى ! إذ إن إسماعيل بن إيواظ – الذى كان اشترى 'أغا' المذكور وأعتقه ، بعد أن ربّاه فأحسن تربيته حتى أشربه مبادئ الشهامة والإخلاص واصطفاه وقرّبه منه قربًا شديدًا – ولى إمارة مصر مع نصيره قيطاس بك (الذى حُرِّف اسمه إلى غيطاس) وإبراهيم بك أبى شنب ، أى إن المماليك الثلاثة أصبحوا يملكون زمام السلطة ويتقاسمونها فيما بينهم ، لكن الأول لم يلبث أن قتل ثم مات الثانى فتفرد اسماعيل بالإمارة ، وأصبح الحاكم شبه المطلق لمصر كلها*، فالوالى التركى فى تلك الأيام لم يكن له حول ولا طول ، وهكذا أثار اسماعيل عليه حقد كبار المماليك وحسدهم ، وجاهره محمد بك جركس بالخصومة ونصب له كمينًا أطلق عليه النار وهو فى طريقه إلى الديوان فلم يصبه ، ثم حاربه فانتصر عليه إسماعيل لكنه لم يقتله ، إذ إنه كان – فيما يُروى – شهمًا نبيلاً ، فعفا عن عدوه وداوى جراحه ووهبه مالاً ونفاه إلى قبرص ، ولكن جركس هرب من منفاه وعاد إلى القاهرة ، ودبر مكيدة قُتل فيها إسماعيل ، وتولى جركس إمارة مصر !" فقال فريد : "وما شأن هذا بأغا الكاشف ؟" فابتسم الحاج وقال "الصبر طيب ! كان جركس لا يقتصر ، فيما رواه الرواة ، على الشجاعة الفائقة والجرأة النادرة ، بل كان يتسم بما هو أهم فى تلك الأيام – ألا وهو الدّهاء الخبيث أو المكر السيء ، وهو يختلف عن المكر الحسن فى أن هذا النوع من الدهاء لا يعرف الوفاء ولا الإخلاص ، كما أنه يتجلى ، حين يظفر صاحبه بخصومه ، فى أبشع ألوان الظلم والقسوة والبغى ، فحينما قُتل إسماعيل غَدْرًا وطمعًا ، وهو فى شرخ

الشباب ، انقض أعوان جركس على كل من كان مقربًا من اسماعيل بن إيواظ ، وخصوصًا مماليكه الذين تبوأوا مناصب رفيعة ، وكان من بينهم أغا الكاشف !'' .

وتوقف الحاج شبابو كأنما ليسترد أنفاسه وجعل ينظر إلى الزّير القريب من مجلسه فأدرك فريد أنه يريد أن يشرب فأتاه بكوز ماء فشكره الحاج واستأنف حديثه قائلاً : ''عندما بلغت تلك الأنباء أغا الكاشف أدرك أنه لن ينجو هو وأسرته إذا ظل فى رشيد، فتنازل عن كل شىء لابنه ، والد أحمد – الكاشف الحالى – وكان يُدعى إبراهيم، ودبّر لباقى أفراد الأسرة أن يختفوا – مع جواريه وعبيده – فى الجزيرة الخضراء، القرية التى تعرفها ، فهى جزيرة من طرح النيل ، وتختفى أرضها فى أيام الفيضان ، ولا يربطها إلا لسان قصير من الأرض بالبر الشرقى ، واستطاعوا فى مقامهم هناك أن يحتموا بقبيلة المطاعنة ، وهى قبيلة عربية شديدة البأس ، أصلها من فلسطين واستقرت منذ قرون فى البر الشرقى على مشارف تلك القرية ، تحفظ العهد وترعى الذمم . وسافر هو مع فرقة من رجاله إلى القاهرة حيث شهد رجال جركس يعيثون فى الأرض فسادًا فيقتلون الآمنين وينهبون بيوتهم ، وقد حكى لى والدى عن اثنين من هؤلاء 'الأمراء' ، وكيف استباحا الحرمات ولم يكونا يعرفان أى حدٍّ فى طغيانهما حتى ضج الناس بالشكوى ، وكان والدى مجاورًا بالأزهر وشاهد بعينى رأسه مماليك جركس وهم يدخلون البيوت وينهبونها ويقتلون بعض من فيها ، وقص علىّ كيف ذهب الناس إلى العلماء يلتمسون منهم الوساطة عند الوالى حتى يدفع عنهم هذا البلاء ، ولكن

العلماء لم يذهبوا ولم يتوسطوا ، فذهب أغا الكاشف مع فرقته إلى الوالى محمد باشا النيشانجى، وعرض عليه المساعدة فى إيقاف هذا الطغيان، فأبرز الوالى فرمانًا من السلطان بعزل جركس قائلاً إنه لا يستطيع تنفيذه لقلة حيلته ! .

"وانصرف أغا الكاشف حزينًا مع رجاله ، فانضم إلى خصم جركس وهو ذو الفقار الفقارى الذى كان يستعد للحرب فرّحب بأغا ورجاله ، ولم يلبث القتال أن اندلع، وجرت وقائع شهيرة كتب النصر فيها لذى الفقار وأنصاره ، ففر جركس إلى الصعيد ثم إلى استامبول ، وظفر من السلطان بمرسوم يقضى بالإمارة على مصر كأنما يكافئه على مساعدته له فى الحرب من قبل ، وقيل له إن استطعت أن تنتزع الإمارة من ذى الفقار فهذا مرسوم السلطان قد أعطيناه لك ، فنزل إلى جزيرة مالطة ، وأعد سفينة حمّلها بالذخيرة والمدافع وأدوات الحرب ، واتصل بأنصاره فى القاهرة وغيرها ، وتسلل عن طريق الصحراء إلى الصعيد ، وحارب طلائع جيش ذى الفقار وظهر عليها ، وأخذ مرسوم السلطان بإمارته على مصر ، ثم انتقل إلى الوجه البحرى ، وكان ذو الفقار قد أعد له جيشًا عظيمًا ، فلما كانت الحرب وجد جركس أنه مغلوب ، وأن أعداءه قد أحاطوا به من كل جانب ، فحاول الفرار عبر نهر النيل فغرق فيه ، ولكن أنصاره كانوا قد تمكنوا من قتل ذى الفقار بك أيضًا ، وقتل أغا الكاشف معه ، رغم اندحار جيش جركس وتشتيت شمله ، ولما جاءت الأنباء إلى رشيد حزن الناس لمقتل أغا الكاشف ، وأبلغوا أهله ، ومن ثم عاد الجميع وتولى إبراهيم (ابن أغا) الكشوفية وكان تابعًا فى ذلك لعثمان بك ذى الفقار الذى ظل حاكمًا وأميرًا عشرين سنة" .

وقال فريد "لابد أنه كان صغير السنّ ! فكيف يرث هذا المنصب السامى ؟ أعنى هل تُورّث الكشوفية ؟" وتنهد الحاج شبابو وقال : "كان إبراهيم زميلاً لأبى الكُتّاب ، ولكنه لم يشأ أن يذهب إلى الأزهر معه بل عمل بإدارة الأراضى الشاسعة التى خلفها له أبوه ، وكان على نقيضه فى كل شيء ! فلقد كان أبوه متواضعًا ليّن الجانب ، يشارك الناس حياتهم ويحضر أفراحهم ومآتمهم ، ولم يكن يلبس الجوخ والعمامة إلا فى الأعياد أو فى مناسبات خاصة ، وينسى أو يتناسى عامدًا أنه كان مملوكًا ، وأما إبراهيم فكان متكبرًا يزهو بجمال طلعته – فيما سمعت وشاهدت – ويبتعد عن الناس بل يأنف من مخالطتهم ، وكلّما اجتمع بأحد ذكرّه بأنه أمير ورث الإمارة ، وبنى لنفسه القصر الذى تعيش فيه أسرته الآن وحرّم على العامة دخوله أو الاقتراب منه ، وكان يصر على أن يتحدث بالرومية ويصحب معه ترجمانًا تشبهًا بأمراء مصر ، رغم أنه كان يعرف العربية ، وكان أن أكثر من شراء الجوارى والعبيد ، كما اشترى بعض المماليك المدربين على القتال ، ولكننى لم أشهد بعض ذلك لأننى كنت صغيرًا مشغولاً بعملى . وإن كنت أذكر حادثة وقعت وقد بلغت مبلغ الرجال ، وهى التى ستشرح لك غاية هذا الحديث كله" .

وفجأة ارتفع صوت المؤذن ، فقد مَرَّ الوقت وأُذّن لصلاة العشاء وفريد مأخوذٌ بما يسمع ، كأنما لم يولد فى رشيد ولم يسمع عنها قبل اليوم ! وانتهت الصلاة وفريد لا يبارح مكانه إلى جوار الحاج ، وما أن فرغ الحاج من قراءة تسابيحه وأدعيته حتى أتى له فريد بكوز ماء آخر

كأنما يستحثه على استئناف القص ، وإن بدا الإرهاق على الحاج ، لكن فريدًا رجاه وألح فقال الحاج شبابو :

"لابد أنني كنت أناهز الأربعين حين حدث ذلك ، إذ كنا في آخر القرن الثاني عشر ، ومطلع الثالث عشر ، وكنا قد احتفلنا برأس السنة الهجرية الجديدة ، وكنت قد ورثت وكالة الأقفاص من والدي الذي توفي قبل عامين ، وكنت في ذلك اليوم أشرف على نقل عشرة أحمال من الأقفاص الجديدة ، إلى وكالة 'برنار' - التاجر الفرنسي - بالقرب من البوغاز ، عندما جاءنا من يخبرنا بأن مماليك مراد بك في الطريق ، وكنا قد سمعنا عن مراد بك وخيانته مولاه ، فأنت تعلم أنه كان من مماليك على بك الكبير وخانه في مقابل تزويجه جارية شركسية بارعة الجمال هي نفيسة المرادية ، ولابد أنك سمعت عنها وقد علمتُ أنها توفيت منذ عدة أسابيع - رحمها الله ! كما كنا سمعنا عن فظائع مراد بك ، فاتجهنا إلى إبراهيم أغا الكاشف ، نسأله المشورة ، كشأننا دائمًا في المُلمّات، فقال كلماتٍ أدخلت الطمأنينة في قلوبنا إذ ذكر أن مرادًا يبتغي إنصاف طائفة من عرب البحيرة شكوا إلى إبراهيم بك - شريك مراد في الحكم - عدوان آخرين عليهم فكلف مرادًا بأن يرد العدوان وينصفهم . وكان إبراهيم أغا شيخًا مهيبًا يتكلم بالرومية وإلى جواره الترجمان يفسر ما يقول بالعربية ، فانصرفنا ، ولم تمض أيام حتى جاءتنا الأنباء بأن مراد بك تعاطى رشوة من المعتدين فناصرهم وانقلب على الشاكين فهاجم بيوتهم في غفلة منهم، ونهب مواشيهم وإبلهم وأغنامهم وقتل جماعة كبيرة منهم ثم عاد إلى القاهرة .

"كانت هذه الحادثة بداية تزعزع ثقتنا فى الكاشف ، فسرنا على نهج وافق مجلس التجار عليه ، وأقره مجلس المدينة ، وهو منهج 'التَّقِيَّة' أى إظهار الطاعة والخضوع مع اتخاذ كل ما يلزم من حيطة وحذر ، ونفعنا هذا النهج بعد شهرين ، حين تكرر هجوم مماليك مراد بك على قرى البحيرة ، وكان جنوده يبدأون بتحصيل ما فرضه من ضرائب، وهى ضرائب لم يسمع بمثلها مخلوق ، فإذا استوفوا ذلك طلبوا لأنفسهم "حق الطريق" أى أجر الانتقال إلى البلدة أو القرية ، وأموالاً أخرى تسمى "المقرر" ، فإذا امتنعت البلدة أو القرية عن دفع المفروض عليها مهما يكن معجزًا لها ، نهبها الجند وحرقوها ! ولذلك أخذنا أهبتنا وأعددنا للأمر عدته ، ولست فى حل أن أخبرك بالتفاصيل فاعذرنى ، ولكن ما حدث فاق توقعاتنا ، إذ عندما وصل الجند إلى مشارف رشيد ، ونادى المنادى بالفرار أو الاختباء ، إذا بمماليك إبراهيم أغا الكاشف يكشرون عن أنيابهم فينضمّون إلى مماليك مراد بك ويدلّونهم على أصحاب الثراء حتى يستخلصوا منهم ما يستطيعون من مال ! بل إنهم حرسوا شاطئ النيل حتى يمنعوا الفارّين من ركوب البحر ! وكنت أنا حينذاك فى الوكالة والشمس قد علت السماء فى الضحى ، وفجأة سمعت المنادى يطوف قائلاً "لقد فَرَّ الكاشف ونُهبت داره ! والأمر لله من قبل ومن بعد !" .

"كان النبأ يصعب تصديقه ، فلماذا يفرّ الكاشف من وجه مماليك يقول إنه منهم ؟ وكيف يستبيح المماليك نهب دار مملوك آخر يقول إنه 'أمير' ؟ وماذا صار من أمر أسرته ؟ تراهم فرّوا معه ؟ ولكن الخوف كان يتملك الجميع فلم يجرؤ أحد على التساؤل علنًا بل إن الكثيرين لزموا

بيوتهم حتى جاء النبأ بأن جنود مراد وصلوا إلى الاسكندرية وأن مرادًا عيّن عليها جابيًا اسمه صالح أغا ، وقرر له خمسة آلاف ريال "حق طريق" وفرض لنفسه عليها مائة ألف ريال ، فلما علم تجارها ذلك هربوا إلى المراكب ، ثم جاءت الأنباء في اليوم التالي بأن مرادًا عاد فهدم في طريق عودته بلادًا منها جمجمون ودسوق، ثم عرّج على الشرقية ففعل ببلادها وأهلها مثل ذلك ، وكان أمراؤه الذين تركهم في القاهرة يفعلون بأهلها مثل ما يفعل كبيرهم بأهل البلاد والقرى .

"ولم نكد نفيق من هول الصدمة حتى سمعنا أن مماليك مراد قد نهبوا المتاجر الأجنبية في برج رشيد ، بل وبعض السفن الراسية في الميناء ، واستولوا على ثلاث عربات بخيولها لنقل ما نهبوه ، وجاء مسيو 'أرمان' صاحب وكالة الشحن البحرى إلى مجلس التجار بعريضة تتضمن تفاصيل ما نهبه الجنود ، ويهدد بالشكوى إلى قنصل حكومته إذا لم يَعُدْ إليه ما سُلِب أو يُدفع له تعويض عنه ! وأفهمناه أن الكاشف قد فرّ ، وقصره منهوب ، ومماليكه لا أثر لهم ، ويبدو أنهم انضموا إلى مماليك مراد بك ! لم يكن عددهم كبيرًا لكننا كنا نتوقع أن يحرسوا مولاهم لا أن يخونه ويخونوا البلد التى رعتهم وآوتهم ! وتلا التاجر تجار أجانب آخرون، من البندقية ومن مالطة ، وكان الجميع يضربون أخماسًا فى أسداس ! كان الحادث قاسيًا لكن ما تلاه كان أقسى !" .

وتململ الحاج شبابو فى مجلسه وقد بدأ المصلون يغادرون المسجد والفراشون يغلقون النوافذ ، لكنهم لم يطفئوا المصابيح ، فأوجس فريد

خيفة من أن يرحل و 'الحكاية' التى جاء من أجلها لم تكتمل ، فحلف على الحاج أن يكمل القصة ولو فى كلمات معدودة ، فضحك الحاج وقال ''فهكذا دأب الشباب المتعجّل ! فليكن ! فى اليوم التالى جاءنا رسول من مراد بك يقول فيه إن الكاشف وأسرته رهائن لديه ريثما يدفع أهالى رشيد ما فرضه من ضريبة !'' وقال فريد ''يعنى فدية ؟'' فابتسم الحاج وأومأ موافقًا ثم قال : ''لم تكن الصعوبة هى تدبير الفدية ، على فداحتها، إذ كانت تبلغ ألف كيس ، والكيس كما تعلم خمسمائة قرش ، بل فى دلالة ذلك على أن أهالى البلد يستطيعون تدبير المبلغ ، فإذا تيقّن مراد بك من حيازتنا لمثل هذه الأموال فقد يُسلّط علينا جنودًا لا قِبَلَ لنا بها ، وقد يحرقون البيوت والمحاصيل بل وقد يقتلون ويأسرون ! كان الحلّ هو أن نلجأ إلى التفاوض وطلب تخفيض المبلغ ، مع إطالة الوقت فى التفاوض علّهُ يزهد أو ييأس ! وعلى الفور أرسلنا شيخ البلد إلى القاهرة'' وقال فريد ''الشيخ الغاياتى عاقل حكيم !'' وردّ الحاج شبابو بسرعة قائلاً ''لم يكن الشيخ الغاياتى قد تولى المشيخة بعد، ولكن أرسلنا سلفه الشيخ الخشاب ، فهو يمت بصلة قرابة للشيخ الخشاب المشهور، وكان ذا قريحة وقادة وخطيبًا مُفَوَّهًا وذا مهابة فى المظهر أيضًا ، ولعلك تعرف ابنه إسماعيل ، تاجر الأقفاص الكبير !'' فهز فريد رأسه موافقًا فقال الحاج ''ونجح الشيخ الخشاب نجاحًا لم نكن نتوقعه ! إذ وافق مراد بك على تخفيض المبلغ إلى خمسمائة كيس ، وكنا طلبنا تخفيضه إلى مائة ، على أن تُدفع النقود من دخل ديوان جديد يريد إنشاءه فى رشيد يسمى

'ديوان البدعة' ، ويفرض عن طريقه ديناراً على كل أردب من القمح يُحمل إلى الخارج !'' وضحك الحاج شبابو ونظر إلى فريد الذى لم يدرك سبب الضحك ، ثم أردف قائلاً : ''ربما لم يكن مراد بك يعرف أننا لا نزرع القمح ! وكان من نتيجة هذا التفاوض أن أطلق مراد بك سراح الكاشف وأسرته دون أن يتقاضى أى نقود !'' وقال فريد ''ألم يكن يخرج من بوغاز رشيد أى قمح ؟'' فقال الحاج.''بدأ التجار يتحولون عن البوغاز ويتجهون إما إلى الاسكندرية أو دمياط !'' فقال : ''وماذا كان من أمر الكاشف ؟'' فقال الحاج :

''كنا قد أعددنا العدة طيلة فترة المفاوضات التى استمرت شهوراً ما بين شدّ وجذب، لتولى شؤون الحكم بأنفسنا ، ولذلك فلم نشعر بغيابه ، ولا رحّبْنا بقدومه ! بل كان معظم الأهالى قد وطّنوا النفس على الحياة دون كاشف ، ولذلك فعندما عُثر عليه ميّتًا غداة رجوعه ، وقيل إن بعض خدمه خنقوه أو دسوا له السم ، حزن الكثيرون وترحموا عليه لكنهم لم يشعروا أن كارثة عظمى حلّت بالبلد ، ولذلك رحب الجميع باقتراح مجلس التجار بأن يتولـى ابنه أحمد الذى كان مازال يافعًا شـؤون الكشوفية ، ولم يكن التعيين فى هذه السّنّ الصغيرة نادراً – كما شرحت لك – لا ولا اعترض مراد بك عندما طلبنا منه الموافقة ، بل إنه أحال الأمر إلى إبراهيم بك الذى وافق على الفور !'' .

كان فريد يريد أن يعرف ما جاء من أجله وهو أملاك الكاشف وزوجته وأولاده (وذات العينين الخضراوين ؟) ولكن الحاج شبابو نهض وقد أحس

بأنه قال كل ما جاء فريد من أجله ، وأحس خَدَرًا فى رجله فاستند إلى ذراع فريد حتى نهض وسار وزال الخدر وألقى ببصره على الجامع الذى خلا إلا من الفراشين وقال ''لقد تأخرنا الليلة ! والنهار يطول هذه الأيام وأنا لا أحتمل السهر !'' واصطحب فريدٌ الحاج محمد شبابو حتى خرجا من المسجد وافترقا ، فركب الحاج حصانه ، وسار فريد إلى منزله .

٥

عندما أغلق فريد باب غرفته عليه ، أهرع إلى أوراقه فسجل فيها بعض ما قاله الحاج محمد شبابو ، خشية أن ينساه ، وعسى أن يرجع إلى ما قاله ذلك الرجل الذى يحمل تاريخ بلده بين جوانحه ، وقال فى نفسه لعلّى أراجع بعض آرائى فى ما يفعله والدى والتكتم الذى يلتزم به فى إدارة شؤونه وشؤون البلدة ، فهو يخشى الخيانة ، وعندما ذكر 'الخيانة' وجد للكلمة أصداء غريبة فى نفسه ، فمبلغ علمه أن الولاء يبدأ بالصدق مع النفس والحرص على الأهل والولد والوطن ! الوطن ! وما الوطن ! أهو رشيد التى تجمع بين من ولدوا فيها ونشأوا على حبها والالتصاق بها ، أم هو أكبر من ذلك ؟ وهل يعتبر محمد القزق خائنًا لأنه هجر رشيد وأقام فى القاهرة ؟ وإذا لم يكن المماليك قد ولدوا فى رشيد أو فى أى بقعة أخرى من بقاع مصر فكيف يُعتبرون خونة ؟ وجعل فريد يتذكر من عرفهم من صغار المماليك الذين كانوا يشاركون فى جيش الباشا ، جنودًا أو رؤساء جند ، فلم تسعفه الذاكرة بما يفيد ، لكنه تذكر

قول على الشامى صديقه إن المماليك لا أهل لهم ولا نسب ، وأسماؤهم مفردة دائمًا وإن انتسبوا فإنما ينتسبون لصاحبهم أو رئيسهم ، وإذا لم يكن لهم أهل ولا نسب فكيف يصفهم الحاج شبابو بالخيانة ؟ وقال فريد فى نفسه ولكن أحمد أغا الكاشف ولد فى رشيد ويتكلم العربية وله أرض ورثها من أبيه فى هذه البلدة ، وإذن فهو من أبناء هذا الوطن ، وإذا خانه حق عليه القول ! ولكن ترى يصدق ذلك على زوجته ؟ لقد أحس فى حديثها بالاستعلاء إلى حد العنجهية ، وآلمه ذلك ، ولكنه أحس أيضًا باعتزازها بالأرض وقلقها على مستقبل ابنتها ! أتراها ذات العينين الخضراوين ؟ أتراها تزوجت ؟ لو كانت قد تزوجت ما ساور أمها القلق على مستقبلها ! ووجد صورتها تلوح لعين خياله مشرقة بسّامة ، فابتسم فى أعماقه ، ورتب الأوراق التى سجل فيها حديثه مع الحاج شبابو ، وأوى إلى فراشه وصورة العينين تلح عليه .

ولم يأت الصباح بجديد ، إذ كان فريد مشغولاً بأسئلة البارحة ، وكان فى إبّان عمله فى الوكالة يتأمل الفلاحين والتجار بعين جديدة تتساءل عما يتفقون فيه باعتبارهم رشيديين ، بل ويتمنى لو سأل كلا منهم عما يعنيه وجوده فى رشيد له ، لكنه كان يعرف أن إجاباتهم لن تكون شافية ، فماذا عسى مالك الصباغ - مثلاً - أن يقول ؟ وتذكر مرادًا فجأة ! إنه نموذج الذى يريد أن يصبح رشيديًا باختياره ! تراه رأى فى هذه البلدة ما لا يراه أهلها ؟ ثم تذكر الكثيرين ممن استوطنوا البلد وأحبوها وأصبحوا من أهلها ! تذكر إبراهيم الشامى 'المنجّد' ! إنه (فيما

سمع) أصلاً من الشام ، لكنه أصبح رشيديًا في كل شيء - في المآكل والملبس والسلوك واللغة ! وإن كانت لهجته مازالت تنم عن نبرات أهل الشام الجميلة ! وإذا لم يعد صديقه على الشامي إلى الشام فهل يصبح مصريًا هو الآخر ؟ ومرّت بخياله مسرعةً صورة الفتاتين اللتين رحّبتا به ، إنهما ذواتا عيون سوداء فاحمة ، ولكن العيون السوداء ليست أصدق في طابعها الرشيدي من العيون الخضراء أو العسلية ! وتذكر أن أمه تفضل ارتداء الملاءة اللف على ارتداء الحَبَرَة واليشمك ! فأي هذه الملابس رشيدي وأيها غير رشيدي ، وأدرك فريد أن التفكير في هذا الأمر سوف يطول بلا طائل ، فعاد إلى عمله باسمًا ! .

ومر اليوم وتلته أيام ، كان بعضها قائظًا ينذر بأن الصيف وشيك ، وبعضها لطيف النسمات ظليل ، وكان فريد يحب التطلع إلى السحب في سيرها ويرى فيها صورًا للأيام التي تمر فلا تعود ! وانتبه ذات يوم إلى أنه يكتب في الدفتر تاريخ اليوم (آخر أيار) ! وتعجب وقال في نفسه "أين يذهب الزمن ؟ لقد مرت الشهور كأنها تتسابق ، والأيام تجرى لاهثة ، علم فيها ما لم يكن يعلمه ، وبعد أن كان يأمل في رحيل مبكر إلى القاهرة أصبح الرحيل حلْمًا يراوده مثل أمل بعيد التحقيق ! لقد قرَّ عزمه على الرحيل أكثر من مرة ، بل وكان عزمه صادقًا أكثر من مرّة ، لكنه كان يسوِّف ويُرجيء لأسباب رآها قاهرة ، وقال في نفسه لو صدق عزمي حقًا ما سوَّفتُ وما أرجأت ! وكلما ازددت علمًا بأحوال البلد وأحوال نفسى ازدادت صعوبة تحقيق الحلم ! ونهض فجأة كمن داهمه خطر محدق ،

وخرج إلى المقهى فجلس يرقب المارة كأنما ليُبعد عن ذهنه الخاطر الذى أقلقه ، وكان ينحصر فى سؤال تلته أسئلة : هل أخون رشيد لو تركتُها وبدأت العمل فى القاهرة ، سواء بما اكتسبتُه من علم أو بما دعانى إليه محمد القزق؟ ولماذا قُدِّر على الإنسان أن يرتبط ببقعة مُعينّة من الأرض ؟ أليست الأرض فى كل مكان أرض الله؟ وما الذى يجعل مرادًا شديد الحرص على أن يصبح مصريًا وينجب ذُرية مصرية ؟ أليست تيرانا - بجبالها وسهولها ووديانها - أجمل وأمتع حسبما سمع ؟ وأدرك عند ذلك أنه لم يقابل مرادًا منذ مدة طويلة ، وقال فى نفسه لابد أن أطرح عليه هذه الأسئلة، فلقد تنقّل بل وحارب فى بلاد الله الواسعة ، ولا شك أن لديه إجابات على بعض ما يقلقنى !

ومر شهر رجب وحل شعبان ، واعتاد الناس الحياة فى ظل وجود الجنود ، ووطنوا النفس على قبول ما لا يمكن تفاديه ، وإن كان فريد دائمًا ما يحس بالقلق - كأنه محاصر - فإذا اتجه إلى مراد يطلب الصحبة وتفريج الكرب وجده فى معظم الأناء مشغولاً بالعمل فى 'مشروعه' العجيب ، وإذا اتجه إلى صديقه الفرنسى ڤيار - ابن مسيو لوبون صاحب الوكالة التجارية - وجده إما عند الشاطىء يشرف على تحميل السفن أو تفريغها ، أو فى المكتب منهمكًا فى التسجيل والحسابات التى لا تنتهى ، كأنما لا يقيم الأرنئوط فى أبى مندور وكأنما لا يتهددون البلد بأخطار جسيمة !

كان الحر فى مطلع شعبان لا يطاق ، فقد صادف أواخر بؤونة

(حزيران تقريبًا) واشتد الحر فى أيامه الأولى عندما حل أبيب (تموز تقريبًا) فقال فريد ماذا يكون عليه الحال لو استمر هذا الحر فى رمضان؟ ولم يكن العمل فى الوكالة يشغله عن التفكير فيما بدأ يشغله من أسئلة 'الوطن' و 'الخيانة' ، بل إن هذه الأسئلة أصبحت تلح على ذهنه صباح مساء ، حتى إنه لجأ إلى كتابة خواطره فى هذه المسألة واعتزم عرضها على أحد شيوخه عندما يعود إلى الأزهر ، وكانت أهم قضية أثارها معه ڤيار (وكان والده يحتفل بعيد الثورة الفرنسية قبل أيام) هى 'لماذا يقتصر عسكر مصر على جنود من غير المصريين ؟ هل من الصحيح أن يكون جند مصر 'من أخلاط العالم' – كما ذكر محمد القزق ؟ وفجأة وجد فريد يسأل نفسه هل أستطيع أنا أن أصبح جنديًا يحمل السلاح ؟ وإن حملت السلاح فمن أحارب ؟ ومن أجل أية قضية ؟

وبينا هو غارق فى أفكاره إذ سمع مناديًا على فرس يركض صائحًا: 'العسكر ! العسكر !' فنهض تاركًا الشاى ، وجرى إلى الوكالة فأحكم إغلاق أبوابها بمساعدة سميح، وتلاه آخرون ولم تمض لحظات حتى أصبح شارع السوق مقفرًا ، والناس يجرون إلى بيوتهم ، والأطفال يبكون خائفين ، ولم يبق فى المقهى سوى مقرىء القرآن الذى قام متمهلاً ينظر ما يكون ، وفريد واقف عند مفترق الطرق يلقى ببصره فى كل اتجاه ، وهو يحوقل ويقرأ المعوذتين، ثم اتجه إلى الطريق الجنوبى من حيث توقع أن تأتى الجنود ، لكنه لم يجد أحدًا ، وساد صمت كأنه صمت الليل ، لا يقطعه إلا نباح الكلاب التى أزعجتها الحركة المفاجئة ، ثم رأى المنادى

يعود فاستوقفه وسأله عما جرى ، فتوقف المنادى وقال : "هبط الجنود التل متجهين إلى الباب الغربى ، وجاءت الطلائع بأن بعضهم نزل النيل فى زوارق متجهين نحو البوغاز !" فسأله فريد عن مقصدهم فقال إنه لا يدرى ، لكن بعض الأعراب يقولون إن أحد أبناء البلد أخبرهم أن جنديًا أرنؤوطيًا هرب واختبأ فى رشيد فهم يبحثون عنه ! وانطلق المنادى على ظهر فرسه كالريح وترك فريدًا نهبًا لمخاوف لم يعهدها من قبل ، فإذا صدق الأعراب فإن أحد أبناء البلد قد خانها ، وعواقب الخيانة وبيلة ! فهل الهارب جندى آخر مثل مراد أم مراد نفسه؟ ومن تراه يكون الخائن ؟ وأحس أن ضربات قلبه قد أصبحت مطارق تهز صدره هزًا حين ذكر 'بيوت العفاريت' وما يكون من أمرها إذا كشف الجنود سرّها ! ومضت ساعة دون أن يحدث شىء فعاد فريد إلى منزله يطلب أباه .

الفصل السادس

عروس البحر

١

لم يجد فريد أباه فى المنزل حين وصل ، فخرج مسرعًا يستطلع الأحوال عند الباب الغربى فى سور المدينة ، وكانت الطرقات خالية والأبواب مغلقة ، والرايات الحمراء مرفوعة على مآذن المساجد ، فحدثته نفسه بالخروج إلى ظاهر البلدة لكنه خشى أن يأسره الجند أو يقتلوه ، ولم تكن له خبرة بحمل السلاح ، ففكر فى الذهاب إلى جامع المحلى فلابد أن الحاج شبابو يصلّى الظهر فيه ، وربما كان قد اتجه فور سماعه النبأ إلى منزل الكاشف ، بل الأرجح أن يكون هناك الآن ، ومن الأرجح أيضًا أن مجلس البلدة مجتمع فى مكان ما ، فالمجلس – كما قال له والده ذات يوم – لا يجتمع فى المكان نفسه مرتين متتاليتين ، وأعضاؤه متعاهدون على السرية ، بل يقسمون عليها كل مرة ، فلا سبيل إذن إلى معرفة مكان أبيه الآن ، فاتجه إلى شاطىء النيل ، يطلب نسماتٍ تلطف من وقدة الظهيرة ،

وكان يسير شبه ذاهل وقد أحس بالعجز التام عن المشاركة فى مواجهة 'الأزمة' .

وعندما وصل إلى 'شط البحر' - كما كانوا يسمونه - لم يجد سوى ما اعتاده فى هذا الوقت من العام ، وفى هذا الوقت من اليوم ، من العمل فى إصلاح هياكل السفن، وكان قد مر فى طريقه بسوق الحدادين وكانوا يعملون كعادتهم أمام الأفران والصبيان يطرقون الحديد بدقات منتظمة ووقع رتيب ، وإن كان جميلاً ، ومر بعم حسن القلفاط الذى يصلح الفتحات فى جوانب السفن بحشوها باللّباد المضغوط وطلائه بالقار ، فألقى عليه السلام ، ورحب به عم حسن ودعاه إلى الشاى فشكره فريد واستمر فى سيره فوقف على شاطىء النيل يتطلع ناحية الجنوب حيث توقع أن يجد زوارق الجند فلم يَجِدْ لها أثرًا ، فدهش وإن اطمـأن بعض الشيء ، فـإذا كان الجنود يعتزمون الهجوم فربما اختاروا له وقتًا آخر ، وقال فى نفسه إنه من المنطق ألا يهجموا فى رابعة النهار ، وربما انتظروا حتى الليل أو فجر اليوم التالى ، ولابد أن المجلس سيكون قد أتم استعداده للمواجهة !

وظل فريد واقفًا حتى سمع أذان الظهر فى مسجد زغلول ، فقال أصلّى فيه وأسمع من أهل 'قبلى' ما سمعوه عن 'الأزمة' ، وكان يعرف طريقًا مختصرًا إليه ، فسلكه دون أن يحس أن أهل قبلى قد استجابوا للنداء أو فعلوا ما 'ينبغى' لتلافى ما يمكن أن يقع إن هجم الأرنؤوط على البلد ، وازدادت دهشتـه حين وصل إلى الجـامع فـوجد النـاس تتـوافـد كالعادة ، ومعظمهم صـامت ، ولم يَبْدُ فى الوجوه مـا يوحى بأن موقعةً مـا توشك أن تقع ، وقد تأتى بكارثة ، وأقيمت الصلاة وخرج الجميع فى غير

عجلة ، فرأى أن يسأل الإمام الخبر ، وبدا الإمام هادئًا مطمئنًا كأنما استعاض بالإيمان عن كل شيء ، إذ قال عندما ألح عليه فريد أن يتكلم "مهما يحدثْ فليس فى أيدينا شيء ! الله تعالى يُنْجينا ويصد غائلة المعتدين !" وسأله فريد "سمعتُ أنهم يبحثون عن جندى هارب" فابتسم الإمام وقال "فهل جاءنا أحد يطلبه ؟ هذه يا بُنىَّ ذريعة مكشوفة !" فقال فريد "لكننى سمعت أن أحد أبناء البلدة قد دلَّهم على مكانه !" فقال الإمام وهو يخرج المسبحة من جيبه : "لا تُصدِّق كل ما تسمع يا فريد ! فلن يخوننا أحد أبناء البلد ولو أوتى مال قارون ! إن كانت عروس البحر قد اختطفته فلن نستطيع أن نسترجعه ، وإذا كان قد فرَّ باختياره فكيف عبر السور أو تسلل إلى البلد دون أن يلمحه أحد ؟" وابتسم فريد فى أعماقه وشكر الإمام ونهض فخرج .

وعندما عاد فريد إلى الشاطىء وجد بعض الصبية يجرون إلى الجنوب فى اتجاه مسجد العباسى وهو آخر مسجد يقع على 'شارع البحر' ، إذ بعده ينقطع الطريق بسبب الرمال المنهالة من الغرب ، وبعده بقليل يقع مسجد البواب الشهير ، مهجورًا ، تسطع قبته فى وهج الشمس، وكان الصبية يتصايحون دون أن يلتفت إليهم الصيادون و'المراكبيّة' ، وأدرك فريد أن فى الأمر شيئًا فتبعهم وهو يحاول أن يسمع ما يقولون ، ومر فى طريقه بدكان عم أحمد الميقاتى ، فوجده مفتوحًا وذكر أن أباه سُمِّىَ الميقاتى لأنه كان المكلَّف بتحديد مواقيت الصلاة ، ووجد الرجل فى داخله ، فتعجب وسلَّم عليه وسأله عما يقوله الصبية ، فقال 'عم أحمد' إنهم يرددون أن الجنود قد عثروا على ضالتهم وأمسكوا

عروس البحر ! وتطلع فريد إلى صفحة النهر الساجى عسى أن يجد ما يدل على 'موقعة' فلم يجد إلا الطيور وهى ترفرف قرب الشاطىء بأجنحتها البيضاء ، منقضة أحيانًا على ما تلتقطه من الأسماك ، متصارعة متزاحمة عند شباك الصيادين وقواربهم الراسية ، لكنه لم ير زوارق أو مراكب شراعية تعبر النهر ، وهو المعتاد فى هذا الوقت ، إذ تأتى الفلاحات بالزبد والقشدة واللبن من البر الثانى - حيث الجزيرة الخضراء - فيتوقفن عند دكان الميقاتى ، فيتولى وزن بضائعهن ، فهو القبّانىّ المشهود له فى رشيد كلها ، وتحديد أسعارها لذلك اليوم قبل ذهابهن إلى السوق .

وكان فريد يثق فى رُجحان عقل عم أحمد ، إذ كان قد تلقى قسطًا من التعليم فى الكُتّاب وفى مدرسة القبط ، فقال له فريد بنبرات ثقة "كيف يُصدّق الناس قصة الجنّيّة التى يسمونها عروس البحر ؟ إنهم يروون عنها الأقاصيص بل يزعم بعضهم أنه شاهدها ! وهل هذا معقول ؟" فقال عم أحمد "إذا كنت لا تستطيع رؤية الجنّ فَدَمُكَ 'زفر' ! وزفارة الدم موروثة لا مكتسبة يا بنىّ ! أما أنا فكثيرًا ما رأيت عروس البحر ، ودعنى أؤكد لك أنها أحيانًا ما تتمثل بالدرافيل ، فتأتى إلى الشط للتغذى على السمك، وهى تغنى بالليل أغانى خلابة تجذب إليها الصيّادين فيذهبون معها ، لكنهم لا يغرقون كما يشاع عنهم ! بل إنهم يحيون معها حياة رغدة ، وقد تزهد فى أحدهم عندما يكبر سنه فتلقى به فى إحدى جزائر النيل النائية ، أو يحمله التيار إلى إحدى جزر البحر المالح حيث يقضى بقية أيامه حتى يوافيه الأجل ، وقد تمرّ به بعض سفن الصيادين

فيعود إلى أهله سليمًا معافى ، ويظل يبكى أيامه معها ! وكان من بين هؤلاء جاب الله الصياد ، الذى اختطفته العروس من فوق العركب ومن بين رفاقه وأمام أعينهم ذات ليلة مقمرة ! آه ! الله يرحمك يا جاب الله ! لقد كان رجلاً صالحًا وترك زوجة وأولادًا ، وعندما عاد كان قد فقد عقله وأصبح يهذى ويْخرف ! ولقد أدركتُه فى آخر أيامه وقد اتخذ مجلسه على الشاطىء يطيل النظر إلى الماء كأنما يرجو أن تعود فيرحل معها !" .

وأطرق فريد حائرًا ماذا يقول ، وتذكر قول صديقه على الشامى ونُصْحَه له بألا يجادل إلا فيما فيه فائدة ، وأما إذا واجه طريقًا مسدودًا فعليه أن يترك اللّجاج فالصمت أفضل ، وكثيرًا ما عمل بهذه المشورة فى الأزهر بل كان كثيرًا ما يذكرها فى حياته ويعمل بها خارج الأزهر ، ولكنه كان يتطلع إلى معرفة المزيد عن هذه الجنّيّة التى سمع عنها فى طفولته ، وشرح له أبوه أن انحناء مجرى النيل فى تلك البقعة بالقرب من مسجد البواب يُحدث دوّامة تَقْلب السابح وتشدّه إلى القاع فيتصور أن قوة ما تسحبه عامدة ، وكان يؤمن مثل أبيه بأن الجان - تعريفًا - كائنات خفية ، ولهذا سُمّيت جنًّا ، فكيف يراها الإنسان ؟ ولكن 'عم أحمد' الميقاتى يقول إنه شاهدها 'كثيرًا' ! واستجمع فريد شجاعته ، خصوصًا بعد أن بدا أن القيلولة قد ساهمت فى هدوء الحركة على الشاطىء ، وبعد أن قام 'عم أحمد' من مجلسه فنادى على صبىّ المقهى المجاور لمسجد الخُلَعى فطلب منه الشاى ، فقال فريد - كأنما يكلم نفسه أو كأنما يسأل الهواء لا شخصًا بعينه - "وما شكل تلك الجنّيّة ؟" ونظر إليه 'عم أحمد' كمن يستنكر السؤال وقال "الجن من النار يا فريد ! وهل للنار شكل ؟ إنها

تتخذ أى شكل تراه ، ولهذا فنحن نرى الصوَر التى تتمثل بها لا صورتها الحقيقية !" فقال فريد بسرعة "ولكنك رأيتها !" فجلس 'عم أحمد' وتطلع طويلاً إلى الماء ثم قال كمن يحدث نفسه :

"كانت أول مرة أراها فيها منذ سنوات بعيدة ، وقد بلغت الحُلُمَ لتوى وأصبحت مكلّفًا ، وعندما صحوتُ فجر ذلك اليوم كنت جُنُبًا وأردت الاغتسال ، لكننى استحييت من ذلك فى المنزل حتى لا يتنبه أهلى إلى ما أصابنى من تغيير ، وخشيت إن أنا اغتسلت فى 'غاطس' المسجد أن يرانى الأقران فيسخروا منى ، ولم أدر ما أفعل فخرجت فى غبش الفجر إلى الطريق أسير نحو الدكان ، وكان ما زال مغلقًا ، وبينا أنا أسير وحدى بحذاء شط النيل ، راعنى منظر المياه الحمراء ، إذ كنا فى زمن الفيضان ، وأحسست أن قوة خفيّة تدفعنى إلى خلع ملابسى ونزول الماء، بل شعرت أنها قوة لا أعرفها ، فوضعت ملابسى جميعًا فى كومة على الشاطىء المقفر ، وما كدت أنزل إلى النهر حتى سمعت غناءً عذبًا لم أسمع مثله طول حياتى ، فأكملتُ الغُسل بسرعة وخرجت منَ الماء وأنا أشعر برعدة غريبة ، فأصخْتُ السمع من جديد فإذا الصوت قادم من الماء ، فنظرت وحدّقْت وطال تحديقى فرأيت عينًا براقة ، وعلى سطح الماء بوارق ضوء تتلألأ مثل النجوم ، فأدركت أننى أشهد كائنًا أو كائنات أَسْنَ من الإنس ، فاستعذت بالله من الشيطان لكننى كنت مسلوب الإرادة ، ذاهلاً ، ولم أكن قد أكملت ارتداء ملابسى حين سمعت أذان الفجر ، فانتفض جسمى ، وردّدتُ 'الله أكبر' فى فرق ووجل ، وعندما نظرت إلى الماء من جديد رأيت الأضواء تبتعد ، فحمدت الله وقلت فى نفسى 'هذا برهانُ ربى' ، وتوجهت إلى مسجد الخلعى القريب" .

وقال فريد "لكنك رأيتها بعد ذلك ؟" فرد عم أحمد بسرعة "كانت الخبيثة تزورنى فى أحلامى ، وكنت أسمع الغناء نفسه ، وأرى العيون البراقة ، وعندما كنت أصحو فزعًا لهذه الرؤيا أسمع صوتًا يقول 'لا تَقْصُصْ رؤياك على أحد' ، وكنت أخشى تكذيب الناس ، لكننى بعد أن سمعت من الشواهد ما أكد صحة رؤاى لم أعد أخشى البَوْح ، وإن كان ظهور الجِنّيّة قد قلّ هذه الأيام ، بعد أن كثر الناس وعمر الشاطىء بالحركة !" .

وارتفع أذان العصر من مسجد الخَلَعى القريب فقال فريد إنه لابد أن يرحل ، فنهض شاكرًا 'عم أحمد' على ضيافته وحكايته ، وعاد أدراجه إلى شارع السوق وهو يعجب لما سمعه ، ويريد أن يستفسر عما عثر عليه الجنود وأسموه 'عروس البحر' ! وعندما دخل الشارع أحس بعودة الحياة إليه ، فالدكاكين مفتوحة ، والرجال يتجهون إلى المساجد ، والأطفال يلعبون فى الساحات ، فداخله بعض الاطمئنان ، لكن اللّغز كان قائمًا دون حل ، فما معنى 'زفارة' الدم ؟ وكيف تُورّث ولماذا تختص بها سُلالة دون أخرى ؟ وكان يعلم - فيما سمع من أم إبراهيم وأم سعد الخبازتين - أن النساء أقدر على رؤية الجن والعفاريت من الرجال ، والأطفال من الجنسين أقدر من البالغين ، فهل يعنى ذلك شيئًا؟ وهل يزيد البلوغ من 'الزفارة' أو يأتى بها إن لم تكن موروثة ؟ وعندما وصل إلى الوكالة وجد أن سميحًا فتحها ، وأن المقهى بدأ رواده يفدون ، فسأل عن أبيه فقيل له إنه جاء يسأل عنه فتعجب لذلك ، وكان القلق لا يزال يعاوده كلما ذكر فظائع الأرنئوط فى القاهرة ، وقال فى نفسه لقد مرت أربعة

أشهر على مقامهم هنا دون أمل فى الرحيل ، وفجأة تذكر مراداً ! ترى ما أحواله ؟ وبينا هو مستغرق فى أفكاره إذ لمح إسماعيل الخشاب - تاجر الأقفاص الكبير - داخلاً ، فنهض لتحيته ، ولكن إسماعيل لم يكن بساماً ولا بشوشاً ، بل قدم إليه كيساً وهو يقول بصرامة أدهشت فريداً "لم يبق فى ذمّتى سوى كيس واحد" وسلّم ومضى . وخطر لفريد أنه ربما كان يولى البشاشة أهمية أكبر مما ينبغى ، وكيف يستطيع الإنسان أن يهش ويبش والأخطار محدقة به ؟ وليته كان خطراً من فرنسيس أو انجليز ! بل وليته كان خطراً من المماليك أو الروم ! وعبس فريد فى ألم ! .

٢

عاد الهدوء إلى حد ما ، وعندما حل الظلام وأضيئت المصابيح كان الترقب مازال يسيطر على أفعال الناس وأقوالهم ، فكان حديثهم أقرب إلى الهمس ، وكانوا يحوقلون بأصوات خفيضة كمن يخشى أن يسمعه أحد ، واكتفى فريد بتناول البطيخ الذى ظهرت بشائره ، إلى جانب قطعة من الجبن ورغيف أتى بهما سميح ، ولم يشاركه أحد عشاءه، وبعد أن غسل يديه رأى أن الوقت قد حان لاستجلاء الحقيقة من أبيه ، ولم يجده فى مكانه المعتاد فى المسجد لكنه لم ييأس ، وظل فى مكانه يستمع إلى أقوال الناس حتى حان موعد صلاة العشاء وقُضيَتْ الصلاة وانصرف الناس فشعر بالقلق إذ حدس أن أباه ما تخلف عن الصلاة إلا لأمر مهم ، فهو إما فى المجلس ، وإما لدى الكاشف ، وقد علم من سميح أنه كان يطلبه فدهش وقال لابد أن الأمر بخلاف ما صوّره 'عم أحمد' الميقاتى ، ولابد أن الخطر لا يزال قائماً .

وتنبه إلى يد تربت على كتفه برفق وإذا بفرّاش المسجد يقول له إن أباه يطلبه بل ينتظره على حصانه خارج المسجد ، فنهض فريد مسرعًا فدعاه أبوه إلى الركوب خلفه ففعل وسار الحصان براكبيه شبه راكض إلى حى بحرى ، فمر بالبساتين التى سادها الظلام إلاّ من مصابيح الحراس على أبوابها ، ومرّ بمشغل جوخ الطرابيش ومعمل اللّبَد، حتى وصل إلى محطة البريد ، فوجد حمير البريد وبعض البغال واقفة ، إلى جانب فرس أبيض تلمع الأجزاء المعدنية فى سرجه فى الظلمة ، وما أن تجاوزاه حتى توقف الحصان أمام باب كبير ، فترّجلا والتفت الوالد إلى ابنه وقال له "هذا منزل الشيخ الغاياتى" ، ولم يكونا قد تبادلا الحديث قبل ذلك طول الطريق ، وأومأ فريد برأسه ، ودخل فريد وراء أبيه فعبرا الحديقة الواسعة حتى دخلا المنضرة ، حيث وجدا لفيفًا من كبار تجار البلدة ومُلاك الأراضى فيها ، فحدس فريد أنهم أعضاء المجلس ، وكان يعرف معظمهم ، وكانوا يجلسون على وسائد فاخرة على الأرض فى شبه حلقة كبيرة تتوسطها منضدة منخفضة عليها أوراق ، وكان معظمهم كهولاً أو شيوخًا ، باستثناء زكريا وأخيه جرجس ، فقد كانا قد تجاوزا الثلاثين بقليل ، وزميلهما عبد الرافع الذى لم يكن قد بلغ الأربعين ، ولاحظ أن إبراهيم الشينى – زوج 'أخته' سعاد – يمسك بقلم وأمامه دواة ويضع على ركبتيه كتابًا مفتوحًا ، وجلس فريد إلى جانب أبيه بعد أن سلّما ، وما أن جلسا حتى قال الشيخ الغياتى "هل أنبأك والدك بالنبأ يا شيخ فريد؟" وهزّ فريد رأسه ونقّل عينيه حائرًا بين الجمع الصامت الواجم، وتطلع إلى الشيخ فى لهفة ، فقال الشيخ : "لقد جاء أمر الباشا بالاستعداد لحملة جديدة على بلاد العرب" .

كان المصباح الكبير الموضوع على المنضدة يلقى بظلال الجالسين على الحوائط فتبدو أشباحًا تتراقص كلما تراقص اللهب ، وكان المصباح الصغير القريب من وجه الشيخ يرسل ضوءه على لحيته البيضاء المستديرة فيزيدها مهابة وجلالاً ، وكان الصمت الذى لفّ الجميع (بعد أن قال الشيخ ما قاله) عميقًا إلى الحد الذى بعث الرهبة فى قلب فريد، لكنه استجمع شجاعته وهو لا يدرى من أين تأتيه القوة وقال "وما شأننا نحن بهذه الحرب ؟" وقال الشيخ "يريد الباشا تجنيد القادرين على حمل السلاح من أبناء البلاد للسير مع الجيش ، على ألا يقل العدد عن ألف !" ووجد فريد نفسه يقول "وهل يترك الفلاحون أرضهم والصُنّاع صناعتهم فيعمّ الخراب !؟" فرد الشيخ من فوره "لا حيلة لنا فى ذلك ، فهذا أمر الباشا" فقال فريد "وماذا يحدث إذا لم نستطع ؟ إن عدد أبناء البلد كلهم ، رجالاً ونساءً ، وشبابًا وشيوخًا ، وأطفالاً وعجزة لا يزيد عن عشرة آلاف !" وقال شيخ البلد "بل ثلاثة عشر ألف تقريبًا !" فقال فريد "ولو ! إن معنى تجنيد ألف رجل حرمان البلد من عماد حياتها نفسه ! أقول ماذا يحدث إن نحن رفضنا الأمر !؟ الباشا لديه جنود من شتى الألوان والأجناس ، وأستبعد أن يكون فى حاجة إلى رجالنا! فهل نظرتم فى البديل عن ذلك ؟" .

وساد الصمت من جديد ، وكان عميقًا كسالفه حتى أن فريدًا سمع حفيف الشجرة القائمة خلف الشباك المجاور لمقعده ، ومرت اللحظات عصيبة قاسية ، قبل أن يعود الشيخ إلى الحديث قائلاً : "إذا لم نستطع تدبير هذا العدد قبل عيد الفطر ، كان علينا أن ندفع قبل هذا الموعد أو

عنده ألف كيس كاملة !" وقال فريد بنبرات خفيضة كأنما أدركه التردد أو خانته الشجاعة "وإذا رفضنا ذلك أيضًا !؟" فقال الشيخ على الفور "لقد ذاقت البلد الويلات من أسلاف الباشا ، وما أظنه يختلف كثيرًا عن الظَّلَمة القساة ! ولقد علَّمنا الزمن أن نُظهر الطاعة للولاة حتى نأمن شرَّهم ، وإنْ كنا حتى مع إظهار الطاعة لا نأمن بطشهم ! ولما كنت أعلمنا بالعلوم الشرعية ، وأخْبَرَ منا بحياة القاهرة فى ظل هذا الباشا طلبنا أن نطّلع على ما تراه فى هذا الأمر ! فتكلّمْ ولا تَخْشَ شيئًا ! قل ماذا ترى يا شيخ فريد ؟" وأطرق فريد خجلاً مما سمعه ، فها هو ينال شرفًا لم يكن يحلمُ به ، بل هو قاب قوسين أو أدنى من الرياسة ، فقدح الفكر وقد تجمعت فيه أشتات ما سمعه كثيرًا من قبل فى القاهرة عن الباشا ، وما عرفه عن حياة رشيد فى ظل حكم المماليك ، كما تتجمع أشعة الضوء الساقطة على عدسة محدّبة عند بؤرة فتوقد فيها اللّهب، ورفع بصره إلى الشيخ ، ثم التفت يرقب الوجوه التى باتت تتطلع إليه ، ثم قال فى نبرات حاول أن يكسبها كل ما أوتى من ثقة "عَرَفْتُ مما سمعت عن حكم الباشا أنه رجل حيلة لا رجل قوة وبطش ! وأنا أكره أن أرى أبناء بلدى ، وهم عرب، يقاتلون عربًا فى بلادهم أو يغصبونهم حقوقهم ! وكنت أسمع أن العرب هناك يشيرون إلى جيش الباشا باسم جيش الأتراك ، فهل نحن أتراك ؟".

وترددت همهمات خافتة ، فَهِمَ منها فريد أن الرجال يوافقونه على ما ذهب إليه ، سواء من إنكار لدعوة الحرب أو من إنكار لتسميتهم بالأتراك ، فاستأنف الحديث قائلاً "وقد سمعت أن الباشا يحب من يُظهر الطاعة

والولاء ، ولو كان ذلك 'الإظهار' يُخفى الخلاف ، فهو يحب من يوافقه أولاً ثم يُراجعه فيما بعد فى ساعة صفاء ! وأعتقد أن الباشا أكثر حرصًا على المال منه على الرجال ! وأظن أنه سوف يرسل الأرنؤوط إلى بلاد العرب إقصاءً ونَفْيًا ، بل وإهلاكًا وفتكًا ، فالعرب أشداء وقتالهم عسير ! ولقد سمعت ما يؤكّد لى هذا القول !" وصمت فريد ، والعيون تتطلع إليه ولبث برهة يحدّق فى المصباح كأنما ليتحاشى النظرات التى تحاصره ثم قال "وأظن ظنًّا أن أفضل السبل هو إبداء الموافقة بدايةً ، ثم إرسال وفد من رجل أو رجلين لشرح الأمر للباشا ، والتفاوض معه حول تخفيض المبلغ ، ودفعه مُنَجّمًا بدلاً من مرة واحدة ، ولنقل إننا ننتظر محاصيل الصيف أو موسم السردين مثلاً !" وصمت فريد .

وقطع الصمت دخول خادم بإناء ضخم ظنّ فريد أنه مِرْجل ، وتبعه آخر بصينية عليها أكواب كثيرة ، فَصَبَّ ما فى الإناء فإذا هو عرقسوس ذو رغوة ، فاحت رائحته ، وكان فريد يحبه ، فتناول كوبه شاكرًا وتمنى أن يشغل الشراب الرجال عن مناقشة رأيه، لكن الشيخ الغاياتى لم يلبث أن قال : "ومن أدراك أن يوافق الباشا على التأجيل ؟ إنه يُعِدّ العُدّة الآن للحرب ! ومن أدراك أنه لن يسترِيب بنوايانا ، فله من العيون من يؤكدون له قدرتنا على الدفع دون إبطاء ؟ ومن أدراك –" فقاطعه فريد قائلاً "ومن أدراك أنه لن يوافق ؟ إنه إن لم يوافق فسوف نكون قد قطعنا شوطًا كبيرًا فى الإعداد والاستعداد ، ونكون قد كسبنا وُدّه بإظهار النوايا الطيبة ! وإذا اقتضى الأمر أن ندفع فى النهاية ولو نصف المبلغ فسوف ندفعه ونحن آمنون من بطش الجنود !" وتطلع الرجال إليه فى دهشة ،

فـأردف فـريد قـائلاً ''لأن مـعظم الجـيش يكون قـد رحل ، ولن يخـاطر بإرسال حرّاسه من القاهرة إلى رشيد وترك نفسه دون حراسة ! فالمماليك رغم قضائه على رؤسائهم مازالت لهم شوكة ، وأعداؤه كثيرون !'' .

وقال إبراهيم الشينى بعد أن انتهى من شرب العرقسوس ''وما طول المهلة التى تظلنا قادرين على الحصول عليها يا شيخ فريد ؟'' وأحس فريد بأن هناك ميلاً لقبول فكرته ، فجعل يحسب حساب الشهور والأيام ، ويقابل بين الشهور العربية والقبطية بسرعة ، ثم قال ''نحن فى ذروة الصيف ، وشهر أبيب حره شديد ، والباشا لن يقاتل فى الحر ، ومبلغ علمى أن بلاد العرب حارة فى الصيف بل إن قيظها لا يحتمل ، ومن ثم فأنا أرجح أن يبدأ إرسال الجنود فى مطلع الخريف ، فى آخر العام القبطى ، إما فى أيام النسىء أو فى مستهل توت ! وأحسب أن ذلك التوقيت سيكون ملائمًا لأنه ربما يوافق مطلع شهر 'بينات الأعياد' (ذى القعدة) أو يسبقه أى قبل موعد الحج بوقت كاف لامتناع قوافل الحجيج عن الذهاب ! فإذا صح ظنّى لن تكون المهلة أقل من شهرين !'' .

وقال إبراهيم الشينى ''نحن الآن فى شعبان !'' وقال إسماعيل الخشاب ''والموسم غدًا ! كل عام وأنتم بخير !'' وبادر الجميع برد التحية، ولكن الشيخ الغاياتى ظلّ صامتًا ، فتطلع إليه فريد وقد خشى أن يكون قد أغضبه بمقاطعته إياه فى الحديث ، وجعل فريد يؤنّب نفسه على الجرأة التى واتته ، وقال فى نفسه 'يعلم الله أننى ما قلت إلاّ ما أراه حقًا وما لا أقصد به إلاّ الخير والخير وحده !' ورأى آخر الأمر أن يبدى اعتذاره عما بدر منه ، خصوصًا وهو يلمح الوجوم الذى خيّم على وجوه

الرجال ، وخطر له أن يسأل أباه في ذلك ، والتفت إليه فعلاً وكاد يسأله النُصح لولا أن سمع صوت الغاياتي يقول "ومن ننتدبه للحديث مع الباشا في القضية ؟" فإذا بأصوات خفيضة ، والرجال يتسارّون فيما بينهم وقد مال كُلٌّ على صاحبه ، وأحس فريد باضطراب شديد ، فلقد فَهِمَ من السؤال أن شيخ البلد يوافق على رأيه ، وهو ما أسعده بل أشاع رنّةَ زهو دفينة في قلبه ، لكنه خشي أن يطلبوا منه مرافقة أحدهم إلى الباشا ، فذلك ما ليس في طوقه ، ومن ثم أسرع بالحديث قائلاً "الكاشف أقدر الناس على مخاطبة الباشا ، فإذا قبل الكاشف ما نراه نكون قد كسبنا وُدّه هو الآخر، وكسبنا ثقته ، والباشا أقرب إلى تصديق عامله ، منه إلى تصديق الأهالي !" .

وعادت الهمهمة وعلَتْ ، فاستبشر فريد خيرًا ، وإن كان يوجس خيفةً مما يخبّئه القدر ، ومرّت لحظات خالها ساعات ، قبل أن يتكلم إسماعيل الخشاب ثانيًا فقال – وهو يعيد كوبه الفارغ إلى المنضدة – "أقول قد يكون اختيار الكاشف صائبًا ، فهو الذى أبلغنا بالأمر ، ولكن الكاشف قد يرفض ، فلماذا لا نستطلع رأيه أولاً في هذه القضية ؟" ورد زكريا قائلاً: "فهمت من طريقة إبلاغه الأمر لي أن حرصه على إرضاء الباشا لا يداني حرصه على إرضاء الأهالي ! وقد دهشتُ لذلك ثم ذكرت أنه ربما يخشى أن يُقتل مثل والده فيضيع دَمُه مثلما حدث أيام المماليك !" وقال جرجس بسرعة "أيام مراد بك !" فقال الشيخ الغاياتي "نعم نعم ! أذكر ذلك جيداً ومعظمنا يذكره ، لكنه حريص على الكشوفية وأراضي الكشوفية المعفاة من الضرائب ! ولن يخاطر بذلك من أجل سواد عيون الأهالي !"

فقال زكريا "لكنه – كما فهمت – لا يريد المخاطرة ، فهو يعلم أن لا مستقبل له خارج رشيد ، وبقاؤه يعتمد على وُدّ الأهالى ! وإذا سمحت لى، فلقد كان يحادثنى حديثًا ودودًا ويجواره ابنته التى ترمّلت فى صباها ، ولا شك أنه يريد تزويجها وسترها !" والتفت فريد إلى زكريا كأنما ليستزيده وهو يقول فى نفسه "يا لله ! ذات العينين الخضراوين ! أرملة !" ولكن زكريا كان قد صمت ، وقال إسماعيل الخشاب "فلنستطلع رأيه إذن ، فإذا وافق فقد أراحنا ، وإذا اعترض عقدنا جمعية أخرى فى مساء الغد لاختيار بديل !" فقال الشيخ الغاياتى "لا أرى ما يدعو إلى جمعية ثانية فى يوم الموسم ، ولكن نختار الآن ! وأما شروط الاختيار فرجاحة العقل وطلاقة اللسان ، وهى صفات يتحلى الجميع بها ، لكننا نريد من يتحدث الرومية أيضًا، وفريد مشهود له فى تلك اللغة !" وأسرع فريد يقول "لكننى لست من أعضاء المجلس" فقال الغاياتى "بل أصبحتَ من أعضائه" فقال فريد "وأنا مازلت دون الحادية والعشرين!" فقال الغاياتى "بل بَلَغْتَها بالتقويم العربى ! لا تَقُلْ لى إنك تحسب عمرك بالشهور الإفرنكية !" وأحس فريد بالهلع فتلعثم ووجد نفسه يقول "فلنستطلعْ رأى المجلس!" فرد الغاياتى "ها هم أولاء أمامك فاسألهم!" فإذا بأصوات الموافقة تعلو ، والأنظار تتجه إلى فريد ، وذهنه يغلى مثل المرجل ، لكنه تمالك نفسه ثم قال "فلينتدبْنى المجلس إذن لمخاطبة الكاشف ، وليَدْعُ لى بالتوفيق ، وأظن أننا إذا استطعنا أن نجمع بعض المال فنحمله إليه فسوف ييسّر ذلك من المهمة !" فقال الغاياتى "إذن فالمجلس ينتدبك لمخاطبته ، وأما المال فأمره هيّن ، ونستطيع أن نجمع ما يلزم قبل ضحى الغد ! كم تظنون أن يكون المبلغ ؟" وسمع فريد

لأول مرة صوت رجل ظل صامتًا طول الوقت ، وعرف فيما بعد أنه 'على الساعاتى' صاحب متجر الساعات الدقاقة وساعات الجيب فى برج رشيد بالقرب من البوغاز ، إذ قال "مائة كيس تُطمعه فينا ، وعشرة أكياس لا تروى ظمأه !" فقال الغاياتى "فليكن المبلغ عشرين كيسًا يحملها فريد وحده أو مع من يختاره إلى منزل الكاشف ظهر الغد !" فقال فريد "بل وحدى ! وليدْعُ الجميع لى بالتوفيق !" فقال الغاياتى "على بركة الله إذن! انفض المجلس !" ونهض الجميع .

٣

لم يتبادل فريد ووالده كلمات كثيرة فى طريق العودة ، ولكن الصمت كان بليغًا ، وكذلك كانت تحية المساء التى ألقاها كلٌّ على صاحبه قبل الهجوع ، فقد أحس الوالد أنه كان محقًا عندما أولى ابنه ثقته ، ولم يقاوم مشاعر الزهو التى راودته ، فلقد أثبت ابنه الوحيد جدارته وسط الكبار ، وأما فريد فلم ينتبه لجسامة العبء المنوط به إلا حين خلا لنفسه فى غرفته ، فجعل ينسج فى خياله حوارات لا تنتهى مع الكاشف ، فيتصور ما سوف يقوله ، وما سوف يرد الكاشف به عليه ، وكان يتمنى لو أن الحاج شبابو قد حدثه عن الكاشف حديثًا مطوّلاً يفتح له الثغرات التى يمكن أن ينفذ منها إلى قلبه فيكتسب حبه ، ويضمن موافقته على القيام بالمهمة لدى الباشا ، فيعفيه ويعفى أهل البلد من الصدّام مع ذلك الرجل الداهية الذى استطاع أن يخضع أقاليم مصر كلها لسلطانه فى زمن يسير ، وها هو يتطلع إلى غزو الأقاليم الأخرى ولو ركب البحر إليها

وسافر فقطع المسافات الشاسعة ! وظل فريد يتقلب فى فراشه والنوم مستعص عليه حتى بدأ يسمع صوت الكروان ، فعرف أنه الهزيع الثانى وأنه إن لم ينم الآن فربما لم يدرك صلاة الفجر ، والليل يميل إلى القصر هذه الأيام ، فأطفأ شمعته وأغلق أجفانه وتبسم عندما تذكر قول بشار 'لم يَطُلْ لَيْلِى ولكنْ لَمْ أَنَمْ' .

وجاءه الصباح بما لم يتوقع ، إذ وقفت عند باب الوكالة عربة من النوع الجديد ذى اللوالب التى وصفها له محمود النجار قائلاً إنها 'تمتص' وعورة الطريق ، وهبط منها شاب فرنسى ، عرف فريد فيه صديقه 'ڤيار' - ابن المسيو لوبون صاحب الوكالة - فرحب به فريد بالفرنسية ودعاه إلى الدخول ، لكنه رفض وقال إنه مرتبط بعدة مواعيد، ويريد أن يقدم إليه وحسب نصيبه من أرباح محصول الفراولة ، وكيسًا آخر طلب منه توصيله إلى 'صديقنا' (يقصد مرادًا) وورقة فيها أرقام إفرنكية عرف فيما بعد أنهم يسمونها 'الأرقام العربية' ، وأمام هذه الأرقام كلمات بالفرنسية عن التكاليف وأسعار البيع وصافى الربح الذى قسمه 'ڤيار' إلى قسمين ، حصل هو على أحدهما وقسم الآخر إلى قسمين بين فريد ومراد . ووضع فريد الورقة فى جيب صداره وشكر 'ڤيار' وألح عليه أن يشرب الشاى أو القهوة معه ، ولكن 'ڤيار' اعتذر وانطلق بالعربة .

وتذكر فريد مرادًا وجعل يلوم نفسه على إهماله زيارته هذه الفترة الطويلة ، ودعا الله أن يكون قد سلم من صخب الجند يوم أمس ، وقال فى نفسه لو كان حدث شىء لجاءه محمود بالخبر ، وتذكر ضجة عروس

البحر ، وتمنى لو كان سأل أباه ، لكن صورة مراد سرعان ما عادت لذهنه فجعل يتخيل ما أصبحت عليه صوبات التوت الإفرنكي بشتى أنواعه والفراولة بوجه خاص ، ويمنّى النفس بزيارة مراد فى وقت قريب - ولكن متى ؟ إنه الآن يحمل 'أمانة' جديدة ، وهى تجنيب أهل رشيد خطر الانخراط فى جيش الباشا ، والتعرض لما تعرض له مراد، ومن يدرى إذا استُكْتب ألف رجل ورحلوا فكم منهم يعود إلى الوطن ؟ وفجأة تذكر قول محمد القَزَق ، وهو يقرأ من الورقة ، إن الباشا حين طلب المدد وهو فى الحجاز تمكن الكَتْخُدا من استكتاب سبعة الاف رجل ! هل كان ذلك إذن ما يرمى إليه محمد القزق من قصّ القصة ؟ هل كان يمهّد لاستكتاب أهل البلد هنا ؟ إن كان ذلك مقصده فما أخبثه من مقصد ! أفلا يدرك هذا الرجل الفارق بين القاهرة بمئات آلافها وبين رشيد ببضعة آلافها ؟ وإذا لم يكن ذلك مقصده فلماذا روى له القصة ؟ .

وأفاق فريد من تأملاته على صوت سميح ينبهه إلى انفضاض 'المَبْيع' ، فتناول اللّوح ووضعه على الدرج وبسرعة البرق كتب الأسماء والأرقام كأنما يسابق الزمن ، وقد بلغ به التوقع مبلغه ، وصدق ظنه إذ ما كاد ينتهى حتى توقفتْ عربة كبيرة عرف فيها فريد عربة شيخ البلد نفسه، وهبط منها غلام كان يجلس إلى جوار السائق وأومأ إليه أن يركب ، فأقفل الدرج بعد أن أعاد الدفتر ووضع فيه الكيسين اللذين أخذهما من 'فيار' ، وأعاد المفتاح إلى جيب صداره، وركب العربة المغلقة فوجد فيها الحارس الذى شاهده ليلة الأمس لدى شيخ البلد وفى يده صرّة ضخمة ، وتطلع فريد من نافذة العربة (وكان يجرها زوجان من الخيول) فلاحظ أن

الظلال قد قصرت ، فحدس أن وقت الظهر حان ، وقال فى نفسه أما كان من الأفضل أن تأتى العربة بعد الصلاة ؟

ومضت العربة فى الطريق الظليل الذى يحمل أجمل ذكريات فريد ، وعجب لنفسه كيف لاحت له الآن صورة العينين الخضراوين ! وتذكر قول زكريا إنه شاهد ابنة الكاشف إلى جواره عندما تلقى منه 'أمر' الباشا ، ورأى أن هذا عجيب وغريب ، فلماذا سمح الكاشف لزكريا أن يراها ولم يسمح له ؟ ربما لم يكن الوقت مناسبًا أو ربما تتاح فرصة أخرى ، وكان يتمنى أن يسأل زكريا عنها ولكن الحياء غلبه ، تُرى ماذا كانت ترتدى وكيف ترمّلت فى هذه السّنّ الصغيرة ، فهل كان زوجها جنديًا قتل فى معركة ؟ لابد أن يكون الأمر كذلك إذ من عساه يستطيع الزواج من ابنة الكاشف سوى جندىٍّ ذى حول وطول ؟ وربما كان أميرًا على مائة أو مائتين على نحو ما وصف محمد القزق به 'وجهاء' البلد ! وماذا كان محمد يعنى بالوجيه ؟ وهل الوجاهة موروثة لا تكتسب ؟ ومن تراه من 'أعيان' البلد تصدق عليه صفة 'الوجاهة' ؟ وتذكر قوله لزوجة الكاشف 'كلنا أسياد !' وقال فى نفسه السّيّد هو الحرّ ، وكل من ولد حُرًّا سيّد ، ولو أُسر فى الحرب ! وابتسم لأنه كان يكرر دون أن يدرى كلام صديقه 'ڤيار' أثناء حوار معه قبل عام كامل عن الثورة الفرنسية ، وذكر أنه قال له إن مبادئ تلك الثورة وهى الحرّيّة والمساواة والإخاء مبادئ إسلامية فلم يعترض 'ڤيار' بل قال فى لهجة جدٍّ أزعجته: فهل تعملون بها ؟ وذكر فريد أنه ارتبك ولم يدر ما يقول فكل ما حوله يقول بغير ذلك ! وذكر أن 'ڤيار' خفف عنه حين قال ''وانظر إلينا نحن المسيحيين ! ألا يدعو ديننا

للمحبة والسلام ؟ إن الأمم الأوروبية تتقاتل منذ سنوات طويلة فتبذر بذور الكراهية وتلهب نيران الحرب ! ولقد نجحت عدة دول فى قهر جيش الامبراطور ونفيه إلى جزيرة مهجورة حيث يعيش وحيداً شريداً طريداً ذليلاً بعد زوال جبروته وسلطانه ! لكننى أظنّ أنه مازال يحلم بالعودة إلى فرنسا لإشعال نيران حرب جديدة ، كأنما لم تكفه أهوال حروبه !" وذكر أن 'فيار' أخذ يزوده بالأخبار طيلة إقامته فى رشيد فى العام الماضى ، وكان يريد الآن أنه يعرف المزيد منه ، خصوصاً بعد أن سمع عن قهر من ظن الناس أنه لن يقهر ! .

وتوقفت العربة أمام قصر الكاشف ، وهبط السائق ومساعده ، والحارس وهو يحمل الصُرّة ، وسمع فريد نُباح الكلاب ، وسرعان ما فُتح الباب وظهر العبد الحبشى ، ثم ظهرت الجارية لحظة واختفتْ ، وتقدم فريد ومن خلفه الحارس ، فسلّم وأدخله العبد إلى الغرفة التى سبق أن قابل فيها زوجة الكاشف ، وظل الحارس واقفاً ومعه الصرة خارجها ، فأحس فريد باضطراب ووجل ، وعادت صورة تلك المرأة إلى ذهنه ، وكل ما أثارته من مشاعر فى قلبه ، لكنه تماسك وقال فى نفسه "هذا اختبار عسير وامتحان 'للرياسة' ، فاللهم ثبّت قدمى" ! ووجد نفسه يتجه إلى المقعد الذى جلس عليه يوم قابل زوجة الكاشف ، فجلس ، وجعل لأول مرة يتفحص أثاث الغرفة الإفرنكى ويقارن بينه وبين الأثاث الذى يصنعه إبراهيم الشامى (المنجّد) وقال إن هذا الأثاث لابد أن يكون من بلاد الفرنجة ، لأنه لم يكن يعرف نجّارين عرباً يصنعون مثله، ولا شاهد مثله فى القاهرة ، فالناس تفضل الجلوس على وسائد وحشايا ، مهما يكن

ارتفاعها ، وأما الكراسى فلأماكن العمل أو اللهو ، ولم يطل تأمله إذ سرعان ما دخل العبد ليعلن قدوم 'الكاشف' ، ودخل الرجل وعلى شفتيه ابتسامة عريضة فرحّب بفريد وذكّره بزياراته له عندما كان أبوه يرسله برسائل خاصة ، لكنّ الكاشف لم يكن يذكر – فيما يبدو – زيارة فريد ، ليلة عودته إلى رشيد ، مع الحاج محمد شبابو وبعض رجال البلدة ، إذ جعل يتطلع إلى ملامحه ويبدى دهشته للتغيّر الذى أضْفَتْهُ اللحية الصغيرة على وجهه فجعلته يبدو أكبر سناً ، وكان فريد حريصًا على اكتمال المجاملات قبل الدخول فى 'القضية' .

واستمرت المجاملات حتى جيء بالقهوة فوضعت على المنضدة الصغيرة بين الرجلين، وأشار الكاشف إلى العبد فخرج وأغلق الباب . وكان فريد قد أعد فى خياله ما يشبه الخطبة ، وكررها على نفسه عدة مرات ، وكان يعتز بأنه لم يُرْتَجْ عليه فى خطبة أو مقال ، فقال فى نفسه بسم الله الرحمن الرحيم فلأبدأ ، ولكن الكاشف سبقه بسؤال أفسد ما عقد عليه العزم إذ قال "متى يتوقع المجلس الانتهاء من استكتاب المتطوعين للحرب ؟" فوجم فريد لحظة ثم قال "لقد أثنى المجلس على حكمتكم وحصافتكم وكلّفنى أن أعبّر باسم أهل البلد جميعًا عن الولاء والإخلاص للباشا ورجاله ، وللكاشف ورجاله ، فَلَكُمْ الأمر وعلينا الطاعة !" وضحك الكاشف وقال "جميل جميل!" فأسرع فريد يقول "ولابد أنكم تعرفون أن توقيت الطلب غير مناسب ، فنحن مقبلون على موسم الحصاد وموسم الصيد ونحتاج لكل يد عاملة ، ولو جاء الطلب فى غير هذا الوقت ما تأخرنا ! ولذلك رأى المجلس أن يدفع البدل النقدى ، وأن يلتمس منكم

مناشدة الباشا أن يقبل تخفيضه ودفعه مقسمًا على أجزاء ، حتى لا يجوع الناس ويهلكوا ، فإن هلكوا فمن يزرع الأرض وكيف ندفع ما يطلبه الباشا ؟'' .

وأطرق الكاشف لحظة ثم قال لفريد ''اشرب القهوة !'' فشكره فريد ومدّ يده إلى الفنجان ، فقال الكاشف متجهمًا ''تطلبون منى أن أعصى أمر الباشا ؟'' وأسرع فريد (والفنجان فى يده لم يبلغ شفتيه) يقول : ''حاشا لله ! لقد خيّرنا الباشا بين الرجال والمال ! وهو بعيد النظر ثاقب البصيرة ، ولا شك أنكم أطلعتموه على رقة حالنا وقلة رجالنا ! وما دُمْنا قد خُيِّرْنا فلابد أن نختار ، فالأمر ليس له إلا الطاعة !'' وابتسم الكاشف وقال ''أين اكتسبت هذه الحنكة ؟'' وقال فريد بسرعة ''معاذ الله يا أيها الرجل العظيم ! بل أنا أطلب العلم فى الأزهر -'' فقاطعه الكاشف قائلاً ''أعرف كل شىء عنك ! لكننى لم أكن أظنك بارعًا فى الحديث - اسمع !'' وأعادت الكلمة ما قالته زوجة الكاشف ، وأحس فريد بأن الموقف يقتضى الصّلابة ، فاعتدل فى جلسته وحدّق مباشرة فى وجه محدثه الذى صمت هنيهة ثم قال ''إن كنتم جادّين فيما تعرضون فلابد أن أرحل بنفسى لمقابلة الباشا قبل حلول شهر الصوم ، والرحلة شاقة مُكَلِّفة!'' فأسرع فريد يقول ''والمجلس يتكفل بجميع النفقات - 'هل جزاء الإحسان إلا الإحسان' - صدق الله العظيم'' وصدّق الكاشف فأضاف فريد ''وقد أرسل المجلس معى ما رآه يكفى، ولو مؤقتًا ، لكننا دائمًا طوع أمركم !'' وأشار فريد إلى الباب كأنما لينبّه الكاشف إلى ما يحمله الحارس من مال ، فأومأ الكاشف إيماءة الفهم ، ثم نهض بصعوبة وهو

يتكىء على مسند الكرسى وقد بدا على وجهه الألم فقال فريد فى نفسه إنه لابد مريض بآلام المفاصل ، لكنه ما أن انتصب واقفًا حتى قال لفريد "كنت أريد أن أستأجرك ، إن خير من استأجرت القوى الأمين !" فقاطعه فريد قائلاً "العفو أيها الكاشف !" وعاد الكاشف إلى الحديث قائلاً بصوت خفيض "ولكنك سوف تدير مضرب الأرز الجديد فيما سمعت ! وسنصبح جيرانًا ومن يدرى !" وقال فريد "إنه لشرف أى شرف !" .

وسار الرجلان معًا ببطء نحو الباب ، حيث ترك الحارس الصرة وسار خلف فريد، وظل الجميع يسيرون حتى باب القصر الخارجى ثم صافح فريد الكاشف مودعًا ومضى مع الحارس إلى العربة الواقفة ، فانطلقت عائدة إلى رشيد ، وقد استغرق فريد فى استرجاع صورة الكاشف وحديثه ، فأدرك أنه قد تقدم به العمر ، وربما يكون ما نسبه إلى المرض وهن الشيخوخة ، فالرجل لحيته مخضبة بالحنّاء ، ولكن الغضون تشى بالشيخوخة ولا شك ! وابتسم دون أن يدرى بسمةَ رضىً بعد أن وفقه الله فى نقل رسالة المجلس ، وفجأة خطر له خاطر غريب : كيف لم يفكر فى ذات العينين الخضراوين ولا مرت بخياله طول الزيارة ؟ وحالما وصل إلى الوكالة طلب أباه فلم يجده فاتجه إلى مسجد الجندى كى يدرك الظهر وينتظر العصر الذى أوشك أن يحين ! .

٤

انقضت الأيام الباقية من شعبان وفريد يزداد اهتمامًا باستجلاء أمور البلدة، فقد أصبح يشعر منذ انضمامه إلى المجلس بأن الأمانة التى

حُمُلها تتطلب معرفة من نوع جديد ، فاستطاع فى تلك الأيام استجلاء الحقيقة فيما أشيع عن العثور عن عروس البحر، إذ أوضح له والده فى اليوم التالى لزيارة الكاشف أنه سمع أن بعض الجنود كانوا يستحمون فى النهر ، وأشرف أحدهم على الغرق فصرخ يستغيث زاعمًا أن شيئًا ما يجذبه ، فصاح رفاقه قائلين إنها عروس البحر ، فانحدرت إليهم سرية وأخذت تطلق الرصاص فى الماء، ثم أدركه أحد السباحين المهرة فأنقذه، ولكن الطلقات وصيحات الجنود أزعجت 'الناضورجى' فأبلغ زميله فى برج الحامية ، فأبلغ هذا 'المندوبين' الذين قاموا بإنذار الأهالى ! وعرف فريد من والده أن أمثال تلك الحوادث كانت تتكرر كثيرًا أيام المماليك ، ولكنها قَلَّتْ فى السنوات الإحدى عشرة الأخيرة ، أى منذ تولية محمد على باشا ، فهو رجل يحاول - فى رأى الحاج عبد الحكيم - أن يكتسب ثقة الناس وإيمانهم بوجود والٍ واحد يمكن الرجوع إليه بعد التمزق الذى ساد القرن الثانى عشر أيام حكم الكثيرين من الولاة الضعفاء والمماليك الأقوياء ! ولم يُعَقِّب فريد على ما قاله والده آنذاك ، وإن كان حديثه قد أثار فى نفس فريد خواطر جديدة كتمها ، واعتزم ألا يبوح بها إلاّ لمراد، ولم تُتَحْ له الفرصة حين قابله بعد ذلك بأيام لإعطائه النقود والاطمئنان على أحواله ، ولكنه كان يعتزم فى هذه الزيارة - ليلة الصوم - أن يقضى معه وقتًا أطول ، فخرج من مسجد الجندى بعد صلاة العصر وانطلق على فرسه يسابق الريح حتى وصل إلى 'الأرض' .

قال له مراد عندما وصل إنه كان يتوقع قدومه ، فأعد له صفحات كتبها بالعربية - على ركاكة أسلوبها - عن خبرته فى جيش الباشا فى

القاهرة ، وعمّن عرفهم من الجنود فى الفرق الأخرى ، وبادره باحضارها ملفوفة فى ورقة مطوية ومربوطة بقطعة من القماش ، فشكره فريد قائلاً إنه لم يشغله عنه إلا العمل ، فالبناء يجرى حثيثًا فى مضرب الأرز ، وهو يقضى وقته متنقلاً بين الوكالة وبين المضرب ، ولم يشأ أن يخبره عن مقابلة الكاشف فهو يعلم أنها من الأنباء 'المُتكتّمة' وإن لم تكن من الأنباء 'السرّية' ، وقد تعلّم الفارق بين النوعين فيما تعلّمه عن حياة رشيد فى ظل حكم الباشا وأسلافه من الحكام ، فهم يتكتمون أنباءها لكنهم لا ينكرونها إذا ذاعت ، أما 'السرّية' فهى مقصورة على ما يُنكر ويُنفى ، مثل بيوت العفاريت وما فيها ، والعلم بها مقصور على عدد جد محدود من الثقات فى البلد ، وكان إحساس فريد بأنه قد أصبح من هؤلاء الثقات مبعث زهو دفين لم يعد يغالبه وإن كان يستغفر الله حين يذكره ، وما أن أتت أم محمود بالشاى للضيف ومضيفه ، حتى انطلق مراد يتحدث عن التوسع فى 'مشروعه' ، وعن حاجته إلى أيد عاملة ، قائلاً إن محمودًا قد تمرس معه فى هذا الفن ، ويعتزم إشراكه فى العمل ، لكنه يريد أن يستأذنه فى اكتراء أبناء بسيمة أو فرحانة ، أختى محمود ، فقد شبوا عن الطوق وأصبحوا فى سن تسمح بالعمل ، ولم يرفض فريد بدايةً ولكنه قال "وأين يقيمون ؟" فقال مراد إنه يرى أن يأتوا كل صباح راكبين من كوبرى الجدية ، وأشار إليه مراد باسم 'الكوبرى الفرنساوى' ، ولهم أن يعودوا فى المساء إلى أهلهم ، فالمسافة لا تزيد على فرسخ واحد ، ثم أضاف بلهجة الحالم "وإذا استطعت أن تحصل من الكاشف على قطعة الأرض الفضاء المجاورة للحقل ، فسوف يُدرّ المشروع عليك دخلاً يفوق دخل الوكالة !" .

ونظر إليه فريد وقد خطر له فجأة أن مراداً يتكلم مثل أبناء البلد — عن الكاشف ونظم البيع والشراء ، بل ويفكر مثل التجار الراسخين فى المهنة ! وقبل هذا وذاك ، كان مراد يتكلم ببساطة كأنما أصبح مصرياً حقًا لا الجندى الهارب الذى لا تزال العسكر تطلبه ! فأحب فريد من باب التفكّه أن يسأله عن الكاشف ليرى إن كان على علم حقًا بما يتحدث عنه فقال : "وما دخل الكاشف بشراء الأرض ؟ هل تعلم أنه يملكها ؟" فقال مراد بتلقائية أدهشت فريداً "هو لا يملكها لكنه يستطيع أن يخاطب الباشا ورجاله حتى يقبل انتفاعك بها !" فقال فريد "أنت تعلم إذن أنها ستكون ملك منفعة لا ملك رقبة !" وضحك مراد وقال "الجميع يعلمون ذلك! وسوف تجد فى هذه الأوراق بعض ما قد يجهله شيخ البلد نفسه ! لقد شغلتُ نفسى يا شيخ فريد ، طيلة السنوات التى قضيتها فى مصر ، بمعرفة كل ما أستطيع عن الباشا وعن نظم إدارته لمصر ! ودعنى أذكرك أننى إذا كنت قد فشلت فى الحياة العسكرية ، فذاك لأننى كنت دائم الحرص على اكتساب المعرفة !" وقال فريد "تعنى القراءة والدرس ؟" ولكن مراداً أسرع بقوله " لا ! بل معرفة ما يدور حولى فى البلاد التى اتخذتها وطنًا لى ! وليست تلك أقل قدراً من معرفة مسائل النحو وحل معضلاته ! أنا أُقدّر دهشتك مما أقول لكن اسمح لى أن أسألك إن لم تكن قد اكتسبت فى هذه الشهور الخمسة من المعرفة بالبلد وأهلها ما لا يقل قدراً عن معرفتك بمسائل النحو !" وأطرق فريد لأنه كان يريد أن يجيب بالإيجاب فخانه لسانه ، فضحك مراد وقال 'هوّن عليك ! إن لم تكن لديك إجابة حاضرة ، فسوف تتولى الأيام الإجابة عنك !" .

وطال الحديث بين الرجلين وتشعب ، حتى مالت الشمس إلى المغيب، وكان فريد يهم بالرحيل حين قال له مراد بنبرات من يقول ملاحظة عابرة لم يسبقها تفكير عميق مديد "مادمت قررت الاستقرار فى بلدك ، والاكتفاء بالإجازة المتوسطة من الأزهر، فلم لا تتزوج ؟" وتجمد فريد فى جلسته كمن أصابته صاعقة ثم تمالك نفسه وقال "ومن أدراك أنى اكتفيت بالمتوسطة ؟ ألا ترانى قادرًا على العالية ؟" وقال مراد ببسمة المحب الودود "بل إنك أقدر من غيرك ! ولكن الله حباك رياسة أراها موروثة ، فالحاج عبد الحكيم – كما سمعت – عصامىٌ بنى نفسه بجده واجتهاده ، لكن طموحه دفعه إلى إنشاء الوكالة ، وتغلب على إلغاء نظام الالتزام – أى عندما تحولت جميع أنواع ملكية الرقبة إلى ملكية منفعة – بأن تصالح مع الكاشف (الذى كان ملتزمًا) فأبقاه فى هذه الأرض ، وزادها والحمد لله حتى تضاعفت وعادت بالخير على العاملين فيها .. وعليكم !" ولم يتكلم فريد بل أنصت مذهولاً ، ولم يطل الصمت إذ ما لبث مراد أن قال "هذا الطموح ليس معرفة تكتسب من كتاب ، بل هو نازعُ همّةٍ عالية فى النفس ، تولد مع الإنسان وتنمو وتترعرع معه !" وكاد فريد أن يسأل مرادًا إن لم يكن هو أيضًا طموحًا ، ولكن مرادًا واصل حديثه قائلاً "ولكلٍّ منا قدرٌ من الطموح ! يتشكل بما تربّى عليه صغيرًا ودرج عليه فى صباه! فلقد تعلمت فى المدرسة الفنون العسكرية مع أقرانى، لكنهم كانوا يتفوقون علىّ دائمًا فيها ، وتعلّمت علوم العربية والعلوم الدينية ، فلم أستطع التفوق فى أىّ منها أيضًا ، فأدركت أن الله سبحانه وتعالى حرمنى الطموح فى جميع هذه الأبواب ، لكنه جلّت قدرته وهبنى لونًا آخر

من الطموح – وانظرْ هذه الصوبات تدركْ ما أعنى ! لقد تشكل طموحى فى مزارع ريف تيرانا ونما وترعرع فيه ، وها هو ريف مصر يحقق لى أحلامى !" .

وكان فريد صامتًا يتطلع إلى مراد ، دون أن يبدو على وجهه أى انفعال ، ويقول فى نفسه هل أرسل الله هذا الغريب لى كيف يكشف خبايا نفسى ؟ وأحس أن كشف الخبايا يشبه التعرية الفاضحة ، وهو أحرص الناس على الكتمان والتورية ، فانكمش فى نفسه كمن يصر على إخفاء ما يجيش فى ذاته ، وعندما حاول الكلام خانه لسانه مرةً ثانية ، فصمت وتطلع إلى الأفق كمن يرقب الشمس الغاربة فقال مراد "لم يحن وقت المغرب بعد ! ولكننى لا أريدك أن تتأخر بسببى، فقم إذا كنت تريد ، ولكن تأمل ما قلته لك وتدبَّره ! فإن كنت قررت البقاء فتزوج ! تزوَّج وأنجب واعمر الأرض فهذا شرع الله ! أفصح لوالدك عن رغبتك وإن يتوانى عن إجابتها، وظنى أنه قد اتفق مع والدتك فعلاً على العروس المناسبة لك ! وسوف تكشف لك الأيام عن صدق حدسى !" ونهض فريد كأنما لم يعد يطيق ما صار إليه الحديث ، أو كأنما خاف أن تبلغ الفراسة بمراد أن يعرف بأمر صاحبة العينين الخضراوين ! ومضى فريد إلى فرسه فامتطاه متثاقلاً فسار الفرس الهُوَيْنا ، لا يهمزه فريد ولا يحثه ، حتى وصل إلى أول الطريق الزراعى .

كانت ألوان الغروب ساحرة ، فقرأ فريد فى سره "قل اللهم مالك الملك" ، وعندما انتهى وصدَّق لمح فى خاطره بارق عجيب : لقد صور الإمام الشبراوى الحبيبة فى صورة جنّية، وهو يذكر مطلع الأرجوزة

"جنّيةٌ وشعرها منسدلُ / كالسيل جاريًا إذا ينهملُ" ! وها هو يصوّر – دون أن يدرى – ذات العينين الخضراوين فى صوة جنّيّة لا تُرى إلا فى الخيال ! وعجب لنفسه كيف ربط صورة عروس البحر التى شغلته بصورة تلك الفتاة ، وها هو يوحى لنفسه بأنها محبوبة ! إنه يعرف أن عروس البحر وهم ، وإذا كانت حقًّا جنّية فلن يُقدّر له أن يراها إما لأن الجن لا تُرى ، كما تقول الكتب ، أو لأن دمه 'زفر' كما يقول 'عم احمد' الميقاتى ! وعندما غربت الشمس قال فى نفسه لقد بدأ رمضان وسوف تُحبس الجنّية مع غيرها من الشياطين ! وكان حصانه يسير متمهلاً حين عبر باب رشيد ، فهمزه ليدرك المغرب فى جامع المحلى ، وهو يتأمل التغيير الذى حلّ بدنياه منذ رمضان فى العام المنصرم ! وقال فى نفسه فلأصُمْ هذا العام عن كل شىء ، وخصوصًا عن التفكير فى أمر هذه الجنّية ، ومن يدرى أفلا تكون من الجن المؤمنة ؟

الفصل السابع

الرحـــــيل

١

كانت الأيام الأولى من رمضان بهيجة مشرقة ، إذا كان الجو لطيفًا بل يميل أحيانًا إلى البرودة فى الهزيع الأخير ، وخصوصًا عندما يأوى الناس إلى الرقاد بعد السحور وصلاة الفجر ، إذ كان من عادة أهل رشيد أن يبدأوا عملهم بعد صلاة القيام (التراويح) فيضيئوا القناديل الملونة على أبواب دكاكينهم ، ويوقدوا مصابيح وهاجة داخلها ، ويعملوا بهمة ونشاط طول الليل أو أكثر الليل حتى يحين موعد السحور ، ثم يناموا بعد الفجر حتى الضحى وأحيانًا حتى الظهيرة ، فترى البلد هاجعة ساجية مثل صفحة النيل الساكنة، وكان حر أواخر أبيب أخف مما سبقه، رغم أنه فى أوج الصيف (أوائل آب) ، وإن كان فريد قد علم من والدته أن 'الشمس الكبيرة' نزلت ، وأن عليه أن يتخفف من ملابسه ، وكانت تفسر عدم الإحساس بالقيظ بأن النيل مازال 'بحرًا' أى أن موسم الفيضان لم

يبلغ ذروته ، وهو الذى يزيد من رطوبة الجوّ فيزيد الإحساس بالحرّ . والواقع أن الحرّ لم يبدأ إلا فى أواخر رمضان ، وكان الناس قد اعتادوا العطش، ولو ساعات معدودة ، وكان يوم الحرّ اللافح هو اليوم الذى حدّده ڤيار لزيادة مراد ، وصادف ذلك السابع والعشرين من رمضان، اليوم الذى احتفلت البلدة فى الليلة السابقة عليه بليلة القدر (إذ تخطينا الآن منتصف مسرى/أواخر آب) وكان الموعد بعد صلاة الظهر ، وكان معنى ذلك أن فريد وڤيار ركبا العربة فى ساعة القيلولة ، واتجها فى وقدة الهاجرة إلى 'الأرض' حيث كان الجميع يحتمون بالظل أو داخل المنزل ، باستثناء مراد الذى كان يجلس على المقعد الخشبى الضخم الذى يفصل بين 'غرفته' وبين بيت 'عم مالك' الصباغ .

كان القصد من اللقاء وضع أسس عملية للتجارة أو لما يسميه مراد 'المشروع' ، فقد كان فريد يرى أن مرادًا صاحبُ الشأن ، وأن عليه أن يتفق مع ڤيار على كل شىء ! صحيح أن الأرض أرض فريد (أو أرض أبيه) ولكن الفكر والجهد فكر مراد وجهده ، ولذلك فقد فضل أن يقتصر دوره على دور 'الوسيط' ، وإن كان يشارك مرادًا أرباحه ، وأن يدعو ڤيار 'للتعامل' مباشرة مع صاحبه الأرنؤوطى . وكان ذلك ما قاله فور وصوله مع ڤيار ، ولاحظ أن هناك حركة فى الصوبات فالتفت إلى مصدر الصوت فقال له مراد إنهم أبناء بسيمة وفرحانة ، فهم يقومون بما كان يقوم به فى الصوبات فى ريف تيرانا ، وضحك ڤيار وقال لمراد "هل أشربتهم فن الصنعة حتى يستقلوا وينافسوك؟" فقال مراد "بل حتى يساعدونى ثم

يرثونى ومن يدرى ! فليوفّقهم الله فينقلوا هذا الفن إلى كوبرى الجدية !".

وعرض مراد تقديم الشاى لڤيار ولكن الفرنسى اعتذر قائلاً إننا فى رمضان فضحك فريد وقال وما رمضان لك ؟ فرد ڤيار على الفور "شهر صوم المسلمين ، وأنا وطّنت نفسى على مشاركتكم مواقيت طعامكم وشرابكم ، فلقد جئت إلى رشيد طفلاً وأحس أنها بلدى ، بل لا أتصور لى وطنًا غيرها !" وماج عقل فريد بالتساؤل من جديد عن معنى 'الوطن' لكنه لم يشأ أن تتشعب المحادثة فتطول فى هذا الحرّ اللافح ، لكنه أحب أن يُطَمْئن مرادًا إلى أن ڤيار وعده بألا يشى بسرّه إلى أحد ، فلقد تكتم السرّ شهورًا طويلة وليس من المعقول أن يذيعه الآن ! وهنا قال ڤيار – وكان يتكلم بعربية مصرية أو رشيدية إن شئنا الدقة – "ولماذا لا يكشف مراد عن نفسه و 'ينزل' إلى البلد ويختلط بأهلها ؟" – ونظر إليه فريد مستنكرًا هذا القول ، مشيرًا بيده إلى تلال أبى مندور حيث العسكر ! وضحك ڤيار وقال "غريب أن يخاف أهل الديّار حُماةَ الديّار ! بل لا تخافوا شيئًا ! فإن كبارهم قد رحلوا سرًا إلى برنبال حيث يشاركون طوسون باشا ، ابن الباشا الكبير ، ليالى الأنس و 'الفرفشة' ! ولن يقدر الصغار على فعل شيء دون الكبار !" ورد فريد بسرعة : بل هم أقدر على الفساد ما دام كبارهم غائبين ، وأمّن على قوله مراد مؤكدًا أنهم أصبحوا أخطر وأقرب للفساد ! ولكن ڤيار ما لبث أن قال " وكم تظنون عدد من بقى هنا ؟" وتبادل فريد ومراد النظرات فى حيرة ، فأسرع ڤيار بالإجابة التى أذهلتهما "لقد رحل المئات فى قوارب استأجروها من

والدى ، بل اشتروا بعضها ، يوم أن أشيع أنهم يبحثون عن عروس البحر !'' .

وأذهلت الأنباء فريداً فذكرى ذلك اليوم لا تنمحى من ذاكرته ، وقال فى صوت خفيض كأنما يكلم نفسه ''لكن الناس قالوا إنهم كانوا يتجهون فى القوارب إلى البوغاز !'' فابتسم ڤيار وقال ''لم يكذب الناس بل خُدعوا ! فلقد اتجه بعض الجنود إلى البوغاز نهاراً ، فى صخب ، رافعين رايات براقة حتى يوحوا للرائى أنهم لا يزالون هنا، ثم أبحروا ليلاً عائدين بزوارق فارغة لنقل من أرادوا إلى برنبال ! ثم أرسلوا إلى زكريا من يقول له إنهم أنقذوا شخصاً كان يوشك على الغرق ، حتى يصرفوا الانتباه عن الرحيل !'' وقال فريد ''هذا ما قاله والدى لى !'' فضحك ڤيار وقال ''لقد تعمدوا إخبار زكريا دون غيره لأن أهل البلد يثقون فى كلامه ، فإذا نقل إليهم تلك الأنباء ما ساورهم الشك قط فى صدقها !'' فتساءل فريد وهو لا يكاد يصدق ما يسمع ''ولم التحايل والخداع وبيدهم القوة والبطش ؟'' فقال ڤيار ''لا أدرى ! ولكن هذا ما حدث ! وإن شئت رأيى الخاص فأتصور أنهم لا يريدون أن يعرف أحد أنهم يقضون الوقت فى الاستمتاع بالرقص والغناء - وربما بالشراب أيضاً - فى رمضان ، شهر العبادة والصوم !'' وقال مراد - بعد صمت قصير - ''لا أتصور أنهم يأبهون لهذا كثيراً ! وأُرجّح أنهم لا يريدون أن يعرف أحد نبأ رحيلهم حتى لا تبلغ الباشا الأنباء ! وإن كانت لابد أن تبلغه فى النهاية !'' .

وهبت نسمات عليلة غير متوقعة ، وامتدت الظلال ، فطرح فريد تصوّره لما يراه علاقة عمل 'مثمرة' ، وأخرج ڤيار من حقيبته بعض الأوراق ، وجعل يقرأ ما كتبه عن مستقبل 'المشروع' ، وضرورة التوسع فيه ، وأسلوب تغليف 'البواكير' – وهى الثمار التى تُجنى حين تشرف على النضج ولا يكتمل نضجها إلا عندما تصل إلى المشترى ، وانتهى إلى أن تكاليف ذلك كله كبيرة ، وإلى أنه لا يستطيع أن يتحملها ، واقترح أن يدبّر فريد المبلغ المطلوب ، بالإتفاق مع أبيه ، لشراء الأرض من الباشا (عن طريق الكاشف) وبناء الصّوبات الجديدة ، وتوصيل قنوات الرىّ من الترّعة ، وشراء البذور ، والسماد وآلات الزرع ومعدّاته ، فيكون له نصف الأرباح ، ويقتصر نصيب ڤيار فى هذه الحالة على نسبة مئوية ثابتة ، والباقى يحصل عليه مراد . واختتم ڤيار حديثه قائلاً : ''من حسن الحظ أن الباشا لم يحتكر التّجارة فى الفواكه ، فهو لا يراها جديرة بالاحتكار ، بخلاف المحاصيل الأخرى التى قرر احتكارها هذا العام'' وسأله فريد عنها فقال ''الكتان والسمسم والعصفر والنيلة والقطن والقرطم والقمح والفول والشعير والأرز – وهو يحتكر تجارة الغلال والسكر برمتها – كما تعلمان – منذ خمس سنوات !'' .

وقال فريد ضاحكًا ''الحمد لله أننى لست فلاحًا ولست تاجرًا !'' فقال ڤيار فى دهشة ''إذن ماذا تكون ؟ بل أنت فلاح وتاجر ! لسوف تكون مديرًا لمضرب الأرز ، وهذا عمل تجارى ، وأنت تشارك الآن فى هذا 'المشروع' برأس المال، وهذا عمل تجارى، وهو يعتمد على زراعة الأرض

– وهى فلاحة !" وقال مراد بسرعة "لكننى أحمد الله على أننى فلاح فقط !" فقال ڤيار مشيرًا إلى الصوبات "ويعمل لديك أجراء تدفع لهم مالاً تضيفه إلى التكاليف حتى يقتطع من الأرباح ! وهذا نشاط تجارى ! بل إنك سوف توقّع الآن عقودًا تجارية مع شركائك – وهذه أعمال تجارية محضة ! كلنا تجار إذن!" ونظر ڤيار إلى فريد فرآه مهمومًا لا يدرى ما يقول – وعندما طال الصمت قال ڤيار "التجارة مهنة شريفة لا تقتضى الإنكار من أى منكما ! ولا تقتضى القلق والحيرة يا فريد !" فقال فريد وهو يتململ فى مجلسه "نعم ولكنى لم استكمل تعليمى بعد !" فقال ڤيار "حقًّا ! ألم تتعلم التركية والفرنسية ؟ ألم يُجزْك شيوخك فى المرحلة المتوسطة ؟" وقال مراد بسرعة "وهو ما أهّله لأن يحل محل الشاهد (المأذون) فى عقد قرانى ، فأدّى عمله ببراعة واقتدار !" وضحك ڤيار قائلاً – كأنما يوجه الكلام لمراد – "لا أتصور أن رجلاً له طموح فريد سوف يقنع بعمل 'الشاهد' أو بإلقاء المواعظ فى مساجد البلدة ما بقى من العمر !" .

ونهض فريد فجأة عندما سمع كلمة 'الطموح' فهى الكلمة التى يخشاها ويرى صاحبها 'متعلقًا' بالدنيا ، كما كان أحد شيوخه يقول ، وكاد أن يقول 'لست طموحًا' لكنه تردد وتلعثم وقال ، كأنما ليغير موضوع الحديث 'هل أُذّن للعصر ؟' وفهم ڤيار أن الكلام قد أقلق فريدًا ، أو لعله تصور أنه يستحثه على إتمام الصفقة التى جاء من أجلها فقال "لا ولكن هيا ! اقرأ صيغة هذا العقد بالفرنسية وترجمته المرفقة بالعربية ، فإذا

وافقت على ما فيه فوقّع فى المكان الذى كتب فيه اسمك ، وليفعل ذلك مراد أيضًا ، وقد أسميته مرادًا الأرناؤوطى" فقال فريد "لا ! بل يجب أن نختار اسمًا آخر حتى لا يشتهر انتماؤه إلى الفرقة الأرنؤوطية !" وسأله ڤيار 'وماذا يرى مراد ؟' فقال مراد بثقة ونبرات قاطعة 'مراد الرشيدى !' ولم يعلق فريد أو ڤيار ، وعندما انتهى فريد ومراد من القراءة ، سأل كل منهما ڤيار فى بعض التفاصيل ، فأجاب أسئلتهما ، فوقعا على النسخ الثلاث ، ونهض ڤيار قائلاً 'على بركة الله إذن ! ولنبدأ العمل حالما يعود الكاشف من القاهرة ، لقد غاب فطال غيابه !' وقال مراد 'ليته يعود سعيدًا هانئًا فيوافق على البيع !' وكان فريد مشغولاً بالقضية التى لم يبح بها لمراد فصمت ، وقال ڤيار لفريد 'لم لا تذهب إلى منزله فتسأل عن موعد عودته ؟' فقال فريد بسرعة 'لا لا ! الغائب حجته معه ! هيا بنا .. فقد آن وقت العصر !' .

٢

عندما عاد فريد إلى المنزل التقطت أنفه روائح الطعام الذى كانت أمه تعده للإفطار وروائح أخرى عرف فيها روائح وقود الفرن ، فأدرك أنها تتولى إعداد فطائر العيد ، وحدس أن تكون الخبازتان بالمنزل ، وصدق حدسه ، وعندما ألقى على النساء السلام وجد 'أخته' سعاد معهن تنقش نقوشًا غريبة على بعض الفطائر بمنقاش خاص ، وهى مستغرقة فى العمل استغراقًا كاملاً فوقف يرقبها صامتًا حتى انتبهت إلى وجوده

فضحكت ، فقال لها 'لى نصيب من هذا !' فقالت 'كله تحت أمرك !' وأسرعت أمه تقول 'فريد لا يحب فطائرنا ويفضل فطائر السوق ! مصر أفسدته !' فقالت سعاد 'لكنه سيحب هذه الفطائر ففيها المكسّرات التى يحبها !' فقالت أمه 'لا تطل النظر إلى الطعام وأنت صائم !' وقال فريد 'عندك حق !' لكنه لم يكن يريد أن يمضى فسأل عن خديجة – أخته الصغيرة – فقالت له أمه إنها تطعم الدواجن فى الطابق العلوى ، فقال كأنما ليجد ذريعة للوقوف "هل تفطر سعاد معنا اليوم ؟" وقالت أمه "بل ستبيت هنا أيضاً لأن الحاجة زينب الحكيمة لا تخرج فى رمضان إلا بعد الإفطار !" ودهش فريد وقال "الحكيمة ؟ خير إن شاالله !" فقالت أمه "كل خير إن شاء الله ! أريدها أن ترى سعاد – لأنها حامل !" وأحس فريد بفرحة غامرة وكاد يصيح 'مبروك !' لكنه تمالك نفسه وقال 'سلامتك يا سعاد ألف سلامة ! إن شاء الله تقومى بالسلامة !' وفجأة قالت له أمه بنبرات صارمة "روح شوف أختك الصغيرة فوق – يمكن عايزة حاجة !" وفهم فريد الرسالة ومضى .

ولكن فريداً لم يصعد إلى أخته بل ذهب إلى غرفته وجعل يرتب كتبه كأنما يتأمل الماضى ، وترددت فى ذهنه أصداء عبارات ڤيار له ، وقال فى نفسه ما أقسى ذلك الفرنسى ! قد يكون ما قاله صحيحاً ، ولكن ما هكذا يُلقى الناس بالحقائق فى وجوه أصحابها ! ولكن هل هو فلاح وتاجر حقًا ؟ وقال فى نفسه لقد جئت أقضى عطلة وتأخرت فى العودة، وشغلتنى مشاغل عديدة ، وهذا كل ما فى الأمر ! وتناول كتاباً وفتحه ثم

أغلقه قائلاً إن الصيام أرهقه - والرحلة إلى الأرض وحديث ڤيار - لكنه يستطيع إذا أراد أن يعود إلى الكتب فيحفظ ما طلبه الأساتذة ! ونهض مغتاظًا وفتح الشباك فلاحظ أن ضوء الشمس قد اختفى ، فأحس بوحشة شديدة وخرج يطلب أباه فوجد باب غرفته مغلقًا فطرقها طرقًا لطيفًا فسمع صوت والده يناديه أن ادخل !

كان أبوه جالسًا على سجادة الصلاة ، وكان من الواضح أنه انتهى من القراءة فالمصحف المطبوع (الذى حلف عليه من قبل) مفتوح على كرسى المصحف ، وكان لا يزال يتخذ جلسة القراءة ، فسلم عليه فريد وظل واقفًا فدعاه أبوه إلى الجلوس وسأله ما الخبر ، فلم يدر فريد ما يقول ، لكنه تغلب على حرجه وقال بتردد "أبدًا ! سمعت اليوم كلامًا أردت أن أحادثك بشأنه !" فابتسم أبوه وقال وقد أشرق وجهه : "ما سمعته صحيح يا فريد ! فلقد رحل الأرناؤوط هذا الصباح ، بل وتركوا لنا القشلات كاملة وسليمة !" وعقدت الدهشة لسان فريد ، فأردف والده يقول "لقد استمع الله لدعائنا فى ليلة القدر وزال الخطر !" وفى هذه اللحظة سمعا أذان المغرب .

٣

لم يكن للبلدة حديث فى صباح اليوم التالى إلا رحيل العسكر ، ولكن فريدًا كان لا يزال مهمومًا ، فهو يفكر فيما قاله ڤيار ، وفى العقد الذى وقعه معه ، وهو يقتضى شراء فدانين كاملين من الأراضى الرملية التى

يسمونها الصحراء ، ولابد من موافقة الكاشف ، والكاشف غائب في القاهرة ، وهو يفكر في نتيجة مفاوضاته مع الباشا ، قائلاً في نفسه لو كان جواب الباشا بالرفض ما أذن للعسكر بالرحيل ، ثم ذكر إشارة ڤيار إلى الطموح ، كأنما كان يؤكد ما ذكره مراد من قبل عن 'الرياسة' ، وتساءل في حيرة ما الذي يجعله ينكر الطموح كل هذا الإنكار ؟ وإذا كانت 'الرياسة' موهبة فطرية لا تكتسب فلماذا لا يشعر بها ؟ ولماذا يراها الناس فيه ولا يراها هو في نفسه ؟ لقد وضعته الحياة في مآزق منذ أن عاد إلى رشيد فتغلب عليها بحرصه ومراوغته لا بأي موهبة من المواهب التي رآها في القادة ، فهو ليس جنديًا ، ولم يعتد الأمر والنهي ، بل عاش على الهامش في الأزهر لا يبلغ التفوق إلا بالحفظ وتعب الدرس ، ولم يشهد له أي من أقرانه في الدراسة بالرياسة ، فكيف هبطت عليه الرياسة فجأة ؟

كانت الوكالة شبه مقفرة ، فالمقهى مغلق كشأنه بالنهار طول رمضان، والحرّ شديد بعد صلاة الظهر ، ولم يكن فريد من الذين عدّلوا مواعيد عملهم ونومهم في رمضان ، فهو يستيقظ ساعة السحر ليتناول السحور ويصلي الفجر ثم يستمتع بالسير وحده على شاطيء النيل حتى الشروق بل وحتى تعلو الشمس في كبد السماء فيذهب إلى الوكالة ويشغل نفسه بالتفكير ، مثلما كان يفعل في القاهرة ، وعندما أحس هذا الصباح أن التفكير فيما قاله ڤيار قد أرهقه وأن العمل في الوكالة لن يبدأ حتى العصر ، قال فلأحسب ما تجمّع لديّ من رأس مال وأرى هل يكفي لشراء

الأرض المنصوص عليها فى العقد ! وغمس القلم فى الدواة وبدأ يكتب الأرقام فاتضح له أنه لم يدخر إلا كيسين أى ألف قرش ! وقال فى نفسه ماذا يكون عليه الحال لو طلب الكاشف مبلغًا أكبر ؟ إنه يعرف أن فدان الصحراء لا يباع بأكثر من مائة قرش ، فالكل زاهد فى الصحراء ، فلا هى من أراضى المراعى ولا هى أراض زراعية – وقطعًا لا يسكنها أحد ولا يبنى فيها بيوتًا ، إذا استثنيا الأعراب وخيامهم ! ولكن الكاشف قد يغتنم الفرصة فيطلب كيسين أو ثلاثة !

وبينا هو مستغرق فى أفكاره إذ لمح اسماعيل الخشاب قادمًا بقامته المهيبة ، فنهض لتحيته ، ولم يكن قد رآه منذ انعقاد مجلس الكبار أى قبل رمضان بأسبوعين ، وقبل أن يستكملا تبادل السلامات والتحيات قال إسماعيل الخشاب هامسًا "الجمعية بعد صلاة القيام فى منزلى" وانصرف ! وظل فريد واقفًا يرقب الرجل وهو يسير بخطوات منتظمة إلى فرسه الذى كان واقفًا خلف المقهى فيمتطيه ويغيب عن الأنظار ! ونادى فريد سميحًا وكلّفه بتعهّد أمور الوكالة ، ثم عرّج على مسجد الجندى يطلب أباه فلم يجدْه ، فانتظر حتى قُضيت صلاة العصر وعاد إلى المنزل، وشغل نفسه بالحديث مع أهل الدار حتى جاء أبوه فى وقت الإفطار ، وقال أبوه باقتضاب : نصلىَ التراويح معًا !

٤

كان منزل إسماعيل الخشاب فى أقصى المدينة ، فى حى قبلى ،

بجوار جامع زغلول، بل ملاصقًا لجداره الغربى ، حتى إن من لا يعرفه قد يظنه امتدادًا للجامع ، وكان منزلاً متواضعًا لا ينبىء عن صلف صاحبه وكبريائه ، وأوقف والد فريد الفرس الذى حملهما إلى جانب الخيل الواقفة ، ودخل مع ابنه دون أن يتبادلا الحديث إلى 'المنضرة' حيث كان البعض قد اتخذوا أماكنهم فى البهو المربع ، وعلّل فريد عدم اكتمال العدد بأن صلاة القيام فى بعض المساجد تستغرق وقتًا طويلاً أحيانًا ، ودخلت جارية بيضاء تحمل صينية ضخمة عليها أطباق 'الخشاف' وإبريقًا ضخمًا حدس فريد أنه شراب قمر الدين ، ولم يلبث الحاضرون أن شُغلوا بالطعام ، وأما فريد فقد شغله أمر الجارية البيضاء ، فلم يكن رأى مثلها فى حياته ، وعندما جاءت إليه بالطبق حاول أن يخفى اهتمامه وإن لم يفته أن عينيها خضراوين ! وأجفل من فوره وقلبه ينبض نبضًا عاليًا ظن فريد أنه سيفضحه ! فأسرع يقرأ فى سرّه سورة 'الناس' كأنما ليطرد الوسواس الخناس ، وبلغ من انشغاله أن فاته الالتفات إلى دخول أعضاء المجلس المتأخرين ، وعندما عاد إلى نفسه وجد الحشد مكتملاً وإسماعيل الخشاب يرحب بالقادمين !

وبدأ الشيخ الغاياتى الذى كان يتصدّر المجلس حديثه فحمد الله وأثنى عليه ، وكانت نبراته جادة وملامحه جهمة ، وأطال فى المقدمة كمن استعصى عليه 'المدخل' ، ثم قال : عاد الكاشف فجر اليوم فطلب زكريا وأملاه رد الباشا ، وأرجو من زكريا أن يقرأه علينا . وأخرج زكريا ورقة كان ينظر إليها من وقت لآخر وهو يتكلم ، فقال : يقول الكاشف إن

الباشا رفض أىّ تخفيض فى عدد الرجال أو عدد الأكياس ! فترددت أصداء الحوقلة فى أرجاء القاعة ، فصاح الغاياتى يطلب الصمت ، فاستأنف زكريا الحديث قائلاً : "لكنه منحنا مهلة طولها شهر واحد ، حتى نهاية شوال ، وفهم الكاشف من الباشا أنه قد يقبل استكمال عدد الألف بالأكياس إن لم يتوافر العدد الكافى من الرجال فى السن المطلوبة والمواصفات الجسمية التى حدّدها القائد إبراهيم – ابن الباشا – فهو الذى سوف يقود الحملة الثانية . ولما سأله الكاشف هل يعنى ذلك خمسمائة وخمسمائة فقال الباشا أو أربعمائة رجل وستمائة كيس أو ألف كيس وحسب! وقال الكاشف إن الباشا يعتزم تغيير التقسيم الإدارى للبلاد ، حتى تصبح رشيد بموجبه 'محافظة' يرأسها 'محافظ' يعيّنه الباشا ، وتكون فيها مراكز وأقسام ، وفهمت أنا من حديث الكاشف أنه وجد فى ذلك تهديدًا مستترًا له ، فتغيير نظام الإدارة قد يستتبع تغيير عُمّال الباشا فى المناطق الجديدة ، وفهمت من ثَمّ أن الكاشف لن يتهاون فى جمع الرجال والمال مهما كلفه ذلك من جهد ومشقة" وصمت زكريا ، وتلا صمته صمت أعمق .

وتنحنح الشيخ الغاياتى فاتجهت العيون إليه ، ثم تكلم فحمد الله من جديد وقال : "نحن إذن أمام كارثة ونرجو الله أن ينجينا منها! والمجلس يدعو الأعضاء لإبداء الرأى" وتهامس الرجال وعلا الهمس حتى صار لغطًا ، فصفق الغاياتى لإسكات الناس قائلاً "الرأى يا سادة! لا تودى بالإنسان مثل عثرة الرأى !" فارتفع صوت على الساعاتى – رغم ميله

عادة إلى الصمت – قائلاً «كان هذا ما أشار به الشيخ فريد ، وعليه أن يشرح لنا كيف خاب ظنه وكيف ننجو مما أوقعنا فيه !" واتجهت الأنظار فجأة إلى فريد ، فأحس بالعيون تحدّق فى وجهه كأنها أشعة الشمس اللافحة ، لكنه أحس أن ذهنه قد التهب فى هذه الوقدة وإن لم يكن قد رتب أفكاره بعد ، فبدأ يتكلم والأفكار تتزاحم فى رأسه ، فطرح سؤالاً يشغل به الحاضرين ريثما تنتظم أفكاره قائلاً "متى أنشىء هذا المجلس ؟ ومن أنشأه ؟ وهل يعلم الباشا بأمره ؟" فقال الغاياتى "كانت النواةُ مجلس المشورة الذى أنشأه الفرنسيون ، ولما خرجوا وهجم جنود الترك على البلد يسرقون وينهبون ، اجتمع المجلس وقرر مناوأتهم والتصدى لهم ، وكان الوالى لم يعين أحدًا تابعًا له على رشيد ، فتولى المجلس إدارة شؤون المدينة ، وعندما توالى الولاة على مصر واختلّت الأمور فى القاهرة ، ظل مجلسنا يمارس سلطاته ممثلاً للأهالى بعد أن تعاهد أصحابه على السرية ، وبعدها جاء الوالى الحالى – منذ أحد عشر عامًا تقريبًا – فأقر الكاشف فى منصبه ، وأطلق يده فى أمور رشيد ، لكننا ظللنا نجتمع ، فنتطارح الرأى ، بعد أن زدنا عدد المجلس حتى يصبح ممثلاً للأهالى جميعًا ! وها أنت يا شيخ فريد ترى بيننا من يمثل الزراع والصناع والتجار والصيادين وملّاك الأراضى – بل والمحاسبين والكتبة ! وأما أمرنا فلا يعلم به إلا الأمناء على مصالح البلد ، ونحن لا نشترط سنًا لعضوية المجلس ، بل لا نشترط إلا الأمانة ورجاحة العقل !" فقال فريد "والباشا لا يعلم بأمرنا ؟" فقال الغاياتى "لقد أقسمنا جميعًا على الكتمان ،

فاقسم المسلمون على القرآن وأقسم الأقباط على الإنجيل !" فأسرع فريد يقول "والباشا ؟" فقال الغاياتي "للباشا عيونه ولنا عيوننا ! ولقد نجحنا حتى الآن فى دس ما نريد له أن يعلمه بفضل يقظة عيوننا !" .

وصاح الساعاتي "ما فائدة هذا الكلام ؟ فلننظر كيف نخرج من الورطة التى أوقعنا فيها فريد ! " وعادت الأنظار تتجه إلى فريد فرأى أن الوقت قد حان لبسط رأيه فقال: "لقد نجحنا بفضل رأى المجلس الحصيف وحكمته فى الحصول على مهلة لا بأس بها ! أما الأمر الذى أصدره الباشا فلن يمثل 'ورطة' إذا نحن اغتنمنا فرصة التقسيم الإدارى الجديد لأقاليم مصر ! فلقد فهمت من كلام أخى زكريا أن الباشا يعتزم ضم بعض 'النواحى' إلى 'محافظة' رشيد ، فلم لا نعمل بهذا منذ الآن ؟ فإذا فعلنا فسوف يرى الكاشف أنه يوطّد بذلك مكانته ، ويزيد من سلطانه، فيقف إلى جوارنا ويساندنا ! وصدّقونى ! قلقُ الكاشف على سلطانه أكبر من قلقه على المال ، ولذلك فلن يتوانى عن العمل برأينا إذا رأى فيه توطيدًا لهذا السلطان !" .

وقال الغاياتي "وما الرأى إذن يا شيخ فريد ؟" فقال فريد "الرأى عند زكريا ! فهو الذى يعرف 'النواحى' التى تتبع 'المحافظة' ، ويعرف العاملين فيها والمُلّاك والأجراء ! وهو يعرف أيضًا من لا يجدون عملاً فى كثير من 'نواحينا ! وأذكر أن محمدًا القزق قال لى إن الباشا طلب المدد من كَتْخُداه وهو فى الحجاز منذ عامين ، فاستطاع الكَتْخُدا أن يستكتب سبعة آلاف شخص من مختلف الألوان ، وقال بالحرف الواحد 'فمن ضاق

به معاشه ذهب فاستكتب نفسه' . هل تدركون معنى هذا ؟'' وصمت فريد ليرى وقع كلماته على الوجوه ولكنه لم يجد سوى الصمت فاستأنف حديثه قائلاً ''معناه أن الناس وجدت فى ذلك رزقًا لا بأس به ! ومبلغ علمى أن المستكتب يتقاضى فى اليوم ٥٠ نصف فضة أى قرشًا كاملاً ! كل يوم ! وهذا أضعاف ما كان يدفع للعاملين فى بناء القشلات هنا ! أضف إلى هذا أن المستكتب يتناول طعامه وشرابه دون مقابل ، ويتلقى ملابسه الخاصة وسلاحه من الجيش ، ولا شك عندى أن المستكتبين قد أغراهم ما وُعِدوا به من أداء فريضة الحج ، فهم ذاهبون إلى الحجاز وقد اقترب موعد أداء الفريضة ، وما أشق أداءها على الفقير ، وما أعظم ثوابها لكل حاج !'' .

وقال إبراهيم الشينى (الذى كان يمسك الدفتر دون أن يكتب فيه شيئًا) : ''لكنك قلت إن رشيد لا تستطيع تقديم ألف شاب وإلا خَرِبَتْ ! وهذا هو ما سجلته عن لسانك يا شيخ فريد !'' فقال فريد بسرعة ''بل وأكرر ما قُلْتُه ! لا نستطيع وحدنا تقديم ألف شاب ، بل ولا خمسمائة ! ولكن 'النواحى' تستطيع ! فلنُعْلن فى النواحى ، فى القرى والدّساكر ، أن الباشا يطلب متطوعين للسفر إلى الحجاز مع الجيش ، براتب شهرى يبلغ ثلاثين قرشًا فى البداية ، وسوف يتقدم العشرات من كل ناحية ، فإغراء الراتب كبير ، وإغراء أداء الحج على نفقة الباشا أكبر !'' وتطلّع فريد إلى وجوه القوم فوجد آيات التفكير مرتسمة على الملامح فاستمر قائلاً : ''ولدى زكريا – فهو وكيل المباشر – قوائمُ كاملة بالنواحى وسكانها ولقد

أطلعنى على أسماء ما لا يقل عن ثلاثين ناحية ستدخل قريبًا فى زمام رشيد !" .

وقال الغاياتى بصوت جد خفيض ونبرات تشى بالامتعاض "ومتى كان الفلاحون جنودًا يقاتلون فى صفوف الجيش ؟" فقال فريد "منذ فجر التاريخ يا شيخ غاياتى ! ألم يقل الرسول الكريم إنهم خير أجناد الأرض ؟ بل قال إنهم فى رباط إلى يوم القيامة ؟ بل إن جرجس يقول لى إن العلماء الفرنسيين أخبروه أن المصريين القدماء كانوا من أوائل من جيّشوا الجيوش وفتحوا الممالك ! ولقد شاركت بنفسى فى قتال الانجليز منذ تسع سنوات وأنا بعد غلام أمرد ! وأشهد أن الجميع قد استبسلوا فى الدفاع عن المدينة ولولاهم ما استطاعت الحامية كسر شوكة الغزاة !".

وقال إسماعيل الخشاب "فريد على حق يا إخوانى ! لكننا لم نفهم ما يريد منا أن نفعل" فقال فريد "إن الذى أتى بالكاشف الكبير هنا مملوك وصفه الحاج محمد شبابو بأنه أمير مصر ، والذين نسميهم أمراء مصر مماليك - 'مسّهم الرّق' كما يقال - ثم أعتقوا فأصبحوا أسيادًا بقوة السلاح ! ولا أفهم أن نظل نحن - أصحاب الأرض - خاضعين لهؤلاء وهؤلاء ممن يشتريهم الولاة حتى يسومونا سوء العذاب ! أما آن الأوان لأن يحمل السلاح أبناء مصر فيصبحوا أمراءها وأسيادها ؟" .

وعاد إبراهيم الشينى إلى الكلام قائلاً "ماذا أكتب فى الدفتر إذن ؟ ماذا قرر المجلس ؟" وقال الغاياتى "فريد يرى أن ندعو من يريد إلى

استكتاب نفسه – من رشيد نفسها ومن سائر النواحى !" فقال فريد "ولم لا ؟ ولكننى أتصور أن مهلة الشهر كافية ، فلنبدأ فى العيد بإرسال الرسل إلى النواحى ومخاطبة كشافها ، ويستطيع شيخ بلدنا أن يخاطب شيوخ البلدان الأخرى ، فسلطانه ثابت لا يتزعزع ، والوالى لا يهدده بشىء ! وأتصور أن نجمع فى الفترة ذاتها كل ما نستطيع من مال ، حتى إذا لم يكتمل العدد المطلوب استكملناه بالأكياس !" .

وقال الغاياتى "وما العدد الذى أطلبه من كل منهم ؟" فقال فريد "لا تحدد عددًا ! فالأفضل أن نفتح الباب لمن يريد ، وفى ظنى أن الدعوة ستلقى نجاحًا لا بأس به ! إننا لا نحب القهر والإرغام ، فإذا دعا داعى الجهاد جاهدنا بالمال والأنفس ، ولا تنسوا أن الله قدم المال على النفس فى هذا السياق فقال "وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله" – صدق الله العظيم" . وصدّق الموجودون ، فقال إبراهيم الشينى "هل أكتب ذلك إذن ؟" فقال الغاياتى : "اكتب على بركة الله !" ثم نقّل بصره بين الجالسين وقال "هذا إذا كنتم توافقون – فهل توافق يا حاج عبد الحكيم ؟" فأومأ عبد الحكيم ، وأومأ غيره ، الواحد بعد الآخر ، حتى إذا جاء دور على الساعاتى هز رأسه قائلاً "أما أنا فلن أدفع بارةً واحدة لذلك الباشا الظالم ! إن فريدًا يلجأ إلى لغة المشاعر وينسى أنه يحرمنا مالنا ، والمال عزتنا ومجدنا !" ولا يدرى فريد كيف واتته الجرأة فواجه الرجل وقال له بحدّة : "فهل ترضى أن يحرمك غيرك مالك بقوة السلاح ويجرّدك من عزّتك ومجدك قهرًا وإرغامًا ؟" فقال على الساعاتى "وهل

يقينى دفع المال للباشا ذلك؟'' فقال فريد ''كن من المفلحين يا شيخ على - ألا تذكر قوله تعالى **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون؟﴾** كيف تكره أن يكون جند مصر من أبناء مصر لا من المماليك أو الدُّلاة (الأكراد) أو الجراكسة أو الأرناؤوط أو حتى من الأتراك ؟ ألن يكون السلاح فى يد ابنك أو ابن أخيك وأختك أدعى إلى صون أمنك وسلامتك ؟ وكيف تكره أن يكون لرشيد رجالها من الصناديد الكماة !؟'' فقال الساعاتى ''هذا كلام الخطب فى الجوامع لا كلام التجار الذى يخافون على أموالهم !'' فقال فريد ''فهل تكره أن أحمل أنا السلاح وأنخرط فى سلك الجنود !؟ أفلن تكون أكثر أمنًا على مالك وأنا الدرع الواقى لك ؟'' .

وسرت همهمات الدهشة فى القاعة ، ثم صفق الغاياتى وقال ''لقد تقدم بنا الليل والليل طويل لا يحتمل السهر حتى السحور ! ولابد لنا نحن الشيوخ من النوم ساعة أو ساعتين ! لن ينفض المجلس حتى يوافق الشيخ على الساعاتى ! ماذا تقول يا شيخ على؟'' واتجهت الأنظار إليه ، فأطرق كأنما أصبح عليه أن يحكم بما لا يرى ، وعادت الهمهمات ، ورفع جرجس يده طالبًا الحديث فصفّق الغاياتى فعاد الصمت وقال جرجس ''توجد ثلاث وثلاثون ناحية تابعة لرشيد، منها تسع فى زمامها المباشر، وأربع وعشرون تابعة لعدة شيوخ بلد أخر ، وعدة كشاف أخر - بطبيعة الحال - وهم يعلمون - فيما نعلم - أنهم سوف يكونون تابعين لمحافظ رشيد ، فإذا نجح كاشفنا فى إقناع هؤلاء بما انتهينا إليه ، ونجح فى توزيع الأعباء على النواحى ، وهو ما لابد أن يفعله حتى يُعيّنه الباشا

محافظًا على محافظة رشيد الجديدة ، فلن يزيد ما ندفعه من المال عن ربع المبلغ ، نحن والنواحى التابعة لنا ، ومن الرجال عن ربع العدد - نحن والنواحى أيضًا ! ومعنى هذا أن عدد الرجال ومقدار المال لن يزيد عما قدمناه للكاشف أو ما درجنا على تقديمه له من باب الهدية أو الاسترضاء!'' وقال على الساعاتى ''وكيف يكون حساب المغارم ؟'' فقال الغاياتى ''لن يكون شيئًا بالنسبة لما كنت تدفعه مرغمًا لمراد بك، ولغيره من أصحاب البطش والقوة !'' فقال إبراهيم الشينى ''هل أكتب ذلك ؟'' فقال الغاياتى ''إذا لم يعترض أحد !'' ونقّل بصره من جديد فلم يلمح ما يدل على اعتراض فعاد يقول ''اكتب على بركة الله ! وأرجو أن يأذن المجلس بإرسال الشيخ فريد إلى الكاشف لإطلاعه على نوايا الأهالى ، إذ إن وساطته نجحت فى المرة الأولى ، فإذا نجح فى هذه المهمة أيضًا ، فليأذن المجلس لى بتدبير الأمر مع عبد الرافع ، وزكريا وجرجس، بإعداد ما نستطيع من مال ورجال ، وتحديد المطلوب من كل ذى مقدرة فى البلد، وإرسال الرسل إلى شيوخ النواحى بالمطلوب فى ثالث أيام عيد الفطر المبارك ، وقولوا معى 'ربنا يوفّق فريد' !'' فقال الجميع 'آمين' ، بلا استثناء ، ونهضوا فخرجوا متفرقين فى ليل رمضان ، وانطلقت بهم الخيول متمهلة ، وركب فريد خلف أبيه فلم يتبادلا الحديث حتى عادا إلى المنزل .

وعندما أوى فريد إلى غرفته سمع فى داخله صوتًا يقول أنا شيطانك يا فريد ! ولقد توليت عنك الحديث اليوم فأبليتَ أحسن البلاء !

وانتفض فريد لسماع الصوت وقد بدا له حقيقيًا ، وقال لنفسه ولكن الشياطين تحبس فى رمضان ! فرد الصوت قائلاً تلك شياطين الجن، أما أنا فمن شياطين الإنس ! ولقد أجبتُ الليلة طموحك فألهمتُك ما قهرتَ به الآخرين ! فقال فريد خسئت ! فالله هو الذى ألهمنى ! وأعوذ به منك ومن قبيلك ! وما أنا بالطموح حتى أطلب منك إلهامًا ! وسمع فريد ما يشبه القهقهة ، وذكر ما قاله 'عم احمد' الميقاتى عن 'زفارة' الدم ، وقال فى نفسه تلك وساوس وأوهام لابد أن أطردها وأنفيها نفيًا ! وليس لها إلا الصلاة ! فذهب فتوضأ وعاد فصلّى ، وكان دائمًا ما يجد فى الصلاة راحة وأعماقًا ربانية لا يجدها فى أى شىء آخر ، وظل يصلى الركعة وراء الركعة حتى أحس الإرهاق يغلبه ويدعوه للنوم فنام .

٥

لم يصم الناس إلا يومين آخرين ، إذ ثبتت رؤية هلال شوال فى ليلة الثلاثين ، وباتت المدينة وروائح الفطائر تفوح فى كل مكان ، وعندما خرج فريد لصلاة العيد فى 'الصحراء' عادته ذكريات الطفولة، ولمح إلى جواره الشيخ إبراهيم الحنفى ، إمام مسجد الإدفينى ، فتبادل تهنئة العيد معه ، وظل إلى جواره حتى قُضيت الصلاة وانتهت الخطبة، وكان موضوعها صوم الأيام الستة التالية لعيد الفطر (الأيام البيض) إذ قال الخطيب إن الحسنة بعشرة أمثالها ورمضان بعشرة شهور ، والأيام الستة بشهرين ، فمن صامها فكأنما صام الدهر كله ، فقال الشيخ إبراهيم لفريد

'نصومها إن شاء الله !' وابتسم فريد ولم يَرُدّ ، فقال الشيخ إبراهيم : ''سمعت أنك ستقضى الصيف معنا هنا !'' فقال فريد ''إن شاء الله !'' فعاد الشيخ يقول إن محمدًا القزق أرسل يسأل عنه ، ويبدو أنه يريده لأمر مهم ، فقال فريد فى دهشة 'ولم لا يخاطبنى أنا ؟' فضحك الشيخ وقال 'يخاطبك إن شاء الله!' ثم ضحك ضحكة لم يفهم فريد مغزاها وقال 'ومن طلب العلا سهر الليالى !' فنهض فريد وودّعه .

كان فريد يضيق بجو التكتم الذى يُطبق على أنفاسه منذ أن عاد إلى رشيد ، إذ أصبح عليه أن يعمل حسابًا لكل كلمة يقولها ، كأنما لا تكفيه حسابات الوكالة ، وحسابات 'مشروع' مراد الأرنؤوطى ، والحسابات المتوقعة لمضرب الأرز ! وكان يقول فى نفسه هذه ضريبة النضج ، فالناس لا تظل صغارًا مدى الحياة ، ولكن ضرورة التزام الحذر فى كل ما يقول ويفعل تتناقض تناقضًا بيّنًا مع حرية مناقشاته فى حلبات العلم فى الأزهر ، وأحاديثه التى لم تعرف الحذر يومًا مع صديقه 'على الشامى' ، وعندما عاد إلى المنزل ليحتفل بالعيد مع الأسرة ، كان قد عقد العزم ألا يشغل باله بالعمل بأى صورة من الصور فى هذا اليوم وما أن دخل البيت 'للتعييد' حتى قالت له أمه ''تعال يا فريد يا بنى ! لازم أبخّرك !'' ولم يستطع فريد أن يعترض ، إذ وجد 'أخته' سعاد قد حضرت ومعها 'عدة' البخور ، وفرضت عليه أمّه أن يمرّ سبع مرات فوق المجمرة أثناء قراءة التعاويذ ، وأخته تساعدها فى ترديد العبارات التى لم يكن يؤمن بجدواها ، ولكنه أذعن وتم لوالدته ما أرادت ، وعندها سألها فريد عن 'المناسبة'

فقالت باقتضاب "العيون حواليك يا بنى .. وأنا خايفة عليك !" وقبل أن ينطق فريد قالت أمه "الحسد حق !" فأومأ فريد ولم يستطع أن يجادلها فى علاقة البخور بالحسد ، وما لبثت أخته الصغيرة خديجة أن جاءت لتعرض عليه فستان العيد ، وكان ثوبًا طويلاً أبيض ، فأعطاها فريد بعض النقود ، وسألها أين تنتوى الذهاب فقالت إنها ستخرج مع سعاد لزيارة عماتها وخالاتها ، وإنهما سوف تركبان العربة المزينة وتحملان الفطائر لهن ، وتذكر فريد قريباته ولم يكن رآهن من سنين ، وذكر أن أعمامه وأخواله سوف يمرون على منزله 'للتعييد' قبل صلاة الظهر ، كما جرت العادة ، فقال لخديجة 'ولازم ترجعى قبل الظهر' فضحكت وجرت صاعدة إلى الطابق العلوى كأنما لتعرض فستانها الجديد على الطيور والحيوانات المنزلية ، إذا كانت شغوفة بها كل الشغف .

ولم يعد والد فريد إلاّ وقد علت الشمس ، فهنأ الجميع بالعيد ، وأخبر فريدًا ببسمة صافية باعتزامه الذهاب إلى 'الأرض' للتهنئة بالعيد واصطحاب مراد إلى البلد لصلاة الظهر معه ، وكان فريد جالسًا على اللوان يتناول الفطائر ويشرب الشاى وإلى جواره سعاد ، فجلس أبوه إلى جوارهما وشاركهما الطعام ، وعندما طلب فريد من والده أن يرافقه فى اصطحاب مراد إلى رشيد ، لم يمانع الوالد وإن قال إن على الجميع أن يعودوا مبكرًا فقد تسلم رسالة من ابنته الثانية سكينة تقول فيها إنها قادمة من برنبال اليوم ولن تمكث طويلاً 'معنا' لأن زوجها سوف يصحبها لزيارة الموتى فى القبور ، وهو ما سوف تفعله أمه فى اليوم الثالث للعيد

عندما تصل ابنتها الكبرى فهيمة من الإسكندرية مع أطفالها لقضاء يومين 'معنا' . وسأله فريد إن كانت سكينة سترجع إلى برنبال فى اليوم نفسه فقال والده إن هذا هو ما فهمه من الرسالة ، ثم مال على ابنه وهمس فى أذنه "ليتها تقص علينا ما يفعله طوسون وجنوده !" وابتسم فريد لأنه كان قد سمع الكثير عن حفلات ابن الباشا ومباهجه ، ولكنه لم يكن يحب أن يخوض فى هذه الأمور لأنها تعتمد على الشائعات والأقاويل، وكثيراً ما تستند إلى الخيال الذى ينسج الأوهام ، وبعض الظن إثم ، فلم يقل شيئًا لوالده بل قرر مواصلة 'الفرح' بالعيد، علّه ينسى المهمة التى كلّفه المجلس بها فى صباح الغد .

وتوالت أصوات الطرق على الباب ، وأصوات أجراس العربات ، وتوالى وصول الزوار ، وتبادل التهانى ، وكان والد فريد ينهض مع ابنه فى كل مرة ، للقيام بالواجب، ثم استأذنا أخيراً وسلّما وخرجا ، وركبا الحصان معًا فانطلق يركض ونسمات الصباح تخفف من حر الصيف ، حتى وصلا إلى الأرض فوجدا العربة الحديثة التى جاء بها ڤيار لزيارة فريد واقفة ، فدهش الرجلان وصدق ما توقعاه إذ وجدا ڤيار فى صحبة مراد ، ومعهما محمود يقدم الشاى ، وصيحات الأطفال فى الدار تشى بوصول بسيمة وفرحانة ، وبعد السلامات والتحيات قال ڤيار "لقد جئتكم بحلوى شامية وصلتنى أمس وإن كنت أفضل الحلوى المصرية عليها !" ونظر فريد إلى الحلوى فتذكر عليا الشامىّ صديقه ، ثم نظر إلى مراد فخيل إليه أنه يشاهد 'ابن بلد' أصيل ، لا فى ملابسه الرشيدية فقط بل

فى مظهره العام وكلامه ! وقال والد فريد إنه أتى لاصطحاب مراد إلى البلدة لصلاة الظهر مع الناس ، فرحّب الجميع ، وقال ڤيار للحاج عبد الحكيم "هل شاهدت التوسع فى المشروع ؟ تفضل معى وأنا أريك الصوبات الجديدة !" وسار الجميع حتى وصلوا إلى آخر حدود أرض الحاج، فتوقف ڤيار وأشار إلى المنطقة الصحراوية المتاخمة للحقل وقال "إذا وافق الكاشف سوف يشترى فريد هذه الأرض فيمتد المشروع غربًا حتى أول التلال !" فقال الحاج "إن شاء الله يوافق ! سوف يراه فريد غدًا وربما فاتحه فى الأمر ، فخير البر عاجله" فقال ڤيار "هل أعجبك العَقْد ؟" فقال الحاج "إنه من شأن فريد وحده ! أقصد أن هذه الأرض الجديدة لن تكون تابعة للأرض القديمة !" فقال ڤيار "ولكن المشروع واحد !" فقال الحاج "ابحثوا هذا الموضوع فيما بينكم - أنت وفريد ومراد ، أما أنا فيهمنى الآن الانتهاء من 'تشطيب' المضرب ، بعد أن تم البناء وجاءت الآلات" فتوقف ڤيار عن السير وقال "سمعت أنها انجليزية! ألم تعجبكم الآلات الفرنسية ؟" فضحك الحاج كأنما ليخفى ارتباكه وقال "والله هذا هو ما أتى به حسين شلبى عجوة ، وبأوامر من الباشا ! وليست لنا يدٌ فيه !" فضحك ڤيار وقال "لا يهم ! غدًا نأتى بآلات أفضل !" .

٦

انقضى اليوم الأول للعيد مثلما انقضت الأعياد السابقة ، فى فرح وسرور ، مع اجتماع شمل الأسرة صباحًا ومساءً ، وكانت والدة فريد

تروح وتغدو بالبخور ، تقرأ التعاويذ وتردد آيات القرآن ، وعندما هبط الظلام أوى فريد إلى غرفته فأخرج قلمه ودواته وورقة خاصة سجل فيها رؤوس الموضوعات التى يناقش الكاشف فيها فى الغد، فلم يجدها قادرة على إقناع الكاشف ، وقال فى نفسه 'كان الواجب أن يأتى معى زكريا أو جرجس أو عبد الرافع لشد أزرى بالتفاصيل الدقيقة عن عدد الرجال المتوقع تطوعهم، ومقدار المال المتبقى ، وتقسيم هذه التفاصيل على النواحى' ، وحاول أن يتصور مَنْ مِنَ الرجال سوف يتطوع ، فلم يجد فى رشيد نفسها من يطمحون إلى حياة الجندية – ثم تذكر قول محمد القزق 'فمن ضاق به معاشه ذهب فاستكتب نفسه' وتساءل كم من أبناء رشيد ضاق بهم معاشهم ؟ واسترجع فى خياله صور الصبية الذين بلغوا اليفوع ولم يكتسبوا حرفة ولم يلتحقوا بعمل ثابت ، وكان يرى بعضهم يجلس فى دكان أبيه دون أداء عمل محدد ، بل لقد زامل بعض الصبية فى الكُتّاب الذين لم يوفقوا فى حفظ شيء من القرآن أو من دروسهم وإن ظلوا يترددون على الكُتّاب حتى سن متقدمة ، وعمل بعضهم فراشين فى المساجد دون أجر ، فكانوا يعيشون على ما يجود به أهل الخير عليهم ، وقال فى نفسه سيفرح هؤلاء – ولا شك – براتب يهيىء لهم العيش الكريم، وقال فى نفسه قد يقبل بعض هؤلاء الانخراط فى سلك الجيش عامًا أو عامين فيعود الواحد منهم بكيس كامل فيشترى دارًا ويتزوج أو يشترى عربة يد أو حمارًا يساعده فى كسب الرزق ! وخطر له خاطر أضحكه : ماذا يكون الأمر لو أحب هؤلاء حياة الجندية فاستمر بعضهم

يعمل مع الباشا ، وقد يرتقى فى درج الرتب العسكرية ويصبح من الرؤساء ! ولم لا ؟ ألا تتكون فرق جيش الباشا من أمثال هؤلاء ؟ وهل نعرف حقًا كل شيء عن أصول جند الباشا ؟ وتذكر مرادًا وقال فى نفسه لابد أن أطلب منه المزيد من العلم بتلك الفرق ، وإن كان قد قال ما يكفى !

عندما نهض فريد كان جو العيد مازال سائدًا ، فارتدى أفخر ما لديه من ملابس بعد أن شذب لحيته الصغيرة وهذّب شاربه ، ووضع على رأسه طاقية طلاب العلم ، وقال فى نفسه إنه لا يستطيع أن يلبس 'عمامة' لأنه لم يصبح بعد عضوًا فى مجلس التجار ، فذلك مرهون ببدء العمل فى المضرب ، وهو لا يستطيع أن يلبس عمامة أبناء البلد التى تتكون من لبدة تحيط بها شملة بيضاء ، لأنه 'رسميا' مازال يطلب العلم ، وتنبّه وهو ينظر إلى المرآة لما خالجه من زهو فاستغفر الله ، وحمل الورقة التى سجل فيها رؤوس موضوعاته وخرج . وحالما وصل إلى موقف حصانه عند سائس الوكالة أقبل عليه رواد المقهى مهنئين بالعيد ، فوجد نفسه يفحصهم بعين من يبحث عن 'متطوعين' لجيش الباشا فتعجب وقال فى نفسه ماذا حدث لى ؟ أغدوت أرجو لهم الغربة وفراق الأهل ؟ ومن ثَمّ طوى الورقة التى كانت فى يده ، ودسّها فى جيبه ، وجلس على كرسى فى موقع يسمح بالاستمتاع بنسائم الصباح البحرية ، وجاء غلام المقهى بالشاى ، وبدأ المقرئ يقرأ قرآن الصباح ، وبدأ مرور العربات 'المفتوحة' التى يركبها الأولاد والبنات وهم يرددون أغانيهم التى كثيرًا ما أطربته فى طفولته ، وكان يحب من بينها 'يا تمر حنة فوق سطوح الباشا' و 'يا محنّى ديل العصفورة' وغيرها .

وبعد ساعة أو بعض ساعة نهض فامتطى فرسه الذى كان السائس قد زيّن سرجه بالورود ، ومضى به غير متعجل إلى شاطىء النيل ، فرأى لون المياه الحمراء يسطع فى ضوء شمس الصباح ، فقال لقد جاء النيل والحمد لله ، وأرجو الله أن يكون عاليًا هذا العام حتى يملأ ترعة رشيد وقنوات أرضنا ويشرح فؤاد مراد ! وتذكر فريد أنه لم يسأل مرادًا عما حدث له يوم أمس حين 'نزل' رشيد لأول مرة ! وابتسم حين تساءل إن كان الناس قد صدقوا أنه مصرى حقًا ! محال ! أقصى ما أتصوره هو أن يقبلوه مثلما يقبلون وجود الأجانب ، ومادام فلاحًا يعمل فى الحقل فلن يأبه له أحد ! ولكن ترى يظل مرادٌ فلاحًا 'يعمل فى الحقل' ؟ ألن يغتنى فيشترى أرضًا ويبدأ مشروعًا جديدًا ، ويأتى له بما يحتاجه من معدات - وقد تتضمن آلات غريبة لا نعرفها ، ولابد أن يشترى عربات لنقل المحصول ! ويبتنى دارًا فى أرضه الجديدة ! ومن يدرى ما يخبئه المستقبل! ووجد فريد أن خياله سوف يشطح به فتوقف فى ظل شجرة - وحانت منه التفاتة إلى أرض 'المنشر' فوجد ما يشبه المنزل لكنه مستطيل وله جانب بلا نوافذ ، وأمامه ساحة وقفت فيها بعض الثيران تعتلف ، فخفق قلبه خفقًا شديدًا وقال : 'هذا هو المضرب ! لقد اكتمل حقًا وما أجمله ! سوف أصبح مديرًا له فألبس عمامة التجار ويعمل تحت إمرتى كتبة وعمال !' وغاب بصره وهو يتأمل البناء الحجرى الذى زانه الطوب الأحمر ثم أفاق على زفرة للفرس ، فهمزه واستأنف المسير !

كان فريد - دون أن يدرى - على بعد خطوات من قصر الكاشف ،

فلم يكد يستأنف السير حتى توقف وترجل ، وتقدم بخطوات ثابتة وقد وهبه منظر المضرب قوة أو طاقة جديدة ، بل لقد نسى أن يستغفر الله على ما خالجه من زهو ، بل كان يرفع رأسه وهو يسير كأنما هو 'تاجر' جاء يعقد صفقه باسمه لا باسم الأهالى ! ونبحت الكلاب ، وفُتح الباب ، ودخل فريد إلى الغرفة الفاخرة نفسها ، لكنه لم ينتظر أن يدعوه أحد إلى الجلوس ، فجلس فى الكرسى الذى سبق له الجلوس فيه ، وأخرج الورقة من جيبه وجعل يتطلع إليها حتى لا ينسى شيئًا ، ولم يلبث الكاشف أن دخل وكان مشرق الوجه فألقى تحية العيد على فريد واستغرق فى مجاملات ظنها فريد قد طالت فأمعنت فى الطول ، وجىء بالفطائر والشاى ، وأصر الكاشف على أن يأكل فريد وحلف ، فاضطر فريد إلى أن يتناول قطعة وقد داخلته دهشة من تغير مسلك الكاشف إزاءه .

وأخيرًا لاحت الفرصة للحديث عما جاء من أجله ، فعرض بإيجاز رأى شيخ البلد، ولخص ما قيل فى اجتماع المجلس ، والكاشف ينصت باهتمام ويراجع فريدًا بين الفينة والفينة ، وكان فريد كلما لمح آية قبول فى عين مخاطبه يعيد عرض ما قاله ويؤكده، فيضيف بعض التفاصيل التى رآها مكملة للصورة ، حتى رأى أن الكاشف قد اقتنع ورضى ، فتناول كوب الشاى ورشف رشفة طويلة كأنما ليختم بها ما عرضه ، لكنه لم ينهض لأنه كان يريد أن يغتنم الفرصة ليطلب إليه الموافقة على شرائه الفدّانين المجاورين لأرض أبيه ، فصمت انتظارًا لجواب الكاشف قبل أن يفتح الموضوع الجديد .

وقال الكاشف بعد لحظات الصمت التى امتدت دقائق : "لا بأس بهذا كله إذا لم يتأخر عن موعده ، فهل يعد شيخ البلد بعدم إخلاف الموعد ؟" وأومأ فريد دون أن ينطق فعاد الكاشف يقول "وهل تراه يفى بالوعد ؟" فقال فريد "يفى - ونفى جميعًا - إن شاء الله !" فقال الكاشف "على بركة الله إذن ! لكننى أريدك لأمر آخر ! وربما لا تقل أهميته لى عن أهمية إرضاء الباشا !" وصمت لحظة ثم قال "تعلم أن ابنتى الصغرى قد ترملت ، وأعلم أنك شاهدتها فى صباها ، وكانت زوجتى قد خاطبتك فى شأن أرضها لكن المكتوب مكتوب ولا راد له! والآن أريدها أن تستكمل تعليمها لدى مسيو لوبون ، صاحب الوكالة الفرنسى الذى تعرفه ، إذ إنه وعد باتاحة الفرصة للنساء للعمل بأجور مجزية - ومشرفة - بأعمال كتابية ، ولغة ابنتى الفرنسية ممتازة ، تعلمتها من والدتها ، وتركيتها لا بأس بها ، تعلمتها منى !" وضحك الكاشف ، ولكن فريدًا لم يشاركه الضحك بل ركز سمعه وعقله فى كل كلمة تقال ، كأنما تحوّل كيانه كله إلى أذن صاغية ، ورشف الكاشف رشفة من كوب الشاى ثم قال "ولكن لغتها العربية ضعيفة ، وخصوصًا النحو العربى ! ولما لم تكن فى المدينة مدارس للفتيات مثل أوروبا ، فقد رأيت أن أستأجر لها مُعلّما أثق فى قدرته وخلقه ، وأما إرسالها مثل أخيها إلى الخارج فمحال، لأن والدتها شديدة التعلق بها وترى أنها نصيبها الذى خرجت به من الدنيا! وأنت تعرف النساء !" وضحك الكاشف من جديد ، وكاد فريد أن

يقول له إنه لا يعرف النساء لكنه صمت . وعاد الكاشف إلى الحديث بلهجة تذوب رقة فقال : "ولم أجد شخصًا آمَنُهُ على تعليم ابنتى خيرًا منك ! أنا أعرف مقدار انشغالك وما أنت مقدم عليه ، فقد تعود إلى 'مصر' لاستكمال إجازتك فى المرحلة العالية ، وقد يغريك أحد أبناء بلدك بالعمل فى مصر ، وقد تؤجِّل السفر من أجل إدارة مضرب الأرز الجديد، وقد تكون لديك أفكار أخرى للمستقبل ، وأنا لا أريد تعطيلك عن أى شىء ، فكل ما أريده ساعة تلقّن فيها لابنتى 'نورا' أصول النحو ، فإذا وَافَقْتَ فسوف أُجزل لك العطاء، لأننا أسرة تقدر العلم حق قدره !" .

وخفض فريد بصره ثم رفع رأسه وحاول أن يتكلم فلم تسعفه الكلمات ، لكنه حين تهيأ للحديث قال الكاشف بسرعة "لا أريد الآن إجابة منك ! لكننى سوف أعرّفك بابنتى بعد أن كبرت حتى ترى درجة استعدادها للتعلّم ! ولقد سمعت عن مهارتك فى تعليم أختك سعاد حتى أصبحت تساعد زوجها إبراهيم الشينى فى عمله ، بل أصبح يعتمد عليها ويتفاخر بمقدرتها !" ورفع فريد بصره إلى الكاشف فوجد وجهًا صبوحًا باسمًا ، وتطلع إلى الحديقة فكانت كما شاهدها يوم أن تحادث مع الست هانم ، وحاول الحديث ثانيًا فأسرع الكاشف يقول "سوف نحدد مكان الدرس وموعده فيما بعد ، سواء شرفتنا هنا، أم زارتك 'نورا' فى المنزل أو فى المضرب ! وسوف تراها الآن !" .

وصفق الكاشف فدخل العبد الحبشى، وخرج ، ولم تمض لحظة حتى

كانت نورا قد دخلت فألقت السلام وابتسمت ، ودعاها أبوها إلى الجلوس فجلست ، فقال لها أين كُتُبك فقالت "آه ! كُتُبى ! هذا هو المُعلّم إذن !" ونظر فريد إليها فخيل إليه أنه يرى حورية من حور الجنة ، كانت الحقيقة تفوق كل ما صوره خياله ، فالعينان الخضراوان تشعّان بريقًا خلابًا فى وهج الضحى كأنه شمس أخرى ، وعندما ابتسمت وهى تتكلم لم يسمع كلمة واحدة مما قالت بل أحس أن الدنيا تبتسم ، وأحس فى قلبه بجيشان مشاعر لا يمكن أن يصوغها فى كلمات ، فبلع ريقه بصعوبة وأحس أنه يريد بعض الماء لكن يده جمدت ، ولم تلبث نورا أن قالت "لكن ده الشيخ فريد الفلاح ! أنا عارفاه من زمان يا بابا !" ووصلت الكلمات إلى أذن فريد مُقَطَّعة متناثرة كأنما فقدت معناها ، بل كأنما هى أصداء كلمات قيلت فى جُبّ سحيق فوصلت متداخلة يُرْجع بعضها صوت بعض ، ويتداخل رنين هذه فى تلك ، فحوّل بصره عنها وتطلع إلى الحديقة يستمد القوة من منظرها الخلاب ، فسمعها هذه المرة تقول فى نبرات واضحة "موش هوه ده الفلاح اللى أخذ منّى أرضى ؟" وأفاق فريد فإذا بوالدها يقول "اقعدى يا نورا ! دا الشيخ فريد ابن الحاج عبد الحكيم صاحب الوكالة اللى اشترى الأرض !" فجلست وهى تردد : "يعنى هوه الفلاح اللى ماما قالت أنه أخد الأرض ؟" وأحس فريد بأن السكْرة التى غشيته قد انقشعت ، ولم يعد هناك مجال للحديث أو للمناقشة ، فألفاظ الهانم الصغيرة ترجيع أصداء الهانم الكبيرة ، وسمع فريد الهاتف فى أعماقه

يقول له "تمالك نفسك يا رجل ! لست فى الجنة بل فى الأرض ! واذكر ما جئت من أجله !" ومن ثم ركز بصره فى وجه الكاشف وقال له : "كنت أريد أن أستأذنك فى شراء فدانين من الصحراء المجاورة لأرض والدى !" ودهش حين قال الكاشف فوراً "لك هذا وبأسعار السوق يا فريد ! لقد أصبحنا جيرانا !" وسمع فريد حركة مفاجئة فالتفت فإذا بنورا قد نهضت فى غضب واضح وهى تقول لوالدها "إزاى يا بابا تسمح للفلاح ياخد أرضى ؟" وخرجت مسرعة . واعتذر الكاشف لفريد عما بدر من ابنته ، ووعده بأن يشرح لها الموقف عندما تهدأ ، قائلاً إن ترتيب دروس العربية قائم ، ولكن فريداً لم يعلق بل شكر الكاشف على ضيافته وخرج .

الفصل الثامن

التحـــدى

١

كانت رحلة العودة كئيبة لم يخفف من كآبتها إحساس فريد بأنه وُفّق فى مهمته ، وكان هذا الإحساس كفيلاً بإشاعة الزهو فى نفسه لولا المقابلة غير المتوقعة مع ذات العينين الخضراوين ، بل إن فريدًا لم يَجِدْ القوّة على همْز فرسه للعودة مسرعًا هربًا من قيظ مسرى ، بل ترك الحصان يسير به على شاطىء النيل كأنما غشيتْه هو الآخر غاشيةٌ من همٍّ دفين ، وكثيرًا ما كان يتوقف فلا يحثّه فريد ، فإذا استأنف السير هزّ رأسه يَمْنةً ويَسْرَةً كأنما يُحسّ بما يساور صاحبه من قلق ، وعندما وصل فريد إلى المنزل سمع نداءات الأطفال وصياحهم فحدس أنهم أبناء إحدى أختيه ، أو أبناؤهما جميعًا ، وأحس بشوق إلى رؤية الصغار ، وإن كان لا يصبر على لهوهم ولعبهم ، فهم فى حركة دائمة وضجيج متواصل ، وهو يحبّ الهدوء ، خصوصًا فى هذه الأيام التى يحتاج فيها إلى قَدْح ذِهْنه والشروع فى عملين معًا – مشروع مراد ومضرب الأرز ! وسرّه تذكر

منظر المضرب، فرسم ابتسامة على شفتيه وهو يدخل المنزل، ورحب بالجميع، وتبادل مع الكبار والصغار تهانى العيد، وقالت أمه إن فهيمة سوف تبيت مع أطفالها فى الدهليز - أى فى الطابق الأول (فوق الأرضى) - وإن سكينة خرجت لزيارة القبور مع سعاد، وإن أباه ذهب إلى المسجد وطلب إبلاغ فريد أنه يطلبه . لكن فريداً كان يشعر بإرهاق فى داخله لا يدرى مبعثه ، فطلب من والدته كوباً من الشاى ، وأوى إلى غرفته فتحرر من بعض ملابسه وأحس بالنعاس يغالبه فأغمض جفنيه فأغفى .

وأفاق على صوت الطرق على الباب ، وعندما فتح عينيه أحس برجفة كرجفة الحمىّ ، وكانت أمه واقفة أمامه لا تتحرك ، واعتدل فى جلسته وقال بصوت واهن "أمّى !" فقالت "يا حبيبى يا بنى ! الشاى برِدْ ! بقى لك ساعة نايم - عمرك ما عملتها ! مالك يا فريد ؟" فقال بسرعة "أبداً ! أنا كويس الحمد الله ! الحرّ بس دوّخنى شوية !" فقالت أمه "داحنا بقينا العصر ! موش حتاكل لقمة ؟" فقال فريد "ماليش نفس - خلينا للعشا !" وضحك ليذهب عنها القلق وأضاف "أنا شامم ريحة حاجة حلوة ع الكانون !" فضحكت أمه وقالت "دا شُغل أختك فهيمة ! من ساعة ما جت وهىّ بتطبخ !" فقال فريد "طيب أروح أنا أشوف أبويا بقى !" وتحامل على نفسه فنهض فشرب الشاى الفاتر وأكمل ارتداء ملابسه بصعوبة ، وذهب إلى الزير فتوضأ وخرج .

لم يكن فريد ينتظر أباه فى الواقع ، لا ولا كان ينتظر أحداً ، بل كان يشعر فى أعماقه بانكسار غريب ، ولم يكن يطيق هذا الانكسار ، ولم يكن يتصور أن يُطلع أحداً عليه ، وكان يرى أن الوحيد الذى يستطيع تفسير

'ما يحدث' هو 'على الشامى' - فأين أنت يا على ؟ وفجأة تذكر ڤيار - إنه يشبه عليًا من عدة وجوه ، فهو يقول ما يرى دون لفّ ولا دوران ، وهو لا يجامل بل يرحب بالواقع مهما يكن مؤلمًا ، وإن كان علىٌّ ذا خيال يقترب به أحيانًا من شعر الشعراء ، ولكن الرجل يعرف الفارق بين الخيال وبين الواقع ، أما هو فلا يزال يتساءل ويفكر ، ويسمح لنفسه أحيانًا بطلب المحال ، وهذا ما لا يفعله أيهما - علىٌّ أو ڤيار ! وخطر له أن يذهب إلى ڤيار فى الوكالة ! ولم لا ؟ لابد أنه سيلقى الترحيب اللازم وربما تخفف من بعض ما يثقل صدره ، فإنه ڤيار غريب - مهما تصور أنه مصرى ! لم لا حقًا ؟ ونهض فاتجه إلى الوكالة ، ولم تكن حرارة الجو قد خفّت بعد صلاة العصر ، فوجد جرجس وزكريا وعبد الرافع جالسين على المقهى يدخنون الشُّبُك وأمامهم أكواب الشاى! كانت المفاجأة كبيرة، فما الذى أتى بهم إلى هذا المقهى - ولم يدرك آنذاك أنه كان ينبغى ألا يُفاجأ بوجودهم ، فنحن مازلنا فى العيد ، وكان الجميع يرتدون أبهى ملابسهم ، ولابد أن الثلاثة كانوا يستريحون من عناء العمل الذى لم يتوقف طيلة الشهور الماضية ، وخطر له أن الصداقة التى تربط ثلاثتهم تتخطى العمل قطعًا ، وتذكر قول أحد الساخرين إن جرجس يحب حديث زكريا وصحبته "كأنما لم يكن أخاه !" فأضاف إلى هذا القول - 'وكأن عبد الرافع أخوهم - بل بالمنطق نفسه ، 'كأنه ليس أخًا !' وضحك فى أعماقه وهو يحيّى الثلاثة، وسرعان ما نسى اعتزامه زيارة ڤيار وجلس معهم ، لكنه لم يكن يحب الشُّبُك فاكتفى بالشاى المُحَلىّ بالكثير من السكر، والرجفة تعتاده بين الحين والحين ، وهو يذكر أن أمه تقول إن الشاى الساخن ينعش فى الحر أكثر من أى شراب بارد !

وبعد مجاملات العيد ، قال فريد "ألا تحبون أن أحكى لكم نجاحى مع الكاشف ؟ أليس هذا ما يشغلكم ؟" وقال عبد الرافع على الفور "حاشا لله ! لقد جئتنا للتعييد ، بعد أن هدّ زكريا حيلنا طول النهار !" فضحك فريد وقال "وأين ذهبتم ؟" فقال عبد الرافع "ذهبنا إلى أبى مندور سيراً على الأقدام ، وصعدنا التل فى الرمال الساخنة ، وجلسنا فى إحدى القشلات الغليظة التى بناها أبناء البلد ، وأصر جرجس على أن نتناول معه الفسيخ والبصل ، فأكلنا واشتعلت النيران فى بطوننا – ربنا يسامحه !" وقال جرجس "ربنا يسامحنا كلنا ! الفسيخ أكل العيد ولازم نحترم الأصول !" فقال زكريا "لكن النار لسة فى قلبى !" وخطر لفريد أن فى قلبه هو الآخر ناراً من نوع آخر ، ونظر إلى صحبته فيما يشبه الحسد ، فما أسعد من يقبل ما يأتى به الزمن فلا يعترض عليه أو يحاول تغييره ! وقال جرجس "متهيأ لى القشلات دى تنفع مشاتل للجماعة بتوع البوصيلى ! إيه رأيك يا شيخ فريد ؟" وانتبه فريد – وقد رحب بتغيير الموضوع – فقال "القشلات ؟ آه – ممكن – بس عايزة سكة توصلها للطريق الزراعى !" فقال زكريا: "نعمل مدقّ والا اتنين مؤقتًا !" وقال عبد الرافع "وإيه ما نوصّلش القشلات – إذا بقت مشاتل – بالمَرْسى اللى عند جامع البواب ؟ وبعدين نبقى ننقل القصارى فى البحر لبحرى !؟" فقال فريد "وهىّ عروسة البحر حتسيبكم ؟" فضحك الجميع .

ومرّ الوقت وخفت حرارة الجو ، وبدأت نسمات المساء ، فطلب فريد أن يأذنوا له بالرحيل قائلاً إنه بدأ يحس بالجوع ، لكنه كان فى الواقع يشعر بأن الرجفة تشتد وتزداد حرارتها ، فعاد إلى المنزل ، وهو يحس

أن همّ الصباح لا يزال يرين على قلبه ، وتساءل فى نفسه ألم يكن حرياً به أن يطلب من زكريا – فهو وكيل المباشر – أن يشرع فى إعداد القوائم وحساب 'المغارم' المقررة على كل تاجر وصانع وزارع؟ ولم يطلب الطعام حين دخل المنزل أو يشعر حقًا بميل إليه ، بل أحس بالنوم يداعب جفنيه من جديد ، فقال فى نفسه لابد أنى مريض ، وأوى إلى غرفته وأغلق بابه عليه ، وأخرج أحد كتبه ، ولم يكترث إن كان فى النحو أو فى الصرف ، وجعل يقرأ بصوت عالٍ كما كان يفعل فى الرّبع ، كأنما ليطرد عن عينيه النوم ، لكنه أحس بتثاقل جفنيه فنام كالمغشىّ عليه .

٢

وعندما فتح فريد عينيه وجد نفسه مستلقيًا فى سريره ، وأمامه أبوه والطبيب الفرنسى ، وكانا صامتين ، وأحس بانزعاج فحاول النهوض لكنهما منعاه ، وقال له أبوه "استرح يا فريد فقد أصابك إرهاق مفاجىء، والأرجح أنها ضربة شمس ، والدكتور يقول إنك بخير !" وجاهد فريد نفسه حتى جلس فى الفراش وقال بصوت خفيض "ماذا حدث ؟" فقال أبوه "كل خير ! وجدناك بالأمس نائمًا تهذى فاستدعينا الطبيب فأعطاك دواء شربته شاكرًا – هل تذكر ذلك ؟" فهز فريد رأسه ، فأضاف والده : "وقد عادك هذا الصباح فوجدك تتحسن ، وها هو يعودك الآن فى الظهيرة !" وقال الطبيب بالفرنسية لفريد "هذا ليس بشىء يا شيخ فريد! أنت صحيح البدن ، لكنك تعرضت للشمس أو لصدمة ! استرح ساعة أخرى وسوف تشفى !" فتمتم فريد هامسًا "إن شاء الله !" فقال الطبيب ضاحكًا "كله بإذن ربّنا !" فقال فريد إنه يشكره ولم يكن هناك لزوم لتعبه،

فقال الطبيب بعربيته المحببة "لا ! كان فيه لزوم ونص ! أنت مشيت فى الشمس والا حد زعلك ؟ روّق بالك .. احنا فى عيد ! خد الدوا تبقى كويس- أوريڤوار !" وخرج الطبيب مع الحاج ، وجعل فريد ينظر فيما حوله فأحس بالوعى يعود إليه تدريجيًا ، وشعر بالحرج لما أصابه من ضعف ، وتذكر أحداث الأمس كأنما هى كابوس ، وتمنى فى أعماقه ألا تكون قد وقعت ، وظل جالسًا فى فراشه ، وتناهت إلى سمعه أصوات الأطفال وهم يلعبون فى الشارع ، فالتفت إلى الشباك فوجده مفتوحًا ، فقال فى نفسه 'يا له من عيد !' .

واجتهد حتى يحوّل مسار أفكاره من مقابلة الكاشف إلى مصدر سروره الجديد ، ألا وهو مضرب الأرز ، فتذكر أنه لا يكاد يعلم شيئًا عن أصول العمل فى ذلك المضرب ، فقال فى نفسه لابد أن أسأل إبراهيم الشينى فهو الذى يعرف كل شىء ، ولن أشغل بالى بعد الآن بشىء سوى أحوال المضرب ونظام إدارته ، فلقد آن أوان الجد ، ولابد أن أنضم إلى مجلس التجار ، ولابد أن أعرف المزيد والمزيد من الحاج محمد شبابو عن أحمد أغا الكاشف وسر ذلك النعيم الذى يعيش فيه ! لقد قص الحاج علىّ تاريخًا لم أستوعبه كله وإن سجلته فى كراستى الكبيرة ، لكننى أريد أن أعرف كيف استطاع هذا الكاشف الماكر أن يحتفظ بسلطانه بعد زوال مُلْك المماليك ، وهو من جنسهم ! كيف تمكن من إقناع الباشا أنه مخلص فسمح له الباشا بالإبقاء على ضياعه وأملاكه ومماليكه – بل وأعفاه من الضرائب ! ترى ماذا قال للباشا أثناء مُقامه فى مصر ؟ ولماذا قضى فيها تلك الفترة الطويلة وماذا كان يفعل فى أثنائها ؟ تراه أقنع الباشا بأن يجعله محافظًا على محافظة رشيد حقًا – أو مديرًا على

مديرية البحيرة - وفق التنظيمات الجديدة التى وصلت أنباؤها إلى المباشرين وأسرّ بها إلينا زكريا ؟ إن للكاشف مماليك يقارب عددهم عدد أفراد الحامية الروميّة نفسها - فمن أين يأتى برواتبهم وكيف ينفق عليهم حتى يضمن ولاءهم ؟ ومن منهم - يا ترى - تزوج تلك الهانم المتعجرفة فمات أو قُتل - إذا صدقت رواية زكريًا - وخلّفها أرملة وهى فى ريعان الصبا ؟ وما سر تلك العجرفة التى تبدّت فى حديثها وحديث أمها - وما سرّ الصلف والكبرياء ؟

وتنبه فريد إلى أن سيّال فكره قد جرفه رغمًا عنه إلى أحداث يوم أمس ، وأن أفكاره تتلون بمشاعر 'خصوصية' لا ينبغى للعاقل أن يُقحمها فى مسارات التفكير المنطقى ، فقد تنحرف به أو تجور عليه ، فقال فى نفسه هذا ظلم بيّن ، فما ذنب النساء فيما يفعله الرجال ؟ الفتاة بلهاء تُردّد ما سمعته من أمها ، وأمها دَرَجَتْ على ما غرسه حموها - إبراهيم أغا المتعجرف - من بذور النظرة المتعالية للفلاحين ، فَنَمَتْ تلك النظرةُ وترعرعتْ حتى أصبحتْ وباءً أصاب الجميع ، ولو أنها كانت كما تقول 'من بيت علمٍ وأدب' ما قالت ما قالته عن الفلاحين ! وتلك 'البلهاء' إذن بَبْغاء تُردّد ما سمعته من تلك المتعالية الفظّة ! ولكن ها هو ذا يحاول من جديد وبإصرار أن يجد الأعذار للبلهاء الصغيرة ! ها هى مشاعره تُقحم نفسها رغم أنفه فى تفكيره فتعكّر صفو ذهنه ! لابد من حَكَمٍ محايد ينظر فى الأمر ، لا من هؤلاء ولا من هؤلاء - وليس هناك إذن أفضل من قيار !.

وأحس فريد بالبهجة حين خطر له ذلك الخاطر من جديد ، وأحس بأن مرضه قد انقشع، فنهض فإذا به يحس الجوع ويطلب الطعام، فقال

فى نفسه هذا دليل على زوال الغُمّة ، فخرج من غرفته وطلب من أمه فطيرة فأتت له بها مع كوب شاى فيه الكثير من السكر ، ونظر من الشباك فوجد الشمس لا تزال ساطعة وإن مالت إلى الغرب ، فتوضأ وخرج ، وقال فليغفر الله لى إذ قعد بى المرض عن ذكر الله ، بل وأنسانى الدين والدنيا ، وأهرع من ثَمّ إلى المسجد .

وجلس فريد فى المسجد وحده ، بعد أدائه - قضاءً - جميع ما فاته من صلوات ، بجوار النافذة البحرية التى تهبُّ منها نسائم خَفَّفَتْ من قيظ الجو ، فلقد 'أتى النيل' وارتفعت الرطوبة ، وأصبحت النسمات ثمينة نادرة ، وكان يحس باستعادة عافيته مع كل نسمة ، فمزية مسجد الجندى أنه ذو نوافذ مفتوحة على جميع 'الجهات' الأربعة ، والنافذة البحرية تحمل أجمل النسمات وأبردها ، وكان يتمنى أن يمكث فى مكانه حتى الغروب ، لولا أن شاهد الرجل الذى كان قد أغاظه يوم أن ذكر له أن الشيطان له عينان خضراوان ، فى يوم شم النسيم الماضى ، عندما ترددت شائعة اختطاف عروس البحر لأحد الجنود الأرناؤوط ، وكان فريد يريد أن يتحاشى الحديث معه ، فهو غليظ المظهر والمنطق ، ويبدو أنه كان عاطلاً أو عاملاً موسميًا ، فهو دائم السير فى شوارع البلدة ، وكثيرًا ما كان فريد يراه قابعًا فى أحد أركان المسجد ، كما كان من أوائل من يُقبلون على الطعام الذى كانت ترسله معه والدته إلى 'فقراء الجامع' فى المواسم والأعياد .

نجح فريد فى تحاشى الحديث مع الرجل ، ولكنه لم ينجح فى نسيان ما قاله له وما تذكره فريد حالما شاهده ! وضحك فى نفسه وهو ذاهب إلى

الوكالة لركوب فرسه ، والصوت الداخلي يردد له : كيف تقضى فيما لم تشهد عيناك ، ومن ذا الذى يستطيع أن يقضى فى أمر الجن والشياطين؟ وعادت إلى ذهنه دروس الفقه التى برع فيها ، فقال لم لا يقول الناس "والله أعلم" ؟ لم يبدو الناس على هذه الدرجة من اليقين ؟ أما ما شاهده هو يوم أمس فبرهان ساطع على اختلاط الأمور ، إذ كانت البلهاء ذات العينين الخضراوين تقول كلام الشياطين! وعلت محياه سحابة حزن لخيبة أمله ، وحاول من جديد أن يلتمس لها الأعذار ، لكنه لم ينجح هذه المرة ، فكأنما تغيّرت صورتها ما بين يوم وليلة ، ووجد فريد أنه لابد أن يقص على ڤيار 'كل شيء' ، مادامت الأيام قد حرمته حديث علىّ الشامى ، خلّه الوفىّ .

وانطلق به الفرس حتى وصل بأسرع مما كان يرجو إلى وكالة مسيو لوبون ، فربطه فى أحد الأوتاد خارجها ، ونادى سائس الوكالة فأوصاه أن يعتنى بفرسه وسأله عن ڤيار فقال له عند الشاطىء ، فقصد إليه فريد فوجده قد انتهى من تفريغ بضائع سفينة أتت من برّ الشام ، واقفًا مع ربان السفينة يراجعان قائمة البضائع التى وَصَلَتْ ، فسلّم عليه فريد ، فرجاه ڤيار أن ينتظر على أحد المقاعد المنتشرة على شاطىء النهر ، فجلس فريد يتطلع إلى السفينة الكبيرة الراسية على البعد ، والقوارب التى حَمَلَتْ منها البضائع إلى الشطّ ، وحمد الله على أن انتظاره لن يطول، وكانت ساعة الأصيل ساحرة ، ولم يلبث أن سمع ڤيار ينادى بالفرنسية ، فنهض وسار معه عائدَيْن إلى وكالة لوبون .

وبادره ڤيار قائلاً "دعنى أحْدس ما أتى بك ! لم يوافق الكاشف على الصفقة !" وقال فـريـد بسرعة "بل وافق ورحّب !" فقال ڤيار "مبروك مبروك ! هذا يدعو لاحتفال !" ونادى ڤيار غلام الوكالة وأمره بإحضار الشاى ، وابتسم ڤيار بسمة عريضة، ما لبثت أن تلاشت وهو يقول "إذن ماذا حدث ؟" فقال فريد بعد أن صَدَقَ عزمه على البوْح والإفضاء إن قصته طويلة ، وهى تتضمن أسرارًا أقسم على عدم إفشائها ، لكنه سوف يقول ما تسمح به الظروف ويرجو ألا يغضب ڤيار إن هو أغفل بعض التفاصيل ! وقال ڤيار إن عمل اليوم قد انتهى ، وعليه أن ينتظر حتى ينتهى الحمّالون من نقل البضائع إلى داخل الوكالة ، وعندها يحين موعد الانصراف ، أى إن أمام فريد ساعة أو ساعتين ، فإذا أراد أن يحكى القصة فعليه أن يبدأ قبل حلول الظلام .

وقصّ فريد قصته مع ذات العينين الخضراوين ، كيف رآها أول مرة فملكت لُبّه ، وكيف راودت أحلامه فشغلته عمن عداها ، وكيف كانت هذه الأحلام ترتبط بأحوال فى الحياة والناس لا يستطيع تغييرها ، فقص على ڤيار ما حدث مع أمها ، ومع أبيها ، وما سمعه من الحاج محمد شبابو عن أسرة أحمد أغا الكاشف ، حتى انتهى إلى مقابلة أمس ، فأسهب فى تفاصيلها ، وأسهب فى وصف مشاعره ، ولم ينس أن يدرج قصة الرجل الذى زعم أن الشيطان عيناه خضراوان ! وكان ڤيار يصغى باهتمام شديد إلى كلمات فريد ، دون أن يقاطعه ولو مرة واحدة ، وبدا عليه التأثر والتعاطف ، وعندما انتهى فريد قال له ڤيار "إنك قصّاص موهوب!" ولم يفهم فريد مقصد ڤيار فأقسم إن كل ما قصه صحيح ، وإن كل ما رواه قد وقع ، فأسرع ڤيار يقول "أنا لم أتهمك بالكذب يا أخى

فـريد ! لكننى أعنى أنك ذو منطق سليم تضع الأحـداث فى السـيـاق الصحيح وتضفى عليها ألوانًا من الخيال تجعلها حيّة نابضة فى عينى !" وقال فريد "أقسم إننى لم أتخيل شيئًا ولم أبتكر شيئًا قط !" فضحك ڤيار وقال "هوّن عليك ! فـهل رأيت حـور الجنة حـتى تقـول إن نورا حورية؟" فقال فريد "هذا ما أحسسته فقط ! وهو تشبيه بلاغى !" فقال ڤيار "هذا ما قصدت إليه بألوان الخيال ! فالخيال ليس الوهم المحال بل هو القدرة على رؤية الواقع فى صور أخرى ، وقد استعنتَ بما قرأتَ عن حور الجنة فى تكوين هذه الصورة الخيـالية لفتاة رأيتها أنت جميلة !" وقال فريد "بل هى جميلة !" فقال ڤيار "اسمع ! وقتى محدود ، فأنا أنتظر ضيوفًا أعزاء قدموا اليوم من بلاد الشام لمشاهدة معالم رشيد ، ولابد أن ألحق بهم على مائدة العشاء !.ولكننى أوجز لك رأيى غدًا فى مثل هذا الموعد ! إلى اللقاء !" .

ونهض فـريد وقـد أحس أن العبء الذى كـان يجـثم على صـدره قـد خفّ، فامتطى فرسه وسار به الهُوَيْنا يتـأمل جمال الغروب ، وخطر له أن يحوّل مساره إلى المضرب فيتـأمله لكنه خجل من هـذا الحرص الشديد على المضرب وهو الذى كان يتردّد منذ شهور معدودة فى قبول العمل به ، فاستمر فى طريقه كأنما خلّف عند ڤيار قصة العينين الخضراوين أو ألقاها عن كاهله إلى الأبد ! وقال فى نفسه يا عجبًا لذهن الإنسان الذى وهبه الله القدرة على البناء والهدم ! لقد بَنَى ذهنهُ قصـرًا من الأحـلام فعاش فيه سنوات طويلة ثم هدمه فى ساعة واحدة ! ولكن تراه هو الذى هدمه أم انهدم القصر وحده ؟ "لا بل هدمته تلك البلهاء الصغيرة فأزالت

بكلمات رعناء فى لحظة صلف ما شيّده الذهن ورعاه الخيال عامًا بعد عام!" وعندما وصل إلى مشارف رشيد كانت الشمس قد غربت وأصداء الأذان تتجاوب فيما بين المآذن ، فقرأ بصوت عال آياته المحببة ، التى تبدأ بآية ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ ، ثم كررها عدة مرات وهو يترجل عن فرسه لدى الوكالة ويتوجه إلى جامع الجندى .

٣

وتذكر فريد فى الصباح 'المضرب' فقال فى نفسه أشهد فتح الوكالة أولاً ثم أذهب إلى إبراهيم الشينى فأطّلع على دفاتر المضرب وأجد ما ينسينى متاعب أول أمس ، لكنه حين ذهب إلى الدكان بعد صلاة الظهر لم يجد سوى الفراش الذى كان يرش الماء ويكنس الأرض ، وقال الفراش إن الجميع رحلوا ومعهم دفاتر ، فتعجب فريد وتساءل كيف علموا بتفاصيل مقابلته مع الكاشف ، فهو لا يذكر أنه أخبر أحدًا ، ومن المحتمل أنهم بدأوا يوم أمس ، وقال فى نفسه هل أذهب إلى المضرب كى استمتع بمشاهدة مكان عملى الجديد ؟ ثم راجع نفسه مرة ثانية وقال لقد انتهينا من مشكلة جمع الرجال والمال ولكن مشكلتى أنا لا تزال قائمة، وعاد إلى ذهنه ما قاله ڤيار فابتسم وقال لابد أن يكون لدى ذلك الفرنسى حل لما أنا فيه ! فخرج من الدكان وقد ازداد حر النهار فتذكر ما قاله الطبيب الفرنسى عن 'ضربة الشمس' فخاف ، ونحن فى مستهل شهر مسرى (آب) – شهر النيل وأحر شهور العام ، فعاد مسرعًا إلى الوكالة يلتمس الظلال ويطلب الابتراد.

ولم يكد يخطو داخل الوكالة حتى رأى عبيداً – التاجر الذى صاحبه فى رحلة القدوم من الاسكندرية إلى رشيد ، وكانوا يسمونه الشيخ عبيد احتراماً لسنه لا لإجازة علمية نالها – واقفاً لدى الباب يحتمى من الشمس، وما أن رأى فريداً حتى صاح مرّحباً كأنما انتظر ساعات طويلة أو كأنما كان يخاف من شىء ، وكان صوته متهدّجاً ينمّ عن قلق شديد ، فهدّأ فريد من روعه ، ونادى صبى المقهى فأحضر له كرسيّاً ، وطلب فريد الشاى لكليهما ، ثم سأله ما الخبر فقال عبيد "قل لى يا شيخ فريد ! أنت رجل عالم تحمل كتاب الله وتعرف حدوده ! قل لى هل يجوز عصيان الآباء؟" فقال فريد فى نفسه إن الرجل يواجه مشكلة 'عائلية' فلماذا يبدى كل هذا الاضطراب ، فابتسم وقال "طاعة الوالدين فى الصغر من طاعة الله، ما دام الوالدان مؤمنين !" فقال عبيد "إذن ما حكم العاصى ؟ قل فلم أعد أحتمل !" وقال فريد "لن يحدث عصيان بإذن الله !" فقال عبيد "لقد عصانى ولداى بل وجاهرا بعصيانى !" فطلب منه فريد أن يهدأ ويقص عليه قصته دون غضب ، فقال عبيد : "كيف لا أغضب وقد عصانى أكبر أبنائى وأوسطهم !" وكان الشاى قد أتى فابتسم فريد وطلب منه أن يشرب الشاى ويقص قصته فقال عبيد :

"مر علينا فى الصباح مندوب الكاشف وعرض على الشباب الاستكتاب فى جيش الباشا ، ووعد المستكتبين بحج بيت الله الحرام وبراتب من النقود لا يُصدّق ! وأدركت فوراً أنها خُدعة ، فالكاشف مثل أبيه الرومىّ الفاسد ، يريد الجند لنفسه لا للباشا ، وهل من المعقول أن يطلب الباشا جنداً من أبناء البلد ؟ ما لنا نحن والجندية يا شيخ فريد ؟

نحن وإن اشتغلنا بالتجارة فلاحون ! ولكنّ الولدين لا يعقلان فصدقا المندوب ، ووافقاه ووعداه بالاستكتاب ! وحاولت أن أبيّن لهما ما فى هذه الدعوة من غدْر ومخاتلة ولكن - كما يقول المثل - 'سكة الصُّغار عُوجة' ! فما لبثا أن أعلنا أنهما لن يصبرا على المقام معى وسوف يرحلان عندما يحين موعد الرحيل ! أرجوك يا شيخ فريد ! قل لى ماذا أفعل ؟" .

وسأله فريد "وهل لديك أولاد آخرون" فقال عبيد "ولد واحد ! وابنة متزوجة !" فعاد فريد يسأله بهدوء وهو يرشف الشاى "وماذا يفعل الولدان الكبيران ؟" وقال عبيد فى دهشة "يفعلان ؟ وماذا تنتظر منهما أن يفعلا ؟ إنهما يعيشان معى ولا ينقصهما شىء ! كل طلباتهما مجابة ! وسوف أزوّج الكبير هذا العام ، والأوسط عندما تتيسر الأحوال ! ماذا يريدان خيرًا من هذا ؟" فقال فريد "أقصد هل لديهما عمل يعملانه ؟" فنظر الشيخ عبيد إلى فريد كأنما لا يصدق ما يسمع وقال "أى عمل تقصد يا شيخ فريد ؟ إنهما يجلسان معى فى الدكان ! وقد تكون قد رأيتهما معى !" فأومأ فريد وقال "وابنك الأصغر ؟" فقال عبيد "شحاته لا يزال صغيرًا - ولا يصلح إلا للمشاوير ! وأمه تعتمد عليه فى كل كبيرة وصغيرة بعد أن تزوجت ابنتى وتركت البيت ! قل لى ماذا أفعل يا شيخ فريد ؟ كيف أشرح لهما خداع رجال الكاشف ؟" .

وصمت فريد لحظة ليستوعب الأزمة الجديدة ، ولم يكن يعمل لها حسابًا حقًا ، فلم يكن فى أعماقه يتوقع إقبال أحد من أهل البلد على 'التطوّع' ، ولابد أن هذه حالة شاذة ، وأحس بالتعاطف مع الشيخ عبيد واستيائه من تطوّع ولديه وإن كان قد خامره زهو لم يفهم كنهه لنجاح فكرته ، ولأخذ المجلس بها ، فها هم الكبار قد استمعوا لقوله، وها هم

يفعلون ما أوصى به ! لقد بدأ التدبير الذى وضعه يؤتى ثماره ، وفي هذا توطيد أى توطيد لمكانته فى المجلس ، لكنه قد يعود بالضرر على بعض الناس وإن أقبلوا على الجنديّة طائعين مختارين ! لن يستطيع قطعًا تغيير ما عرضه أو العدول عن رأى أوصله إلى تلك المنزلة المرموقة ! وتنبه فريد إلى أن الشيخ عبيد كان لا يزال يتكلم ويكرر ما قاله دون أن يلتفت فريد إليه فى خضم أفكاره فنهض من مجلسه وقال للشيخ عبيد فى نبرات صارمة : سوف أبذل جهدى لمساعدتك يا شيخ عبيد فلا تحزن ! وهذا وعد ! فدعا له عبيد ومضى .

كان 'المبْيع' قد انفض فى غضون ذلك ورحل الناس ، ولم يدرك فريد ذلك إلا حين جاءه سميح بالألواح والقوائم ، فأقبل فريد على العمل فى غير حماس ، إذ بدأ يحس أنه لا يتطلب جهدًا ذهنيًا خاصًا ، ويستطيع أى صبّى من صبيان الكُتّاب أو مدرسة القبط أن يقوم به خير قيام ، فلم لا يستأجر أبوه كاتبًا يثق فيه ، بعد أن زال الخطر ورحل الأرنؤوط؟ ولماذا لا يعهد به إلى سميح نفسه - فهو 'يفك الخط' وهو أمين أمانة لا مراء فيها ؟ وخطر لفريد أنه لا يعرف الكثير عن سميح ، ولا يذكر عنه فى طفولته شيئًا ، فإذا كان والده يثق فيه ثقة كاملة ، فلم لا يزوجه إحدى بنات العائلة فينتسب إليها ويتأكد ولاؤه بالمصاهرة ؟ وقال فى نفسه لابد أن أفاتح أبى فى هذا الموضوع ، خصوصًا وقد كتب الوكالة باسم أختى 'خديجة' ، وقد شبت الآن عن الطوق ! صحيح أننى أتقاضى راتبًا كبيرًا ولكننى أصبحت أتولى الانفاق على نفسى فى الشهور الستة الأخيرة ، وتكبدت مبالغ باهظة فى الملابس الجديدة ولازلت أنفق على الحصان والسائس وأشارك فى نفقات المنزل ! وكم دفعت فى العيد

للأطفال ! فهل يستطيع سميح تحمل كل هذه النفقات ولو زاد والدى من راتبه ؟ وإذا كان سوف يتزوج من بنات الأسرة – فمن عساه يتزوج ؟ إن أحواله المالية لا تساعده على مصاهرتنا نحن ولكن لنا أقرباء فقراء سوف يرحبون بالزواج منه ! وتذكر 'أم سلامة' التى ترملّت فى صباها ، حين غرق زوجها فى البحر المالح أثناء عاصفة هبت على مركب الصيد الذى كان يعمل فيه ، فتولت تربية ابنها سلامة وابنتها سليمة ، وها هى ابنتها قد كبرت – ولعلها بل لابد أنها بلغت سن الزواج – فقرابتهم البعيدة بالأسرة تضمن لنا الولاء !

وأفاق فريد من تأملاته الصامتة عندما انتهى من عمل 'المبْيع' وجاءه سميح يستأذنه فى أن يرحل للصلاة، وقال فريد فى دهشة: وهل أذّن العصر ؟ فضحك سميح وقال بل أذن وصلّى الناس ! فنهض فريد وقال كيف لم أسمع الآذان ؟ لقد فسد سمعى ، فليغفر الله لى ! فقال سميح : كنت مشغولاً مهمومًا – 'معلهش' – فالله غفور رحيم ! وأعاد فريد الكتب إلى الدرج ووَضَعَ المفتاح فى جيبه وأسرع إلى المسجد ولسانه يستغفر ويحوقل ، وعندما انتهى من الصلاة لمح والده جالسًا يتكلم مع شخص لا يعرفه ، فجاءه وجلس قريبًا منه حتى انتبه أبوه إلى وجوده والتفت إليه فعرّف محدّثه به وعرّفه بمحدّثه قائلاً :

"الشيخ النقشبندى من البر الثانى ! جاء للتشاور فيما عساهم يفعلون بعد أن رفض الناس التطوع فى جيش الباشا !" وضحك أبوه ضحكة فيها من المرارة أكثر مما فيها من السعادة قائلاً "بل ويرفضون دفع ما قرره كاشف الجزيرة الخضراء عليهم ! والشيخ يخاف غضب

الباشا ، وكاشفهم يخاف على نفسه ، والناس تتوقع أن تُساق كَرْهًا إلى ما يسميه الموت !'' فقال فريد فى دهشة ''الموت ؟'' فقال النقشبندى :

''تعرف يا شيخ فريد أن الجزيرة الخضراء لا يعيش فيها إلا فلاحون بسطاء ، وهم يقيمون فى هذه الجزيرة التى تظل ظاهرة فى البحر طول العام ، ثم تغمرها مياه النيل فى وقت الخير ، وقد هلّتْ بشائره اليوم ، فيأخذ الناس حيواناتهم ويسرحون فى البر الثانى ويعيشون كالأعراب متنقلين بين القرى وصحارى الشمال ، عاملين بالرعى شاكرين المولى عز وجل ، حتى ينخفض النيل فيعودون إلى اللسان الذى يربط الأرض بالجزيرة، فيعبرونه إلى أرضهم وقد زاد خصبها وارتوت وارتفعت ! ألم تسمع قول الله **﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربَتْ ؟﴾** وقال فريد ''صدق الله العظيم ، ولكن كيف تساقون إلى الموت ؟'' فقال النقشبندى ''نحن من أتباع الطريقة الخَلْوتيّة النقشبندية ، ولا يوجد أحد لدينا من أتباع أبى العزايم مثلكم ! فنحن نؤمن بأن من يغادر سنّة حياتنا لا يرجع أبدًا! فهو الموت يا شيخ فريد !'' فقال فريد ''ظننت أنكم تخشون الموت فى الحرب !'' وابتسم النقشبندى بسمة عريضة وقال ''نحن لا نموت فى الحرب بل نحن ظافرون دائمًا بإذن الله ! وأما من يُستشهد فلا تحسبنّهم أمواتًا بل أحياء يا شيخ فريد !'' .

وصمت النقشبندى وأخذ يردد كلمات مبهمة فلم يشأ فريد أن يقاطعه لكنّ والده قال له ''لقد قرّر وكيل المباشر على الجزيرة الخضراء ما يبلغ مجموعه ثلاثين من الرجال أو من الأكياس ، أو من هؤلاء وهؤلاء معًا !'' فقال فريد ''هذا كثير حسبما فهمتُ من زكريا !'' فقال أبوه ''زكريا لا

شأن له بالأمر ! فلقد تفاهم يوم أمس مع كُشّاف زمام رشيد - وأهمهم زُرْدق الرومى كاشف برج مغيزل والشيخ الساداتى كاشف أبى الريش- ووافق الجميع على ما سبق الاتفاق عليه ! ولكن المشكلة هى فى الجزيرة الخضراء ونواحيها - مثل ناحية العزيزية وناحية برج رشيد - فمعظم أهاليها من الصيادين وقد يكون ما 'تقرر' عليهم أكبر من طاقتهم !'' وأفاق الشيخ النقشبندى كمن كان يحلم فصحا ، وقال ''لا شىء يفوق طاقتنا ! ولكننا سنصمد للباشا مثلما صمدنا للمماليك !'' .

وسمع فريد صوته الداخلى يهمس له فقال بنبرات خفيضة : ''لكنْ ألا تؤمن يا شيخ نقشبندى أن طاعة ولى الأمر من طاعة الله ؟ وألا تعتقد أنكم بتخلفكم عن الجهاد تقولون له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ؟ فكيف تقبل تجاهُلَ آياتٍ صريحة ؟ وهل تسمح لكم طريقتكم بذلك ؟'' وصمت النقشبندى طويلاً فعاد فريد يقول بنبرات أشد انخفاضاً ''اتق الله فى دم أهلك وبلدك يا شيخ ! فإنك إذا ساندت هذا العصيان حق عليك القول ، بل وسيحاسبك الله حساباً عسيراً يوم القيامة !'' وعاد الصمت ، ثم التفت فريد إلى والده وقال له ''أفلا نستطيع إقناع كاشف الجزيرة الخضراء بتخفيض ما قرره وكيل المباشر ؟'' ووجه سؤالاً إلى الشيخ بلهجة وُدّ وبسمة صافية قائلاً: ''كم يبلغ عدد أبناء الجزيرة الخضراء ؟'' ولكن الشيخ عاد إلى ترديد الكلمات المبهمة كأنما لم يسمع السؤال ، فقال والد فريد ''لا يزيد العدد - فى حدود علمى - عن مئات ! وقد لا يزيد عن أربعمائة !'' فقال فريد بلهجة الوُدّ نفسها ''إذن فالفرْضة كبيرة! يكفى فى ظنى - وفقًا لحسابات زكريا أفندى - عشرة ! ولنقل عشرة رجال أو عشرة أكياس !'' ونظر الحاج عبد الحكيم إلى الشيخ

النقشبندى وقال له "هل يرضيكم هذا العدد يا شيخ ؟" فرفع الشيخ نظره إلى الحاج وقال ببسمته الأولى "لقد قلت لكما رأى الناس فى الأمر وانتهت القضية !" وقال فريد بسرعة "يا شيخ نقشبندى ! إن لم يكن لديكم ما يكفى تحمّلنا عنكم بعض العبء !" فقال الشيخ من فوره "بل لدينا ولن نستجيب ! لقد جئت للتشاور لا لطلب العون ! ولقد بذلتم مشورتكم فشكرًا لكم" ونهض وسلم فخرج .

وعندما انفرد فريد بوالده عرض أن يخبره بما جرى فى منزل الكاشف ولكن والده قال له هل نسيت أنك ذكرت لنا نتيجة مسعاك ليلة مرضك ؟ ولم يكن فريد يذكر شيئًا من ذلك وخشى أن يكون قد قال ما يأباه عقله الواعى فقال : وهل ذكرتُ شيئًا آخر ؟ فقال أبوه له كنت تهذى يا فريد وأجبت بالفرنسية عن أسئلة الطبيب فلم أفهم حرفًا واحدًا مما قلتماه ! وضحك ولكن فريدًا لم يشاركه الضحك بل سأله "فى أى موضوع؟" فقال والده "هذيان الحمىّ يا بنىّ! ليس على المريض حرج!" فاطمأن فريد بعض الشىء ، ولم يلبث والده أن روى له ما جرى فى اليوم الثالث للعيد - يوم مرضه - بالتفاصيل التى كان فريد يريدها ، وكان أبوه يتحدث بسعادة من أحرز نصرًا مؤزرًا ، فقال إن الناس تلقت دعوة الانخراط فى جيش الباب بالتخوف والرفض ، لكن الكثيرين أبدوا اقتناعًا غير متوقع فطلبوا الاستكتاب ! "ليسوا من خيرة أهل البلد ، كما تعلم ، أو كما تحدس ، ولكنهم سيقونا غضب الباشا ! بل ربما لم نضطر إلى دفع أى نقود !" وتذكر فريد قصة الشيخ عبيد وأراد أن يفاتح أباه فيها ، ولكن أباه استمر يتحدث بلهجة الظفر قائلاً "هل تعلم كيف حسب زكريا - ذلك الثعلب - حساب ضريبة الرجال الجديدة ؟ لقد حسبها بأسلوب

الزكاة! أى بقاعدة ربع العُشْر ، وربما تكون المصادفة هى التى ساقته إلى هذا الحساب لكنه نجح مع الناس ! وقضى اليوم كله فى تلقين وكلائه أسلوب عرض ما يعرض ، حتى إذا كان صباح اليوم انطلق الوكلاء يدعون الناس إلى دفع ما أسماه 'زكاة الرجال' ! هذا الثعلب !'' ولكن فريدًا كان لا يزال مشغولاً بقصة الشيخ عبيد ، وعندما ودّع أباه وخرج ، وجد شاغلاً آخر ينتظره .

٤

جلس فريد يستمع فى ذهول إلى ما يقصه ڤيار ، وهما جالسان على شاطىء النيل يرقبان مياه الفيضان الحمراء التى علت فغطت المنطقة الضحلة المواجهة لوكالة لوبون ، وكان فريد يزداد ذهولاً كلما كشف ڤيار عما يعرفه عن أحوال رشيد وأنباء الكاشف وشيخ البلد ، إذ كان فريد يتصور أن تلك 'المعرفة' مقصورة عليه – وعلى أعضاء المجلس – ولم يشأ فريد أن يؤكد أو ينفى صحة ما يسمعه ، فلقد أقسم لوالده على السرّية ، لكنه اضطر إلى المشاركة فى الحديث عندما شرع ڤيار يشرح لصاحبه أن ما ظنه حُبًا ليس فى حقيقته إلا افتتان صبىّ ، والفرنسيون يفرقون بينه وبين الحب الناضج ، فالافتتان عندهم هو خفقة القلب الأولى فى مطلع الصبّا ، وقد يسمّونه الحبّ الأوّل ويسخرون منه ، وقد يسمّونه حب اليفوع، والمشكلة هى أنه قد يختلط بمشاعر أخرى ، فاليافع يريد الاستقلال وتأكيد فرديته ، وهو لذلك قد يتمرد على أهله ، وقد يعارضهم لا لتحقيق غاية يريدها بل من أجل المعارضة وحدها ، فإذا كان ذلك محالاً نشد الاستقلال والتفرد فى ذلك الإحساس الذى يمنحه ذاتًا

مستقلة لها أسرارها وكيانها المتفرد – وهذا – فى رأى ڤيار – هو حال فريد تماماً !

ولم يُجْد إنكار فريد ، إذ بسط ڤيار له القضية ضارباً المثل بعلاقته هو مع أبيه مسيو لوبون ، قائلاً إن أباه لا يجبره على شىء ، ويصر على أن يعيش ابنه فى الواقع دائماً وإن والده فر من وجه الثورة الفرنسية حين انحرفت – فى رأى ڤيار – وتخلّتْ عن مبادىء الحرية والمساواة والإخاء ، وأباحت لنفسها احتلال الأراضى الأوروبية الأخرى ، كأنما كانت هذه المبادىء لا تسرى إلا على أبناء فرنسا ، وكأنما كان من حقهم وحدهم أن يسودوا ويستعبدوا الشعوب الأخرى ! وجاء لوبون إلى مصر فى وقت عصيب فتعرض لطغيان المماليك واحتمل بأسهم، وكان ڤيار طفلاً فواصل تعليمه وأشربه أبوه حب الحرية والقدرة على الاختيار وفق المبادىء المذكورة ، وكان يسافر بانتظام إلى المدارس الفرنسية فى الشام وينمّى علومه بالقراءة ، واختار أن يصبح مصرياً بعد أن أحب اللغة العربية وخصوصاً بعد مجىء الباشا الجديد من إحدى عشرة سنة !

وقال فريد : "ولكنك لست مصرياً !" فقال ڤيار على الفور "بل مصرى مادمت أحس أننى مصرى ! وما 'المصرية' ؟ المصرية إحساس أو إدراك بأن هذا موطنى الذى سوف أعيش وأموت فيه !" فقال فريد "ولكنك لم تولد فيه !" فقال ڤيار "لم أولد فيه بجسدى وهو المولد الذى لا نختاره ، لكننى ولدت فيه بروحى وبعقلى ، وهو المولد الذى نختاره !" وضحك فريد قائلاً إن هذه سفسطة لأن ڤيار لا يشبهه ولا يشبه أبناء البلد! فقال ڤيار "وهل يشبهك إبراهيم الشينى أو أحمد القزق ؟ إن مصر مثل

البوتقة التى تنصهر فيها الأجناس والعبرة بما تحسه تلك الأجناس لا بأشكالها وألوانها !" وقال فريد وقد نفد صبره "ولكنك فرنسى يا ڤيار ! وسوف تتزوج فرنسية وربما عدت إلى فرنسا الآن، بعد زوال حكم الامبراطور !" ونظر ڤيار طويلاً إلى شط النيل وقال لفريد : "لقد أحببت هذا النهر وارتوى بمائه منذ عشرين عامًا ! وأحس أننى لا أستطيع فراقه! وهذا هو ما قالته خطيبتى التى وصلت يوم أمس من الشام ! زَامَلْتُها عامًا كاملاً فى مدرسة الإرسالية الفرنسية واتفقنا على أن تعمل لدينا فى الوكالة حالما تنتهى من دراستها! لم تنقطع مراسلاتنا طيلة هذه السنوات فنضج الحب ونبنى الآن دارنا فى الأرض البحرية !" .

وتردد فريد قليلاً قبل أن يسأل "ووافق والدك ؟" فضحك ڤيار وقال "وما شأن والدى بزواجى ؟ أنا الذى سأتزوج ! وكيف يعترض على زواجى من عربية وهو يحب العربية ويتكلمها ويعيش وسط العرب ؟" فقال فريد كأنما يخاطب نفسه "تعنى أنك اخترتها بنفسك ودون أن تقول له ؟" فقال ڤيار "إنها أجمل نساء الأرض ! عيونها سوداء ، وبشرتها سمراء ، وشعرها مثل أمواج البحر ! لسوف أعرّفك بها حالما تسنح الفرصة ، أما الآن فهى تزور مع أخيها الأكبر قشلات أبى مندور لترى آثار مدافع الإنجليز والأتراك فوق التل ! وهى تقول لى إن ما شاهَدَتْه يفوق جماله كل أوصافى له فى رسائلى ! وليتك يا فريد تحضر زفافنا فى كنيستنا البحرية ، وقد يتأخر الزفاف بعض الشىء ريثما تحصل على إذن من كنيستها الرومية !" فقال فريد "لكنكما من دين واحد !" فقال ڤيار "قل من مذهبين مختلفين ! وكان أهلها يمانعون فى زواجها من رجل على غير

مذهبها ، لكنها لم تعبأ باعتراضهم ، فالحب سلطان أقوى من الخلافات المذهبية !''.

كان فريد يسمع بأذنيه شواهد على صدق ما قاله ابن عمه ، وكان ابن عمه يعمل فى وكالة فرنسية أخرى (للشحن البحرى لا للتجارة مثل وكالة لوبون) ولم يكن فريد يأخذ كلامه مأخذ الجد ، وإن كان ذهنه قد اعتاد خيال الرواة وأقاصيص القصاصين ! ولكن ها هو ڤيار الذى أصبح شريكًا له فى 'مشروع مراد' يدعوه لحضور زفافه ! كانت وكالة الشحن البحرى مهمة للحاج عبد الحكيم ، فوثق علاقته بصاحبها ، وأرسل له ابن أخيه (الذي تيتّم فى طفولته) للعمل لديه ، وكان فريد يسمع من ابن عمه كل عجيب وغريب فلا يدرى ما يصدق وما يكذب ! ولكن ها هما أذناه تسمعان وعيناه توشكان أن تشهدا ! وأخيرًا قال فريد وقد مالت الشمس للمغيب ومدت ظلالاً طويلة على الماء ''تعنى أن حبّى وهم وأن علىّ أن أنفض عن نفسى غبار الوهم'' فضحك ڤيار وقال ''أنت أديب تحب التعبير الجميل ! لم أقل إنه وهم ! ولكننى قلت إنه إعجاب بالجمال تصادف مولده مع مولد رجولتك ! وأما الحب الحقيقى الذى أسميته 'الحب الناضج' فيأتى من توافق طريق حياة الرجل مع طريق حياة المرأة ! ولكن طريق حياتك لا يتفق مع طريق حياة نورا ! ولذلك فلن يتحول الإعجاب إلى حب ، وربما ظل افتتانًا عابرًا ، وقد تتغلب عليه وقد تنساه ! فأنا أستبعد أن تقبل أن تعيش حياة كحياتها أو كحياة أبيها مهما يبلغ حبك للرياسة ومهما يبلغ طموحك !'' ولم يتوقف فريد هذه المرة عند كلمة الطموح ولم يعترض عليها بل قال فى لهجة مريرة ''لأننى فلاح ؟'' فقال ڤيار

بسرعة "بل لأنك فريد عبد الحكيم الذى يشغل نفسه دائمًا بشؤون الناس! إنك تعاشرهم وتستمع لهم ، وقد تتعاطف معهم أو تعترض على ما يفعلونه ، ولكنك لا تضع نفسك فوقهم ! فأنت تحقق مبادىء ثورتنا الفرنسية !" .

وقال فريد كأنما يكلم نفسه "تعنى أننى أواجه المحال ؟" ونهض فجأة وقال فى تحد لڤيار "فإذا أصررت أن أبلغ مرادى معها ؟" وابتلع ريقه كأنما ليجد الكلمات المناسبة "دون أن أغيِّر من طبعى !" فقال ڤيار دون أن يغادر مجلسه "فهل تكون سعيدًا معها ؟ أم هل تنشد سعادة الظفر والنصر وحسب ، ولو شقيت معها ؟ اطرح على نفسك هذا السؤال أولاً قبل أن يجرفك التحدى إلى فعل ما لا تريد !" وقال فريد صادقًا "لا أفهم ما تعنى !" فقال ڤيار "إنك تخلط دون أن تدرى بين موقف الفتاة وأمها من الفلاحين ، وبين موقف الفتاة نفسها منك ! فالموقف الأول يشبه ما شهده والدى فى صباه من تعجرف النبلاء وعدم احترامهم للفلاحين ، وهو الذى كان سببًا من أسباب اندلاع الثورة! إنه موقف كل من يملك إزاء من لا يملك ، لا موقف الفتاة أو أمها من فلاحى مصر فقط ، وهو من ميراث قرون الظلام وسيطرة الكنيسة فى أوروبا وإيهامها العامة أن الرب قد قدَّر ذلك فهو قدر لا فكاك منه ! وهذا ما تحاول الثورة تغييره فى فرنسا منذ ربع قرن ! وأما موقف الفتاة منك فهو موقف فرد حرم مما كان يعتبره رأسماله لأسباب يجهلها ! فأنىّ للفتاة أن تعلم أن الدنيا تتغير؟ فتعليم الفتيات فى هذا العصر – حتى فى بلادنا – لا يساير تعليم البنين، ونورا نشأت فى أسرة تقليدية زَوَّجَتْها من أحدهم ، وربما كان

مملوكًا ، وربما كان روميًا ، وربما قتل أو مات بمرض نجهله ، وعلمها مقصور – مثل بنات الأعيان – على اللغات الأجنبية ! أنىّ لها أن تعلم أن الباشا الجديد رجل ذو همة عالية لن تقف به عند الجلوس على كرسى السلطة – وسوف ترى فى المستقبل مصداق كلامى ! لقد بدأ يأمر بنشر الصناعات ويحاول بناء جيش وطنى من المصريين ، وفى هذا تهديد أى تهديد لسلطان الفئات التى دأبت على التصارع على السلطة أعوامًا طويلة ! تعرف ما فعله بالمماليك ، وتعرف أن دعوته للتجنيد من أبناء الفلاحين – على كراهيتهم لها – قد بدأت ، وتعرف أنه يستعين بالأجانب لينتفع بعلوم العصر ومعارفه حتى يقوى ساعده وساعد مصر ! ولكن نورا لا تعرف ذلك! إن دنياها ضيقة مغلقة ! وأنت تفسر كلامها بلسان فئتها على أنه كلام قلبها لك فتحس بطعنة تخلط بين افتتانك بها واستيائك من موقف فئتها !" .

وقال فريد "وما شأن هذا بتحذيرى من 'التحدى' الذى قد يدفع بى – كما تقول – إلى فعل ما لا أريد ؟" فابتسم ڤيار بسمة عريضة قائلاً "قد تدفعك مشاعرك الشخصية إلى أن تتصور أن موقف طائفتها يمثل رفضًا من فتاة لحبيب يخطب ودّها ! وقد يجرفك إحساسك بالإهانة نتيجة الرفض إلى التنكّر لأصولك وجذورك ، بل والانقلاب على أهلك وذويك حتى تطرح عن نفسك الإهانة التى وجّهتها إليك ، دون إدراك كامل منها ، بلسان طائفتها ! أى إن قلبك قد يتغلب على طبعك وعقلك ، إذ يطمس التحدى بصرك ، فلا ترى إلا الارتقاء إلى طائفتها ، ولو على حساب أهلك وذويك – كما قلت – من الفلاحين !" .

وقال فريد بصوت خفيض "لست فلاحًا !" فصاح ڤيار "ها أنت تعود إلى الإنكار! إذن فاعلم أننى سليل أسرة من الفلاحين ، وأن فرنسا بلد زراعى فى المقام الأول ! وكان من الممكن أن أظل أعمل فى مزرعة والدى لولا غضبه على الامبراطور واهتزاز ثقته فى الحكومة الجديدة ! لولا هذا ما عمل بالتجارة ، وما أشربنى حب التجارة وإن لم أنس الأرض واحترام الأرض ! واسأل صديقك مرادًا !" فقال فريد "لكننى أطلب العلم وسوف أعمل بالتجارة !" فقال ڤيار : "يا صديقى ! ليس الفلاح من يفلح الأرض بيديه ! الفلاح من يؤمن بالأرض ويعشق العمل بها ولها !" .

وأحس فريد أن الحديث قد يطول ويطول دون أن يصل إلى غاية ، ونهار الصيف الطويل يطوى صفحته ، وقد جاء إلى ڤيار ينشد المساندة فلم يجد إلا المعارضة - أو ما يشبه التحذير أو الإنذار ! لكن فريدًا لم يغضب ، بل شعر بحزن دفين ، ولم يكن يريد أن يرحل ، لكن منظر الجزيرة الخضراء التى كانت تلوح كالسراب على البعد جعله يتذكر النقشبندى فابتسم ! لسوف تختفى هذه الجزيرة بعد أيام أو أسابيع ! فأين هو الواقع الذى يتحدث ڤيار عنه !؟ ولما طال الصمت - فى نظر فريد - وإن لم يستمر دقائق معدودة ، التفت إلى ڤيار وقال له "تظن إذن أننى أخطأت حين أحببتها؟" فقال ڤيار ببسمة وُدّ لم ينسها فريد بعد ذلك "لو كنت أحببتها ما أخطأت ! ولكنك كنت تتوق فى تلك السن إلى المرأة ، أو قل إن عينيك تفتحتا على المرأة لأول مرة ، وعندما رأيتها جعلت منها

مثالاً لجمال الأنوثة ، وأدركت فى الوقت نفسه صعوبة الوصول إليها ، واجتماع هذين العاملين هو الذى أوحى إليك بكلمة الحب ، مثلما أوحى إلى الكثيرين من الأدباء الذين يصوّرون الحب فى كتاباتهم لدينا ولديكم ! ولكننا الآن نعيش فى عصر جديد ، ونعيد تعريف الحب ! وأنت قادر على إدراك ما أعنى ، ففكّرْ فيما قلته لك ، ولسوف ترى الواقع بريئًا من شراك خيالك وأحابيله !" فنهض فريد وقال إنه شاكر وممتن ، وودع ڤيار ومضى إلى فرسه ، وعندما ركبه وبدأ رحلة العودة ، تذكر أبيات الإمام البوصيرى وابتسم ، حقًا "إن المحبّ عن العذّال فى صمم !" .

٥

استطاع فريد فى الأيام التالية أن يجد حلاً لأزمة 'الشيخ' عبيد ، إذ أشار على زكريا أن يقصر قبول 'المتطوعين' على فرد واحد من كل أسرة، فيقبل أحد ولَدىْ عبيد ويرفض الآخر ، وعندما سأله زكريا أيهما يقبل وأيهما يرفض ، فهو يجهل خبايا تلك الأسرة ، قال له فريد إن له أن يقبل من يراه أصلح لحمل السلاح ، وله من ثمّ أن يقابل كلا منهما ويحادثه ويحكم عليه ، وعندما قال له زكريا إن الوقت ضيق وربما لن يسمح بتكرار ذلك مع جميع 'المتطوعين' ، قال له فريد إنه لا يظن أن 'حالة' عبيد سوف تتكرر كثيرًا ، وأما شكوك عبيد وظنونه فله أن يتجاهلها! .

وكان فريد يشعر فى تلك الأيام أنه أصبح يمثل 'نقطة التقاء' خطوط كثيرة فى حياة رشيد ، إذ تلتقى لديه خطوط مضرب الأرز الجديد ، وتيسير استكتاب الرجال وإعدادهم للسفر ، وعمل الوكالة الذى ازداد فى الصيف زيادة كبيرة ، واستصلاح الفدادين اللذين وافق الكاشف على بيعهما لفريد بسعر 'السوق' – كما وعد – أى بمائة قرش للفدان الواحد – وأشير إلى الأرض فى عقد الشراء باسم 'أرض الباشا' ، وإلى امتلاكها بأنه امتلاك منفعة لا امتلاك رقبة ، وكان يوم إمضاء العقد يومًا مشهودًا إذ اقتصر فريد فى حديثه مع الكاشف على ما تعلّمه من إبراهيم الشينى ، بعد أن قضى معه 'إبراهيم أفندى' – كما كان أبوه يسميه – ساعة أو بعض ساعة يشرح له أدق التفاصيل ، وهى التى كان ڤيار يسميها 'نقاط القانون' ، ويوصيه بما ينبغى عليه أن يقوله وما يجب عليه أن يتحاشاه ، وأضاف فريد إلى القسم الأخير كل إشارة إلى نورا ، فكان يلتزم الصمت كلما أشار الكاشف إلى ابنته ، وقلب فريد يخفق ويردد فى خياله ما ذكره ڤيار ثم يضحك منه فى أعماقه ، وكلمات البيت المشهور تدق كالطبل عاليًا "لا تعذل المشتاق فى أشواقه / حتى تكون حشاك فى أحشائه !" .

ومر ذلك اليوم بسلام – والحمد لله – وإن كان فريد لا يزال يحاول أن يستوعب ما قاله ڤيار ! إنه لا يشك فى صدق صديقه وصراحته ، لكنه لا يظن أن ما قاله من 'الافتتان' يصدق عليه ، فلقد افتتن بالجارية الرومية التى شاهدها فى منزل اسماعيل الخشاب ، ذات البشرة البيضاء والعينين

الخضراوين ، لكنه لا يحبها ولو 'اتفق طريق حياته مع طريق حياتها !' كما يقول ڤيار فى تعريفه الذى لم يسمع به أحد للحب ! ألم يقرأ ذلك الرجل قصص الأولين ؟ ألم يقرأ شعر الشعراء ورسائل المحبين ؟ وتذكر الكتاب الذى كان صديقه 'على الشامى' قد وعد بإحضاره له ، والذى سمع فريد نُتَفًا منه فى دروس الأدب للشيخ المرصفى الكبير - ألا وهو 'طوق الحمامة' لابن حزم ! لابد أن فى الأدب الفرنسى نماذج مشابهة ، وإلا ما انال ڤيار ما قاله ! ولكن فريدًا كان لا يزال يعجب لأن استياءه الدفين من بنت الكاشف ، والذى كان يبلغ أحيانًا حد الحقد المكتوم أو الكراهية المضمرة ، لم يفلح فى زحزحة أحاسيسه الأولى نحوها ! فكيف يجتمع النقيضان ؟ وذكر تعريفات الشريف الجرجانى وأضداد ابن الأنبارى وزادت دهشته !.

ولم يمض أسبوعان على إمضاء عقد البيع حتى كان مراد قد أعد الأرض . وأخذ من فريد مبلغًا يساعده على بناء الصوبات ، باعتباره قرضًا حسنًا ، واستكمل إبراهيم الشينى طلاء واجهات مضرب الأرز باللون الأبيض الجيرى الناصع ، فكان فريد يمر عليه كل يوم ويقول فى نفسه ما أجمله ! إنه يشبه حمامة بيضاء على شط النيل ! فكأنها وردت الماء لتشرب ! وكانت شمس توت الحارقة تسطع عليه طوال النهار ، فتشرق عليه فى الصباح وتلقى عليه ألوان الغروب الطويل مساءً فيزداد بهاءً ورواءً ! وسأل فريدٌ عن عدد الذين 'تطوعوا' (أو استكتبوا أنفسهم) فاتضح أنه كان أقل من المتوقع ، وهو ما أحزن فريدًا بعض الشىء، لكنه

كان يقول فى نفسه إنه لابد أن يلتمس الأعذار 'للفلاحين' فهم يعلمون – رغم إغراء حج بيت الله الحرام والراتب الكبير – أن الرحيل قد لا يعقبه وصول ، وأن تحمل 'المعلوم' – وإن كان شظف العيش – أرحم من الذهاب إلى المجهول ! وكان يمنّى نفسه بأن 'يتطوع' العدد الكافى من الرجال لتجنيب رشيد دفع الغرامة الفادحة التى فرضها الباشا ! وعندما سأل أباه عن موقف الشيخ النقشبندى قال له أبوه بنبرات حزينة "لقد فرّ الجميع وتفرقوا فى البر الثانى بعد أن غمرت المياه سطح الجزيرة الخضراء ! وأخشى ما أخشاه أن يطاردهم الباشا فيقطع دابرهم ، إن لم يكن اليوم ، لانشغاله بالحرب ، فغدًا بعد أن يعود الجنود ! بل أخشى ما هو أنكى وأمرّ !" فنظر إليه فريد دهشًا إذ لم يكن يرى ما هو أنكى من 'قطع دابر' طائفة ترفض تقديم الرجال والمال ، فقال أبوه "أخشى أن يأمرنا نحن بالقيام بهذه المهمة – ونحن مصريون مثلهم !" .

الفصل التاسع

تحـــولات

عندما اقترب شهر شوال من نهايته ، وحل الخريف مع انتصاف شهر توت تقريباً (أواخر أيلول) جاء رسول من الباشا يسأل عن الرجال والمال ، فقال له شيخ البلد إن الناس لم تعتد الحرب من قبل فى جيش السلطان ، وطلب إمهاله عدة أيام ، فقال إنه لن يرحل إلا ومعه الرجال أو المال أو هذا وذاك معًا ! وكان يحادث شيخ البلد وفى صحبته عدد من جنود الحامية ، ولاحظ شيخ البلد أنهم يحملون بنادق من نوع جديد ، عرف فيما بعد أنها فرنسية الطراز وأنها 'متتابعة الطلقات'، وعندما سأل عن معنى ذلك قيل لـه إنها لا تشعل بالفتيلة ، أى إن الجندى لا يحتاج 'لتعميرها' فى كل مرة يطلقها ، بل كل عدة طلقات ! ودهش شيخ البلد لما يسمع وقال إن الأمر خطير ، فالتهديد المضمر أصبح تهديدًا سافرًا ! وفى آخر يوم من أيام شوال ، وكان يوافق العشرين من توت (أول تشرين الأول) استدعى شيخُ البلد جرجس، وناقشه فى الأمر ، ثم لحق بهما زكريا وعبد الرافع، فأطلع الجميعُ الشيخَ الغاياتى على ما بذلوا من جهود، فأمرهم بإعداد الأوراق والسجلات الكاملة ، وكلّف عبد الرافع

بالمرور بنفسه على أعضاء المجلس ودعوتهم إلى اجتماع فى منزله فى المساء ، وقال له "لابد أن يحضر الجميع ! وألا يتخلّف أحد لأن الأمر خطير!" وسرعان ما مرّ عبد الرافع على الأعضاء ، ودعا معهم لأول مرّة الحاج محمد شبابو - شهبندر التجار - وقال عبد الرافع لفريد وهو يُبلغه 'الأمر' أن يستعد لسهرة طويلة !

كان المجلس مكتملاً فى الموعد المحدد بعد صلاة العشاء ، وكان فريد قد جاء راكبًا فرسه فوجد أن أباه قد سبقه ، ولاحظ أنه كان آخر القادمين وأن مكانه 'الجديد' كان يقع إلى جوار جرجس وزكريا فعبد الرافع وهكذا حتى تكتمل الحلقة بالحاج محمد شبابو الذى جلس بجوار الشيخ الغاياتى فحدس أن الترتيب كان وفقاً للسّنّ ، وحالما جلس فريد تنحنح الشيخ الغاياتى ، وبعد المقدمة الموجزة المعتادة ، قال إنه دعا شهبندر التجار الحاج محمد شبابو لحضور هذه 'الجمعية' لا بصفته عضواً فى المجلس (فأعضاء المجلس لم يزيدوا هذا العام إلا 'الشيخ فريد' ممثلاً للعلماء ، وخلفًا للمرحوم بدر الدين المغربى الصفاقصى) ولكن بصفته رئيساً لمجلس التجار ، إذ سوف يتولى مجلس الكبار الآن تحديد 'الغرامات' المطلوبة ودور كل من الأعضاء فى جمعها فى غضون أيام معدودة. وقال إن الأعضاء يعلمون أن عدد المتطوعين أقل مما كان الشيخ فريد يأمل ويرجو ، وأقل بكثير مما كنا نطمع فيه حتى لا ندفع أكثر مما اعتدنا دفعه من ضرائبَ ومغارمَ وفرَضًا منوعة ! وانتهى إلى دعوة زكريا للحديث تفصيلاً عن كل ما انتهت إليه جهود الكاشف ورجاله فى نواحينا المباشرة ، وجهود كشاف المناطق الأخرى ورجالهم فى النواحى التى سوف تتبع محافظة رشيد .

ووضع زكريا الأوراق التى كان يحملها على ركبتيه وانطلق يقرأ والجميع ينصت فى سكون حتى انتهى ، ثم نظر إلى الحاضرين وقال "يتضح من هذا أن الكاشف لم يُوَفَّق فى جهوده لإقناع شيوخ البلد فى المناطق التابعة لنا مباشرة بتقديم الرجال والمال على النحو الذى قررناه – أنا والمباشر – ووفقًا لحسابات جرجس المعتادة! أما الكشاف الآخرون فى النواحى التى ستتبعنا بعد أن نصبح محافظة فقد أدّوا ما عليهم كاملاً من الرجال والمال جميعًا! والنقص يرجع إذن وبوضوح إلى تراخى كاشفنا وتكاسله مع شيوخ البلد فى المناطق التابعة لنا مباشرة! وهذا يضعنا فى مأزق لم نعمل له حسابًا ، وخياراتنا لدى جرجس ، وأستأذنكم فى أن يعرضها" .

فقال الغاياتى "بل أود أن يوضّح لنا جرجس أولاً إن كان قد ظلم النواحى التابعة لنا بعض الشيء ؟ فما الأساس الذى حسب عليه عدد الرجال والمال ؟" فقال جرجس : "الأساس لم يتغير ! إنه حساب الضرائب المعتادة التى تفرض على الحيازات الزراعية ، والعقارات المدرّة للدخل ، والأعمال التجارية، والصناعات والحرف وما إليها! وها هى الأوراق معى لم تتغير! وقد أعفينا العاطلين، والعجزة، وكبار السّنّ، والأطفال ، والنساء من غير ذوات الأملاك! والأوراق متاحة لمن يطلبها عند إبراهيم أفندى الشينى ! ولقد قسّمت المبلغ الكلى على أساس نسبة الضرائب ، فإذا قُدّر على ناحية ما ثلاثون كيسًا ، كان عليها أن تقدم إما ١٥٠ رجلاً أو الأكياس الثلاثين ، وكل رجل يَنْقُصُ يُدفع فى مقابله مائة قرش ! ولقد قدّمْتُ هذا الحساب لأخى زكريا فاكتشف أنه يتفق مع نسبة

زكاة المسلمين ، أى ربع العشر ! ومن ثَمّ نجح الوكلاء فى استكتاب ثلاثمائة وخمسين من رشيد نفسها بزيادة خمسة وعشرين عن المطلوب ، فعدد سكان رشيد ثلاثة عشر ألف نفس حسب الدفاتر ، أملاً فى ألاّ ندفع أى أموال ، ولكن المندوب استعرضهم منذ يومين واستبعد خمسة وسبعين إما لكبر سنهم أو لما اعتبره عيوبًا خِلْقيه فيهم ، وهذا معناه أن علينا أن ندفع بدلاً نقديًا يبلغ عشرة أكياس! وهذا هو الخيار المتاح أمام رشيد حاليًا ، والأمر معروض على أعضاء المجلس!" .

وبدا أن المجلس راضٍ عن العرض الذى قدمه جرجس ، وإن كان الشيخ الغاياتى (وكان زكريا قد أحاطه بذلك من قبل) قد انهمك فى حديث جانبى مع الحاج محمد شبابو ، وسرعان ما تبادل أعضاء المجلس أحاديثهم الجانبية ، ولكن فريدًا ظل صامتًا يتأمل دقة الأرقام ويتمنى الإعراب عن إعجابه بها ، لكنه قال فى نفسه إن هذا عملهم وهم يتقنونه ، وظل السؤال الأكبر دون إجابة وهو كيف يستكمل العدد المطلوب من 'النواحى' التسعة التابعة مباشرة لزمام رشيد ؟ وكيف أخفَقَ الكاشف فى إقناع شيوخ البلد فيها بإجابة مطلب الباشا ؟ وكيف نجح الكُشّاف الآخرون وكم عدد الرجال الذين قدّموهم ؟ وتنبّه فريد لوجود شخص لم يره قبل ذلك ، فمال على جرجس يسأله ، فقال له جرجس إنه أبو عجلة ممثل الصيادين والعاملين بالبحر ، فتذكر فريد الرجل الذى صاحبه فى رحلة العودة إلى رشيد (عباس الشباسى) والذى حكى له عن اختفاء صياد يدعى (أبا عجلة) أيضًا ، وتعجب لهذه المصادفة ، وفى هذه اللحظة دخل الخادم الذى أتى فى المرة السابقة بالعرقسوس ، وكان يحمل فى

هذه المرة صينيّة ضخمة عليها كنكات قهوة وفناجين كثيرة ، وعندما بدأ يدور بها على الجالسين على الحشايا ، و يضعها على المناضد الصغيرة أمامهم سمع فريد الشيخ الغاياتى يقول "تفضلوا القهوة ؛ الليل طويل وأمامنا سهرة مديدة !" وشُغل فريد بشرب القهوة ، والأسئلة تتزاحم فى رأسه عن كيفية علاج القضية ، فعاد الغاياتى يقول : "لا أرى أن عشرة أكياس مبلغ كبير وقد اتفقت مع الحاج محمد شبابو على تدبيره فى صباح الغد ! وسوف يُبلغ كُلاً منكم بما قُدّر عليه ! ولكننا نريد أن نعرف من زكريا مقدار العجز والحلول الممكنة ! هل يتفضل زكريا ؟" .

وضع زكريا فنجان القهوة على المنضدة ، ونظر فى الأوراق التى بين يديه وقال : "جاءت الكتب إلى شيخ البلد من شيوخ النواحى التى لا تدخل حتى الآن فى زمامنا ، والتابعة للمناطق البعيدة مثل إدكو والمعدية والطرح غربًا وغيرها ، تسأله عن كيفية حساب الرجال والأموال طبقاً لما وافق عليه المجلس فى جمعيته السابقة ، فشرحْتُ ذلك لشيخ البلد لدينا هنا وقدمت له الأساس الذى عَرَضَه أخى جرجس ، فأرسله لهم ، وكان ذلك يوم ٥ شوال (أول أيام النسىء) ، وبعد ثلاثة أسابيع جاءت الكتب للشيخ الغاياتى بأن تلك النواحى جميعًا ، وعددها أربع وعشرون ، تمكنت من تجنيد خمسة وسبعين وأربعمائة رجل ، من مجموع ما قُدّر عليها وفقاً لحسابات الضرائب (الذى يتفق مع حساب الزكاة) وهو خمسمائة ، وأن شيوخ البلد فيها جمعوا خمسة أكياس عوضًا عن باقى الرجال وأن الكشاف الثلاثة فى المناطق المذكورة وافقوا على ذلك ، وقالوا إن مندوب الباشا قد استعرض الرجال وأعلن صلاحيتهم ، وكلّفهم بالتوجّه إلى

قشلات أبى مندور فى الأسبوع القادم لركوب السفن التى ستقلهم إلى مصر . أما النواحى التى تتبعنا مباشرة من برج رشيد شمالاً إلى برج مغيزل جنوبًا إلى الكوبرى الفرنساوى غربًا فكان حسابها خمسة وسبعين ومائة رجل، ولم يُفلح كاشف رشيد فى جمع هذا العدد أو تعويضه بالمال، وعلينا الآن أن ننظر إما فى دفع الأكياس المقابلة ، وعددها خمسة وثلاثون ، وإما أن نبلغ المندوب بعجز الكاشف ، والأمر معروض على المجلس" .

ولم تقتصر المحادثات الجانبية على الهمس هذه المرة ، بل إن الأصوات ارتفعت ، وبدا أن اللغط يمكن أن يتواصل بلا نهاية ، فصفق الشيخ الغاياتى صفقتين وصاح بصوته الجَهْورىّ لجذب انتباه المجلس ، فصمت الجميع وقال الشيخ : "نحن جميعًا إخوة فى حب بلدنا والإخلاص لأهلينا ، فدعونا نسمع الآراء رأيًا رأيًا قبل أن ننتهى إلى ما يوافق عليه الجميع ! ودعونى أذكركم أن الشورى التى نعمل بها والتى ينسبها الناس إلى الفرنسيس ركن من أركان الدين ! فلنبدأ بأصغر الأعضاء سنًا ، وإن يكن أكثرنا علمًا ! ماذا ترى يا شيخ فريد ؟" فقال فريد "بل أرى أن يبدأ أكبرنا سنًا وأرجحنا عقلاً ! وليكن الحاج محمد شبابو مثلاً !" فعلا صوت علىّ الساعاتى قائلاً "بل يبدأ فريد ! فهو الذى أوقعنا فى هذه الكارثة ! أما كفانا دفع عشرين كيسًا إلى الكاشف ابتغاء دفع البلاء عنا حتى ندفع خمسةً وأربعين اليوم للباشا نفسه ؟ لقد ذهب فرّاش دكانى فاستكتب نفسه طمعًا فى قروش لن ينالها ذلك الطماع الأبله ! هل غدونا مدينة من البلهاء ؟ نريد أن نسمع رأى العالم فريد حتى نستنير ! " .

ونظر فريد إلى الجمع فرآهم ينظرون إليه فعرف أنه لابد أن يتحدث، وعرف أنه يواجه اختبارًا جديدًا لقدرته على 'الرياسة' فحمد الله وقال ''البلاء يا سادتى ليس فيما نقدّمه من عَرَض الدنيا الزائل ، بل فى شُحّ النفوس ! ونحن نفدى أرواحنا بأموالنا ! ولقد سبق أن قلتُ ذلك ولكن البعض يريد التذكير ! أليس هدفنا أن نتقى غضب الباشا ؟ أليست غايتنا إتقاء هجمة لا تُبقى ولا تذر ؟ ألم نجزعْ ونفزعْ لحلول الأرناؤوط من ثمانية أشهر أو ما يقل قليلاً عند أبى مندور ؟ هل نسيتُمْ كيف باتت البلدة ليلتها ؟ لقد شهدت بعينى رأسى فى القاهرة كيف هجم الجنود على سوق حى الحسين فنهبوه نهبًا وعاثوا فيه فسادًا ! واليوم يعود إلينا بَأْسُهُمْ مسلحًا بأسلحة لا قِبَلَ لنا بها ! واسألوا الشيخ الغاياتى ! أجل ! غايتُنا إتقاء آزفة ليس لها من دون الله كاشفة ! ولن يتأتى ذلك إلا بأن نُرضىَ الباشا بأن نجيبَه إلى ما يطلب ! ولقد دفعنا راضين عشرين كيسًا كى نُعين الكاشف على رحلة رجونا منها النجاء ، فهل نبخل اليوم بخمسة وأربعين تحقيقًا لنجاء مؤكد ؟ لقد غضب – كما تعلمون – على السيد حسن كريت ، نقيب أشراف رشيد ، وهو يتعرّض كل يوم للنفى مثل السيد عمر مكرم ! وليت السيد فعل ما يستوجب الغضب ! لقد اعتذر بلباقة عن مصاحبة الحملة العسكرية إلى الحجاز – فهلْ عليه فى ذلك ملام؟ الحصيف من بغيره اعتبر يا سادتى الأجلاء !'' .

فقال الساعاتى ''طبعًا ! يريد إنقاذ الكاشف ! صاحبه وخليله ! بل وصهره فى الغد القريب ! نحن أعضاء مجلس واحد يا شيخ فريد ، وأبناء بلدة واحدة ! وهذا الذى تقوله لا يجوز ولا يُرضى الله ! ندفع خمسة

وأربعين كيسًا - منها خمسة وثلاثون بدلاً عن أناس تقاعسوا وتخاذلوا وتدافع الآن عنهم ؟ اتق الله فى أموالنا يا من تحفظ كتاب الله وتعمل بسُنَّة نبيّه !" وارتبك فريد حين سمع التلميح بل الإشارة الواضحة إلى زواجه من ذات العينيين الخضراوين ، لكنه استعاد رباطة جأشه بسرعة ظل يذكرها مدى الحياة وقال :

"يا سيد ساعاتى ! ليس بينى وبين الكاشف إلا ما بينك وبينه ! عمل خالص - سواء كلّفنى به المجلس أو بناءً على تكليف الباشا ! فشراء أرض المضرب أمر من أوامر الباشا ، وهو الذى أمضى الحُجّة ! واقتصرتْ كل مقابلاتى معه على إبلاغ أوامر المجلس وتكليفاته لى ! وإن كنت قد اشتريتُ فدانين من الصحراء الجرداء ، فهى من أراضى الباشا ، وثمنهما معًا مائتا قرش ، والعقد موجود لمن يريد الاطلاع عليه ! هذا التجريح يا إخوانى لايليق بمجلسنا الموقر ، وإن استمر فأرجو أن يأذن المجلس لى بالانصراف!"

وعلت الأصوات تطالب فريدًا بمواصلة الحديث ، كما سمع اعتذاراً من أحد الأعضاء ، وشدّ جرجس على يده ناصحاً إياه بالثبات ، لكنه لم يكن فى أعماقه يريد الانصراف حقاً بل تأكيد مكانته بين أعضاء المجلس، وكان رد الفعل جماعياً - أو شبه جماعى - وهائلاً ! وطلب منه الغاياتى أن يواصل الحديث فقال فريد إنه يقدّر ما فى دفع هذا المبلغ من إرهاق مالىّ للناس ، ولكن أوامر الباشا جديرة بالمعاناة التى يتكبدّها الناس ، وذكرّهم بأيام المماليك فأمّن الكبار على كلامه وهزّ الآخرون رؤوسهم إيمانًا واقتناعًا ، ومضى فى تفصيل رؤيته 'للحل الأمثل' ألا وهو

الترحيب بالتغيير بدلاً من معارضته، ويكفى الباشا فخراً أنه يثق فى قدرة المصرى على حمل السلاح ، وأنه بدأ يتحوّل إلى الصناعات التى تدرّ دخلاً كبيراً على البلد ، وذكّر الحاضرين بمدبغة الجلود التى علم بإنشائها فى العام المنصرم ، وبالترعة الصغيرة التى أحيت المناطق الجنوبية من رشيد ، وبمضرب الأرز الذى أوشك أن يكتمل ، وبازدهار ميناء رشيد بعد إلغاء 'ديوان البدعة' الذى كان 'مراد بك' قد أنشأه ! واختتم حديثه الطويل المسهب بالإشارة إلى عجز الكاشف عن تحصيل المغارم المفروضة على الجزيرة الخضراء ، قائلاً إنه قد يتسبب بفشله هذا فى إيرادهم موارد التهلكة ، ولو أنه أسرع بتحصيل الأكياس العشرة وتجنيد الرجال العشرة بدلاً من كيسين آخرين ، وفقاً لحسابات جرجس ، قبل أن يغمر النيل أراضيهم ويتفرقوا لوقاهم شراً مستطيراً !

وقال الساعاتى حزيناً "تريدنا أن ندفع صاغرين إذن ؟ لكأنك ترى العدل فى أن نتحمل الأعباء التى قدّرها الباشا على غيرنا ! سلوا أنفسكم هل هذا عدل ؟ كيف أقنع رجال الصناعات الدقيقة الذين أمثلهم بدفع ما حُقّ على غيرهم ؟ لسنا فلاحين فنستطيع الفرار من وجه الظلم كما كانوا يفعلون أيام المماليك – واذكروا مغبة هذا الظلم ! اذكروا كم هاجر من أبناء بلدنا إلى الشام فى تلك الأيام السوداء ! فهل يريد الباشا إعادة الغُمّة بدلاً من رفع البلاء عنا ؟ وهل نترك له الأرض خاوية على عروشها حتى يفلحها جنوده ؟ لم لا نواجه الباشا ونصارحه بآرائنا بدلاً من هذا الاستخذاء ؟" .

وساد صمت ظن فريد معه أن الرجل قد نجح فى استمالة البعض فأسرع يقول "الخطأ يا على أفندى ليس خطأ الباشا بل خطأ الكاشف ! وإذا كنا نريد أن نتقى غضب الباشا فنحن نريد أن نتقى غضب الكاشف أيضًا ! إن لديه جنودًا يستطيعون أن يسوقوا من يريدون مكبّلين فى الأغلال إلى السفن وإرسالهم إلى الباشا ! وإذا استدعى رجالَ الحامية فى أى لحظة من لحظات الليل أو النهار لبّوا أمره طائعين ! فإذا كنا ندفع اليوم ثمن خطأ من أخطائه فإنما نشترى بالمال أمننا وسلامتنا ! قد يكون من واجبنا أن نُطلع الباشا على حقيقة الأمر، فيدرك أخطاء كاشفه – وهو الكاشف الذى ورثه الباشا من المماليك – ولكن الخطر كل الخطر فى أن يعلم الباشا تفاصيل 'النواحى' التى لم تقدم الرجال ولم تدفع، فيصبّ عليها جام غضبه !" .

وبدا أن المجلس قد اقتنع بكلام فريد إذ هزّ الرجال رؤوسهم موافقين، ولكن الغاياتى كان لا يزال يتهامس مع الحاج محمد شبابو، ولم يلبث أن قال "وماذا ترى فى هذه القضية إذن يا شيخ فريد ؟ أن ندفع صامتين صاغرين فتتكرر الحادثة بعد أن تغدو سابقةً يُقاس عليها؟ كيف يُحيط الباشا علمًا بقصور الكاشف دون الإحاطة 'بالنواحى' المتقاعسة ؟ وكيف يكون ذلك دون أن يعرف الكاشف أننا أحطنا الباشا علمًا بقصوره فينتقم منا !؟" فقال فريد "وقانا الله السوء وإياكم ! للباشا عيونه ولنا عيوننا ! والباشا يولى عيونه من الثقة أكثر مما يوليه لشيخ البلد أو لنقباء الحرَف أو حتى للكاشف ! والمعلومات الصحيحة فى دفاترنا السرية ، لكننا لن نطلع أحدًا عليها ، بل سنوحى لعيونه بقصور الكاشف

دون ذكر للنواحى ! والعشرة المجتمعون هنا قد أقسموا على الكتمان وان يخون أحد منهم الأمانة ! فليكلّفْ المجلس أحدنا ممن سبق له القيام بهذا العمل ، بأن يوحى لعيون الباشا بما نريده – وما نريده فقط – من حقائق! والباقى على الله !" فقال الغاياتى "أحسنت يا شيخ فريد ! فليكنْ ! ولنكلّفْ الحاج عبد الحكيم – ولندفع المبلغ المطلوب غداً ، إذا وافقتم !" ولم يسمع الغاياتى اعتراضاً فقال "على بركة الله إذن ! انفضّت الجمعية!" .

٢

لم تنقض أيامٌ حتى صحت رشيد – ذات يوم شديد الحرارة ، فى أواخر توت (أوائل تشرين) – على نبأ وفاة طوسون ، ابن الباشا الكبير ، فى برنبال ، بعد مرض قيل إنه لم يمهله عشر ساعات وقيل إنه توفى قبل اجتماع المجلس بيومين وتكتم الناس الأنباء حتى نُقل جثمانه إلى القاهرة، وشغلت الشائعاتُ الناس عن الحديث عن 'الجنود' الرشيديين (وكانت الكلمة ذات وقع بالغ الغرابة فى الأسماع) الذين تجمعوا فى قشلات أبى مندور ، وكان المندوب دائم التنقل فى البلدة كأنما يحاول استكناه بعض أسرارها ، أو كأنما كان يقيس أصداء نبأ وفاة ابن الباشا بين الناس ، فسمع الناس وهم يترحّمون عليه ، وقالت له امرأة تبيع الخضر على جانب الطريق "حسرة على شبابه ! مالحقش يشبع م الدنيا!" فاطمأن المندوب بعض الشىء، وكان قد قَبِلَ الدعوة لتناول الغداء فى ذلك اليوم على مائدة الكاشف، لكن النبأ جعله يسرع بالرحيل قُبيل

أذان الظهر إلى القاهرة ، تاركًا وكيله بعد الانتهاء من إجراءات ترحيل 'المجندين' ونقل الأموال نهرًا إلى القاهرة .

وتوجه فريد فور سماعه النبأ إلى الأرض حيث توقع أن يجد مرادًا ، لكنه لم يجد سوى زوجة مراد – نفيسة – وكانت حاملاً انتفخت بطنها ولا تزال دائمة الحركة ما بين الحقول ومنزل مالك الصباغ، وكانت تحمل فوق رأسها 'زلعة' ملأتها من ماء القناة لاستكمال مياه الزير الكبير ، وتذكر أن سعاد – 'أخته' – حامل أيضًا وإن كانت قد لزمت منزلها لمساعدة زوجها إبراهيم الشيني في حساباته ، فلم يرها فريد منذ مدة طويلة ، وقال فريد في نفسه لقد اتفق طريق حياة كل من هاتين المرأتين مع طريق حياة زوجها ، فهل يُسمَّى ذلك حبًا ؟ الأرجح أن ڤيار لم يعرف الحب ولم يقرأ الشعر وإلاّ ما قال ما قاله ! وتنبّه إلى صوت نفيسة وهي تقول له "أنا رايحه له الغيط يا شيخ فريد أقول له حاجة !؟" وتردد فريد فقد كان لا يدري على وجه الدقة ماذا يريد من مراد ! فسألها عن محمود فقالت له إنه مع أبيه يعملان على فتح قناة وإغلاق أخرى منذ الصباح الباكر ، بعد مشادّة الأمس! وسألها فريد ماذا تعني بالمشادة فقالت "أنت ما تعرفش ؟ مش محمود اتجنن في عقله ؟! آل إه عايز يبقى عسكري عند الباشا !" وذُهل فريد فاستزادها فقالت "من ساعة ما سمع المنادي في القهوة ، وهو عايز يروح مع العساكر ! أبوه زعّق له قام قال له محمود 'طب اديني تلاتين قرش في الشهر وأنا ما روحش!' وعنها ، وكل يوم خناقة لحدّ ما كلّمه سي مراد – ربنا يصونه – وعقّله شويّة !" وسألها فريد إن كانا قد اشتبكا في مناقشة أخرى يوم أمس فقالت إن مشادة الأمس

كانت بسبب إصرار محمود على زيادة راتبه ، بل إنه عقد مقارنات 'سخيفة' بينه وبين 'سى مراد' ، كأنما يريد أن يتساوى معه ! وقالت إن المشادة ازدادت حدّتها عندما قال محمود إن أباه يفضّل مرادًا عليه لأنه ''أل عسكرى أرنؤوطى آل ! عمّ مالك ضربه بالألَمْ وقال له إياك تطلّعْ الكلمة دى من بُقّك تانى ! مراد فلاح رشيدى وجوز نفيسة بنت خالتك !'' وابتسمت نفيسة فى سعادة قائلة إن محمودًا أبدى الأسف لوالده ووعده ألا يعود لمثلها، وإن مرادًا تدخل وسعى فى الصلح وقرأ القرآن على رأس الغلام حتى يهديه !

كان فريد واقفًا يستمع إلى نفيسة وهو لا يكاد يصدق أذنيه ، وحمد الله على أن 'الجنود' سوف يرحلون بعد أن اكتمل عددهم ، ولكن الباشا قد يطلب جنودًا آخرين ! أما تكفيه رجال القاهرة العامرة بالسكان حتى يتطلّع إلى الفلاحين ؟ وتذكّر ما قاله ذات يوم فى المجلس بل وكرّره عن 'شرف' الجندية والتحاق المصريين بصفوف 'العسكر' ، فهل كان ذلك ترديدًا لما سمعه من ڤيار عن الثورة الفرنسية التى قام بها الفلاحون – ولابد أنه كان يعنى بهم العامة – فحملوا السلاح وأزالوا حكم الملك الظالم؟ ألم يكن ذلك عن اقتناع بأن يحمل أبناء مصر السلاح للدفاع عن وطنهم ؟ هبْ أنهم جميعًا فلاحون حقًا فلم لا يحملون السلاح؟ ألم يشارك هو – وهو بعد صغير – فى قتال الإنجليز وتحقيق النصر عليهم ؟ فلماذا انزعج كل هذا الانزعاج عندما سمع عما انتواه محمود – وربما لا يزال ينتويه ؟ لم يجد فريد إجابة حاضرة ، وكان لا يزال يرقب نفيسة وهى تضع 'الشبّة' فى الزير الذى امتلأ ، وتُحكم وضع الإناء الذى تتجمع فيه

قطرات الماء المتساقطة تحته ، فسألها كأنما يريد تغيير مجرى الحديث إن كانت والدتها - زنوبة - تزورها بانتظام فتنهدت وقالت "أمي تعبانة من يوم ما سقطت !" ولم يفهم فريد إن كانت تعني الإجهاض (وهو الأرجح وإن كان مستبعداً على الخالة زنوبة) أم شيئًا آخر ، فأطال النظر إليها فوجد الدموع تترقرق في عينيها وهي تبلغه أن الأطباء نصحوا والدتها بعدم الحمل وهي في هذه السنّ الكبيرة ، لكن والد نفيسة أصرّ ، فهو يريد غلامًا يحمل اسمه، فكان ما كان وكادت المرأة أن تموت ! وقال فريد بسرعة 'لكنها بخير والحمد لله' فقالت نفيسة 'الحمد لله على كل شيء !' .

وتشعّب الحديث وتفرّع حتّى نسي فريد حرّ النّهار ، وكانت نسمات الحقول الخضراء التي رواها ماء النيل تهّب فتلطّف الجوّ حتى نسي فريد أيضًا أن الظهر قد حان ، ولم يفطن إلي ذلك إلا عندما قالت نفيسة إن عليها أن تحمل الغداء إلى الرجال في الحقل ، فسألها ولم لا تحمله روضة ؟ فقالت إن روضة تعمل مع الأولاد في 'مشروع سي مراد' ! وقال فريد في نفسه "حتى نفيسة أصبحت تعرف 'المشروع' !" وأحس فريد بأن عليه أن يرحل قبل أن يشتد القيظ فالسير في الرمال الساخنة يشوي الأقدام ، ولو إلى مدخل الحقل حيث ترك فرسه ، بل إنه ألقى السلام على نفيسة وحمل 'الزمزمية' التي كان يحمل الماء فيها ، لكنه قبل أن يخطو خطوة واحدة سمع صليل أجراس يعرفها . فتطلع إلى مصدر الصوت فوجد محمداً القزق يلوّح له بيده ! كان ضاحك السنّ يتواثب نحو فريد في خفة يحسدها عليه الصغار ، ولم يعرف فريد هل يفرح أم يخشى ما رآه مجهولاً محوطًا بالغموض ، فتسمر في مكانه وهو يحس أن ذهنه قد

شلّ فأصبح عاجزًا عن التفكير ! وسرعان ما أقبل عليه محمد مُرحبًا ومعانقًا ، قائلاً إنه وصل من القاهرة هذا الصباح ولن يقضى فى رشيد إلاّ ليلة أو ليلتين ، وكيف يكون فى رشيد ولا يقابل صديق الصبا الذى كبر وأثبت جدارته فبلغت أنباؤه أسماع الكبار فى القاهرة ! وتلفّت فريد حوله فشاهد نفيسة وهى تبتعد حاملة 'صُرّة' الطعام ، فحمد الله على أن الرجال فى الحقل ولن يقابل محمدٌ مرادًا ، ولم يكن يدرى ما يكون موقفه إذا علم بسرّ هرويه ، وقال فى نفسه فلأصطحبْه إلى مكان آخر لكنه حار كيف يفعل ذلك ، ولم تلبث النجدة أن جاءت إذ دعاه محمد إلى ركوب العربة معه لأن أمامهما 'مشوارًا' ! وأسرع فريد بالاستجابة تاركًا فرسه تحت الظُّلّة، وعندما تطلع إليه فريد من نافذة العربة الفاخرة ضحك محمد وقال: "لن نغيب! ولن يهرُب الفرس!" .

وانطلقت العربة فى الطريق الشرقى الصاعد إلى تلال أبى مندور ، ولم يكن فريد قد سار فيه منذ سنين ، وكان من الطبيعى أن يتجنّبه عندما حلّ الأرناؤوط ، ودهش لأنه أصبح ظليلاً ، لكنه كان متعرّجًا فكانت العربة تتمايل فى سيرها ، فاجتهد فريد أن يظلّ ثابتًا فى مكانه ، ولم تكن به حاجة إلى الكلام ، فلقد أتمّ المهمة التى كُلّف بها ، ولم يعد يحلُم الآن إلا بالعمل فى المضرب ، لكنه لم ينس 'أزمة' الجنود الجُدُد ، فهو يعلم أنهم يخوضون غمار حياة جديدة لم تكن تستهويه بعد أن سمع ما سمعه من مراد عنها ، ولكنه كان يعزّى نفسه بأن الأقدار تسيّرنا وقدرتنا على الاختيار محدودة فى هذه الأيام العصيبة ! وصعدت العربة التل الأخير بخفّة نادرة ، ولم تلبث أن توقّفت فى قطعة فسيحة من الأرض الرملية

التى سُوّىَ سطحهُا ورُبطت فيها خيول كثيرة ، فنزل محمد القزق ودعا فريدًا للنزول .

وسار الرجلان حتى وصلا إلى أول قشله راع فريدًا منظرها ، فجدرانها من الطوب الناضج (القرميد) وسقفها هرمى من الخشب ، مدهون بالجَمَلَكَّة ، تلمع فى شمس الظهيرة لمعانًا شديدًا ، وكان لدى الباب حارس بالغ الطول ضخم الجرم أسمر اللون توحى ملامحه بأنه حبشى ، فسأله محمد بلهجة الآمر الناهى "قبودان موجود ؟" فقال الرجل بلكنة أجنبية أكدت لفريد أنه أجنبى ، وربما كان عبدًا وأُعتق ، "موكود يا فندى!" ثم طرق الباب ثلاث طرقات ، وبعد لحظات فُتح الباب وخرج منه شاب يرتدى بِزّةً عسكرية إفرنجية ، ولم يكن فريد قد شاهدها إلا مرة واحدة فى القاهرة ، وكان أشقر الشارب واللحية ، جامد الملامح ، فحدس فريد من اسمه ومنظره أنه رومىّ (تركى) فحياه محمد القزق تحية الذى يعرفه خير المعرفة وقدم له فريدًا ، فابتسم الشاب ورحّب بهما ، وقال بلهجة وُدّ واضحة "الشيخ فريد شرفنا !" فشكره فريد وهو يجيل بصره في أرجاء المكان ، ويتأمل كثرة القشلات وأحجامها فظن أن عدد الأرناؤوط لم يكن يقل عن ثلاثة آلاف ، وإن ثبت له خطؤه فيما بعد ، إذ لم يرسل إسماعيل ابن الباشا إلى أبى مندور إلا ألف جندى فقط ، وسرعان ما قال محمد القزق "جئت حسب الموعد لأطمئن على رحيل الجنود الجدد!" فقال قبودان "رحل الجميع فجر اليوم عندما هبت الريح المواتية، ولو أنهم يبحرون ضد التيار والنيل عالٍ كما تعرف ! وقد قضيت

أنا وزملائى أسبوعًا كاملاً فى إعدادهم للرحلة ، وتدريبهم على الملابس الجديدة ، والنظام ، والاستيقاظ فى المواعيد المحددة – أعنى الانضباط العسكرى ، أما التدريب الحربى فسوف يتولاه إبراهيم ابن الباشا !" ثم ضحك وقال "والفضل يرجع إلى الشيخ فريد !" فقال فريد بسرعة "أستغفر الله ! كلهم متطوعون !" فقال محمد القزق : "فلماذا لم يتطوع أحد من النواحى التابعة لكم ؟" فقال فريد "بل تطوع خمسة وسبعون وأربعمائة رجل ! وهو ضعف من تطوع من رشيد !" فقال قبودان "محمد يقصد النواحى الداخلة فى زمام الكاشف مباشرة !" فقال فريد "تلك أمور من اختصاص الكاشف ! ولا أُسأل أنا عنها!" فقال محمد القزق "إذن يُسأل الكاشف عنها !" .

وفى هذه اللحظة فتح باب القشلة من جديد ، وظهر الحبشى الضخم مرة ثانية وقال "اتفدّلوا ! البك كاهز !" وكاد فريد أن يضحك لكن محمدًا أمسك بذراعه وضغط عليها ففهم فريد الإشارة ، ودخل ثلاثتهم إلى بهو فسيح فى آخر مكتب جلس عنده شخص مهيب فى مقتبل العمر ، جاحظ العينين ، أسمر البشرة ، كث الشارب واللحية، وتقدّم محمد القزق وفريد من المكتب ومن خلفهم قبودان حتى واجهوا المكتب تمامًا فنهض الرجل المهيب ، فإذا هو نحيل طويل ذو كرش لا يتناسب مع نحافته ، ومد يده إلى فريد ومحمد فسلّم عليهما وطلب منهما الجلوس ، فجلسا على بعض الكراسى الخيزرانية الغليظة فى مواجهة المكتب ، وأشار إشارة مقتضبة إلى قبودان فخرج دون تحية، وبعد لحظة ظهر المارد الحبشى من جديد وفى يده صينية عليها قهوة فوضعها على المكتب وخرج دون أن يتكلم .

وتكلم البك أخيراً فرحب بالضيفين وقال لمحمد القزق إنه تأخر فى الوصول ففاته وداع المجندين ، فقال محمد إنه أتى براً لأنه يخاف ركوب 'البحر' أيام الفيضان ، فقال البك إنه سيحرص على إعداد مركبة سريعة له فى المرة القادمة ، وفجأة قال محمد لفريد - والبك ينصت فى صمت - إن البك ضابط برتبة ميرالاى ، وإنه سيتولى قيادة الفرقة الرشيدية فى بلاد العرب ، "فيصبح من أهلنا وناسنا" وإنه قام لهذا السبب بدراسة شتى أحوال رشيد عن كثب فى الشهور الماضية ، وأحب مقابلة فريد • لكثرة ما سمع عن خصاله الحميدة ، فأطرق فريد وقال من جديد "أستغفر الله !" فقال البك بنبرات وُدّ لم يشك فريد فى صدقها "أنت أصغر سناً مما كنت أتصور ! ولكن هذا لا يعيبك - فكلنا فى عنفوان الشباب ! ولقد سمعت الكثير عنك فأحببت أن أراك ، وقد أخَّرْتُ موعد المقابلة حتى أتأكد عملاً لا قولاً مما بلغنى ! ومحمد يقول لى إنك رفضت العمل معه لدى المعلم غالى !" فقال فريد بسرعة إلى محمد "هل قلت لك إنى أرفض ؟" فضحك البك وقال "جميل جميل ! لم تقل له إنك ترفض ! ولكنك لم تقبل ! وعدم القبول معناه الرفض ، وأنا أُقدّر موقفك ، فلقد كنت لا تزال تعتزم الحصول على الإجازة العالية من الأزهر ، وكان من الطبيعى أن تؤجل الفصل فى الأمر حتى تتبين ما يأتى به الزمان ! وها قد تَبَيَّنْتَه - فيما أرى - واضطلعتَ بأعباء لم تكن تخطر لك حين عدت إلى رشيد !" وأسرع فريد يقول "ولكننى لست محاسباً ولا علم لى بالحسابات ، فكيف أقبل ؟" .

فضحك البك ضحكًا طويلاً وقال "لم يَخِبْ ظنى فيك ! بل أنت أذكى مما تصورت ! فأنت تعلم أننى لم أحرصْ على مقابلتك اليوم لإقناعك بتغيير رأيك !" ونظر البك طويلاً إلى وجه فريد كأنما ليقرأ ما كُتب فيه من أسرار ، ثم قال "وتعرف - لا شك - أننا نعرف كل ما يجرى فى رشيد منذ أن انتصرتم على الإنجليز ، فى رشيد نفسها وَحْدَكُمْ ، ثم فى الحمّاد بالتعاون مع جنود الباشا ! إننا يقظون لا تفوتنا كبيرة أو صغيرة ! وأنا أقول إنك تعرف ذلك لأننى أجيد الحكم على الأشخاص ، ولولا هذه المقدرة ما وصلتُ إلى هذه الرتبة العالية وأصبحت بك !" فقال فريد بصوت خفيض "زادك الله علواً فى الرتب !" فزالت ضحكة البك فجأة واكتسى وجهه مسحة جهامة وقال "الوقت ضيق ، ولا شك أنك تريد أن تصلّى الظهر قبل انقضاء وقته ، فانتبه لما أقول لأننى لن أكرره : إنك تشبهنى ، مثلما أشبه أنا الباشا ، فى أشياء كثيرة ! والباشا شاب فى أعماقه ولو كان قد بلغ سن الرسالة وتجاوز الأربعين ، ونحن إذن شباب لأننا نؤمن بالمستقبل ، ونؤمن بالتغيير ، ونقدّر علوّ الهمّة فوق كل خصال الشباب !" وقال فريد فى نفسه إنه لاشك يقصد الطّموح ، وبعد لحظة صمت قصيرة قال البك : "وأنت شاب اجتمعت فيه هذه الصفات ، وفوقها - فى نظرنا - ما تتحلى به من إخلاص لمصر !" .

وقال فريد بتلقائية - كأنما دون تفكير - "كلنا مخلصون لمصر !" فقال البك بسرعة "دعك من المجاملات ! تعلم أن هذا ليس صحيحًا ! فالإخلاص لمصر معناه الإخلاص للباشا ، فلم تشهد مصر فى تاريخها القريب من أحبّها هذا الحب ، ولا أراد لها العزة مثله ! والكثيرون لا

يدركون ذلك بل يتصورون أنه والٍ من ولاة الزمن الغابر ! ولما كنا نقدّر فيك هذا الإخلاص فقد رأينا أن نصطفيك ونَدَّخرك للمهام الجسام ! لكنا نؤمن – مثلك – بعدم إرغام أحد على أن يفعل شيئا لا يريده حقا ولا يرضاه ، وقد فكّر أحدهم فى أن يطلب إليك المشاركة فى الحملة ، ثم رأينا أن الحياة العسكرية قد لا تستهويك ، وأنك قد تكون أسعد وأنجح فى الأعمال غير العسكرية ، فوافق الباشا بنفسه على إدارتك مضرب الأرز ! ولكنى أريدك أن تذكر أن هذا العمل ، على أهميته ، غير جدير بمواهبك وهمتك العالية ! فاذكر هذا ولا تنس أننا نتوقع الكثير منك ! بارك الله فيك !" ونهض البك – إيذانًا بانتهاء اللقاء – فصافح فريدًا ومحمدًا القزق ، وطرق طرقة عالية بعصاه فإذا بقبودان يظهر كأنما انشقت الأرض عنه ويصطحب الضيفين إلى الباب .

وعندما ركب فريد العربة سأل محمدًا عما يعنيه البك ، فقال محمد فى دهشة "لا تَقُلْ إنك لم تفهم ! لقد بَدَأْتَ أولى خطواتك على سلّم المجد!" فتمتم فريد قائلاً "ما مكّنّى فيه ربّى خير !" فضحك محمد وقال "جميل ! أنا أحفظ القرآن أيضًا – أفلا تريد أن تُكْمل الآية ؟" فقال فريد "هذا تضمين وحسب يا محمد!" فقال محمد "لا ! بل مكر جميل ! الآية تقول بعد ذلك **فأعينونى بقوة** فإذا كان هذا مرماك فَأَنْعِمْ به ، أما إذا كنت ترمى إلى ما بعد ذلك – أى جواب الأمر – فهذا ما لا يقدر عليه إلا ذو القرنين !" وقال فريد فى دهشة صادقة "أنت مولع بالتأويل والتخريج مثل شيخنا الباجورى ، ولستُ من أنصار هذا المذهب!" فقال محمد "بل أنت ثعلب !" وضحك، فضحك فريد لضحكه وقال "سامحك الله! وأى قوة تلك التى أريدكم أن تعينونى بها ؟ ومن هم يأجوج ومأجوج ؟

لا لا لا يا محمد أفندى ! هذا شطط لا يرضى عنه الباجورى نفسه!"
وكانت العربة قد وصلت إلى حيث كان فرس فريد ينتظر ، فركبه فريد وحَمَدَ الله على أن محمدًا لم يشاهد مرادًا ، وإن كان فريد يريد أن يقابل محمودًا بعد ما قالته نفيسة عنه ، وعندما بدأ يخبّ به الفرس عائدًا إلى رشيد كان ذهنه ما زال يردد أصداء كلمات البك الذى لم يعرف له اسمًا ! .

٣

ما أن وصل فريد إلى رشيد حتى أهرع إلى مسجد الجندى لصلاة الظهر وانتظار العصر ، وجلس بالقرب من النافذة البحرية التى يسميها الناس 'الطيارة' – ويُقصد بها 'التيارة' أى التى تسمح 'بتيار' من الهواء يلطف الجو – وبدأ كعادته يسترجع أحداث النهار ، ويحاول فك طلاسم ألفاظ البك ومحمد القزق ، فقد كانت حقاً مثل الألغاز ، وقال فى نفسه إن ما توقعه قد حدث ، فلقد علم رجال الباشا بما أراد المجلس لهم أن يعلموه ، ولابد أن يعرف به الباشا فى القريب العاجل إن لم يكن قد عرف به فعلاً ، لكنهم قد عرفوا أن فريدًا كان ضالعًا فى تحقيق الاستجابة لأوامر الباشا ، ولم يكن ذلك مما أريد لهم أن يعرفوه ، فمن يا تُرى أطلعهم عليه ؟ واستبعد فريد أن يكون بالمجلس 'خائن' يسرّب الأنباء ، ولابد أن للباشا عيونًا لا يعرفها أبوه ولا يعرفها أعضاء المجلس ، تُطلعهم على ما يحدث فى البلد ، وتحمل إليهم الأنباء بانتظام ، بل لابد أن لديهم وسائل لنقل تلك الأنباء بسرعة إلى القاهرة ، وإلا فكيف عرف محمد بما حدث فجاء وقد أحاط بكل شىء علمًا ؟ وذكر ما قاله الشيخ إبراهيم الحنفى

– إمام مسجد الإدفينى – عقد صلاة عيد الفطر – حين تعمد الغمز واللمز فقال "ومن طلب العُلا سهر الليالى !" تراه كان يقصد أن فريدًا يطلب العلا ؟ إن كان ذلك ما يراه فقد أخطأ ! ففريد يقول دائماً إنه يعاف الرياسة – وإن كان الناس يقولون إنه مهيأ لها – بل ويعاف الطموح إلى عَرَضٍ من أعراض الدنيا الزائلة – وإن كان أصدقاؤه يقولون بعكس ذلك ! حاشا لله ! إن هو إلا طالب علم فُرض عليه أن يتحمل أعباء لم يكن يطلبها ولا يطمح إليها ، فكان عليه أن يثبت أنه لن يتخاذل أو لن يخذل من ألقى على كاهله تلك الأعباء فأولاه ثقته، من الأقرباء مثل أفراد أسرته ، أو من الأهل والعشيرة مثل أعضاء المجلس! وكاد فريد أن يهنأ ويستريح لما انتهى إليه لولا أن ذكر قول ڤيار إن عليه أن يحيا فى الواقع– والواقع يقول إنه لم يعد طالب علم بعد أن أصبح ينفر من كتبه ، و'يشغل نفسه بشؤون الناس' ، كما يقول ڤيار ، أى إن ذهنه لم يعد مسرحًا لابن خميس وابن عقيل وأمالى القالى ومجالس ثعلب، بل لمراد ونفيسة ومحمود وللشيخ عبيد وأبنائه ! لكنه – كما يقول ڤيار 'لا يضع نفسه فوقهم' ، وإذن فليس فيه من 'الرياسة' التى يعرفها شىء ! وكيف يستقيم ذلك مع قول ڤيار إنه مهيأ للرياسة بطبعه ؟ هل هناك معنى آخر للرياسة لا يعرفه فريد ؟

وأفاق من أفكاره على أذان العصر ، فنهض وتقدم إلى الصفوف الأمامية ، فإذا به يرى والده بصحبه رجل لم يره من قبل ، وإلى جانبه عبد الرافع (المراجع فى دائرة إبراهيم الشينى) فحيا الجميع ، وحين قُضيتْ الصلاة – فرضًا وسنة – أقبل الحاج عبد الحكيم على ابنه فعرَّفه بالغريب قائلا إنه حسين شلبى عجوة (المهندز) وإنه جاء للتأكد من اكتمال

المضرب تمهيدًا لافتتاحه غدًا أو بعد غد ، ثم عرض عليه أن يصحب ثلاثتهم إلى موقع المضرب لتفقد أقسامه ، فرحّب فريد ، وخرج الجميع ، فركب فريد خلف والده (وكان قد ترك فرسه فى مربط الوكالة) وركب حسين خلف عبد الرافع، واتجهوا إلى 'بحرى' حتى وصلوا إلى 'المنشر' القديم فترجلوا وساروا إلى مدخل المضرب فأحس فريد ببهجة لم يعرفها منذ سنوات .

وطافوا بأقسام المضرب – وخصوصًا غرفة الآلات حيث يجرى ضرب الأرز بما يسمى 'اللاط' – وخطر لفريد أن الكلمة قد لا تكون لها علاقة بكلمة لطّ العربية (بمعنى ضرب) بل قد تكون فرنسية الأصل – ثم انتهوا إلى غرف الإدارة ، فتولى عبد الرافع ذكر التفاصيل ، فقال إن غرفة 'المدير' تتصل بغرف المحاسبين ورجال الآلات بأبواب حديثة (إنجليزية الطراز) لا تُغلق بالمفاتيح ولكن تدور حول زنبرك ، وأشار إلى الصوانات التى تحفظ فيها الأوراق وأدوات الكتابة والسجلات ، ثم انتهى إلى قمطر كبير له أدراج تغلق بالمفاتيح ويقع بين شباكين أحدهما 'بحرى' والآخر غربى قائلاً إنه مكتب المدير – فريد أفندى ! وكانت أول مرة يسمع فيها فريد اسمه مقروناً بلقب الأفندى ، بعد أن ظل طول عمره 'الشيخ فريد' ! وجزع فريد وقال بسرعة 'أستغفر الله !' فقال عبد الرافع ألا تعجبك الغرفة ؟ وصمت فريد فقال 'حسين أفندى' : ألن تقدموا لنا مشروبات تخفف من هذا الحر ؟ فضحك عبد الرافع وقال : ما على المدير إلا أن يقرع هذا الصنّج فيأتى له الخادم بما يطلب ! فقال الحاج عبد الحكيم : اقرعه يا فريد إذن ! وأحس فريد برجفة مفاجئة لكنه

قرع الصنج فكان له دوىٌ مـهيب وأحس بأنه يفتح صـفحـة جديدة فى حياته، وسرعان ما دخل خادم - يبدو أنه كان عبداً حبشيًا - فقال ''أوامر المدير!'' فقال الحاج ''اطلب يا فريد شيئاً للضيوف !'' وتردّد فريد وتلعثم لكنه سمع نفسه يقول ''الشاى للرجال !'' واختفى الخادم ، وضحك الحاج ثم قال : فلنجلس حتى يقص 'حسين أفندى' علينا أخبار مصر ! وجلس الجميع على الكراسى الخشبية الجديدة المصطفة بنظام بديع ، وهبت نسمات الأصيل من الشباك البحرى ، فتطلع منه فريد إلى الخضرة الممتدة فى الحقول خلف المضرب ، فوقعت عينه على قصر الكاشف فخفق قلبه ، لكن حسين أفندى لم يلبث أن قال :

''رحل إبراهيم ابن الباشا على رأس حملة جديدة منذ أسبوعين إلى الصعيد ، فتوقف فى قنا واستطاع تجنيد ألفين من الفلاحين ، ثم توجه معهم ومعه سائر جنده إلى القُصير ، حتى يعبروا البحر الأحمر إلى ينبع، أما السفن فتعلمون أن الباشا قد شحن أخشابها على ظهور الجمال من القاهرة إلى السويس حيث قام المهندسون المصريون بتركيبها ، ثم أقلعت بباقى الجنود والمدافع والبنادق الحديثة والميرة إلى الميناء نفسه ، ولا يزال الباشا يجهّز المزيد من الرجال للّحاق بالحملة ، تدريبًا وتعليمًا وإعدادًا عامًا ، وكلّف بالمهمة بعض الفرنسيين ممن يثق فيهم ، وسوف تلحق بالمعسكر 'كتيبة رشيد' ، فالباشا يؤمن بما يسمى 'الرّديف' ، إذ تَعَلَّم من الحملة الأولى ألاّ يركن إلى جيش واحد ، فمن يدرى ؛ قد لا يُوفّق جيش إبراهيم فيرسل فى طلب المَدَد من القاهرة !'' .

وسأله فريد ''هل قلت 'المهندزين' المصريين ؟ أعنى هل لدينا 'مهندزون ؟' وضحك حسين أفندى وقال ''ليسوا مهندسين بالمعنى المعروف! ولن يتوافر لدينا مهندسون حتى يتخرج طلاب الهندسة فى مدرسة القلعة – المهندسخانة – التى أنشأها الباشا منذ شهرين ، وانتدب لها أساتذة أجانب ، ولكن المصريين يقومون بأعمال هندسية ، فلم لا نسميهم مهندسين ؟'' وسمع الرجال قرعًا على الباب فصاح فريد ''تفضل'' فدخل الخادم الأسمر بصينية كبيرة عليها أقداح ومرجل ، وإناء صغير فيه سكر ، ولاحظ فريد (أثناء صب الشاى) أن حسين أفندى قد غير حرف الزاى فى 'هندار' الفارسية إلى سين فى كلمتى المهندس والهندسة ، وابتسم لهذا الخاطر ، وقال فى نفسه سوف آخذ بهذا التغيير من الآن ! ويبدو أن الشاى قد ساهم فى تلطيف الإحساس بحرارة الجو ، فخفتت الأصوات واقتصرت الأحاديث على المجاملات والدعوات بالنجاح للمضرب الجديد ، وفجأة قال حسين أفندى : لم يقل لنا فريد أفندى إن كان 'سيتفرغ' للعمل فى المضرب ! وتوقف فريد عند كلمة 'يتفرغ' فلم يكن سمعها من قبل ، ولم يكن واثقاً أنه يفهم ما تعنى ، فسأل حُسينًا عما يرمى إليه ، فقال حسين ''أقصد هل ستترك الأزهر وتقيم هنا بصفة دائمة ؟ فلقد علمت أنك لا تزال تفكر فى استكمال دراستك والحصول على الشهادة العالية – وقد يقتضى ذلك الرحيل إلى مصر ! ومحمد أفندى القزق يشيع فى مصر أنك لن تقنع بهذه الحياة الهادئة ولابد أن تجتذبك حياة مصر المحروسة ! ولكننى أؤكد لك أن العمل فى المضرب يقتضى أن 'تَفْرَغَ' له تمامًا – وهذا هو ما أعنيه !'' .

ولم يجد فريد إجابة حاضرة ، وأحس أنه قد أُرْتِجَ عليه لأول مرة فى حياته ، فتشاغل بإعادة كوب الشاى إلى الصينية ولجأ إلى الحيلة التى تعلمها فى الشهور الأخيرة وهى إجابة السؤال بسؤال فقال "ولكننا لا نعلم متى يبدأ العمل الجاد فى ضرب الأرز !؟ ونحن الآن فى موسم المحاصيل - كالسمسم والذرة - والفواكه - مثل البلح بأنواعه ! ألن يقتضى الأمر الانتظار حتى موعد حصاد محصول الأرز الجديد ؟" وقال حسين : "إننا سنبدأ الآن بمخزون العام الماضى ، مثلما فعلنا فى دمياط! وقد سرنى أن أجد أهل دمياط أهل نشاط وحميّة ، إذ بدأوا التصدير فعلاً !" وقال فريد "التصدير معناه بيع الأرز المقشور للأجانب؟" فقال عبد الرافع "هذه لغة التجارة يا شيخ فريد ! ولسنا جميعًا من علماء العربية - نقتصر على تعبير 'الصادر والوارد' !" فضحك فريد وقال "وأنا أول المرحبين بلغة التجارة ! ولكننى كنت أسأل عن موعد العمل حتى أقدم الإجابة المُلْزِمة لى !" فقال حسين "لقد اكتملت التجهيزات والثيران ترعى فى الحظيرة الملحقة بالمضرب ، فهى التى ستجرّ العجلة الكبيرة التى تدور بشريط من الجلد لإدارة عجلات أصغر فأصغر حتى تنقل 'الحركة' الدائرية وتحوّلها إلى حركة رأسية فى جهاز 'اللاطات' التى تصعد وتهبط لتقشير الأرز !" وأسرع فريد يقول "وهذا من اختراعك أنت؟" فقال حسين فى نبرات لا تشى بميله إلى التواضع "عرضت ما ابتكرتُه على الباشا ، بعد أن استعنتُ بمهندس فرنسى فى إعداد الرسوم، فأبدى إعجابه به وقال بالحرف الواحد 'إن كان لدينا من أولاد البلد من يستطيع فعل هذا فلابد أن يتعلموا الهندسة!' وأمر من ساعته بإنشاء المهندسخانة بالقلعة !" وفرح فريد بإنشغال

حسين بالحديث عن ابتكاره ، فقال – آملاً أن ينسيه حديثه ذلك سؤاله إياه عن 'التفرغ' – "وهل التحق بها أحد ؟" فقال حسين "نعم يا فريد أفندى ! وليتك ترى الطُّلاب وهم صاعدون إلى القلعة على الحُمُر التى وفّرها لهم الباشا دون مقابل ! إنه منظر يبهج القلب ! وأتى لهم الباشا بمعلمين أجانب يلقّنونهم اللغات الأجنبية والحساب والجبر والهندسة" فقال فريد بسرعة "مثل مدرسة القبط عندنا !" فقال حسين "لقد سمعت بها ، ولكن المهندسخانة تمنح رواتب شهرية للدارسين !" ونهض فريد كأنما ليوحى بانتهاء الزيارة، ولكن عبد الرافع أفسد عليه مسعاه إذ قال "لم تجب على سؤال حسين أفندى !" وتعلقت أنظار الرجال بفريد فوجد نفسه يقول : "نتفرغ إن شاء الله !" فصاح أبوه "بارك الله فيك !" .

٤

بدأ العمل فى المضرب فى اليوم التالى ، دون إبطاء ، فجلس فريد على كرسيّه الوثير خلف المكتب الفاخر ، ولو أن أثاث الغرفة لم يكن يضارع ما شاهده فى منزل الكاشف ، فقال فى نفسه 'شغل نجارّين ولاد عرب !' ، ووضع الروزنامة أمامه ، وفتح دفتر اليومية ، وقال بسم الله الرحمن الرحيم نبدأ العمل، وتطلع إلى التاريخ : ٥ من ذى القعدة (توت / تشرين الأول) ثم ضرب الصنج فجاء الخادم فسأله عن فايز المحاسب (ابن عم زكريا وجرجس) فخرج مسرعًا ليناديه ، وبدأ ينظر فى الأوراق المصفوفة أمامه، وبدأ يحسب ما سوف يُضرب اليوم من الأرز ، وما سوف يُبيَّض ، لكنه عندما حاول الكتابة وجد أن العباءة تضايقه ،

فخلعها ، وكان قد غيّر فى ذلك اليوم من ملبسه ، فأصبح يلبس العباءة فوق الجلباب المصرى ، مثل التجار ، ويضع على رأسه عمامة التجار الصغيرة ، وبعد أن فتح الدواة وغمس القلم كتب فى الدفتر تاريخ اليوم ، وتطلع إلى النافذة فى انتظار فايز .

ولم يلبث فايز أن دخل لاهثاً كمن جاء يجرى فابتسم له فريد ودعاه إلى الجلوس وانخرطا فى نقاش حول الكميات المقدرة لهذا اليوم ، ومواعيد إراحة الثيران ، ونظام تعبئة الأرز المضروب (أى المقشور والمُبَيَّض) وتخزين الأجولة فى الشونة البحرية ، وأساليب النقل والبغال المستخدمة لهذا الغرض ، وأكوام قشر الأرز (السِّرْس) وضرورة تعبئتها فى جوالات لاستخدام السرس فى صناعة الجِلّة (للوقود) وما إلى ذلك من شؤون العمل ، وبعد ساعة أو بعض ساعة ، قال فريد لفايز إنه يريد أن يعتمد عليه اعتماداً كاملاً فى تنفيذ أوامره لما لاحظه - فى حديثهما - من إحاطته بشتى دقائق العمل فى مضرب الأرز ، وسأله هل سبق لك القيام بمثل هذا العمل ؟ فقال فايز بتواضع : لا ! ولكنى كنت وثيق الصلة بحسين أفندى ، وسافرت فى الشهر الماضى إلى دمياط معه وقضيت أسبوعًا فى منزل كاشف دمياط ، أرقب سير العمل فى المضرب الجديد وأحاول أن أتذكر كل صغيرة وكبيرة عنه ! وأبدى فريد إعجابه بمهارته وقال له ضاحكاً وهل أنت بارع فى الحسابات مثل ابنىْ عمك ؟ فقال فايز إنه تعلّم منهما كل شىء ، وذاكرته تختزن كل ما يتعلمه ! وسأله فريد أن يشرح له نظام العمال وأجورهم وعطلاتهم ، ونظام الحراسة والنقل والتشوين ، فتحدث فايز فأسهب حتى أحس فريد أنه لم يعد لديه ما يودّ الاستفسار عنه .

وشكره فريد وأمره بأن ينقل غرفته إلى الغرفة المجاورة لغرفة المدير حتى يجده كلما طلبه ، فوافق فايز ثم قال فريد ضاحكاً ''لماذا كنت تلهث عندما جئتنى ؟'' فقال فايز – فى شبه خجل – ''كنت مع الثيران !'' فقال فريد ''وكيف تعطلك الثيران عن المجىء؟'' ولكن فريداً لم يتلق إجابة فكرر سؤاله فقال فايز فى خجل ''إن أحد الثيران 'حرن' [أى رفض المسير] لأنه لمح بقرة من النافذة فى حقل الكاشف !'' وأراد فريد أن يضحك فى أعماقه لكنه تمالك نفسه وقال ''وكيف عالجتم الأمر ؟'' فقال ''وضعنا الغمامة على عينيه ، فهدأ وعاد العمل فى المضرب !'' فسأله فريد ''وهل تُغممون الثيران عادة ؟'' فقال فايز ''سوف نغممها جميعًا من الآن فصاعدًا !'' .

كان 'إنتاج' اليوم الأول لا بأس به ، فاطمأن فريد ، وعندما عاد إلى المنزل كان يشعر أنه يدير 'مملكة' كاملة لا مضرب أرز ، فانتابه الإحساس بالزهو وإن لم يدرك ذلك إلا فيما بعد ، وتصادف وجود أبيه فى المنزل فتحادثا قليلاً عن العمل ، وذكر له أبوه أن النيل قد أغرق الأرض المجاورة للمنشر ، وأن على الكاشف أن يأمر رجاله بوضع أكياس الرمل حتى لا تتسرب المياه إلى أرض المنشر القديمة ومنها إلى المضرب ، فانزعج فريد وقال ولماذا لا نفعل ذلك بأنفسنا ؟ فقال له أبوه 'هذا من صميم واجبات الكاشف ، والأرض مجاورة لأرضه على أى حال ، وأرجو ألا يكون قد غفل عن ذلك !' فقال 'فإن كان قد غفل !؟' فقال أبوه 'إذن لابد من تنبيهه ! فى الصباح نرسل له أحد العمال التابعين للمجلس حتى يرسل رجاله لإقامة السّد !' فقال فريد 'فإن لم يرسل أحدًا ؟' فضحك أبوه وقال له ''لا تكن متشائمًا يا فريد يا بنى ! أنت مُرهَق ومُنهك من طول

العمل ولابد أن تستريح !" وكرر أبوه ما كانت أمه تقوله دائما 'الصبَاحْ رَبَاحْ' ثم أردف قائلاً "إن كان عمل اليوم قد أرهقك فسوف يزيدك عمل الغد إرهاقًا على إرهاق ! فالعمل فى المضرب يختلف عن العمل فى الوكالة ! وزبائن المضرب من الأجانب الذين لا يقنعون إلا بالبضاعة الممتازة ! ولا تنس أننا ننافس غيرنا ولابد أن نتفوق عليهم ! وبالمناسبة ! هل علمت أن مرادًا عقد صفقات جديدة مع زبائن أجانب جدد ؟ إن يده 'مبروكة' وفيار – صديقك – شعلة من نشاط ! وكل ما أرجوه ألا ينتبه الباشا إلى إنتاج أرضنا وأرضك من الفواكه فيحتكرها !" وألقى على ابنه تحية المساء ومضى .

أثبتت الأيام التالية صدق ما قاله والد فريد ، إذ كان العمل بالمضرب يستغرق وقت فريد كله ، فكانت أمه ترسل إليه الغداء مع أخته الصغيرة خديجة ، وكان يحب أن يراها وأن يسمح لها بالتجول فى أرجاء المضرب ، ومراقبة الحمّالين وهم غادون رائحون بأجولة الأرز المقشور وغير المقشور، واللعب فى الفناء الفسيح المواجه للمبنى بأكوام السَّرْس التى لم تُعبأ ، وكانت تنتظره حتى ينتهى من الطعام ثم تعود بالصينية ، ولم يكن يرتاد المساجد التى اعتادها بل يؤدى صلواته فى مسجد سيدى النور القريب من المضرب ، وكان يلمح فى عيون الناس نظرات جديدة إليه وهو فى طريقه إلى المسجد وعند عودته منه ، وكان الكثيرون يقولون له 'اتفضل شاى يا فريد أفندى !' فكان يشكرهم ، ثم لا يعرف هل يفضل هذا اللقب الجديد على 'الشيخ فريد' أم لا !؟

وفى أول يوم جمعة يمر منذ أن بدأ العمل ، أراد فريد أن يزور مراداً ليطلع على أحواله، لكنه أحس بعد صلاة الجمعة بما يشبه الوعكة التى أصابته يوم مقابلته للكاشف، إذ شعر بأن أعضاءه قد ارتخت ، وأنه يريد النوم ، فعاد إلى المنزل وأوى إلى فراشه فنام نوماً عميقًا ، وعندما استيقظ شعر بأنه استعاد نشاطه ، لكن الوقت كان متأخرًا ولم يشعر بالقدرة على الركوب إلى الحقل ، فأخرج الأوراق التى كتبها مراد وأعاد قراءتها ، فأحس براحة عميقة ، إذ كان مراد يكشف له خبايا حياة الجنود ، خصوصًا ممن يطلق عليهم 'باشبوزق' - أى الجنود غير النظامية الذين يُكْتَرون للحرب، دون ولاء لأحد ، ولا حتى لمن يدفع لهم رواتبهم - وتساءل فى قلق ترى هل يُعتبر جنود رشيد من هؤلاء ؟ لكنه سرعان ما أقصى ذلك الخاطر عن ذهنه ، فأبناء بلدنا يريدون حج بيت الله الحرام ، وقد اقترب موعد يوم عرفة ، وهم يحاربون لأنهم يؤمنون بالجهاد وطاعة الخليفة - أوَ ليس الخليفة هو أمير المؤمنين ؟ وأراحه ذلك التفسير فنهض وذهب إلى الوكالة بزيِّه الجديد فلاقى الترحيب ، وجلس على كرسى فى صدر المقهى وطلب الشاى ، ولم يلبث بعض الرجال أن اجتمعوا حوله يسألونه عن أحوال المضرب وهو يحدثهم باستفاضة ، ولم ينس أن يقص عليهم قصة الثور الذى فَتَنَتْهُ بقرة الكاشف ، فوجدوا فيها تسرية أىَّ تسرية ، وقصّوا عليه قصصًا مشابهة عن حُمُر وغيرها ، فمر الوقت ، وصلى العشاء وعاد وقد زال عنه الإرهاق .

ومرت الأسابيع ، وهو يزداد انشغالاً فى عمل المضرب ويزداد اقترابًا من فايز ، الذى أصبح يده اليمنى ، وكان يحب فيه - إلى جانب

حذقه للعمل – صوته الخفيض وحياءه وضآلة جرمه ، وكان يقول في نفسه لو كان لى أن أتبنّى أحدًا لتبنّيته ورعيته ! أَنْعِمْ به من غلام ! كان لا يزال أمرد وإن بدأ شاربه فى الظهور ، وكان لماحًا تكفيه الإشارة ، وخطر لفريد ذات يوم أنه يُذكّره بنفسه فى صباه ! وعندما تجمع السُّرْس فى أجولة ازدحمت بها الساحة ، وكان فريد يخشى عليها البلل من المطر ، طرح على فايز سؤالا لم يكن يتوقع له إجابة حاضرة ، ولكن الإجابة كانت أسرع مما توقع ، إذ قال فايز "نبيعه فورًا يا فريد أفندى ! عم أحمد الأقرع الفرّان يشتريه ويخلّصنا منه ! أو عم جِلْجِل ! ثمنه زهيد وغير جدير بالإضافة إلى 'الدخل' – فهكذا يفعلون فى دمياط – فالفرّان يحمى به الفرن لقاء نصف فضة للجوال !" وكان المبلغ أقل مما يتوقع فريد فقال 'نصف فضة فقط ؟' فابتسم فايز وقال 'أليس هذا أفضل من إهماله أو تركه فى العراء حتى يوحى للرائى بإنتاج وفير وهو قشر فحسب ؟" فعاد فريد يقول "ولكن نصف فضة –" فقال فايز "الفرّانون فقراء ! ولو كان الأمر بيدى لمنحته لهم دون مقابل ! فهو لا يدخل فى حساب أى بند من بنود الأرباح أو التكاليف !" ولم يَبْدُ على فريد الاقتناع فقال فايز "كم جوالاً لدينا اليوم ؟ مئات ! أى عدة قروش ! ليست مبلغاً كبيرًا ولكنها قد تُدْفَعُ لبستانىٍّ نستأجره حتى يحيط المضرب بسياج من الأشجار سريعة النمو ، وبعض النباتات المزهرة !" وابتسم فريد أخيراً وكاد من فرحته أن يقدم على معانقة فايز !

وعندما حل شهر العيد (ذو الحجة) كان المضرب قد أعد أول شحنة من الأرز المضروب للتصدير ، فأرسل 'المرسال' وهو الغلام المكلف

'بالمشاوير' إلى مسيو أرمان – صاحب وكالة الشحن البحرى – يطلب منه التفاصيل ، فأرسل أرمان ورقة تتضمن الأسعار المعروضة من المشترين الأجانب ، والأسعار التى يراها أنسب وأكسب ، وتكاليف الشحن ، فقضى فريد ساعة مع فايز حتى أعدّ الشحنة المطلوبة ، وأرسل المرسال بردّه على أرمان ، وجاءته الموافقة ، مع عربون ضخم من الأكياس التى يحملها بغلان يقودهما ابن عم فريد !

وفى الصباح زار فريداً والده وحسب معه ما سوف يُرسَل إلى الباشا، وهو معظم العربون ، وما سوف يُقتَطَع لتغطية بعض تكاليف إنشاء المضرب وإدارته ، وظل الرجلان يحسبان – ومعهما فايز – ما هو من حق إبراهيم الشينى ، ورواتب العمال والكتبة ، وما يتقاضاه فريد ، وكان مبلغًا لا بأس به ، حتى هبط الظلام وحانت المغرب ، فحمل الوالد المال إلى الخزانة الحديدية وأغلقها بالمفتاح وسلمه إلى فريد ، ثم قال له "من الآن فصاعدًا لن أكون معكما فى هذه الحسابات ! فلقد تقدم بى العمر ، وتكفينى الوكالة ، والمضرب مضرب فريد ، والعمل عمل فريد !" .

وعندما حل عيد الأضحى ، وكان يوافق أواخر بابة (مطلع تشرين الثانى) جاءت الأنباء من القاهرة بأن الفرقة الرشيدية قد وصلت بلاد العرب ، وانضمت إلى جيش إبراهيم باشا ، وعلم فريد أن إبراهيم – ابن الباشا – قد أنعم عليه السلطان برتبة الباشوية ، ولم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين من العمر ، فقال فى نفسه هذا هو ما كان البك يعنيه بأن 'العهد الجديد' عهد شباب لا عهد شيوخ ، واحتفلت البلدة بعيد الأضحى كما لم تحتفل من قبل ، بعد الإحساس بزوال الغمة ، وأسرّ إليه

أبوه بعودة الأمان وإخلاء بيوت العفاريت مما بها ، وذُبحتْ الأضاحى وُزّعت على الفقراء ، وخرج الناس إلى الحدائق للنزهة ، وتكرر ما حدث فى عيد الفطر من عودة أختى فريد لزيارة والدتهما وزيارة القبور ، ودفع فريد 'عيديات' سخيّة ، لكنه كان يحس فى هذا العيد أنه قد تغير كثيراً ، فلم يكن يقضى الوقت فى التأمل والتفكير ، بل إنه لم يَزُرْ مرادًا أو قيار حتى حين يعقد العزم على ذلك، وكان يلتمس الأعذار لنفسه فى كل مرة ، وخطر له ذات يوم حين خلا بنفسه وبهجة العيد لا تزال تشيع البسمات من حوله ، أنه أصبح وحيدًا ، أو حتى أنه يشعر بوحشة لا عهد له بها ، إذ لم يعد يشغل باله ليلاً ونهارًا إلا العمل ، فلم يعد يقضى الوقت فى الحديث مع الأصدقاء ، أو فى السير وحده على شاطىء النيل ، ناهيك بقراءة كتبه التى أصبحت كومة مهملة تنفض أمه الغبار عنها كلما دخلت غرفته .

كان الإحساس بالتغير ملازمًا له منذ أن عاد إلى رشيد ، لكن ملامح التغير الجديد كانت تبعث على القلق ، فهو مازال يفكر كما كان يفعل ولكنه لم يعد ينصت إلى الناس ، وقد أدرك ذلك واهتم له فى رابع أيام عيد الأضحى حين جاء الشيخ عبيد – وفريد جالس شارد الفكر على كرسى فى ظاهر المقهى المواجه للوكالة – وكان عبيد ما زال يشكو ابنه ! تنبّه فريد إلى أنه كان ضيّق الصّدر ، فلم يصبر على سماع الشكوى ، وحاول أن يتغلب على ضيق صدره بكل ما وسعه من حيل ، ولكن ضيق الصدر زاد ، وتدخل القدر فأرسل إليه رسولاً من شيخ البلد يحمل إليه بعض الأنباء ، فاعتذر للشيخ عبيد ووجّه همّه لما يقوله الرسول ، ثم نهض معه كأنما ليهرب من واقع مرير !

ولم يمض أسبوعان ، وفريد في دوامة العمل اليومي ، حتى انتهى من إعـداد شـحنة جـديدة من الأرز ، فـقـام بالعـمل اللازم ، وحـسب الحسابات التي أصبح يجيدها مع فايز، وكان يراجع دفاتر الكَتَبة بنفسه حتى يتأكد من دقة التسجيل ، وأسعده الحظ بوصول باقي ثمن الشحنة الأولى ، فـأضـافه إلى عربون الشحنة الثانية ، وبعد اقتطاع التكاليف والنفقات والأجور أرسل إلى الباشا مبلغًا لم يكن الباشا يتوقعه ! وأحس براحة عميقة لامتلاء خزانته الخاصة ، فقال لقد منّ الله عليّ بالكثير ولابد أن أصلّى له شكرًا ، فقصد جامع النور قبيل أذان المغرب ، فتوضأ وصلى ركعات متواليات وهو يدعو الله في قلبه أن يُنعم الله عليه بدوام الصحة حتى يَزِيدَ من جهده الذي أصبح مثمرًا ، وعاد بالفائدة على العشرات ممن يعملون معه ، بل وغيرهم ممن أصبحوا يعتمدون في معاشهم على نشاط المضرب ، مثل صنّاع الحبال ، وصنّاع الأجولة ، و'العربجية' ، والجمـالين، والحمّارين ، والشيّالين ، بل والسقّائين والبُستانية! وقال في نفسه لقد تحول المضرب في أقل من شهرين إلى 'مشروع' مثل 'مشروع' مراد ، وإن كان يفوقه حجمًا ودَخْلاً وإفادة للناس ! وعندما أُذّن لصلاة المغرب ، تقدم إلى الصف الأمامي ، واستغرق في الصلاة ، وما أن سلّم حتى وجد إلى جواره إبراهيم الشيني ! .

كـان إبراهيم آخر من يتوقع فريد أن يراه ! فهو هرم لا يرتاد المساجد ، ولم يره من قبل في أي مسجد من المساجد التي يعتادها ! وبعد السلام والتحية قال له إبراهيم : "ألم تعد تهتم بالسؤال عن أختك؟" وقال فريد بسرعة "سعاد ؟ كيف حالها ؟" وقال إبراهيم في أسى "لقد

وضعت مولودًا ناقص النمو ، والطبيب الفرنسى يرعاه ليل نهار! بل وضعه فى جهاز خاص أحضره من فرنسا !" وفزع فريد لما يسمع وقال لابد أن أزورها فورًا ! فقال إبراهيم إنها بخير ، ولكن المولود فى خطر ! فألح عليه فريد بأسئلته : كيف ومتى حدث ذلك ، ولماذا لم يخبرنى أحد من قبل ؟ ، وكان إبراهيم صامتًا طيلة الوقت، ثم رفع عينيه فى حذر إلى فريد وقال فى نبرات تردد واضحة: فكرتُ فى هذا ، وفَكَّرَتْ سعاد فيه ، ولكن قيل – أقصد قال البعض لا الجميع – إنك تغيرت ! فقال فريد بحدّة : أنا تغيرت؟ كيف ؟ فقال إبراهيم بالنبرات نفسها : قيل إنك مشغول دائماً وأصبحت حادّ الطبع ! وقال فريد بسرعة : من قال هذا ؟ هذا كذب وبهتان ! فقال إبراهيم : هدئْ من روعك يا فريد يا بنى ! الناس تتكلم ولن تستطيع إخراس الناس ! فقال فريد : يالله ! وما العمل يا إبراهيم أفندى؟ وضحك إبراهيم وقال لفريد هوّن عليك ! نحن فلاحون لم نَعْتَدْ العمل الصناعى الجديد ، فكل معاملنا صغيرة ، وحيازاتنا صغيرة ، وعمالنا قليلون ، أما المضرب فهو ضخم ورائع ، أعانك الله عليه وشد أزرك ! فقال فريد : لكننى لم أتغير ! فقال إبراهيم أنت أدرى الناس بحالك ! ولكن لى أذنين تسمعان وعينين تريان ، وها أنا أبلغتك الرسالة ، وما على الرسول إلاّ البلاغ ! فقال فريد فأنا أزورها اليوم لأطمئن عليها ! فقال إبراهيم : لقد حلّ الظلام ، فإذا كان الغد فأسرج حصانك وزُرْنا وادْعُ الله أن ينقذ المولود ! فقال فريد بحماس لك علىّ هذا ! فابتسم إبراهيم ونهض وسلم ومضى .

أحس فريد بغُصّة ، وحرج شديد فى صدره ، وتساءل فى نفسه إن كان قد أصبح حادّ الطبع فعلاً ، وجعل يسترجع مناقشاته مع العمال والناس ، فلم يجد ما يؤكد ما ذهب إليه إبراهيم ، وقال فى نفسه لقد أخطأ إبراهيم ولعل له هدفاً يرمى إليه من إقلاقى على هذا النحو ، فأنا كما أنا ، لم أتغير ، وحاشا لله أن يتغيّر طبعى ، فجعل يقرأ آيات من القرآن بَثَّتْ الطمأنينة فى قلبه، ثم نهض وقال لن أعود اليوم إلى المضرب بل سأعود إلى المنزل فأحادث أمى وأطلب إليها أن تقص القصة كاملة علىّ! ولم يكد يخطو خطوات خارج المسجد حتى لمح غلام 'المشاوير' يجرى نحوه فتوقف وسأله فريد ما الخبر ، فقال الغلام وهو يلهث 'طلب منى فايز أفندى أن أخبرك أنهم وجدوا فأرًا فى الشونة !' و 'ذعر فريد وسأله فأر أم جُرَذ ؟ ولم يفهم الغلام فقال فريد : وهل فايز فى المضرب ؟ فقال الغلام الجميع يفتشون الشونة بحثًا عن فئران أخرى ! فقال فريد هيا بنا إذن ولنسرع !

وعندما وصل فريد أمر بجمع الرجال ، وشراء مصايد الفئران وتعميرها ونصبها فى كل مكان ، وعندما اقترح أحدهم استخدام السُّمّ نهره فريد قائلاً إن أحد الأطفال قد يأكل الجبن المسموم فيموت وصاح قائلاً 'لبئس ما أشرت به !' وانطلق البعض إلى دكان الخردوات لشراء المصايد ، وتوجه فريد إلى غرفته فاجتمع بفايز وقال له كيف تَسَرَّبَتْ الفئران إلى الشونة ؟ أوَ لَمْ نُحكم إغلاقها ؟ فقال فايز : الفئران تحفر فى الأرض وتتسلل أو تقرض الخشب حتى تدخل ! فقال فريد "فى مصر يصطادون الفئران بالبنادق ، لكننا لن نلجأ إلى هذا الأسلوب لما فيه من

خطر واضح ! هل الناضـورجي يقظ ؟" فقال فايز "الناضورجي عند الشاطئ يتابع مرسى سفينة لا نعرف صاحبها ! والحارس يقول إنه يخشى لصوص البحر - سواء كانوا من الأعراب أو من الباشبوزق المُسرّحين ! ونحن نعتمد على رجال الكاشف لكنهم بكل أسف - لا يمدّون إلينا يد العون !" .

وظل الرجلان يعملان حتى اطمأنّا إلى نصب مصايد الفئران في كل مكان، وأحس فريد بالإرهاق فعاد إلى المنزل ، وفايز ساهر في المضرب، وعندما أصبح الصبح أهرع فريد ليطلّع في ضوء النهار على ما أنجزه في الليلة السابقة ، ثم استدعى الناضورجي فسأله عن السفينة واطمأن إلى أنها واصلت مسيرتها جنوباً دون أن ترسو في رشيد ، وقضى بقية اليوم في العمل ، وعندما حل المساء وذهب إلى مسجد سيدى النور تذكر حديث البارحة ودعا الله لوليد سعاد بالصحة !

الفصل العاشر

الكاشـــــف

١

انقضى العام وحلت رأس السنة، واستعد الناس للاحتفال بليلة ذكرى الهجرة، (أواخر هاتور/ تشرين الثانى) ولم يكن للناس حديث فى يوم الموسم إلا عن وصول السفن وتحميل الأرز، وبدأت السحب تتجمع فى السماء إنذاراً بالشتاء المقبل، لكن أحداً لم يكن يخاف على شونة الأرز، فسقفها 'جَمَالُونْ' أى هرمى الشكل به مزاريب تصب فى قناة حُفرت خصيصاً لمثل هذه الطوارئ، مثل صومعة الغلال فى حى قبلى، بل إن كبير 'مهندسى' المضرب (الباشمهندس) أنشأ سقفاً معدنيا لحماية السِّرْس من الأمطار، وأما الثيران فلم تكن تهتم بالمطر (إذا جاء) فهو يزيد من خضرة المرعى وينعشها بل ويفرحها! وانحسرت مياه النيل عن هور الكاشف المجاور لأرض المنشر التابعة للمضرب، ولكن فريداً أمر بإبقاء أكياس الرمل فى مكانها، وتذكر وهو يأمر بذلك بقية الآية التى أشار إليها محمد القزق وهى ﴿**فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم**

رَدْمًا﴾- ثم قال تُرى أكان محمد يشير بضمير الجمع الغائب إلى الأعداء أم إلى رجال الباشا؟ ما أخبثه من رجل ! وبعد أن اطمأن إلى حال المضرب دعا جميع العاملين فيه - من كتبة ومهندسين وعمال وحمالين وحراس - إلى الساحة المواجهة للمبنى، وقال لهم فى نبرات ذكرتهم بفريد القديم أو 'الشيخ فريد'، إن الليلة ليلة الهجرة، والموسم غداً، وسوف يستريح الجميع مثلما استراحوا فى العيد الكبير، ويقضون العطلة مع أهاليهم دون خصم شىء من الأجور، فهلل الجميع كبروا، ثم التفت إلى فايز وقال: وسوف يأتى فايز أفندى غداً ليطمئن إلى أن كل شىء على ما يرام، ولو أن العطلة من حقه أيضاً وإن كان قبطياً! وضحك العاملون، لكن أحدهم اعترض على هذا الظلم فقال فريد "فايز أفندى لا يهتم بالزّفر إلا فى عيده، أما نحن فلدينا البط والإوز غداً!" وعندما انصرف الجميع والبسمات على وجوههم، أحس فريد أنه عاد إلى نفسه القديمة!

خلا فريد إلى نفسه ليلة الموسم ، فنحّى عن ذهنه مشاغل العمل وهمومه ، من خطر الفئران (أو الجِرْذان - فهو لا يعلم ما تكون) إلى أخطار لصوص البحر ولصوص البر ، إلى ثوران الثيران أو عصيانها ، وقال لابد أن أفرغ لنفسى أيضاً مثلما فرغت للمضرب أو 'تفرغت' له - كما قال حسين شلبى عجوة - فلقد تخطيت الحادية والعشرين ولم أتزوج ولم أقْتَنِ منزلاً ، وأحمد القزق له أسرة ومنزل ! وذكر مراداً ونفيسة ، ووليدها المنتظر (المصرى!) ثم ذكر إبراهيم الشينى وسعاد أخته ! ترى كيف حال الوليد ؟ وغداً تكبر خديجة - أخته الصغرى - وتتزوج ، ولعلها فى سنّ روضة - ابنة مالك الغضبان ! لقد مر شهران والعمر يجرى دون أن أحس بالزمن ! ثم قال فى نفسه ترى من الفتاة التى اختارها له أبوه ؟

إحدى بنات الأسرة ؟ وتذكر أم سلامة ، وما جال بخاطره يومًا ما من تزويج سميح صبيّ الوكالة لابنتها ! إن للأسرة أقارب كثيرين ، والمعمول به ألا يعترض الفتى أو الفتاة على اختيار الوالدين ، لكنه يشعر اليوم أن من حقه أن يعترض بل أن يرى العروس قبل الزفاف ! وذكر ما قاله ڤيار وتساءل كيف يكون من حق الفتاة فى الإسلام أن توافق على خطيبها ويحرم الفتى من هذا الحق ؟ هل يعمل الفرنسيون بالدين ولا نعمل نحن به؟ وهَبْنى أصْرَرْتُ - رغم كل شىء - على الزواج من ذات العينين الخضراوين ! لسوف تعترض ولا شك على الزواج من فلاح ، وإن كان يرى لدى أبيها بوادر قبول له ، ألم يقل له ﴿**إن خير من استأجرت القوى الأمين**﴾ ؟ أفلم تكن الآية تمهيدًا لقول شعيب عليه السلام ﴿**إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىّ هاتين**﴾ ؟ لسوف تعترض الفتاة على الزواج من فلاح - فهو عار من البأس والسطوة ، لا جند له ، ولا أتباع ولا سلطان ! ليته يعرف زوجها الذى تُوفِّى فَرَمَّلُها وهى فى شرخ الشباب ! وكانت صورة العينين الخضراوين ما فتئت تراوده وهو يجاذب الأفكار وتجاذبه ، وعجب لنفسه كيف غضب كل ذلك الغضب من مسلك صبيّة رعناء لم تعرك الحياة ولم تخبرها ! أين هذه البلهاء من بنت النبىّ شعيب التى طلبت من والدها أن يستأجر موسى عليه السلام ؟ تلك أخلاق أنبياء وهذه أخلاق سلالة المماليك !

وعندما أصبح الصبح كان فريد قد اعتزم أن يحتفل بالموسم كما كان يحتفل فى صباه الأول، فارتدى أبهى حُلَله وشارك أسرته الإفطار وخرج إلى المقهى المقابل للوكالة لمخالطة النّاس - كأنما ليقصى عن نفسه ما اتهمه به إبراهيم الشينى ، وجلس فى صمت كما كان يفعل حتى

يستمع إلى ما يقوله رواد المقهى له ، لكنه - رغمًا عنه - كان يضيق بأحاديثهم ، إذ بدت له تافهة ، لا تتناول مسائل 'مهمة' فى نظر فريد ، فأحدهم يقول إن جاموسته نفقت فحرم من لبنها وعجولها وكان الأحرى به أن يذبحها قبل أن تهرم ، وآخر يقول إن زوجته لا تنجب إلا البنات ، وثالث يقول إنه سمع أن الباشا يستعين بالجنّ ليستمر فى ولاية مصر ، ورابع يشكو من مغالاة والدة عروس ابنه فى المهر ! وكان فريد يُرغم نفسه على الاستماع وإبداء الاهتمام بما يقولونه ، لكنه لم يجد كلمات تفى بالغرض ، فكان يكتفى فى حالات كثيرة بالإيماء بالموافقة أو التعبير عن الدهشة ، وسمع الهاجس فى أعماقه يقول كيف كنت أهتم بذاك كله فيما مضى ؟ وأحس بأن الوقت يمضى بأبطأ مما يريد فتململ فى جلسته ، وكاد أن يطلب كوباً آخر من الشاى كسرًا للملل لولا أن لمح العربة التى يعرفها تنحرف فى داخل شارع الوكالة وتقف أمام الباب ويهبط منها فيار!

وصاح فريد مُرحّبًا ، فقال له فيار: لقد أتيتك بمراد ! وهبط مراد هو الآخر قائلاً 'إن المحب إذا ما لم يُزَرْ زارا !' فقال فيار 'ماذا قلت ؟' وضحك فريد قائلاً إنه عَجُز بيت من الشعر يتندرون به ! فقال فيار 'فليكنْ ! نريدك أن تقضى صبيحة الموسم معنا !' ووجد فريد نفسه يسبقهما إلى العربة كأنما وجد المهرب من 'الأحاديث التافهة' ، وكان فى أعماقه متلهفًا على رؤية الأرض ، فهى - على أى حال - أرضه ، وعلى مشاهدة المشروع ، إذ يقول أبوه إنه حقق نجاحًا غير مسبوق ! وكان يريد أن يناقش فيار فى بعض ما قاله عن أمور الحب والزواج ، لكنه كان لا يريد لمراد أن يحيط بأسراره ، فاقتصر فى حديثه معهما - فى العربة

– على مناقشة المشروع ، وكان فيار يتحدث باستفاضة عن الطلبات التى تلقاها ، واستحالة الاستجابة لها كلها ، وضرورة التوسع فى المشروع بشراء المزيد من الأرض ! وكان فريد يستمع إلى ما يقال وذهنه مشغول بأفكار أخرى ، فلما وصل الحديث إلى شراء المزيد من الأرض أومأ موافقًا ، ولكن مرادًا قال: لن يكون هذا يسيرًا ! فسأله فريد عن السبب ، فقال مراد : لأن ابن الكاشف وصل ! وهو يُعدّ نفسه ليكون الكاشف الجديد بعد ما أشيع عن اشتداد المرض على والده ! وذهل فريد وقال : من قال هذا ؟ فضحك فيار وقال : ألا تعلم حقا ؟ كيف تكون عضوًا فى مجلس التجار ، بل وفى مجلس الكبار وتخفى عنك هذه الأنباء ؟ وقال فريد لم يبلغنى أحد بشىء ! ما أغرب هذا وما أعجبه ! فقال مراد : ربما لم ير أحد أهمية للموضوع فهو مازال فى عداد الشائعات ، وقد يُشفى الكاشف ولا يحدث شىء ! وقال فيار : ألم تسمع حتى عن وصول رضوان؟ وقال فريد وعقله شبه غائب 'رضوان هذا هو ابن الكاشف ؟' وتذكر الصبىّ الذى رآه ذات مرة مع والده – وراعته عيناه الخضراوان – فى صلاة الجمعة ، وكان يكبره بعدة سنوات ، وتوقفت العربة عند 'الأرض' فهبط الرجال الثلاثة وبدأوا يسيرون على أقدامهم فى الرمل ، والكلاب تنبح مُرحِّبةً ومحذرة !

قضى فريد ساعات فى تأمل الحقل الذى بدا لعينيه مديدًا شاسعاً ، وعجب لسرعة نمو أشجار الكازورينا ، فكانت الظلال تمتد فتوحى بأن التربة الصفراء أصبحت طينية خالصة ! كان لون الخضرة بهيجًا يسر

النفس ، فنسى فريد موضوع 'رضوان' ، وعندما انتهت الجولة ، عاد الجميع فشاهدوا نفيسة مشغولة مع أم محمود بإعداد طعام الموسم ، وكان مالك الصباغ وابنه محمود ما زالا فى أعماق 'الغيط' ، فقال مراد "نفيسة فى التاسع ! والدكتور بيقول يمكن تولد فى عاشورا" - كانت لهجته العامية (الرشيدية) تشبه لهجة ڤيار وإن كانت تتفوق عليها بقدرة مراد على نطق حروف العربية المفخمة ، وكان فريد يلتذُّ بالمقارنة بينهما والتعليق عليهما من آن لآخر ، ولم تلبث نفيسة أن أتت بالشاى ، وكانت سافرة مثل أهل الكوبرى الفرنساوى ، ولم يجد فريد فى ذلك حرجاً بعد أن اعتاده ، وعندما جلس الرجال وبدأوا احتساء الشاى بعد أن كاد النهار ينتصف قال مراد : "قال لى أحمد القزق فى صلاة الجمعة إن أخاه محمداً سوف يزور رشيد قريباً لكنه لم يذكر السبب ، وحدستُ أنه أمر يتصل بمعمل الأخشاب ، إذ ذكر أن الباشا يعتزم بناء سفن جديدة إما فى رشيد أو فى الإسكندرية إلى جانب التى يبنيها فى 'ترسخانة' بولاق منذ سنوات ، وأنه سوف يعتمد فى إعداد الأخشاب اللازمة لها على معامل رشيد ، وأن محمداً عرض 'توريد' ما يفى بحاجته لبناء السفن ولو مؤقتًا ، ريثما يتسنى بناء المعامل اللازمة فى دمياط وفى بولاق ، وقال أحمد إن الأخشاب التى يأتى بها من ثغور الأناضول - إلى جانب ما يقطعه من أشجارنا - لا تكفى ، بل أضاف قائلاً إن أحد ولاة الشام ، ولا أذكر اسمه ، لا يقدم الأخشاب اللازمة للباشا ، وهو ما أدى إلى تأخير عملّ معامل دمياط ، فاضطُرّ الباشا إلى أن يطلبها من البندقية ، وسوف تصل - إن نجحت الصفقة - إلى رشيد أو الإسكندرية !" .

وقال ڤيار "لقد وصلت سفينة محملة بالأخشاب فعلاً من البندقية – ألم تسمع بها يا فريد ؟" فهز فريد رأسه ، فأردف ڤيار قائلاً : "بل لقد دَفَعَتْ ضرائبَ كبيرة وأفرغت حمولتها فى البوغاز ، ونُقلت حمولتها من الأخشاب جميعًا إلى معامل قبلى ! كنت أظنك تعلم !" وقال فريد فى شبه أسى "لقد شغلنى المضرب !" فقال ڤيار "ولكن هذه معلومات يحيط بها إبراهيم الشينى – صهركم ! ألم يحدثك بها ؟" وهز فريد رأسه ثانياً ، فقال ڤيار "ولابد أن تكون مسجلة فى مجلس الكبار – أو مجلس التجار – وأنا أعلم أنك عضو فى المجلسين" فقال فريد إنه عضو فيهما ، ولكنهما لم يعقدا اجتماعات فى الفترة الأخيرة ، ولم يشغل نفسه هو بمتابعة ما قد يصرف انتباهه عن إنجاح المضرب ، فقال مراد "فكيف سمعتُ بها أنا ، مع أنى مشغول مثلك بمشروعى الجديد ، ولا 'أنزل البلد' إلا لمامًا ؟" وقال فريد فيما يشبه الغضب "تتهمنى بالإهمال إذن ؟" وضحك ڤيار وقال "حاشا لله يا فريد يا أخى! تعرف كم يحبك مراد ! بل كم يُجلّك ويقدّرك ! ولكن الواقع هو أن المضرب قد شغلك عن كل ما عداه !" ثم قال بالفرنسية "فهل وجدت فيه نفسك أم نسيت نفسك ؟" وصمت فريد برهة ريثما يستوعب المعنى الذى يرمى إليه ڤيار ثم قال: "إن كنت تعنى ما أظنه فلقد وجدت نفسى فيه ونسيت نفسى قليلاً ثم عدت إليها ليلة الأمس !" فضحك مراد وقال لقد فهمت ما قاله فريد بالعربية ردًا على سؤال لم أفهمه بالفرنسية ، لكننى لم أدرك مقصد أيكما ، فلنتفق على الحديث بالعربية من الآن فصاعدًا !" وضحك الجميع وسمعوا أذان الظهر فى مسجد فحيمة (فى غيط البك المقابل للأرض) فنهض ڤيار وقال "هل تأتى معى يا فريد لتصلّى فى البلد ؟ نريد لمراد أن يهنأ بطعام

الموسم مع أسرته!" فنهض فريد وودع مرادًا وسار مع ڤيار حتى العربة في صمت .

وعندما هبط فريد من عربة ڤيار عند الوكالة ، ذهب إلى المسجد مسرعًا فتوضأ وصلى الظهر مسرعًا ، وتحاشى الحديث مع أحد ، وقد بدا للجميع أنه مهموم فتحاشوا الحديث معه ، ثم عاد من فوره إلى غرفته وطلب الغداء وتناوله وحده وأغلق الباب عليه .

٢

تعمد فريد أن يكون غداؤه خفيفاً حتى يتناول عشاء الموسم مع أسرته ، كما إنه لم يكن جائعًا رغم جولة اليوم الطويلة في الحقل ، وعندما حمد الله وغسل يديه وفمه ، جلس إلى كراسته التي يدون فيها أفكاره ، وأخرج قلمه ودواته ، وقال فلأثبت على الورق أسباب ما أحس به من الهمّ ! ونظر في بعض ما دوّنه فيها فوجد إشارة إلى الحوار الذي دار بينه وبين ڤيار منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر ، ومقتطفات من العبارات التي وصفه بها ڤيار ، إذ قال له أنت 'فريد عبد الحكيم الذي يشغل نفسه بشؤون الناس' ! نعم! هذا هو لب المشكلة! لقد شغله عمل المضرب شهرين عن شؤون الناس، فاهتمّ همًّا دفينًا عندما بلغه من شؤونهم ما لم يكن يحيط به ! وأعاد فريد النظر في الأمر ، ألا يجوز أن لهمّه سببًا أعمق أو أخفى ؟ تراه حزن – أو غضب – لحرمانه من الإحاطة بما أصبح يراه من حقه ، باعتباره عضواً في المجلسين معًا ؟ فهل انقطعت جلسات مجلس الكبار ، أم عُقد بعضها وتجاهل شيخ البلد دعوة فريد ؟ ولماذا تجاهل

والده إبلاغه بتلك الأنباء التى عرف بها القاصى والدانى ؟ لابد أنه لم ير لها أهمية أو لم يُرِدْ أن يشغله عن العمل فى المضرب ! ولماذا يحس فريد بضيق خفى - لكنه جدّ حقيقى - من وصول المدعو 'رضوان' - ابن الكاشف - والشائعة التى تقول إنه سوف يرث الكشوفية من أبيه ؟ وهل لذلك علاقة بموقفه الخاص من أسرة الكاشف ، وخصوصًا من 'موقفه' من ذات العينين الخضراوين ؟

وقلّب فريد صفحات الكراسة ، فوجد إشارات إلى مقابلة البك ، وما قاله محمد القزق فى ذلك اليوم ، وقد بدا له الآن ذكريات شاحبة اللون ، لكنه قرأ العبارة التى قالها محمد وسجلها فريد بألفاظها "لقد بدأت أولى خطواتك على سلم المجد !" وقال فى نفسه لابد أنه كان يعنى لقد 'خطوت أولى خطواتك' ، ولكننا نغفر لهؤلاء ضعفهم فى العربية ! وضحك فى نفسه ثم أعاد قراءة العبارة - 'سلّم المجد' ؟ أو لم يكن هذا ما يعنيه البك حين قال له بالحرف الواحد "رأينا أن نصطفيك وندّخرك للمهام الجسام" ؟ وهل "إدارة مضرب الأرز" من هذه المهام الجسيمة ؟ أليس من المحتمل أن يكون البك يضمر ما هو أجسم وأخطر ؟

وأفاق فريد من تأملاته على نقر على باب غرفته فدعا الطارق إلى الدخول فوجد أمه واقفة وقد ارتدت ما يشبه ملابس الخروج فدهش وسألها ما الخبر فقالت له ألن تأتى للسلام على أخواتك ؟ كان صوتها يشى بفرحة من جاءه مالا يتوقع ، ولم يشأ فريد أن يخيب ظنها ، فقال لها : أصلّى العصر وآتى ! واستغرق فريد فى الصلاة وأطال ، ثم جعل يستغفر الله وقام وأعاد القلم والدواة بعد أن سجل ما عنّ له فى كراسته ،

وخرج فقضى ساعات العصر مع أفراد الأسرة حتى حان موعد المغرب وفاحت روائح عشاء الموسم ، وعندما قضيت صلاة المغرب جلس الجميع إلى المائدة ، وكانت تلك من عادات أهل الريف التى لا يعرفها أولاد الذوات، فسمع فريد هامسه يهمس له 'نحن فلاحون مهما صعدنا 'سلم المجد' !

كان من الواضح أن فريداً يتناول طعامه دون شهية، فقدمت أمه الطعام إليه قائلة : 'كل يا فريد يا بنى ! برّ نفسك شوية ! دانت بقيت جلد على عضم !' وابتسم فريد وتظاهر بالإقبال على الطعام ، ولكنّ همّ الصباح كان ثقيل الوطأة ، بل كان ينخر كالسوس فى ذهنه حتى لقد أدرك الجميع أنه ليس فريداً القديم ، ولاحظ أبوه ما يعكر صفو ابنه ونسبه إلى الانشغال بالمضرب ، ولم يشأ أن يفسد فرحة الموسم بالحديث عن العمل ، وفضل أن ينتظر حتى انتهاء الوليمة ، وعندها انفرد بابنه ، وعرض عليه مرافقته لصلاة العشاء فى مسجد المحلى ، حيث الأذكار والتواشيح احتفالاً بيوم الهجرة ، وفهم فريد أن والده يريد أن يختلى به ، فرحب بالدعوة وارتدى ملابسه على عجل ، وخرج الرجلان معًا .

كانت نسمات المساء منعشة فنحن فى ذروة الخريف ، ولم يبق على الشتاء إلا شهر تقريبًا ، وما أن ابتعدا عن المنزل حتى سأل الوالد ابنه عما يشغله ، فصمت فريد وتردد لكن الحاج عبد الحكيم ألح وكانت نبراته دافئة أحْيَتْ حُبُّ الولد لأبيه وثقته فيه فأفضى إليه بمكنون قلبه وصارحه بالأسئلة التى داهمته منذ الصباح ، بل إن فريداً كان يتحدث بتلقائية طفل يشكو إلى أمه ما فعله إخوته معه ، وساعده الظلام وتحاشى النظر

فى عينى أبيه على البوح الدفّاق الدافىء ، حتى إذا وصلا إلى المسجد ، ولم يكن أذّن لصلاة العشاء بعد ، جلسا فى آخر الصفوف وقال الوالد لولده بنبرات تفيض حنانًا ورقة "اسمعنى يا فريد ! لقد ذهبت بك الظنون كل مذهب ، وأرخيت لخيالك العنان فجمح جموحًا لم أكن أتصوره ، وسوف أشرح لك أسلوب عمل كل من المجلسين حتى تدرك حقيقة ما حدث" . وشرع الحاج عبد الحكيم فى إيضاح نظام العاملين من 'الموظفين' الدائمين فى أمانة المجلس ، وهم الذين يشرفون على إدارة الشؤون العامة لرشيد ، مثل تدبير العمال اللازمين لكنس الشوارع وإنارتها ، وجمع القمامة وما إليها وإحراقها ، وملء الصهاريج العامة فى زمن الفيضان ثم غسلها وتطهيرها من الطمى قبل إعادة ملئها ، وكذلك غواطس الحمامات العامة والأزيار عند كل سبيل ، وتلبية مطالب رجال الحامية ، وحفظ الأمن ليلاً حتى لا يتسلل إلى البلد غرباء ، وكان ذلك هو ما وقى رشيد شر الوباء الذى ابتليت به مصر وفريد طفل فى الخامسة ، إلى آخر هذه المهام ، وهم يتقاضون رواتب ثابتة يدفعها الكاشف من دخل الضرائب التى يقدرها المباشرون ، ويتفاوت مقدارها من عام لعام ، وفقاً لوفاء النيل ومقدار الأمطار التى تُروى بها المحاصيل البعلية ، وأما الإشراف المباشر عليهم ففى يد شيخ البلد ، وهو لا يدعو أعضاء المجلس إلى الاجتماع إلا فى المُلمّات ، ولذلك تظل محاضر جلساته سرية ، لا يعلم بها أحد ، لا ! حتى ولا الكاشف نفسه ! وأما مجلس التجار فهو يجتمع بصورة دورية ، وعلى نطاق ضيق ، فلا يحضر تلك الإجتماعات إلا ثلاثة أو أربعة ، فإذا طرأ طارئ دعا الحاج محمد شبابو إلى عقد جلسة خاصة ، وكانت آخر جلساته تلك التى قرر فيها أسلوب تقسيم المغارم

التى تحملتها رشيد عوضاً عن نقص الجنود ! ولم يكن المضرب قد بدأ العمل ، وهكذا فلم يكن فريد قد انضم إلى المجلس !

وبدا أن فريداً قد هدأ خاطره بعض الشيء ، لكنه عاد فسأل والده عن الأخشاب وعن محمد القزق ، وما يشاع عن مرض الكاشف وعودة ابنه رضوان ليرث الكشوفية ، فضحك الحاج عبد الحكيم وقال : "تريد أن تشغل بالك بكل شيء ؟ وماذا يعنينا إن بنى الباشا سفنه هنا أو فى دمياط ؟ أغلب الظن أنه سوف يبنيها فى الإسكندرية ، لكنه ينتظر حفر الترعة الجديدة حتى تعود الحياة إلى تلك المدينة العريقة ! وأما مرض الكاشف فلن أقول إلا إننى أرجو له الشفاء ! الرجل يعانى من ألم المفاصل الذى يسمونه النِّقْرس ، ولا يُعرف له سبب غير أنهم يسمونه داء الملوك ، وينسبونه إلى كثرة الطعام والشراب والخلود إلى الراحة والدعة ! يالله ! لقد كان الملوك دائماً أكثر الناس نشاطًا وجدًا واجتهاداً ! ألم يقودوا جيوشهم فى المعارك ويحاربوا الأعداء بسيوفهم ! على أى حال ، نحن ندعو له بالشفاء ، ولكل أجل كتاب ، فإذا جاء أجله فماذا يضيرنا من يرثه ؟" .

وقال فريد إن الكاشف نفسه قال له إنه أرسل ابنه إلى الخارج ، وإنه سمع من بعض الناس أن الغلام ميال إلى اللهو واللعب ! فضحك أبوه من جديد ، بل قهقه وقال : "لسوف تُعلّمه الكشوفية الجدّ والعمل - هذا إذا قُدّر له أن يتولاها ! لا تَسْتَهِنْ بذكاء الباشا يافريد يا بنى ! وهو يعلم من عيونه (وعيوننا) كل ما يحتاج (ونحتاج) إلى أن يعلمه !" .

وحانت العشاء فصلى الرجلان وعادا معًا إلى المنزل ، وقبل أن يلقى الوالد على ولده تحية المساء قال له "لا تكتم عنى يا فـريد أى شىء ! واذكر أننى لا أكتمك شيئًا !" وشكره فريد وأحس أن هموم اليوم قد خفّت - وإن لم تختف تمامًا ! .

٣

ذهب فـريد إلى المضـرب فى الصبـاح الباكر كـعادته ، بل قـبل أن تشرق الشمس ، فالنهار يميل إلى القصر ، وعمل اليوم كثير ، لكنه كان يسير بحصانه متثاقلاً كأنما لم يعد يرى فى المضرب الأمل الذى كان يرجوه لمستقبله، فأحاديث فـيار ومراد يوم أمس لا تزال أصـداؤها ترن فى ذهنه ، وعلى الرغم من كل ما قاله أبوه ، كان لا يزال مهموماً بعد أن أحس بأنه انقطع عن 'أحوال الناس' ، وأدرك أنه يجد نفسه حقـاً فى الانشغال بهذه الأحوال! وتذكر قول فيار أو سؤاله له 'هل أنساك المضرب نفسك ؟' ووجد أنه يتساءل هنا لا عن النسيان بل عن النفس - فما نفسه التى نسيها ؟ هل هى النفس الطموح الطامعة فى 'الرياسة' ؟ إنه يحسها فى أعماقه ويخافها ! وهو ينكرها ويحاول مصارعتها ليصرعها بعد أن تصدى لنوازعها شهوراً طويلة ! أم تراها النفس الراضية المطمئنة التى يشهدها فى مراد ويحسده عليها ؟ إنه يحس لها وجوداً لاشك فيه فى أعماقه ، لكنه وجود قلق غير ثابت الأركان ! وذكر قول فيار له ذات يوم 'إنك تفكر أكثر مما ينبغى حتى يختلط الواقع لديك بالوهم ! عش فى الواقع فقط !' ولكن ما الواقع ؟ وكيف نعرفه حقـا ؟ ولم يدر فريد فى غمار تأملاته أنه وصل وأن الفرس توقف، فترجلّ وألقى السلام على

الحارس ، ودخل إلى غرفته ، وكان فايز في انتظاره ، فتعجب فريد من قدومه في هذه الساعة المبكرة ، وخشى أن يسمع ما يكره ، ونظر إلى فايز بعد أن صبّح عليه ، فقال فايز : كل شيء على ما يرام ، لكنني أحببتُ أن أطَمْئِنَكَ فأنا أعرف كم تفكر وكم تقلق !

وقال فريد في نفسه يالله ! هل أحس الجميع بقلقي حتى فايز الصغير ؟ وبعد محادثات العمل اليومي المعتاد ، وهو الذي أصبح يسير بدقة الساعة المنضبطة ، لمح فريد من النافذة ضياء الصبح ، فاستأذن في الخروج ، وخرج فايز هو الآخر ليتابع العمل ، ومضى فريد إلي شاطيء النيل ليشهد شروق الشمس ، فوجدها وهّاجة خلف القرية البعيدة على الشاطيء الآخر ، فوقف مبهوراً يسمع شقشقة الطيور ، وفجأة وقعت عيناه على الجزيرة الخضراء التي ظهرت وسط الماء ! لقد هبط النيل إذن وغداً يعود أهل الجزيرة إليها - إن لم يكونوا قد عادوا - فيستأنفون حياتهم حتى يعود النيل في العام المقبل ! كانت كأنما استحمت فبرقت ألوانها ولمعت ، أو كمن اكتسى حلّة جديدة تتفاوت فيها درجات اللون الأخضر بين الزرقة والصفرة، وكانت أشعة الشمس المشرقة تضفي عليها أطيافاً أرجوانية عميقة ، بعضها قرمزي أدكن ، وبعضها أحمر صريح ، فعجب فريد كيف يتحول الأخضر إلى أحمر ، وخطر له فجأة أن الجزيرة موجودة وغير موجودة معاً ! ولابد أن في النيل جزراً أخرى لا تراها العين ، وقد تظهر اليوم أو غداً، فهل يعتبرها في عداد 'الواقع' الذي تحدث عنه فيار ؟ وهل في النفس جزر لا يراها الذهن وإن أحسها القلب ؟ لقد اعتاد أن يسمع عن الجزر الخبيئة ، منذ قصة القرد

والـغَيْلَم فـى **كليلة ودمنة** وقـصص السندباد البـحـرى فى **ألف ليلة وليلة**، حتى قصص عروس البحر فى رشيد نفسها ، فهل له أن يعتبرها خـيـالاً مَحْضًا ؟ وهل ذات العـينين الخـضـراوين خـيـال هى أيضًا ؟ لقد اختفت شهرين أو أكثر ، وها هى تظهر اليوم مشرقة بهيجة ! ولقد أضمر لها الحب دائما وإن جمع إلى الحب ما يشبه الكراهية يومًا مـا ، فهل لذلك الإحساس المتضاد من لفظ بين أضداد العربية الوفيرة ؟ وهل لأمثال الجزيرة الخضراء كلمات خصتها بها العربية التى وسعت كل شىء لفظًا ومعنى - كما يقول أستاذه المرصفى ؟

وأفاق من تأملاته وقد علت الشمس فزالت درجات اللون الأحمر من الخضرة ، فابتسم فى نفسه وقال كم تتغير الألوان وتخدعنا الأضواء ! وسمع صليل أجراس بعيدة تشبه رنات يعرفها خير المعرفة فقال من عساه أن يزور المضرب فى هذه الساعة المبكرة ؟ إذا صدق ظنه وكانت عربة ڤيار فما الذى أتى به الآن ؟ وسمع وقع أقدام ودخل فايز يقول إن امرأة تنتظر فى العربة ، وسأله فريد فى دهشة من تكون فقال فايز تقول إن اسمها نايرى ! وخفق قلب فريد خفقانًا لم يعهده منذ مدة طويلة : هل تكون نورا وفـايز لا يعرف الإسم ؟ ذات العينين الخـضـراوين هنا وأمـام الباب وفى عربة ڤيار ؟ ونظر فريد إلى فايز لحظة ثم قال: أنا قادم ! كان يريد أن يجرى ، لكنه تمالك نفسه وخرج وهبط الدَّرج دون عجلة حتى وصل إلى الباب فوجد عربة ڤيار، فسار إليها بخطوات متئدة فإذا به يرى فتاة فى مقتبل العمر ، سمراء ، ذات عينين نجلاوين سوداوين ، سافرة ، باسمه الثغر ، تدعوه للركوب فاعتذر ودعاها لمشاهدة المضرب ، إذ عرف

أنها خطيبة ڤيار الشامية ، فهبطت وسارت معه قائلة إنها جاءت للتعرف به والسلام عليه ووداعه قبل رحيلها ، فلقد أصر ڤيار على أن تمر على المضرب ولو دون أن يصحبها هو بسبب انشغاله فى عرض البحر ، وقالت لفريد إنها تتمنى أن يزورهما فى منزلهما الذى اكتمل بناؤه ويقع على مشارف برج مغيزل ، وأطلعها فريد على أقسام المضرب وأسهب فى الشرح وهى تبدى الإعجاب حتى انتهيا إلى المبنى فعرض استضافتها وتقديم الشاى لها فاعتذرت ضاحكة وقالت إن السفينة تنتظرها ، والرياح مواتية ، وعادت إلى العربة فودعته ورحلت !

ووقف فريد لدى باب المضرب يرقب العربة وهى تبتعد ، وتطلّع إلى السماء فوجد السحب تسير ببطء قادمة من الغرب ، وسمع صوت البلبل فدهش وقال إنه لا يصدح إلا فى الصباح الباكر ، وتطلع إلى مصدر الصوت على شجرة الكافور الضخمة التى تُظلّل مدخل المضرب ، فرأى الطائر وهو يتنقل بين الأفنان ومعه 'وليفته' - وكانا لا يفترقان - فقال فى نفسه لقد اختلط الزمن على البلبل ! وكان يحب التطلع إلى البلبل وهو يتراقص مع 'وليفته' من غصن إلى غصن ، وإن كان ريشه لا يتميز بألوان الطيور الأوروبية التى تزور رشيد فى الخريف ، بل يقترب من لون عصافير رشيد ، وهى التى يسمونها عصافير الأرز (أو 'عصافير رُزّى') لأنها ترتاد شُوَنَ الأرز ، فهو لون رمادى به بقعة من سواد ، وقال فى نفسه إن حب الطائر لوليفته يلهمه هذه الأنغام ، فالعبرة ليست بجمال الريش !

وغامت الشمس فجأة فقال فريد إننا على أبواب الشتاء ، وإذا بدأت الأمطار مبكرًا فسوف يصبح الطريق إلى المضرب موحلاً ، وقد يكون من الأوفق تغطيته بالرمل ريثما يتسنى تعبيده بالأحجار أو البازلت مثل طريق سيدى الصمدى فى قبلى ، فعاد إلى المضرب ، وصعد الدرج متثاقلاً حتى وصل إلى غرفته ، ثم طرق الباب المؤدى إلى غرفة فايز ففتحه ، وكان فايز منكبًا على الدفاتر فالتفت إلى فريد ونهض ، لكن فريداً قال له أن يظل فى مكانه ، وأضاف أنه خطر له أن يدبر رش الطرق المؤدية إلى المضرب من الحقول ، وإلى الشاطىء من المضرب ، بالرمال الخشنة ، وأنه يسأل عن تكاليف ذلك . ووضع فايز قلمه وأغلق الدفتر ونهض ، واقترب من فريد كأنما لا يريد لأحد أن يسمعه وقال : "ولكن هذا من اختصاص الكاشف ! كما إن الطرق مؤدية إلى أراضيه الخاصة ! أما إذا رأى أن المهمة من اختصاص شيخ البلد ، فعليه أيضا تدبير التكاليف اللازمة !" ورد فريد على الفور "وكم يكلّفنا ذلك العمل لو نهضنا نحن به ولم ننتظر أوامر الكاشف ونقوده ؟" فابتسم فايز وقال : "ومن أى حساب نقتطع المبلغ يا فريد أفندى ؟ ليس لدينا بند فى التكاليف يسمح بالإنفاق على الطرق العمومية ! وماذا نقول للمباشر ؟" فقال فريد "فليكن ! أرسل المرسال إذن إلى الكاشف بما نطلب، فإن لم يُجبْنا إلى طلبنا أحلْنا الأمر إلى شيخ البلد !" وصمت لحظة ثم قال "فإذا لم يُجبْنا هو الآخر ، نهضْنا نحن بالعمل وأبلغْنَا المباشر ومَنْ فوقه" واقترب فايز من فريد وهمس له فى وُدّ صادق "لا أرى ما يدعو إلى هذه المصادمات التى قد توغر الصدور!" ثم ابتسم وقال "ألا تستطيع أن تزوره - بنفسك - فتقضى الأمر فى لحظة ؟" واستنكر فريد هذا القول ، وقال لفايز بحدّة إن عليه أن يفعل ما أمره به وحسب ! .

٤

لم يتناول فريد عشاءه ليلة عاشوراء ، إذ انتوى الصيام ، وعندما نهض قبيل الفجر لتناول السحور وجد أن أهل المنزل قد سبقوه ، فجلس يتناول طعامه وإن لم يكن قد أفاق تماماً ، فسمع جلبةً عند الفنطاس ، فحدس أن والده يتوضأ ، وأدرك أنها أخلاط أصوات فأرهف السمع إلى ما يقال ، ولكن الأصوات كانت خافتة متداخلة ، فغسل يديه وفمه ، وقام للتوضؤ أيضاً ، وعندما اقترب من الفنطاس ، سمع أخته خديجة تبكى ، وأمه تحادث أباه ، فتوقف وقد شمر عن ساعديه وسألهم ماذا حدث فقالت أمه إن خديجة تريد أن تذهب إلى 'الأرض' لتشاهد المولود ! ولم يفهم فريد فقال أبوه : لقد أنجبت نفيسة زوجة مراد طفلاً منذ يومين ! وكنت أريد أن أذهب لتهنئتها بالسلامة ومشاهدة المولود ، ولكن هذه الفتاة تريد المجىء معى فَعَدَلْتُ عن رأيى ! وقال فريد بسرعة - فى رنة فرح - فأنا أصطحبها إلى الأرض ! ولنحملْ معنا الهدية المناسبة ! فقالت أمه إن الواجب أن نهديها 'خمسةوخميسة' ذهبية لتقى المولود شر العين ! وفجأة قالت "وخُذْ لنفيسة 'مُفات' يرمّ عضمها !" وضحك فريد وقال ألا يُستحسن تأجيل ذلك حتى 'السبوع' ؟ فقالت أمه بل ينبغى تخصيص هدية أخرى 'للسبوع' ، وإنها سمعت أن المولود غلام ، وإنهم أسموه 'تيرانا' ! فقال أبو فريد : "لقد اختلفوا على الاسم ! رشيد أم تيرانا ؟ ثم انتهوا إلى تسميته تيرانا ورشيد معًا ! فكيف نناديه بالله عليكم ؟!" وقال فريد إنه ابنهم وهم أحرار ! وظل الجميع يتكلمون حتى أذن الفجر فصلوا وناموا ! وفى الصباح - أو فى الضحى - كان فى انتظار فريد ما لم يتوقعه !

كان فريد قد منح العاملين بالمضرب جميعاً عطلة يوم عاشورا ، فنهض فى الضحى متمهلاً وارتدى أفخر ملابسه واصطحب أخته الصغيرة خديجة ، وكانت فى أبهى حُللها (فستان العيد) إلى الحقل ، فأركبها خلفه على فرسه ، ومضى متمهلاً فالجو جميل ، ونحن فى أواخر هاتور (مطلع كانون الأول) وكان معظم الناس صائمين ، والشوارع شبه مقفرة من السابلة ، وعندما بدأ الصعود فى الربوة على مشارف 'السكة الزراعية' كان الإحساس بالعطلة غلاباً ، فجعل يستمتع بنسائم الضحى، ويمنىّ النفس بساعات هناء مع أسرة مالك الصباغ ، التى أضيف إليها مولود جديد ، وعندما وصل إلى 'الأرض' انطلقت أخته تجرى وتلعب ، بعد أن شاهدت الطفل الذى كان أبيض البشرة أصفر الشعر ، وعندما تطلع فريد إلى عينيه وجدهما خضراوين ، لا زرقاوين مثل عينى والده ، وسرّه هذا سروراً بالغاً ، وضحك عندما قال مراد "فلاح مصرى عيونه خضراء! وغداً يمتلئ الريف المصرى بالعيون الخضراء – أو الزرقاء ! من يدرى ؟" وقالت أم محمود "ربنا يدّى نفيسة القوة !" وكانت نفيسة تجلس صامتة تحمل ابنها فى سعادة ظاهرة ، وعيون الجميع عليها ! بل إن مالكاً نفسه كان يبتسم من حين إلى آخر ، على غير عادته ، وكان – فيما يبدو – قد منح نفسه ومنح محموداً ابنه عطلة يوم عاشوراء ، فارتدى ملابس 'الخروج' هو وابنه ، وعرف فريد أنهما ينتويان اصطحاب مراد إلى رشيد لصلاة الظهر والنزهة عند شاطىء النيل ، لأن مراداً يرغب فى مشاهدة حلقات بيع الأسماك التى تنتهى من عملها قبل العصر ، وربما اشترى بعض الأسماك لوليمة عاشوراء عند الإفطار ! وقال فريد فى نفسه إن مراداً يريد أن يصبح رشيدياً من محبّى 'السمك والأرز' ! وقدم

فريد الهدية التى حملّتها أمّه له إلى نفيسة حتى تُشبك بدبّوسها فى صدر المولود ، واصطحب خديجة بصعوبة إلى الفرس ، فقد كانت تريد البقاء ، بل كادت تبكى وهو يمسك بيدها ويجرها جرًا وراءه ، لكنه ما أن أجلسها على السرج وتهيأ للركوب حتى سمع نداءات مختلطة بعضها يقول يا شيخ فريد ، والبعض يقول يا فريد أفندى ، ولمح اثنين أو ثلاثة من أولاد البلد يشيرون إليه ، وكان أحدهم يجرى نحوه فأنزل أخته من صهوة الفرس ، فانطلقت تجرى عائدة إلى منزل 'عم مالك' ، وظل هو فى مكانه ليستطلع الأمر ، وتوقف الرجل الذى كان يلهث وقال له "إلحقْ يا شيخ فريد ! الكاشف هرب ! ومحمد أفندى بيدوّر عليك !" وتسمر فريد فى مكانه ذاهلاً لا يعرف أيصدّق أم يكذّب ، فسأل الرجل "محمد أفندى القزق ؟" فقال الرجل "أصله وَصَلْ الفجر ، ولما راح مع العساكر يمسكوا الكاشف، كان هرب !" وسأله فريد "وبيسأل عنى أنا ؟" فقال الرجل "دا قَلَبْ الدنيا عليك ! قلت أجى أقول لك - يمكن تلحق تتصرف قبل العساكر ما ييجوا !" فقال فريد "ما تقلقش ! أنا رايح له !" .

وأسرع فريد فاصطحب أخته وانطلق عائدًا بسرعة خاف معها على أخته التى كانت تحيطه بذراعيها على متن الفرس ، حتى وصل إلى رشيد، واتجه من فوره - بعد أن أدخل أخته المنزل - إلى الوكالة التى كانت مغلقة ، إذ كان يتوقع أن يجد والده ، أو سميحًا ، أو من يحيط بحقيقة ما حدث ، لكنه لم يجد أى شىء غير عادى ، فاتجه إلى المضرب وقال فى نفسه إن لم يكن محمد فى المضرب ، فهو فى منزل الكاشف القريب ، لكنه لم يجد فى المضرب ما يريب ، وجاءه فايز مستفسرًا - فهو

الوحيد الذى يأتى إلى المضرب يومياً للاطمئنان على الأحوال (باستثناء يوم الأحد) - وسأله فريد إن كان قد سمع أو علم شيئًا فقال فايز إن عساكر الحامية يحيطون بقصر الكاشف لسبب غير معلوم منذ الفجر ، لكنه لم يسمع طلقات رصاص أو أصوات عراك ، 'فلعله خير' ، وتسارع نبض فريد فقد أحس أن فى الأمر شيئاً وأن 'أزمة' ما قد وقعت أو توشك أن تقع ! وخرج فريد فركب فرسه واتجه ركضًا إلى منزل الكاشف ، وعندما اقترب لاحظ صفوف الجنود ، وبعض الفرسان على الجانبين ، لكن الخوف لم يداخله وظل يتقدم حتى وصل إلى البوابة الرئيسية ، وكم كانت دهشته حينما أدى له الضابط (الذى كان يرتدى الزى الحديث) تحية عسكرية وتقدم فأخذ بزمام فرسه وساعده على التَّرجّل !

ورد فريد تحية الضابط وسأله عن محمد أفندى القزق ، فقال له إنه فى انتظاره ودعاه إلى الدخول ، وسار أمامه فى الممر الطويل عبر الحديقة الذى يؤدى إلى باب القصر ، وفريد يقرأ فى سره 'قل اللهم مالك الملك' ، وأحس أن الزمن كله قد تكثف فتجمع فى هذه اللحظة ، ولم يكن يدرى من أين تأتيه القوة التى يشعر أنها تشد أزره، ودخل منتصب القامة إلى الغرفة الفاخرة التى أصبح يعرفها خير المعرفة ، فوجد محمداً جالساً لكنه لم يلبث أن نهض لتحية فريد ودعاه إلى الجلوس ، وصفّق محمد بيده فدخل الخادم وانحنى ولكن فريداً قال إنه صائم ، فأشار محمد إلى الخادم بالإنصراف، وإن ظل الضابط واقفاً ، وابتسم محمد أخيراً وقال لفريد : لن أؤخرك عن الإفطار إذن! هذا قائد الحامية وهو طوع أمرك من هذه اللحظة ، فلقد أصبحت وكيل محافظ البحيرة، مؤقتًا ،

ومأموراً لرشيد وكل نواحيها ! وأشار محمد إلى الضابط فانصرف ، وقبل أن تتاح لفريد فرصة الكلام أو التفكير ، قال محمد :

"لقد اكتشف الباشا ، ما لم يكن يدور بخلد أحد ! لقد اكتشف خيانة الكاشف فعزله وأمر بالقبض عليه ومحاكمته ! هل تتصور يا فريد يا أخى أنه لم يكن يرسل الأموال المقررة إلى الباشا ، بل كان يختزل منها جانباً كبيراً حتى بلغ مجموع 'العجز' زهاء ألفين وخمسمائة كيس ! تصور ! ولولا يقظة المباشرين وحذق المحاسبين ما اكتشفنا ذلك التلاعب سنوات وسنوات ، فكنتم إذا دفعتم إليه خمسين لم يرسل إلا أربعين ! ولا أكتمك القول إنى دهشت عندما أدركت ذلك ، فالرجل واسع الثراء وأراضيه معفاة من الضرائب ، ولديه مماليك وعبيد وجوار ، كأنما هو من أمراء العصر الماضى ! وقد أحس فى الآونة الأخيرة أنه يوشك أن يقع فى الشَّرَك فأخذ فى إرسال أمواله سراً إلى ابنه اللاهى اللاعب ! وليت رضوان كان حصيفًا أو بعيد النظر فادخر جانباً منها لهذا اليوم ، الذى أسميه يوم حساب الدنيا – وأما حساب الآخرة ففى أيدى المولى القدير ! وها هو يعود اليوم يطلب المزيد ، ولكن عيوننا كانت له بالمرصاد فسقط غير مأسوف عليه!" .

وصمت محمد وهو يتطلع إلى وجه فريد ، ثم تناول رشفة ماء – فلم يكن صائماً لأنه كان 'على سفر' – وسأل فريداً "هل كنت تتصور ذلك كله؟" وهز فريد رأسه وقد تملكته حيرة طاغية ، فألقى محمد نظرة على الحديقة التى بدت ساجية ساكنة ، وقال :

"وهكذا أمر الباشا بمصادرته وفاءً للدين وتغريمه مبلغاً مساوياً لما استولى عليه دون وجه حق ! ولكن الجبان فرّ قبل أن أصل !" وقال فريد : "لكنه مريض ولا يكاد يتحمل الركوب !" وضحك محمد وقال : "لقد خدع الجميع ، بل خدعنا - وخدعني أنا أيضاً ! ولكن انظر ! لابد أنه علم بالأمر قبل قدومي بمدة فهرب من يوم أو يومين ، بل إن الجبان لم يصطحب أحداً من أسرته وترك النساء تحت رحمة رضوان العابث العربيد! والآن لا أملك إلا أن أحتجز أفراد الأسرة حتى يستوفي الباشا حقه ، ويسترد المال كاملاً غير منقوص !" .

وقال فريد وعين خياله لا ترى إلا ذات العينين الخضراوين : "تقصد أن يصبحوا رهائن دون ذنب جَنَوْه ؟ وهل يمكثون في هذا المنزل أم تُنزلونهم مكاناً لا يليق بهم انتقاماً لإثم لم يقترفوه ؟ وكيف يتسنى جمع هذا المال إذا كان رضوان قد أنفقه أو أنفق معظمه ؟" وقال محمد القزق في حسم "عليك أنت أن تجيب عن هذه الأسئلة كلها ! والبك - محافظ البحيرة - يثق في حكمتك وقدرتك على التصرف مع أهل بلدك ، فلا تخذلنا يا فريد يا أخي ويا ابن بلدي ! ودعني أذكرك أن الباشا لم يُعيِّن محافظاً بعد لرشيد ، وسوف يحوّل محافظة البحيرة والمحافظات الكبيرة إلى مديريات ، فتذكر لقاءك مع البك ولا تشك لحظة في صدق نيّتي أنا - جارك في المسكن ورفيق صباك والمتحدث باسمك في أسماع الكبار ! لقد تحوّلتْ الدنيا ولابد أن نتحوّل معها وإلاّ انكسرنا !" .

وتطلع فريد إلى وجه محمد القزق فخُيِّل إليه أنه يتطلع إلى الطموح مجسداً ، فلابد أنه يطمح في أن يكون مباشراً أو وكيلاً للمعلم غالي

نفسه، كبير المباشرين ، وها هو يستعين به فى تحقيق مأربه ، ومن يدرى إن كان لن يتخلى عن إخلاصه 'لأهله وناسه' فى سبيل طموحه الذى لا يعرف الحدود ! هل يقبل فريد أن يكون وسيلة من وسائل هذا الطموح الطامع ؟ وهمس فريد كأنما يحادث نفسه "وليس لى أن أرفض المنصب الجديد ؟" وصاح محمد كأنما يسمع هذيان محموم "ماذا تقول يا فريد يا أخى ؟ مأمور رشيد ! من كان يحلم أن يكون مأمور البلد رجلٌ من أبنائها ؟ لقد 'فتحت لك طاقة القدر' ! بل فُتحت لنا جميعاً ! أنا لا أنكر أن الباشا لا يعنيه إن كان المأمور روميا أو ابن عرب طالما حصل على 'حقوقه' كاملة غير منقوصة ، ولكنى أريدك أن تنظر إلى الأمر من زاوية البلد نفسها ! لقد أصبحت لرشيد فرقة تحارب فى بلاد العرب ، ولعلك علمت أن القبائل العربية رحبت بالفرقة عندما علمت أن أفرادها من العرب! بل لعلك سمعت عن قبيلة حرب التى ساعدت الفرقة المصرية وقدمت لها ما طلبت من الإبل دون مقابل ، مع أن إبراهيم باشا كان قد نفد صبره مع العرب ، فأذهله موقفهم مع الفرقة المصرية ، فبات يؤثرها على غيرها ، وإن كان عددها يقل كثيراً عن ألف مقاتل ! هذه 'طاقة القَدْر' قد فتحت أمام رشيد فاستبشرْ خيراً واصدعْ بالأمر !" .

وقال فريد بلهجة الحذر نفسها "ومضرب الأرز ؟" فقال محمد "مضرب الأرز فى يدك ! أنت تملكه وتسدد ثمنه مُنَجَّمًا ، وإن ينقضى العام حتى يؤول إليك كله ! من ذا ينازعك فيه ؟ إن أهم ما أقنع الباشا بذلك توريدك الأرز لحسابه ، حتى صار يتفاخر بمضرب رشيد وبحث

صاحب مضرب دمياط على منافستك – ولكن هيهات !" وقال فريد "أقصد هل سيتوفر لى الوقت اللازم لهذا العبء الجديد ؟" فقال محمد "تسميه عبئاً وأسمية أمانة وضعتها البلد فى عنقك ، وأنت خير من يحفظ الأمانة ! أنت الآن مأمور ووكيل وغداً من يدرى ؟ بل إننى أحسد رشيد على حظّها بين المدن !" .

وقال فريد "فماذا أفعل الآن ؟" ورد محمد بسرعة "الأمر بيدك ! أملاك الكاشف بيدك فافعل بها ما تشاء ، وأفراد الأسرة رهائن ريثما ينال الباشا الغرامة ، وأكبر الظن –" ومال محمد ليهمس فى أذن فريد كأنما يخشى أن تسمعه الجدران قائلاً "وأكبر الظن أنهم يعرفون أين يُخبّئ ثروته ! ولو كان المأمور من المماليك أو من غير أولاد العرب لأنطقهم قسراً ! لكنك لن تستطيع ضرب أحد أو تعذيبه حتى ينطق ، فأنا أعرفك خير المعرفة ، ولك وسائلك التى ذاعت ، ولا تحتاج منى إلى إرشاد أو توجيه ! والأرجح فى نظرى أن المال 'مجمّد' فى الجواهر والحلىّ التى تتحلى بها الأرملة الصغيرة ! إنها فتاة تافهة لا تعنى شيئاً لنا ، ولك أن تجرّدها من جواهرها وحُلِيّها فتفى بغرامة الباشا !" وابتسم محمد بسمة كانت كالسكين الحاد الذى جرح فريداً لكنه تمالك نفسه وقال "ربنا يسهل" ونهض محمد فى سعادة وسار أمام فريد حتى الباب وقال له إنه لن يؤخره عن الإفطار ، وأمام قائد الجند قال بصوت عال : 'مع السلامة يا حضرة المأمور !' وركب فريد فرسه والشمس قد مالت للمغيب وعاد إلى المنزل وقد أحس أن الدنيا انقلبت !

٥

كان إفطار عاشوراء شهيًا ، وسرّ فريدًا أن تجتمع الأسرة حول المائدة وكان يأمل أن يجد فى الصحبة ما يخفف عنه الوحشة التى تتملكه والقلق الذى يضنيه ، وإن حاول أن يخفى هذا وذاك ، ولم يكن يريد الحديث عن المنصب الجديد الذى فرضه الباشا عليه فرضًا ، ويأمل ألا يفاتحه أحد فى الأمر ، فتظاهر بأنه مهتم بالطعام ، وجعل يثنى على مهارة والدته ، مصطنعًا بَسَمَاتٍ لا يدرى من أين يأتى بها ، ولكن النبأ كان قد ذاع ، وإن لم تذع تفاصيله ، فجعلت أمه تقول ضاحكة "أصبحنا من الأمراء !" وفريد يقول لها إن المأمور غير الأمير – فى اللغة – وهى تضحك وتؤكد أنهما بمعنى واحد ! وكانت أخته سعيدة لأنها تدرك أن ثمة ما يدعو إلى السعادة وإن لم تُحِطْ بدقائق ما حدث ، أما أبوه فكان صامتًا رغم البسمة التى رسمها على شفتيه ، وفريد يدرك مدى ما ينتابه من مشاعر ، وإن كان لا يستطيع التكهن بها .

واختلى فريد بأبيه بعد الصلاة وقص عليه تفاصيل المقابلة مع محمد القزق ، وقال والده همسًا "قلبى كان حاسس" واستوضحه فريد فلم يزد أبوه عما قاله ، وسأل ابنه عما ينتوى فعله ، فقال فريد بحزم "لابد من دفع الغرامة ! لم أحسب حساباتها المفصلة فهذا شغل زكريا ، وسوف أكلّفه بذلك ، ولكن واجبى تخليص الأبرياء من إثم أبيهم !" وهز الحاج عبد الحكيم رأسه وقال "لن تكون لهذه الغرامات نهاية ! الباشا يحارب ويريد المال ولن يعدم وسيلة للحصول عليه ! والمشكلة فى نظرى إذن هل نصدق رواية محمد عن الكاشف ؟ قيل إنه شوهد منذ يومين وهو يبحر فى

سفينته الكبرى ومعه عدد من مماليكه تجاه الجنوب ، ولم يجل بخاطر أحد أنه يحاول الهرب ، بل وما زلت أستبعد ذلك ، بسبب مرضه وتقدمه فى السنّ ، بل أستبعد أن يكون حساب محمد القزق للأموال صحيحًا ، وأحمد أغا رجل غنى وكان يستطيع أن يدفع ما طلبه الباشا بسهولة ، ولابد أن تكون هناك أسباب أخرى لغضب الباشا عليه !" .

وقال فريد إنه لا يستطيع القطع فى هذه الأمور ، ولا يعنيه الآن إلا إنقاذ أسرة الكاشف ، وأما التصديق والتكذيب فليس فى طوقه ، ثم سأل أباه عن تفاصيل عمل المأمور فأجابه والده مؤكداً له أنه لن يتعارض مع عمله فى المضرب ، فلقد ثبت نظام العمل وأصبح المضرب يعمل بانتظام، ولن يقتضى وجود فريد فترات طويلة ، وأن منصب المأمور لا يقل خطرًا عن منصب كل من الكاشف والمحافظ ، فإذا تحقق ما وعد به الباشا من تحويل رشيد إلى محافظة ، فمن يدرى ما تؤول إليه هذه المناصب ، فربما تغيّرت المسميات وظل العمل واحدًا ، وقال الحاج عبد الحكيم آخر الأمر إنه يستبشر خيرًا بتعيين مصرى فى منصب المأمور بعد أن عيّن الباشا مصريًا آخر – من أعراب دمنهور ، وتحديدًا من قبيلة أولاد على – فى وظيفة محافظة البحيرة ، وأنعم عليه بلقب 'البك' ، بعد أن رقاه إلى رتبه الميرالاى ! والباشا فى هذا يحاول كسب ود القبيلة العربية المذكورة، بل لقد اكتسب من قبل ود قبائل عربية كثيرة – ذكر منها الهنادى والزوفة وجهينة والعبابدة – وأضاف أنه يحاول اكتساب ود قبائل أخرى – مثل الجمعيات والجوادى وولد سليمان والهوارة والمعازة – بتعيين بعض أبنائها فى الجيش وترقيتهم إلى رتب عالية ، وتذكر فريد مقابلته مع البك وقص

على والده ما دار بينهما من حديث ، فازداد انفراج أسارير والده ، وقال إن الباشا 'يُنعم' على 'أولاد العرب' برواتب سخية ، اجتذاباً لهم وتحبيبًا في الجندية ، مع ما في هذا من إرهاق لموارده "وإرهاق لأهالينا الذين يدفعون الضرائب !" .

وقال الحاج عبد الحكيم لابنه إنه لا يريد أن يستبق الأحداث بل يطارحه الرأي وحسب فيما عساه يفعل بأسرة الكاشف الذي أصبح معزولاً ، ومال على ابنه وهمس قائلاً : هل تعلم أن محمداً يشيع في مصر أن الكاشف مات !؟ ما الذي يدفعه إلى قول ذلك إلا إن كانوا يعتزمون قتله أو قتلوه فعلاً ؟ هل تدرك معنى ذلك ؟ وماذا تنتوي أن تفعل بالأسرة إن صدق ذلك ؟ ، فقال فريد إنه لن يخرج عن تقاليد البلدة ، وسوف يفكر طويلاً قبل أن يقدم على عمل شيء ، وإن كان يرى أن يتحمل أبناء البلدة ما فرضه الباشا من الغرامة ، لإنقاذ أرواح الأسرة المنكوبة التي غدت بلا حول ولا طول ، ريثما يناقش الأمر مع زكريا في الصباح ليرى ما يمكن أن تدرّه أملاك أحمد أغا من أموال إن هي بيعت أو إن استأجرها بعض القادرين من أبناء البلدة ، فإذا كانت سوف تفي بهذه المغارم ، فخير وبركة ، وإن لم تَفِ استكمل فريد النقص من ماله الخاص ! وهال الحاج عبد الحكيم ما يسمع ، وناقش ابنه في حكمة ما يعتزم ، لكن فريداً ذكره بأن الأهالي افتدوا والد أحمد أغا أيام مراد بك ، وأن تجار القاهرة افتدوا أحد كبار المباشرين الأقباط بآلاف الأكياس حين غضب عليه الباشا الحالي، وأن المباشرين الأقباط في دمنهور افتدوا السيد حسين – نقيب الأشراف هناك – بألفي ريال حين غضب عليه كاشف دمنهور ! ولم يبد الاقتناع على وجه والد فريد لكنه لم يجد نفعًا في النقاش ، فقال له

"لقد وعدتنى بالتفكير طويلاً قبل عمل أى شىء ، ففكّر ولا تتسرع ، والصباح رباح !" وضحك ضحكة من يريد أن يخفى قلقه ، وترك ابنه وخرج .

٦

بات الحاج عبد الحكيم مهموماً مما سمع ، وإن لم يفصح عن حقيقة همّه لابنه ، فطالبُ العلم أصبح مأموراً تأتمر جنود الحامية بأمره ، وقد يصبح كاشفاً إذا طال غياب الكاشف ، أو ثبت أنه مات ، بل قد يعيّنه الباشا محافظاً لرشيد ! وكان الزّهو الذى صاحب هذا التغيير فى البداية زهو والدٍ فخور بولده ، لكنه الآن يستشعر أخطاراً لا يدريها الكثيرون ، إذ إن فريداً يعرف الكثير الكثير من أسرار البلدة ، وهو وقّاد الذّهن قوىّ الشكيمة ، وربما لن يسهل على 'أصحاب الشأن' فى رشيد أن يخدعوه كما كانوا يخدعون مندوبى الباشا ورجاله بل وعيونه الذين يوليهم ثقته ، ففريد يعرف أن رشيد تستطيع أن تدفع للباشا أضعاف ما يطلب ، بل أضعاف أضعاف ما يطلب ، وقد يصر فريد على رأيه ويدفعه الطموح إلى مسايرة الباشا استرضاء له أو نشداناً لمنصب رفيع ، فيعرّض نفسه للكراهية من الأهلين بل ويعرّض حياته نفسها للخطر ! ألم يُقتل إبراهيم أغا الكاشف (والد أحمد أغا) غداة افتدائه دون أن يعرف أحدٌ قاتله ؟ والقول بأن أحمد أغا مات ليس بعيد الاحتمال ، بل قد يكون رجال الباشا قد قتلوه مثل أبيه ! وارتعد الحاج عبد الحكيم حين طافت ذكرى تلك الحادثة بذهنه، وتطلع من النافذة حين سمع نقرات عرف أنها بشائر مطر الشتاء ، فرأى الظلام يسود المدينة، فأحس أن كربه قد ازداد ، فقام إلى

القنديل الصغير فأشعله وفتح المصحف المطبوع، وبدأ يقرأ القرآن حتى يُقصى عن ذهنه مخاوف الليل وأوهامه، واستمر يقرأ بصوت عالٍ حتى غلبه النعاس تعباً وإرهاقاً فأغلق المصحف ونام .

توجّه فريد عندما أشرقت الشمس إلى دكان إبراهيم الشينى يطلب زكريا ، وكان مطر البارحة قد ترك بركًا ضحلة متناثرة فى الطرقات ، ولاحظ أن الحارس الذى أصبح مكلفاً بحراسة "المأمور" يتبعه كظلّه فأحس بالضيق وأمره بالابتعاد عنه ، فصدع الحارس بالأمر ، ثم دخل فريد الدكان وسأل عن زكريا فقيل له إنه ذهب يطلبه فى المضرب ، فذهب فريد مسرعًا إلى المضرب وهو يهمز فرسه ليركض ، ومن خلفه الحارس يحاكيه حتى وصلا إلى الباب ، فأمر فريد الحارس بالترجل والوقوف مع بقية الحراس ، ودخل وحده إلى غرفته فى المضرب فوجد زكريا جالساً مع فايز يراجعان بعض الأوراق ، فألقى السلام وطلب الانفراد بزكريا فخرج فايز وأمر بالشاى فجىء به إليهما ، ولم يلبث زكريا أن قال :

"عندما أبلغنى المعلم فرانسيس - مباشر البحيرة الذى تعرفه - بما حدث وسمعت شائعة وفاة الكاشف تتناقلها الألسنة منذ الأمس، بل قيل إنها أُبلغت للباشا ، لم أنتظر قدوم محمد أفندى القزق ، بل أجريت الحسابات اللازمة ، فرأيت أن الغرامة لو قُسمّت على رشيد ونواحيها المباشرة وغير المباشرة ستكون غرامةُ الفرد ثلاثين قرشًا وربع قرش ، ولكن هذا ظلم ، فَحَسَبْتُها على أساس الضرائب ، وهو الأساس الذى يأخذ به المباشر ، فاتضح أن على رشيد أن تدفع ٨٣٠ كيسًا ، والنواحى التى تتبعها مباشرة ٤١٥ ، والتى تتبعها بصورة غير مباشرة ١٢٦٠ ،

وتكون فى هذا زيادة قدرها خمسة أكياس تدفع لمن يتولون جمع المال ، ومن يتولون نقله إلى الباشا ، وفقاً للمعمول به ، وتقع معظم هذه الأعباء كما تعرف على القادرين من كبار دافعى الضرائب، ومن المحال أن يعجز أحد عن الدفع أو أن يعترض ، فالمبالغ المبيّنة فى هذه الكشوف فى طوق الجميع !" .

ونظر فريد إلى 'الكشوف' فوجدها كثيرة زاخرة بالأسماء ، والأرقام محسوبة بالقروش وكسورها - حتى النصف فضة والبارة - فأبدى إعجابه بدقة زكريا وتوخيه العدل ثم قال "أرى يا زكريا يا أخى أن الباشا لم يفرض هذا المَغْرم على الكاشف إلا ثاراً من تقاعسه فى جميع الرجال أو البدل النقدى الذى طلبه منذ شهرين ، ولقد تقاعست بعض النواحى التابعة لنا مباشرة عن الدفع ودفعنا بدلاً منها خمسة وثلاثين كيسًا ، فهل من العدل أن نتحمل هذه المرة ما كان 'مقرراً' عليها ؟" فقال زكريا باسمًا: "جال ذلك بخاطرى فعلاً ! فأعددت قوائم أخرى - وهذه هى - تتضمن رفع المبلغ المذكور من غرامتنا (فتصبح ٧٩٥ كيسًا) وإضافتها إلى مبلغ النواحى المذكورة (فتصبح ٤٥٠) ولكن القرار ليس فى يدى! بل هو فى يد المأمور!" وضحك فريد فهو لم يعتد أن يشير إليه أحد بهذا اللقب ، وكان يعتبر زكريا أخًا أكبر له ، ثم قال "ولنفرض أننا وجدنا فى منزل الكاشف مبلغًا يخفف من أعبائنا ؟" فقال زكريا : "لن نجد شيئًا ذا قيمة يا فريد يا أخى ! بل لن تجد أسرتُه ما تعيش عليه بعد المصادرة !" وتجهم وجه فريد وهو يتذكر الست هانم وابنتها ذات العينين الخضراوين ، وتطلع من شباك الدكان إلى النيل وغاب ذهنه لحظة ثم أفاق

على صوت زكريا وهو يقول : "بل إننى أخشى أن يصيب هؤلاء مكروه ! وأصدُقك القول إننى أخشى على أرواحهم ! ولولا أنك أصبحت المأمور لقلت إن رجال الباشا لن يُعفوهم من القتل ، إلا إن أجارهم مُجير !"
وقال فريد فجأة : "أعطنى الكشوف البديلة ، وادع مجلس الكبار للاجتماع الليلة فى منزل شيخ البلد ! والحاج محمد شبابو أيضًا !" .

٧

أمر فريد بتشديد الحراسة على منزل الكاشف – بحجة منع أحد من الهرب – خشية أن يتسلل جندى فيصيب أحد أفراد الأسرة بسوء ، وظل يتردد على المكتب طول اليوم ليراجع مع زكريا التفاصيل الواردة فى الكشوف ، وصورة ذات العينين الخضراوين تلحّ على خياله ، وعبارة 'إلا إذا أجارهم مجير' ، ترن أصداؤها فى ذهنه ، إذ بدأ يرثى لحالها وحال أمها ، وأدهشه أن يظن فيار – بل ومراد – أن رضوان سوف يُعيّن كاشفًا ! وما أن قُضيتْ صلاة المغرب حتى اتجه على فرسه ، يتبعه الحارس ، إلى منزل شيخ البلد ، فى أقصى حى بحرى ، وكان يحمل الحقيبة التى وضع فيها الأوراق التى أعدها زكريا عن ثروة تجار البلدة ومكاسبهم ونفقاتهم ، وكذلك مُلّاك الأراضى ، والعاملين بالبحر ، والحرف الرئيسية ، وهى القوائم التى قضى ما بين الظهر والمغرب فى دراستها حتى كاد يحفظها عن ظهر قلب ، وما أن دخل وسلّم حتى بدأ الحديث ، دون أن يلتفت إلى تهنئة الأعضاء له بالمأمورية ، فشرح الأزمة الجديدة ، وقال إنه لا يزال كعهدهم به ابن بلدهم المخلص ، وإنه لا يزال يلتزم بالقسم الذى أقسمه على المصحف بالتكتم على أسرار البلدة، وأوضح أن

زوال الكاشف قد يكون بشير سعد لا نحس سواء أكان قد هرب أم مات ، فأمْرُ البلد فى أيدى أبنائها منذ اليوم ، ثم تحدث عن محنة الأسرة التى تعانى من جراء ظلم الظالم ، وعرض القوائم البديلة التى أعدها زكريا ، والجميع يستمعون فى صمت ووجــوم ، حتـى انتهى وقال المقولة التى كـان كل متحدث يختتم بــها حديثه "والأمر الآن معروض على المجلس".

وساد صمت طويل ، قطعه دخول الخادم بصينية المشروبات ، وعندما بدأ الجميع يرشفون الشاى ، تنحنح الشيخ الغاياتى وحمد الله وصلى على نبيّه وقال إن ما يعرضه فريد أفندى معقول ، ولقد سبق للأهالى أن عرضوا افتداء أسرة أبيه المرحوم إبراهيم ، ويبدو أن الرحمة والشفقة والمثل العليا تقضى بافتداء هذه الأسرة المنكوبة ، وندعو الله أن تكون هذه آخر الكوارث التى جلبها علينا ذلك الكاشف ، وأن يساعد الله فريداً حتى يبدأ عهداً جديداً لهذه البلدة التى عانت الويلات فى عهودها المتعاقبة .

وابتسم فريد قائلا إنه يرجو أن يكون الجميع فى اتفاق على هذا الرأى ، ومؤكداً لهم أنه لن يتوانى عن بذل قصارى جهده لتجنيب رشيد كل مكروه ، واستعرض ملامح ما أسماه العهد الجديد ، وخصّ بالذكر زيادة دخل الميناء ، والمعامل التى أنشئت ، بل والفرقة الرشيدية التى مالت إليها قلوب العرب فى الحجاز لأن أفرادها عرب ، وغير ذلك مما سبق له أن ذكره ، وأشار إلى إبراهيم الشينى أن يسجل لديه فى الدفتر الخاص (السرى) ما جرى فى الجلسة ، إن كان الجميع يوافقون على ما ذهب إليه شيخ البلد .

وسرعان ما ارتفع صوت على الساعاتى معترضاً (وهو ما كان فريد يخشاه واستعد له خير استعداد) فقال إنه لا يستطيع الموافقة على أن يتحمل الأهالى فدية أسرة الكاشف، فهو ليس من أبناء البلدة ، بل من الحكام ، وليس مصريا ، بل من سلالة المماليك ! وقاطعه فريد قائلاً بحزم "بل لابد أن توافق على ذلك يا شيخ على! ولن يسمح المجلس بخروج أحد على الجماعة ! وها هو الحاج محمد شبابو - شهبندر التجار - يؤيدنى ويؤيد شيخ البلد فيما ذهب إليه !" فقال على الساعاتى "لن أدفع ! ولن يستطيع المجلس إرغامى على القبول !" فقال فريد بهدوء شديد "أفلا يستطيع الباشا إرغامك !؟" فبُهت الحاضرون وساد الصمت ، واصطنع فريد بسمة وقال "لا أقول إننى لن أستطيع معك صبرًا ، فصبرى لا ينفد، ولقد صبرت على غمزك ولمزك لى أمام المجلس ، والكل يشهد بذلك ، لكننى أقول إنك لا تُقدّر جسامة ما نواجهه ! فهل تتقاعس عن الدفع لأنك حقًا لا تملك أن تدفع ؟ إن كان ذلك صحيحًا فأنا أول المشفقين عليك والمطالبين بإعفائك ! لكنك تملك وتقدر بأكثر مما تدفع من ضرائب للباشا! فهل ستضطرنى إلى الإفصاح عن حقيقة ثروتك أمام المجلس وحقيقة الضرائب المستحقة عليها ؟ إنك تخفى الكثير يا شيخ علـى ، ونحـن نتستر ونغض الطرف ، فاتق الله وأقلع عن هذا الحرص المبالغ فيه على الدنيا !" .

وقال على الساعاتى "هل دارت الأيام وأصبح الشيخ فريد الصغير يتهدد علياً الساعاتى ؟ إننى أرفض تهديداتك وأقول إنك لن تستطيع إرغامى !" فقال فريد بسرعة وبرباطة جأش : "يستطيع الباشا يا شيخ

على ! فاتق الله أقول !" وقال على هازئًا "إذن أرنى كيف يا شيخ فريد!" فقال فريد "سامحك الله ! أنا أخشى عليك - إذا صمَّمْتَ على الرفض ! أخشى عليك المصادرة !" .

وهبّ على الساعاتى فَزِعًا وقال "هل سمعتم ما قاله الشيخ فريد ؟" فقال الشيخ الغاياتى "إنه المأمور يا شيخ على ! فاهدأ وتعقّلْ ! وهو يحذّرك فحسب كى تنصاع لأمر المجلس !" فقال على الساعاتى "أنا أنصاع ؟ إنه يهددنى بالمصادرة !" فقال الغاياتى "إنه يُنْذرك كى لا تخرج على الجماعة !" فقال علىٌّ وقد بلغ به الاهتياج حد الارتجاف فتهدّج صوته واختلطت مخارج ألفاظه "ابن الحاج عبد الحكيم يهدد عليًا الساعاتى ؟" فأجلسه إسماعيل الخشاب - الذى كان يقعد بجواره - وقال الغاياتى أخيراً "خذه يا إسماعيل إلى المسجد لصلاة العشاء التى حان وقتها واشرح له الأمر ! الرجل ثائر ولا يعى ما يقول !" والتفت إلى إبراهيم الشينى وقال له "اكتب عندك ما اتفقنا عليه" ، ولكن فريداً أسرع يقول "لقد تحدّد ضحى بعد غد لتلقى الأموال من جميع النواحى ، ومن رشيد نفسها - كما سبق أن أوضحت - ولن أقبل أى تأخير عن ذلك الموعد ، وسوف يتولى زكريا جمع الأموال وإطلاعى على سير العمل صبحًا ومساءً ، والكشوف لديه ، وهى موجودة فى دكان إبراهيم الشينى- وسوف أسمّيها دائرة الشينى للمحاسبة من اليوم ! وليذكر الجميع ذلك ! وفقنا الله لما فيه الخير ! انفضّتْ الجمعية !"

ونهض الجميع ، وانطلق فريد وحده على فرسه ، والحارس خلفه لا يكاد يدركه ، حتى إذا بلغ المضرب توقف وأمر الحارس بالانتظار وقفز

قفزًا على الدرجات القليلة فى مدخل المبنى وقصد غرفته فوجد القنديل الكبير مضاءً فاطمأن واتجه إلى غرفة فايز فوجده ما زال عاكفًا على الدفتر الكبير فقال له ضاحكًا "ألم يكفك عمل النهار يا فايز ؟" وابتسم فايز وأغلق الدفتر وسار خلف فريد حتى توسطا الغرفة ، ثم همس فريد لفايز أن أنصِتْ جيدًا ولا أريد لمخلوق مهما يكن أن يعلم بما سأسره لك ، فأومأ فايز وقد سرته ثقة فريد ، فقال فريد : "اذهب الآن فنم ! فإذا كان الصبح ، فمرّ بى فى الوكالة وسوف أعطيك أمانة فلا تفتحها بل احملها واعبر النيل إلى الجزيرة الخضراء ، واسأل هناك عن الشيخ النقشبندى ، فإذا رأيته فأعطه صرة سوف أحمّلك إياها ومعها ورقة ، واطلب منه ألا يفتحها إلا بعد غد ، وقل له إنها 'أمانة' من الشيخ فريد ! ثم أعطه ورقة مطوية أخرى سأعدّها لك ، واطلب منه أن يفضّها ويقرأها ويجيب عليك بنعم أو لا ! قل له إنك لا تعلم ما فيها ، وسوف تكون صادقًا فى قولك ! لا أريدك أن تقسم فثقتى فيك بلا حدود !"

وعرض فايز أن يقسم ولكن فريدًا أصرّ على عدم القَسَم ، وخرج معه إلى ظاهر المضرب ، فأركبه خلفه على فرسه ، وانطلق يركض ، والحارس يتبعهما ، حتى وصل الفرس إلى منزل فايز فترجل ، وودعه فريد وعاد إلى منزله ، فوجد المصابيح مضاءة – على غير العادة – فحدس أن بالمنزل ضيوفًا ، وما أن خطا أول خطوة حتى جاءت 'أخته' سعاد إليه فرحةً وهى تصيح "مبروك يا سى فريد ! آل بقيت مأمور ! عقبال ما تبقى بك والا محافظ ! والنبى أول ما سمعت ما قدرتش أستنى ! نبقى فى بلد واحدة وما جيش أبارك !؟" وشكرها فريد وسألها عن صحة المولود فقالت

إنه بخير و "بيبوس إيديك !" وضحك فريد ، ثم جلس يحادثها ويستمع منها إلى أقاصيص العمل اليومى فى الدفاتر مع "سى إبراهيم" ، وطال بهما الحديث حتى تأخر الوقت ، وتذكر فريد أنه لم يُصلّ العشاء فاستأذن وانصرف . وعندما خلا إلى نفسه أخرج دواته وقلمه ، وكتب رسالتين إلى الشيخ النقشبندى ولم يكن قد توقف عن التفكير فيهما منذ مقابلته مع زكريا فى الصباح .

٨

حمل فايز 'الأمانة' ومضى ، وظل فريد واقفًا يرقبه وهو يركب عربة المضرب ذات الفرسين حتى اختفى ، ودعا له في أعماقه بالتوفيق ، ثم أخذ يناقش سميحًا فى أحوال الوكالة ، وهو يلمح الناس وهى تشير إليه ، وكان البعض يدخلون للسلام عليه والتهنئة بالمنصب الجديد ، وكان يجهد نفسه حتى يخفي قلقه ويظهر البشر والسعادة ، وعلت الشمس السماء ، وكان الجو صحوًا وقد جفت أمطار الأمس تماماً فكأنما غسلت الشوارع غسلاً ، وعندما بدأ 'المبّيع' ترك فريد سميحًا وانطلق على فرسه ، والحارس يتبعه ، وكان فريد قد أمره بالجلوس على المقهى وشرب الشاى ريثما ينتهى من 'مهمة خاصة' لم يكن يريده أن يعرف عنها شيئًا .

وعندما عاد فريد إلى المضرب صعد إلى شباك غرفته فأطل منه على النيل ولاحت له الجزيرة الخضراء على البعد فخفق قلبه ودَهِشَ لتأخّر فايز، لكنه كان واثقًا من حذق فايز وإخلاصه ، فأخذ يحدق فى اللون الأخضر فطال به الوقت حتى سمع أذان الظهر فهبط مسرعًا وقرر أن

يسير إلى جامع سيدى النور ، والحارس يتبعه ، حتى قُضيتْ الصلاة وعاوده القلق ، ففضل الانتظار قليلاً وجعل يتأمل المسجد فخطر له أنه بحاجة إلى تجديد ، فالحُصْر بالية ، والمنبر متهالك والأعمدة فى حاجة إلى الطلاء ، وتساءل فى نفسه ، وماذا يفعل مشرف الوقف ووكلاؤه ؟ لابد أن يُحاسَبوا ! وهل ذلك من اختصاص شيخ البلد أو من اختصاص الكاشف؟ مهما يكن الأمر فلابد من رقابة هؤلاء المهملين ! لو حدث هذا فى القاهرة ما صبر المحافظ على إهمالهم ! .

وأفاق من تأملاته على صوت الحارس يناديه فخرج فإذا بفايز لدى الباب فى عربة المضرب ، فركبها فريد ولم يكن بحاجة إلى سؤاله لأنه قرأ فى وجه فايز المشرق ما كان يريد أن يعرف ! وعندما اختلى الرجلان أوضح فايز أنه تأخر لأن الشيخ كان فى 'خلوة' ونذر الصوم عن الكلام طول اليوم ، وكان على فايز أن ينتظر خروجه ، وامتدح أخلاق الشيخ وبشاشته ، وقال إنه عندما طلب الإجابة أومأ الشيخ موافقاً وأشار إلى عينيه كأنما ليقول "من عينىّ الاتنين !" وابتهج فريد وقال فى نفسه لقد اكتمل أول جزء من المهمة ، ولم يبق إلا يوم وبعض يوم ! وعاد الرجلان إلى عمل المضرب .

ولم تمض لحظات حتى سمع فريد صخبًا خارج المضرب ، ففزع وخرج ، فوجد حشدًا لدى الباب والحارس واقف يصرخ فيهم ، فسأل فقال له أحدهم : نحن مندوبون عن رجال الصناعات الدقيقة ، والشيخ على الساعاتى (شيخ الحرفة) يخبرنا أن علينا أن ندفع مبلغًا باهظًا يتجاوز ما دفعناه من ضرائب عدة مرات ، وهو يطالبنا به حتى يدفعه إلى

المأمور الجديد ، ونحن لا نملك هذا القدر من المال ، فإما أن نبيع دكاكيننا ، إذا وجدنا من يشتريها ، أو نهاجر ! وقال فريد : لن أستطيع أن أخاطب الجميع ، ولكن انتخبوا واحداً يمثلكم وسوف أخاطبه ، فقال الذى كان يتحدث أنا أُمثلهم ! فدعاه فريد إلى دخول المضرب معه ، بعد أن نحىّ الحارس ، وقال للحشد أن ينصرفوا ووعدهم بإرضائهم قبل صلاة العصر !

واصطحب فريد ممثل الحرفة وأصغى إليه باهتمام وفايز يكتب ملخصًا لما يقوله الرجل ، ويسجل الأرقام التى يذكرها بدقة ، حتى انتهى الرجل من عرض قضيته ، فأدرك فريد أنه لم يَنْجُ بعدُ من قبضة علىّ الساعاتى ، فها هو قد حرّض رجال حرفته للثورة عليه ، لكنه كان يواجه فى الواقع مخاتلة من نوع جديد ، فالرجال من الصناع البسطاء ، والساعاتى لا يكتفى بتحريضهم ضد الباشا بل ألبهم ضد فريد نفسه ، فهل يرى الساعاتى أن فريدًا أصبح عدوًا له ؟ وإذا حذا حذوه رجال الحرف الآخرون فسوف يلوث الساعاتى سمعة فريد أو يُفقده حب الناس، وهو الحب الذى أقنعه بترك دراسته والإقامة بين 'أهله وناسه' ! ورأى فريد أن عليه أن يواجه هذا العداء بالحيلة فقال للرجل "عليكم أن تتظاهروا بالانصياع لأوامره ، لكن طالبوه بأن يسجل ما يأخذه منكم كتابة - كما ينص على ذلك كتاب الله العزيز !" فقال الرجل "ولكننا لا نملك المال المطلوب !" فقال فريد "أنا لا أطلب منكم دفع شىء إليه ، بل التظاهر بالموافقة فحسب ، والإصرار على كتابة 'عقد أمانة' مع كل واحد منكم ! فإذا وافق فما عليكم إلا أن تبعثوا أحدكم بأحد عقودهم إلىّ ، والباقى

على الله وعليّ أنا !" وقال الرجل "هذا كلام الشيخ فريد الذى عرفناه طفلاً وصبيًا ويافعًا ! لك عليّ هذا !" وأضاف فريد وهو يصطحبه مودعاً "أما إذا لم يأتنى أحد قبل المغرب بمثل هذا العقد ، فسوف أحدس أنه قد عدل عن رأيه ورفع عنكم الغرامات الظالمة !" وابتسم الرجل وإن لم يكن قد أدرك مرمى فريد كل الإدراك ، وانصرف ، وانصرف الحشد معه ، وانقضى اليوم وجاءت المغرب وتلتها العشاء دون أن يأتى أحد إليه فى المضرب بما طلبه فعرف أن الأزمة قد مرت بسلام .

٩

كان ضحى اليوم التالى الموعد الذى ضربه فريد لتسليم الغرامة كاملة إليه حتى يدفع بها إلى مندوب الباشا ، وكان محمد القزق يتوقع وصوله فى الصباح ، وكان فريد قد وضع حساباته للعمل فى ذلك اليوم بدقة ، ولذلك فما أن علت الشمس السماء حتى بدأ يحس بالقلق ، فلا عربة شيخ البلد وصلت ، ولا المندوب وصل ! وعندما سمع أذان الظهر كبّر فى سرّه وازداد قلقه ، وكان يقول فى نفسه إنه يتعرض لأول اختبار لقدرته على النهوض بالمأمورية ، لكنه عزا القلق إلى طبع فيه وجعل يلتمس الأعذار للمتأخر والغائب ! ورسم على فمه ابتسامته المصطنعة حتى لا يدرك أحد العاملين فى المضرب ما يساوره ، وصلّى الظهر كعادته فى مسجد سيدى النور ، وظل يُمنّى نفسه وهو عائد إلى المضرب بوصول الأموال والمندوب ، ولكن الوقت مرّ ولم يَصلْ أحد ، فيما عدا أخته الصغيرة خديجة بصينية الغداء ، فتناول الطعام دون شهية والأفكار تصطرع فى رأسه .

وجاء العصر وفات ، وهو يحاول إقصاء قلقه بالتجوّل فى أرجاء المضرب والحديث مع العاملين ، ثم قرر إرسال فايز إلى 'دائرة الشينى' للاستفسار عما جرى ، فاستدعاه وشرح له الأمر ولكن ما كاد فايز يخرج لركوب العربة حتى سمع فريد صليل أجراس يعلو ، فوثب من مقعده فرأى عند الباب المندوب وهو يهبط من العربة ومعه محمد القزق فرحب بهما ودعاهما للدخول فدخلا ، وكان مع المندوب رجل حدس فريد أنه كاتبه ، ولم يجد فريد ما يقوله إيضاحاً لتأخر النقود فجعل يطلب الشاى والقهوة ويكرر عبارات الترحيب ، ولكن حيرته لم تطل ، إذ لم تلبث عربة شيخ البلد أن وصلت ، وهبط منها رجل قال إنه مرسل من عند شيخ البلد ومعه 'الأمانة' ، فرحب به فريد وعرض عليه الدخول فاعتذر الرجل ومضى بعد أن سلم النقود ، فأحصاها فايز ووضعها فى صندوق خاص ، نقله رجلان إلى عربة المندوب ، وأقام فريد عليه حارسين ريثما ينتهى 'الضيوف' من شرب الشاى والقهوة .

ولم يشأ فريد أن يتحدث فى تفاصيل ما أنجزه بل ظل ينتظر حتى انتهى الضيوف، ولم يطل انتظاره إذ بادره المندوب ببسمة عريضة (شاركه فيها محمد والحارس) ثم قال "مبروك يا فريد أفندى ! هذا هو مرسوم تعيينك مأموراً يتمتع بسلطة المحافظ الكاملة ، لرشيد كلها بنواحيها المباشرة وغير المباشرة – بعد أن أصبحت جميعاً فى زمام المحافظة ! كان الأمر لدىّ ألاّ أسلّمك المرسوم إلا بعد تلقّى الأموال ! اقرأه على مهل وتأمَّلْ ما فيه ، لكننى سوف ألخص لك ما فيه : الباشا يعتبر أحمد أغا – حاكم رشيد السابق – فى عداد المتوفين ، ولذلك فقد

قضى أن تؤول إليك جميع أملاكه ، المعفاة من الضرائب ، بما فى ذلك مماليكه - من بقى منهم - وخدمه وحشمه ، وهو يطلق يدك فى المحافظة كلها ، ولك أن تفعل ما تراه ، مهما يكن ، وأن تنهض بمهام الأمن وتحصيل الضرائب السنوية والمغارم الطارئة ، ولك أن تحتفظ بإدارة المضرب إذا أردت أو انتداب أحد ثقاتك لإدارته ، بالشروط السابقة نفسها ، وأن تحتفظ بما اكتسبته من أراض سبق لك شراؤها ، ليس لأحد أن يراجعك في رأى تراه ، مهما يكن !" وضحك محمد القزق سعادةً وفرحًا ، وسلّم المندوب المرسوم إلى فريد وقال له "ولك - طبعًا - أن تبتنى لنفسك قصرًا جديدًا يليق بمكانتك إن كنت تكره الإقامة فى قصر الحاكم السابق ! .

ولم يدر فريد لماذا أحس بما يشبه الصدمة عند سماع تلك التفاصيل، فالمرسوم يفترض وفاة الكاشف ، وكان محمد يقول أولاً إنه هارب ، وفيما يخص توليته المأمورية لم يأت المرسوم بجديد ، أو بما لم يكن فريد يعرفه، لكن أيلولة سلطات الكاشف وأملاكه إليه كانت فوق ما يتوقع ! فصمت لأنه لم يعرف ماذا يقول ، ولم يشارك الضيوف بَسَمَاتِهم لأن المرسوم ، على ما أتى به من فرح ، لم يفرحه ! إنه يلقى على كاهله أعباء لم يتوقعها ، ويضع فى يديه أزِمَّة أمور لم يسبق له أن قبض عليها ، ويكلفه تكاليف لم يعهدها - لا ولا راودته فى أشد أحلامه شَطَطًا ونَزَقًا ! ونهض الرجال وقد مالت الشمس للغروب، وأخذ فريد المرسوم فلم يفضّه بل وضعه في الخزانة الحديدية المجاورة لمكتبه فأغلق بابها ووضع المفتاح فى جيبه، ثم سار مع الرجال حتى الباب فودّعهم وعاد أدراجه .

عاد فريد إلى المكتب ، ومكث برهة يستجمع فيها شتات ذهنه ، ثم نهض لتنفيذ الجزء الثانى من المهمة التى بدأها يوم أمس مع فايز ، فكلف نائبه بالنظر فى شؤون المضرب ، ومضى وحده ، والحارس يتبعه إلى منزل الكاشف ، فحياه الضابط تحية عسكرية ، وأفسح له الجنود الطريق ، فحدس فريد أن الخبر قد ذاع ، بل لم يلبث أن علم أن المندوب قد أرسل المنادين يعلنون فى رشيد ، وفي النواحى جميعًا - قاصيها ودانيها - بعد أن أصبحت تابعة للمحافظة ، نبأ صدور مرسوم تعيينه 'محافظًا' ! وعندما بلغه ذلك دهش له ، فهو مأمور فحسب ، وعزا الخلط إلى افتقار المنادين إلى الدقة ، فالمرسوم - حسبما قال المندوب - يأمر بتعيينه مأمورًا يتمتع بسلطة المحافظ لا تعيينه محافظًا ! لكنه لم يحزن ، بل دخل قصر الكاشف وطلب مقابلة الأسرة !

جلس فريد فى الغرفة التى تحمل له ذكريات كثيرة ، ونظر من النافذة الفرنسية فرأى ظلال الأصيل تمتد حتى أحواض الزهور ، وانتابه لأول مرة إحساسٌ بأنه ليس ضيفًا ! لقد آل إليه القصر ، وآلت الحديقة فيما آل إليه من أملاك الكاشف ! وأحس بالاطمئنان إلى ما دبّره وحدّد خطواته بدقة على مدى الأيام الماضية ، وداخله الزهو رغم أنفه فاستغفر الله وخفض رأسه ، وعندما جاء الخادم فانحنى وقال له "أمرك سيدى !" لم يجب فريد بل صرفه بإشارة من يده ، ثم دخل حارس وقال (بصوت ذكّره بالمرات السابقة فابتسم في أعماقه) "الجماعة !" وأجابه فريد بسرعة "قل لهم يتفضلوا !" فدخل رضوان أولاً ، ولم يكن فريد قد رآه من سنين، وخلفه والدته ، ومن خلفها ابنتها ، فدعاهم فريد للجلوس ، وصرف

الحارس بإشارة وأمره بإغلاق الباب ، ثم قال لهم إنه يأسف لفرار الكاشف ، بل يشعر بالحزن لذلك ، ولم يشر من قريب أو بعيد إلى شائعة وفاته ، بل قال إنه يحب الكاشف فهو يعرفه منذ الصغر ، ويرجو له السلامة أنّى كان، وقد تكون له أسبابه، ولكن الأحوال تغيرت، والدنيا تتغير باستمرار ، ثم قال بعد أن رأى العيون تتطلع إليه حذرة متوجسة إنه مكلّف برعاية البلدة بحكم منصبه الجديد الذى عيّنه الباشا فيه ، وسلامة أهل البلد تُهمّه ، مهما يكونوا ، وإنه قد أعد للأسرة ما يقيها الأخطار ، فهو يخشى أن يصيبهم مكروه ، ولذلك فهو يطلب إليهم أن يلتزموا بما سوف يقوله حرفياً ، فسأله رضوان ماذا يعنى ، فقال فريد فى نبرات المأمور الذى يملى أوامره إملاءً :

"عندما يهبط الظلام ، سوف يصحبكما حارسان إلى قارب أعْدَدْتُه للأسرة بالأمس ، فتعبرون النيل إلى الجزيرة الخضراء ، وهناك يستقبلكم الشيخ النقشبندى ، شيخ الطريقة الخَلْوتيّة النقشبندية ، وهو رجل صالح سبق لى الاتفاق معه ، وله رجاله الأشداء ، وسوف يجيركم فترة من الوقت حتى تنجلى الأمور ، فهمّى الأول – كما قلت – هو السلامة ! وسوف ترعى نساؤه الهانم والسيدة الصغيرة ، ولكم أن تصطحبوا معكم أمتعتكم، فأنا أعلم أن الكاشف لم يترك خلفه أية نفائس أو أموال !" .

وقال رضوان "نحن منفيون إذن ؟" فرد فريد بسرعة "بل ضيوف عند صديق مخلص ، قَبِلَ إجارتكم ، ورجاله الأشداء لن يتوانوا عن صونكم والحفاظ عليكم !" فقال رضوان "وإذا رفضنا ؟" وكان فريد قد استعد لهذا السؤال فقال ببسمة هادئة "الأمر بأيديكم ! لكنكم تعرّضون

أنفسكم بذلك لأخطار قد لا أستطيع التصدى لها ، بل أكاد أجهلها وإن كنت واثقًا من وجـــودها !" وقـالت الهـانم وفـريد لم يكد يكمل حـديثـه "وأملاكنا ؟ أمـلاك الكاشف ؟" فقال فريد بالبسمة نفسها : "العاقل يا هانم هـو من يعيش فى الواقع سـواء قبله أم رفـضـه ! والواقع يقـول إن الكاشف فرّ وترك للبـاشـا كل شىء ، والبـاشـا أوكلنى بذلك كله" فقالت الهـانم بلهجة التحدى التى لا يزال يذكر رنينها "الواقع أنك استوليت عليها إذن ؟" فقال فـريد - وقد كظم غيظه إلى أقصى مدى - "بل لقد صـادرها البـاشـا يا هـانم ! ولقد بلغكم هذا منذ أيام ، ولقد رهنهـا وفـاء لديون الكاشف المستحقة للباشا ، وجعلنى قائمًا على هذا الأمر" فقالت الهانم "لا أصدق ذلك" وقالت الفتاة "لقد استولى عليها يا أمى !" وكاد فريد أن يصيح 'ماذا دهاك أيتها البلهاء' لكنه قال بالنبرات الهادئة نفسها "أؤكد لكم أن الباشا صادر كل شىء - ألم تسمع بذلك يا رضوان ؟" فهز رضوان رأسه موافقًا ، فعاد فريد يقول وقد بدأ يوجه الكلام إلى رضوان "لا تضيعوا الفرصة السانحة فربما لا تتكرر ، واستعدوا للرحيل بعـد ساعتين أو ثلاث ، وأعدكم أن تكونوا آمنين ممن لا يتقون الله - وهم كثير - وهذا وعد أُشْهِدُ الله عليه !" .

ونهض فريد ففتح الباب بنفسه وخرج ، والحارس يتبعه ، ولم ينظر خلفه ، وشعر عندما خرج بنسمات الشتاء الباردة ، فأحكم عباءته حوله وسار الهوينا بالفرس حتى وصل إلى مسجد النور ، وجلس ينتظر أذان المغرب ، وكان المسجد مقفرًا ، فخلا إلى أفكاره وجعل يتساءل عن كل ما قال وفعل ، وقال فى نفسه ترانى كنت قاسيًا شديدًا ؟ وجعل يسترجع

عباراته ونبراته ، فلم يجد القسوة ولا الشدة ، لكنه استغفر الله على أى ذنب يكون قد جناه ، وعجب فى نفسه كيف لم يلمح جمال العينين الخضراوين ؟ وتطلع إلى الضوء الذهبى فى نافذة المسجد فزادت دهشته! كانت فى السماء ألوان بنفسجية جميلة لم يشهدها من قبل ! كيف لم ينظر من هذا الشباك وهو يرتاد المسجد منذ أن فُتح المضرب ؟ وتذكر أنه تطلع منه عدة مرات ، لكنه لم يلحظ ذلك اللون الرائع ! ترى خدعته عينه ؟ ترى خدعته عينه أيضًا حين صورت له العينين الخضراوين فى صورة الجمال الفائق ؟ وإذا كانت عينه قد خدعته ، فهل خدعه قلبه أيضًا ؟ ألم يكن ما به هو الحب الذى تغنى به الشعراء ؟ وعادت إليه أقوال ڤيار وقال فى نفسه لابد أن أدعوه لزيارتى حتى أطارحه الرأى ! ثم قال ولم لا أذهب أنا إليه ؟ وتذكر الحارس الذى يتبعه كظله فضحك - وسمع أذان المغرب .

لم يشأ فريد أن يغادر المسجد حتى صلى العشاء أيضًا ، وقد أصبح ذهنه مسرحًا لكل ما مرّ به ، فتذكر عليًا الشاميّ صديقه فى القاهرة ، وذكر الرَّبع ورواق المغاربة فى الأزهر ، وقال فى نفسه ألا يجمل بى أن أعود إلى القاهرة فأستودع الجميع الله ، وربما قابلت الباشا نفسه ؟ وظلت الأفكار تتجاذبه حتى ساد الظلام وأضيئت القناديل الواهنة فنهض إلى حصانه ، ومضى متمهلاً ، يتبعه الحارس كظله حتى سئمه فريد وقال فى نفسه لكأنى والله سجين ! وعندما وصل إلى قصر الكاشف ، لمح الأضواء الساطعة فيه ، وعربة الكاشف الكبيرة واقفة ، فأدرك أن الأسرة قد استعدت ، فأرسل من يناديها ، ولم يلبث الثلاثة أن خرجوا فركبوا

العربة المحملة بأمتعتهم ونفائسهم ، ومضى الركب متمهلاً ، وهو فى المقدمة يحيط به الحراس حتى وصلوا إلى شاطىء النيل ، ونزلوا إلى القارب وابتعدوا عن الشاطىء .

١٠

عندما استيقظ فريد فى صباح اليوم التالى ، كانت الشمس قد أشرقت ، فهب مذعوراً وقال فى نفسه لقد أطلت النوم ففاتنى الفجر ! وتلفت حوله فى حيرة وقد بدت له أحداث الأمس كالحلم الغريب ! هل أصدر الباشا مرسوماً بتعيينى مأموراً له سلطة المحافظ فعلاً ؟ هل وقع هذا فعلاً فأصبح واقعًا ، على حد تعبير قيار ؟ وكيف يُغيِّر هذا من باقى مظاهر الواقع ؟ المضرب وفايز ، والأرض ومراد ، والمجلس وعلى الساعاتى ! يالله ! وما بال هذه الكتب التى وُضعتْ فى ركن الغرفة ؟ هل كنت حقًا طالب علم يعكف صبح مساء على كتبه فيحفظ مجادلات النحاة أو يحاول فك طلاسمها ؟ وهل فرّ الكاشف حقًا أم مات أم قتل ؟ وهل رحلت أسرته ؟ وبدا له كل شىء غائمًا - خصوصًا أحداث الأمس ! وأفاق من أفكاره على طَرْقٍ على الباب فدعا الطارق للدخول ، وكانت أمه بالباب تحمل صينية الإفطار ، فوضعتها على 'الطبلية' الصغيرة ، وقالت له ضاحكة 'نوم العوافى يا فريد !' فتمطى ونهض وسألها عن والده فدهشت وقالت 'موش عادتك تسأل ! شفت له منام امبارح وإلا إيه ؟' وقال فريد 'أبداً بس باسأل ! راح الوكالة ؟' وقالت أمه 'أنا عارفة بيروح فين !؟ أهو بين الأرض والوكالة والمجلس لما خسّ وبقى عدم! أبوك كبر يا فريد ولازم

تشيل عنه شوية ! وامبارح كان مهموم زى اللى شايل الدنيا على دماغه ! يقول لى أنا خايف على فريد خايف على فريد !' وقال فريد 'خايف علىّ من إيه كفى الله الشر ؟ !' فقالت أمه 'أل إيه م المأمورية ! قلت له وهى دى حاجة وحشة يا حاج ؟ قال أيْنَعَمْ حاجة كويسة بس ما حَدِّش م الجماعة دول بيسلّمْ !' وقال فريد 'قصده إيه بالجماعة دول ؟' فقالت أمه 'أنا عارفة يا خويا ! قوم قوم أحسن الظهر كمان يفوتك !' وخرجت .

لقد أصبح مأموراً حقًا إذن ! ولابد أن كل ما يتذكره ، وإن كان غائمًا ، قد وقع ! واعتدل فى جلسته وشرب الشاى وترك الطعام وقام فتوضأ وصلّى وارتدى ملابسه وخرج ، وعندما امتطى فرسه ورأى الحارس يتبعه تأكد أنه لم يكن يحلم ، لكنه كان لا يزال يحس بالشوق الجارف إلى أبيه ، فذهب إلى الوكالة فشاهد أباه جالسًا إلى المكتب ينظر فى بعض الأوراق فترجّل وسلّم وكان يريد أن يسأله إن كانت أحداث الأمس قد وقعت ، لكنه تردّد وخجل ، إذ ما عسى والده أن يظن به ؟ فجلس وجاء صبىّ المقهى مسرعًا وهو يصيح 'أحسن قهوة للبيه المحافظ!' وتطلع إلى الصبىّ باسمًا وإلى الناس فأدرك أن الأنظار التى تتجه إليه والوجوه الباسمة التى تصافحه والتحيات التى ترفعها الأيادى إليه دلائل على صدق 'ما جرى !' وعندما جاءت القهوة لم يقربها بل رشف بعض الماء وتطلع إلى أبيه باسمًا كأنما ينتظر منه كلامًا يقطع الشك باليقين ، وسرعان ما قال أبوه 'أنا حاكلّم إسماعيل الخشاب على داره اللى ع البحر' فقال فريد إنه لا يفهم ما يعنى فقال أبوه إن

إسماعيل كان قد بنى دارًا عظيمة تحيط بها الحدائق وزوّدها بالرياش الفاخر ، لكنه لم يسكنها بعد ، وهى تصلح لسكنى محافظ رشيد ! ولم يُبْد فريد أنه استوعب كلام والده فسأله الإيضاح فقال أبوه إن إسماعيل كان – فيما يبدو – يدخر هذه الدار لزواج إحدى ابنتيه ، وإنه لما ذكر ذلك لإبراهيم الشينى قال له إن إسماعيل سوف يرضى بمبلغ معقول ثمنًا للدار لو تزوج فريد إحدى هاتين الفتاتين ! وقال أبوه إنه لم يشأ أن يتحدث فى مسألة الزواج حتى يسأل ابنه ، وها هو يعرض الأمر عليه !

'دار تصلح لسكنى محافظ رشيد ؟' وهل أصبح حقًا محافظًا لرشيد ؟ وعادت إلى ذهنه كلمات مندوب الباشا يوم أمس فابتسم ! نعم ! لم يعد هناك شك ! لقد وقع ذلك فعلاً وأصبح الواقع الذى لابد أن يعيش فيه ! وأعاد أبوه عليه السؤال فلم يفهم فريد فسأله أبوه سؤالاً مباشرًا هذه المرة إذ قال "هيه ؟ نقول مبروك ؟" فرد فريد بسرعة 'مبروك على ايه؟' فدهش أبوه وقال 'على الدار والزواج !' فقال فريد فى انزعاج 'أى زواج ؟ من قال إننى أريد أن أتزوج ؟' فقال أبوه 'هذا شرع الله يا بنى ! لقد تأخرت طويلاً ! ولابد للمحافظ من أسرة تُشرّفه ، ولن تجد أفضل من بنت إسماعيل الخشاب !' فنهض فريد وهو يهزّ رأسه وقال لأبيه أن ينتظر قليلاً فعليه أن يلتفت إلى شؤون كثيرة قبل الزواج ، وأما الدار فأمرها يسير ، وله أن يشترى إحدى الدور المنتشرة فى حى بحرى بجوار قصر الكاشف القديم ، فأثمانها زهيدة لأنها فى منطقة 'مقطوعة' ويحتاج ساكنها إلى حراسة دائمة ، وحراسه – والحمد لله – كثيرون ! وأشار إلى الحارس الذى كان واقفًا غير بعيد ينتظر تحرك فريد حتى

يمنطى فرسه ! وودّع فريد أباه واتجه إلى المضرب فوجد قائد الحامية واقفًا فى انتظاره فترجل وذهب إليه .

وقال قائد الحامية إنه جاء ليأخذ 'التّمام' من البك ، ففهم فريد أن من واجبه أن يستعرض رجال الحامية يومياً ، فهى مهمة أضيفت إلى مهمة الكاشف القديم ، بصفة فريد مأمورًا ، فقال للقائد أن ينصرف ووعده بالمرور على الحامية فيما بعد ، إلا إذا كان هناك ما يريد إبلاغه به، فقال القائد باقتضاب 'تعيش يا بك ! كلّه تمام !' وانصرف .

ودخل فريد المضرب ، فسلّم ، وكان فايز – كشأنه دائماً – حاضرًا ، فاصطحبه فريد إلى سطح المبنى ، ووقف الإثنان على السور القصير المطل على النيل ، فأشار فريد إلى الجزيرة الخضراء التى لاحت على البعد زاهية فى ضوء الشمس كأنها زهرة أنعشها ندى الصبح ، وقال لفايز هل تعرف يا فايز أن هذه الجزيرة يغمرها ماء النيل شهرين أو أكثر فى كل عام ! وقال فايز إنه سمع بهذا لكنه لم يصدّقه ! فقال فريد إنها معجزة ! "هل تعرف أن مساحتها تزداد كل سنة عدة أشبار ؟" وقال فايز "تقصد من الطمى المترسب ؟" فقال فريد "نعم ! إن الإغراق يمنحها المزيد من الخصب ، فإذا انحسر الفيضان ، وهبط ماء النيل ، برزت كالجنة عامرة بالزهر والثمر !" فسأله فايز "وأين يذهب أهلها ؟" فقال فريد "يعبرون اللسان الضيق إلى البر الثانى ويقيمون فى القرى التى تتبرك بهم !" وقال فايز إن ألوانها الخضراء تختلف عن درجات الأخضر فى حقول رشيد ، وقد سمع أن سبب ذلك هو عرائس البحر التى ترتادها أثناء غمرها ! فضحك فريد وقال "وهل سمعت أن عرائس البحر

من الجن ، وأن لهن عيونًا حمراء مثل الشياطين ؟'' فانزعج فايز وقال ''حمراء ؟ محال ! لابد أن عيونهن خضراء مثل الجزيرة !'' فقال فريد ''من يدرى ؟ ألسْنَ بنات الوهم ؟ هيا بنا فلدينا عمل كثير !'' فقال فايز ''ومتى تبدأ عملك الجديد محافظًا لرشيد ؟'' وقال فريد فى نفسه 'لقد بدأته بالفعل يوم أمس ! يوم أن ودعت الشيخ فريد إلى الأبد !' لكنه قال ''كل بداية يا فايز لابد أن تحمل فى طياتها نهاية !'' وقال فايز ''كيف تقول هذا الآن وأنت على أولى درجات المجد؟'' وتذكر فريد قول محمد القزق عن 'بداية الخطو' على سلم المجد وضحك ، وأمسك بذراع فايز وقال ''لا يبدأ يا فايز شىء إلا عندما ينتهى شىء ! وقد انتهى شىء بالأمس وابتدأ شىء آخر فى اللحظة نفسها!'' فقال فايز : ''لا أفهم ما تعنى !'' فضحك فريد وقال وهو ينشق أنسام الشتاء المنعشة كأنه يتنفس من جديد : ''ربما لن تفهم الآن ! ولكننا لابد أن ندعو فيار حتى يشرح لك ما حدث ! لقد اختفت الجزيرة الخضراء ، ولن تظهر من جديد حتى حين تنحسر مياه الفيضان !'' .

انتهت

أعمال إبداعية للمؤلف

مـــيت حــــلاوة * (مسرحية) قدمت على المسرح ١٩٨٢ ونشرت عام ١٩٧٩ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الطبعة الثانية ـ هيئة الكتاب ـ ١٩٩٤.

السجين والسجان * (أربع مسرحيات من فصل واحد) ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٠ ـ هيئة الكتاب الطبعة الثانية ١٩٩٤ ـ هيئة الكتاب.

البـــر الغــــربى * (مسرحية) قدمت على المسرح ١٩٦٣ ونشرت ١٩٨٥ ـ هيئة الكتاب.

المـــجـــاذيب * (مسرحية) قدمت على المسرح ١٩٨٣ ونشرت ١٩٨٥، هيئة الكتاب.

الغـــــريـان * (مسرحية شعرية) قدمت على المسرح ١٩٨٨ ونشرت ١٩٨٧ هيئة الكتاب.

جاسوس فى قصر الســـلـطـــان * (مسرحية شعرية) قدمت على المسرح فى عام ١٩٩٢ ونشرت ١٩٩١ هيئة الكتاب.

رحلة التنوير * (مسرحية وثائقية مع سمير سرحان والمادة العلمية لسامح كريم) قدمت على المسرح عام ١٩٩١ ونشرت ١٩٩٢ هيئة الكتاب.

ليلة الذهب * أربع مسرحيات من فصل واحد ١٩٩٣ ـ هيئة الكتاب.

حلاوة يونس * أربع مسرحيات من فصل واحد ١٩٩٣ ـ هيئة الكتاب.

السادة الرعاع * (مسرحية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب.

الدرويش والغازية * (مسرحية) ١٩٩٤ هيئة الكتاب.

أصداء الصمت * ديوان شعر ١٩٩٧ هيئة الكتاب.

واحات العمر * سيرة أدبية ١٩٩٨ هيئة الكتاب.

واحات الغربة * سيرة أدبية ١٩٩٩ هيئة الكتاب.

حورية أطلس * ديوان شعر ٢٠٠١ هيئة الكتاب.

واحات مصرية * سيرة أدبية ٢٠٠١ هيئة الكتاب.

حكايات الواحات * سيرة أدبية ٢٠٠٢ هيئة الكتاب.

الفهـــرس

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٥٢٣ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8795 - X